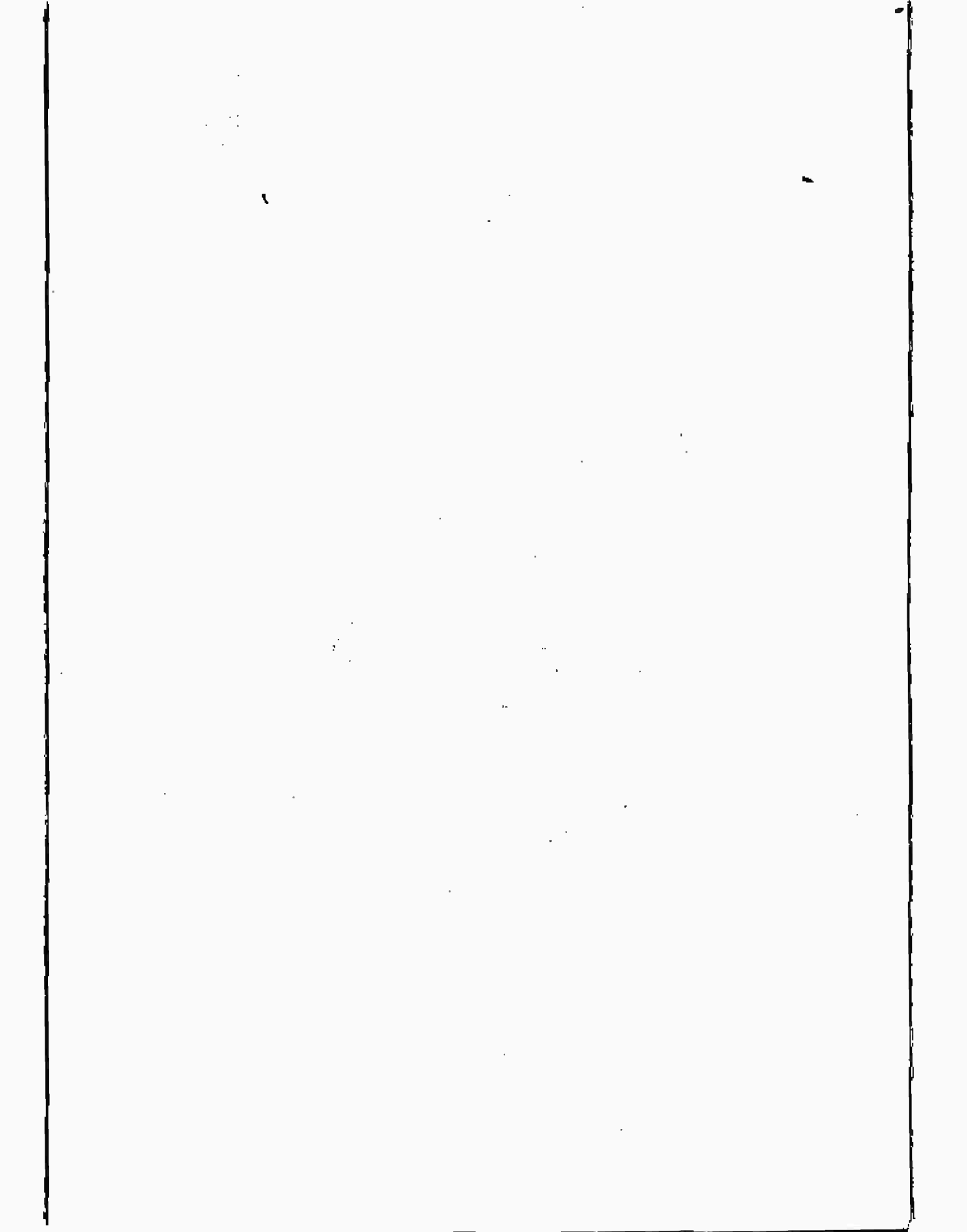




جامعة الإسكندرية
مجلة
كلية الآداب

العدد الخمسون
٢٠٠٠ / ١٩٩٩ م

المجلد الثاني



تصدر «مجلة كلية الآداب» وإصداراتها محكمة من كلية الآداب
بجامعة الإسكندرية وتقدم مخطوطات البحوث مكتوبة على الكمبيوتر من
ثلاث نسخ، ويجب ألا يزيد عدد صفحات البحث على ثمان وأربعين صفحة
من القطع المتوسط مكتوبة على الكمبيوتر.

تقدم البحوث وتكون جميع المراسلات باسم :
الأستاذ الدكتور / عثمان سليمان موافى
وكلية كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية
الشاطبي – الإسكندرية
جمهورية مصر العربية

مؤتمر الإسكندرية الدولي الثالث
للتبادل الثقافي بين شعوب البحر المتوسط
(الخصائص الثقافية وآفاق التعاون)
في الفترة من ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨م

رئيس المؤتمر

الأستاذ الدكتور / **محمد عبده محجوب**
عميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أمين عام المؤتمر

الأستاذ الدكتور / **عثمان سليمان موافى**
وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث - جامعة الإسكندرية

يتضمن هذا المجلد

بحوث مؤتمر الإسكندرية الدولي الثالث
للتبادل الثقافي بين شعوب البحر المتوسط
المنعقد بقاعة المؤتمرات في الفترة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨م

مجلة كلية الآداب

١ مجلس التحرير

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور عثمان سليمان موافى

أعضاء مجلس التحرير

أ.د. فوزى سعد عيسى

أ.د. أوجا محمد مطر

أ.د. ضحى شبيحة

أ.د. نبيلة حسن

أ.د. فايز العيسوي

أ.د. على عبد المعطى

أ.د. السيد عبد العاطى

أ.د. محمد عباس

أ.د. عزت قادوس

د. خالد رفعت

أ.د. مایسة النیال

د. جمال الخولى

المحتويات

الصفحة

الموضوع

- من مظاهر البعد المتوسطى فى الثقافة الأندلسية
أ.د. أحمد مختار العبادى ١١
- من ثمار التواصل الثقافى بين مصر وفرنسا
أ.د. عبد الرحمن العيسوى ٢٩
- الدراسات العربية فى مدريد
د. خالد إبراهيم سالم ٥٣
- التبادل الثقافى بين الإسكندرية والغرب الإسلامى
أ.د. السيد عبد العزيز سالم ٦٥
- العلاقات القديمة بين حضارات شرق المتوسط
خلال دراسة الأساطير اليونانية
أ.د. محمد السيد عبد الغنى ٨٥
- أثر ثقافات دول البحر المتوسط فى شرح أسفار العهد القديم
د. فائزة عبد الفتاح عز الدين ٩٩
- أثر حضارات جزر البحر المتوسط فى الحضارة الليبية القديمة
د. إبراهيم حسين محمد ١٤٥
- رحالة من المغرب إلى المشرق-راشيل آرييه- ترجمة عن الأسبانية وتعليق
د. ماهر عبد العزيز سالم ١٦٥
- رحلات عبلى بن ناصح الجزيرى وأثرها فى تشكيل ثقافة الأندلس
د. إبراهيم سلامة أبو العلا ١٩٣

الصفحة	الموضوع
	- المراكز الثقافية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى
٢٢٧	أ.د. محمود عمران
	- الاتجاه نحو الكلاسيكية فى فنون الكتابة فى حوض البحر
	المتوسط، بحث فى الفنون التشكيلية والتعبيرية
٢٦٧	د. بدر الدين عوض بدر الدين
	- التواصل الحضارى لفن النحت الهلينستى بين شعرب
	البحر المتوسط القديمة
٢٩٣	د. صلاح الدين القمري
	- رسم المخطوطات الأندلسية وتأثيرها بالحضارة العربية
٣٠٩	د. أحمد رجب
	- لعب الأطفال كوسيلة من وسائل تثقيف الطفل فى حضارات
	شعرب البحر المتوسط القديمة
٣٢٥	أ.د. عزت زكى حامد قانوس

من مظاهر البعد المتوسطي في الثقافة الأردنية

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

أحمد مختار العبادي

من مظاهر البعد المتوسطي الثقافي في الأندلس (البعد اليوناني اللاتيني)

موضوع البعد المتوسطي في الثقافة الأندلسية، موضوع واسع متشعب نظراً لارتباط الأندلس -أو إسبانيا الإسلامية- بشعوب البحر المتوسط شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً على اعتبار أن الأندلس كانت تمثل نهاية العالم المعروف غرباً ويلبها بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي.

ومن المعروف أن الفتح العربي للأندلس تم على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٢هـ / ٧١١م.

وواضح أن هذا الفتح لم يكن حدثاً عسكرياً بقدر ما كان حدثاً حضارياً امتزجت فيه حضارات متوسطة سابقة، كالفينيقية واليونانية والرومانية والقوطية، مع حضارة جديدة لاحقة، وهي الحضارة العربية الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور وأثرت فيه.

كذلك من المعروف أن الحضارة الأندلسية لم تنشأ فجأة بل مرت في أدوار مختلفة، وخضعت لمؤثرات شرقية شامية وحجازية ومصرية وعراقية تربطها عبر البحر المتوسط بالوطن الأم باعتبارها جزءاً منه^(١)، كما خضعت لمؤثرات مغربية إفريقية بحكم ارتباطها ببلاد المغرب والسودان المصاحبة لها من الجنوب^(٢). وكذلك خضعت لمؤثرات محلية أوربية بحكم البيئة التي نشأت فيها كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط في قلب أوروبا.

(١) راجع :

Mahmoud Makki : Ensayo sobre Aportaciones Orientales en la España Musulmana, Madrid, 1967.

(٢) قظر على سبيل المثال : عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية، دار الكتاب العربية بالرباط.

وهذا التداخل والتواصل بين الحضارتين الإسلامية والأوربية، وهذا الاختلاط البشرى أو الزواج المشترك بين الفاتحين وأهل البلاد أدى إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة المولدين، كما أدى إلى انتشار ظاهرة ازدواجية اللغة العربية والإسبانية بين أبنائها، وكل هذا أعطى الأندلس طابعاً فريداً وثقافة مميزة، تتسم بثلاث صفات مجتمعة في وقت واحد وهي : العروبة والإسلام والإسبانية.

ونظراً لاتساع هذا الموضوع، فإننا نقتصر هنا على بعض هذه الأبعاد المتوسطة التي تأثرت بها الأندلس، وهو البعد اليونانى واللاتينى.

أولاً : البعد اليونانى أو الإغريقى :

كانت العلاقات الدبلوماسية الوطيدة التي قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية، بداية لسلسلة من الاتصالات والسفارات التي تبودلت بين أمراء وخلفاء الأندلس وبين أباطرة الدولة البيزنطية التي كانت لغتها الرسمية هي اللغة اليونانية^(١).

على أن موضع الأهمية هنا هو أن هذا الاتصال السياسى قد صاحبه أيضاً اتصال حضارى، فالسفارة التي أرسلها الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م حملت معها من جملة الهدايا نسخة خطية من الكتاب اليونانى المشهور باسم الأدوية المفردة *Materia Medica* أو كتاب الحشائش الذى ألفه Dioscorides ديوسقوريدس وهو طبيب أو عقّاب يونانى عاش في القرن الأول الميلادى في بلدة عين زربة *Anzarbio* قرب طرسوس في جنوب آسيا الصغرى. ونظراً لأهمية هذا الكتاب في مجال الطب والصيدلة، فقد أمر خليفة قرطبة عبد الرحمن الناصر بترجمته

(١) الإمبراطورية البيزنطية (أو الرومانية الشرقية) بدأت فيها اللغة اللاتينية كلغة رسمية منذ تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس الميلادى، وفى خلال هذه المدة أخذت اللغة اليونانية تزداد انتشاراً على حساب اللاتينية بحيث لم يأت القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) حتى أعلنت اللغة اليونانية لها اللغة الرسمية في البلاد.

إلى العربية^(١). وشكلت لجنة علمية لهذا الغرض كان من بين أعضائها الطبيب عبد الرحمن بن الهيثم، وأبو عبد الله الصقلي الذي كان يجيد اللغة اليونانية وله إلمام بتركيب العقاقير، والراهب نيقولا اليوناني الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع للمساهمة في هذا العمل العلمي الكبير^(٢).

وقد أثار ظهور هذه الترجمة الكاملة لكتاب ديوسقوريدس موجة من الحماس بين الأندلسيين الذين أقبلوا على دراسته وشرحه، ثم الإضافة إليه من تجاربهم الخاصة طوال القرون التالية.

ومن بين العلماء الذين برزوا في هذا الميدان بالأندلس، عبد الرحمن بن الهيثم، طبيب المنصور بن أبي عامر الذي كتب عدة شروح على كتاب ديوسقوريدس. وبالمثل يقال عن الطبيب عبد الرحمن بن واقد اللخمي (ت ٤٦٦هـ) الذي كان وزيراً وطبيباً ليحيى المأمون بن ذي النون صاحب طباطبة (٤٢٨ - ٤٦٧هـ) لقد اطلع هذا الطبيب على كتاب ديوسقوريدس وجالينوس^(٣) وكتب مؤلفاً ضخماً عن الأدوية المفردة ضمنه خلاصة تجاربه التي تقوم على مبدأ التداوي بالتغذية أولاً ثم بالأدوية المفردة وأخيراً بالأدوية المركبة^(٤).

(١) سبق أن ترجم كتاب ديوسقوريدس إلى العربية ترجمة جزئية قبل ذلك الوقت بنحو قرن من الزمان في بغداد على عهد الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٧ - ٢٤٧هـ) غير أن المترجم له واسمه اصطفيان باميل لم يترجم سوى جزء من أسماء الأدوية المفردة لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها، ولهذا ظلت أسماء باقي العقاقير الطبية على صورتها اليونانية بحروف عربية.

(٢) راجع: ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٣١٢ - ٣١٥، المقرئ: نفع الطبيب، ج ١، ص ٣٢٤، والنسخة الخطية من هذه الترجمة العربية محفوظة في مكتبة البولوايه بأكسفورد. راجع أوليري: مسائل الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٥٧، ترجمة د. تمام حسان، القاهرة ١٩٥٧.

(٣) جالينوس Galien (١٣١ - ٢٠١م) طبيب يوناني له اكتشافات في عالم التشريح اهتم به أطباء العرب.

(٤) تراث الإسلام، القسم الثالث، ص ١٣٢، حاشية عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨.

كذلك نذكر أعظم العشائين في عصره، ضياء الدين بن البيطار الملقب
الإشبيلي، صاحب كتاب "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية"^(١).

سافر ابن البيطار إلى اليونان وأقصى بلاد الروم والشرق، كما سافر
إلى مصر والشام، واتخذهُ الملك الكامل الأيوبي طبيباً خاصاً وجعله رئيساً على
الحكام وسائر العشائين، ثم جعله متقدماً في دمشق حيث تتلمذ على يديه الطبيب
ابن أبي لصيعة الدمشقي (ت ٦٦٨هـ) الذي وصف أستاذه في كتابه "عيون
الأبناء في طبقات الأطباء" بقوله: «كنت أجد من غزارة علمه ودراسته شيئاً
كثيراً، وكان لا يذكر دواء في جوابه لمن يسأله إلا ويعين في أي مكان من
ديوسقوريدس وجالينوس»^(٢). وقد تولى ابن البيطار في دمشق سنة ٦٤٦هـ/
١٢٤٨م من عشبة سامية أكلها أثناء تجاربه فمات منها شهيداً للعلم^(٣).

وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، تمخضت
السفارات التي تبولت بين البلدين عن آثار فنية موهبة لها قيمتها؛ إذ يؤثر عنه
أنه طلب من العامل للبيزنطي نيقفور فوكاس أن يرسل إليه خبيراً في صنع
التفسيرات كي يعمل على تزيين الزيادة للمعمارية في المسجد الأموي بقرطبة،
للمستجاب لطلبه وأرسل له ما أراد. هذا إلى جانب السواري أو الأعمدة
للرخامية التي سبق أن ساهمت بها القسطنطينية في بناء مدينة الزهراء على عهد
والده عبد الرحمن الناصر وعددها مائة وأربعون سارية^(٤).

^(١) طبع كتاب ابن البيطار في بولاق في أربع مجلدات ١٨٧٤م، وترجمه إلى الفرنسية
المستشرق لكرك

Leclerc : Traité des Simples.

^(٢) ابن أبي لصيعة : عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٢٣، القاهرة، ١٨٨٢م،
وقد نشره حديثاً فولد رضا بمكتبة الحياة ببيروت. راجع كذلك : جوثالث بالنبيا: تاريخ
التفكر الأندلسي، ص ٤٧٩، ترجمة حسين مؤنس.

^(٣) المقرئ : نفع الطوب، ج ٤، ص ٣٤٨، طبعة محيى الدين عبد الحميد.

^(٤) ابن عذري : البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣١، الحموري: الروض المعطار، ص ٨٠ -

والواقع إن علوم اليونان وأسماء أبطالها كانت معروفة ومألوفة بين الأندلسيين^(١). فالشاعر الزجال سعد بن عبد ربه (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م) وهو ابن عم صاحب العقد الفريد أحمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م) كان معنياً بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل والفلسفة^(٢). كذلك يروى المقرئ في كتابه "فتح الطبيب من شخص الأندلس الترطوب" أن المغنى العراقي القارسي الأصل أبا الحسن على بن نافع الملقب بزرياب، هاجر من بغداد إلى الأندلس هو وفرقته وأولاده في أول عهد أمير قرطبة الأموي عبد الرحمن الثاني أو الأوسط سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٣م، ويقال إنه إلى جانب تأثره بالموسيقى والألحان الفارسية التي تعلمها على أستاذه إسحاق الموصلي في بغداد، فإنه -أي زرياب- استطاع كذلك أن يخلط الرموز الموسيقية أو جدول الأوتار الموسيقية^(٣) التي وضعها العالم اليوناني المصري بطليموس القلوذي Claudius Ptolemy (ت ١٧٠م) وأن يحفظ منها - على حد قوله - عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها^(٤). وكتاب بطليموس هذا عبارة عن موسوعة يونانية في الرياضيات والفلك والجغرافية والموسيقى، ويسمى الكتاب الأعظم في الحساب Megale Matematike وقد حوّر العرب لفظة مجال إلى مجسطى فقالوا كتاب المجسطى لبطليموس. وقد استفاد منه علماء المسلمين وشرحوه وأضافوا إليه^(٥).

ويقال إن هذا الكتاب ترجم إلى العربية على يد الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب، في عهد هارون الرشيد.

^(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٢، نشر جاينجوس Gayangos وترجمة إسبانية لريبريرا Ribera، وكذلك جونثالث بالنتشا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٠٢ - ٢٠٦.

^(٢) بالنتشا: نفس المرجع، ص ١٥٦.

^(٣) Table of Chords راجع أوليري: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ١٥٧، ترجمة تمام حسان.

^(٤) المقرئ: فتح الطبيب، ج ٤، ص ١٢٣.

^(٥) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٢٥، وما بعدها بيروت، ١٩٧٠.

وفي مجال الفلسفة نشير إلى الفيلسوف الكبير أبي الوليد محمد بن رشد القرطبي (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) الذي عاش في دولة الموحدين في المغرب والأندلس وتمتع بتأييد وتشجيع الخليفة العالم أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي كان مهتماً بفلسفة أرسطو، وأشار على ابن رشد بشرح كتبه. ولهذا اشتهر ابن رشد بشروحه لكتب أرسطو التي صارت تدرس في جامعات أوروبا. وقد بلغ من حب الأوربيين لشروحه أنهم تخيلوا أرسطو بعمامة كما يقولون، وذلك لأن كتابات ابن رشد امتازت بالأمانة في الترجمة^(١)، والقوة في الشرح ولهذا أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر وصموه Averroes وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمة الكوميديا الإلهية مع لضلاء الناس أمثال ابن سينا وصلاح الدين والشاعر الروماني فرجيل في منطقة الأعراف Limbo تقديراً لأعمالهم. وقد ترجم العالم الإنجليزي مايكل سكوت أعمال ابن رشد إلى اللاتينية سنة ١٢٣٠م^(٢) في مدرسة طليطلة بأسبانيا فكان أول من أدخل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا.

وفي عصر مملكة بنى نصر أو بنى الأحمر في غرناطة، يشير الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب إلى أن حكم اليونان كانت تدرس في الأندلس، لاسيما لأبناء الطبقة الرقبة من الملوك والأمراء، وضرب مثلاً على ذلك بالأمير إسماعيل بن الأحمر الذي كان يدرس هذه المادة على مملوك مسيحي الأصل

(١) من المعروف أن أرسطو أفكر الخلود والبعث، وصرح بأنه على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلتقي في الحياة الدنيا. ولا شك أن ابن رشد لم يتخرج من ذكر ذلك ولم يحرس في ترجمته لأرسطو مثل حرص غيره من فلاسفة العصور الوسطى مسلمين وغير مسلمين - على تقريب وجهات النظر بين آراء أرسطو من ناحية وتعاليم الأديان السماوية من ناحية أخرى، وإنما اختار أن يعبر أن آراء أرسطو تعبيراً أميناً صادقاً كما لهما من أرسطو، ولا شك أنه لعل ذلك بتشجيع وتأييد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف الذي كان مهتماً بفلسفة أرسطو ولاحظ تلك وعموض العبارات التي نقلت عنه.

(٢) أي بعد وفاة ابن رشد بحوالي ٣٢ سنة.

اسمه عباد. ويضيف المؤرخون أمثال Alvaro Galmez Fuente أن حكم اليونان استمرت تدرس في الأتلس حتى أيام المورسكيين.

كذلك نلاحظ أن بعض الأندلسيين تسمى ببعض الأسماء اليونانية مثل اسم أخيل Akiles بطل حرب طروادة في آسيا الصغرى (١١٩٢ - ١١٨٤ ق م) التي تغنى بها هوميروس في الملاحم الإغريقية، مثال ذلك عباس بن أخيل صاحب شرطة موسى بن نصير^(١)، ومثل الشاعر أبي القاسم أخيل بن إريس الذي عاش بمدينة رنده جنوب الأتلس على عهد الموحدين^(٢). بل إنهم أطلقوا هذا الاسم على بعض قطع أسطولهم البحري، وقد أشار بذلك المؤرخ الأسباني المعاصر لويس دي أبالا عند قوله إن ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر استولى على سفينة حربية غرناطية كبيرة من الطراز اليوناني تسمى Oxel^(٣) واعتقد أن هذه التسمية تحريف لكلمة أخيل على أساس أن حرف X في الأسبانية القديمة كان بمثابة الخاء ج (jota) في الأسبانية الحديثة، فضلاً عن أنه يمثل أيضاً حرف الخاء في اللغة اليونانية^(٤).

ثانياً : بعد هذا العرض الموجز للبعد اليوناني، ننتقل إلى البعد الثاني وهو البعد اللاتيني في الثقافة الأندلسية، وهو بلاشك أشد وأقوى من البعد الأول؛ لأن الرومان حكموا أسبانيا ما يزيد على ستة قرون (٢١٨ ق م - ٤٠٩ م) وهي مدة كافية لإعطاء شبه جزيرة أيبيريا الطابع اللاتيني التي اختلطت

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٨.

(٢) المقرئ: نفع الطبيب، ج ٥، ص ٣٢٢ - ٣٢٤.

(٣) انظر

Lopez de Ayala: Crónicas de los Reyes de Castilla, Tomo I, p. 280.

(٤) نذكر بهذه المناسبة أن الكاتب الإسباني ميغل ثربانتس Cervantes (١٥٤٧ - ١٦١٦)

كتب قصته العالمية دون كيشوته Don Quijote مستخدماً حرفاً X مكان حرف J مما جعل الإنجليز يسمونها Don Quixot كويكزوت كما أطلق عليها الفرنسيون دون كيشوت.

باللهجات المحلية وتكونت منها اللغة الرومانسية Romance وهى لهجة عامية مشتقة من اللاتينية، ومنها تكونت اللغة الإسبانية ويسمىها الأندلسيون الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية. وكان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين الفاتحين من العرب والبربر وبين أهالى البلاد الأصليين عن طريق الحروب المتصلة والزواج المشترك، أن يتأثر أبناؤهم المولودون بأمهاتهم الإسبانيات فى لغتهم وأسمائهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم، ونجد ذلك واضحاً فى كلام ابن حزم فى كتابه جمهرة أنساب العرب حينما يتحدث عن انتشار اللغة الإسبانية بين الأندلسيين، ويعجب أن قوماً من قبيلة بلئى من قضاة لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط نساوهم ورجالهم^(١). فاستثاوه لقبيلة بلئى يدل على أن الكلام بالإسبانية كان شائعاً بالأندلس، وحتى هذه القبيلة يقول عنها إن أفرادها لا يحسنون ولم يقل لا يعرفون؛ أى أنهم يعرفون اللغة ولكنهم لا يجيدونها إجابة تامة. كذلك إذا تصفحنا كتاب القضاة بقرطبة لمحمد بن حارث الخشنى نجد إشارات واضحة أن هناك قضاة بالأندلس كانوا يتكلمون الأعجمية ويناقشون بها المتهمين أثناء المحاكمة^(٢).

هذا، إلى جانب كثرة اتخاذ الأندلسيين أسماء إسبانية كما ورد فى تراجم الفقهاء والكتاب والأمراء مثل ابن قرمان Cuzman، ابن بشكوال Pascual، ابن مرنفش Martinez، ابن القوطية La Goda، وابن لب El Lobo أى الذئب، شنجول Sanchuel البرميخو أى الأسقر Bermejo، ابن الريبترير Reverter أحد قواد الموحدين... إلخ.

كذلك كان من مظاهر التأثير الإسباني على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الإسباني الأخير الذى يتكون من الواو والنون on بالإسبانية للدلالة على التعظيم أو التكبير Soltero عازب، Solteron عانس. فهناك

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤١٢، نشر عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٧١.

(٢) الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة، نشر خوليان ريبيرا، ص ٩٦، ٢٣٨، ٢٨٧ - ٢٨٨.

حفص حفصون، خالد خلدون، زيد زيدون، غالب غلبون، نزهة نزهون القلاعية
الغرناطية، حمده حمدونه... إلخ. وإن كنا لا نستبعد أن يكون مقطع الواو والنون
هذا، قد صُدِّرَ من هنا من لبنان إلى إسبانيا عن طريق الفينيقيين أو غيرهم.
فكثير من أسماء العائلات للبنانية الأصلية القديمة انتهت أسماءها بالواو والنون
مثل شمعون وشقرون وحمدون وبيضون... إلخ، وإن كنا لا ندرى إن كانت تدل
على معنى التكبير أو التفخيم كما هو الحال في الأندلس.

وإذا تناولنا الرواية التاريخية في الأندلس، وجدنا أن التاريخ الأندلسي
في مظهره وأسلوبه، تاريخٌ عربي إسلامي، له شخصيته التي فرضت نفسها
على المدونات والملاحم والحواليات المسيحية وأثرت فيها بشكل واضح ملموس،
إلا أنه في نفس الوقت قد تأثر واستفاد من الثقافة المسيحية اللاتينية في هذا
الحقل التاريخي، وذلك لأن الأمة الإسبانية التي اندمجت في جسم الدولة
الإسلامية بالأندلس لم تدخل بأشخاصها فقط بل دخلت بتاريخها وحضارتها
أيضاً، إذ لا يمكن فصل ماضيها عن حاضرها. ومن ثم عكف المؤرخون
الأندلسيون على تقصى الحقائق وتلمس الأخبار من مختلف مظاهرها اللاتينية
القديمة لمعرفة تاريخ بلادهم الأندلس منذ العصور السابقة للحكم الإسلامي في
إسبانيا أيام الرومان والوندال والقوط، إلى جانب معرفة أخبار الأمم الإسبانية
والأوربية المعاصرة والمصاحبة لهم. وكان هذا أمراً طبيعياً بحكم الجوار
والمعايشة والحياة المشتركة.

ومن أهم المصادر الأوربية الأساسية التي اعتمدوا عليها في هذا
الصدد: كتاب للتواريخ السبعة في الرد على الوثنيين^(١) للراهب الروماني
الإسباني Paulus Orosius هروشيوس الذي عاش في أواخر القرن الرابع

Paulus Orosius : Historiarum Libri Septemadursos Paganos

(١)

وقد أضيفت له بواسطة مؤرخين لاتنيين تكملة لتاريخ القوط إلى دخول طارق بن زياد
عليهم إسبانيا.

وأوائل القرن الخامس الميلادي. والكتاب تاريخ للعالم القديم منذ بدء الخليقة حتى أيامه سنة ٤١٦م، ويتضمن معلومات عن تاريخ الرومان والأمم التي حكمت قبل الإسلام. ونظرًا لأهمية كتاب هروشيوس فقد أمر الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر بترجمته إلى العربية. وقام بهذه المهمة الفقيه الأندلسي قاسم بن أصبغ اللياني نسبة إلى بيانة Baena من أعمال قرطبة، واشترك معه في الترجمة القاضي النصراني ومترجمهم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث. وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذا الكتاب أمثال أحمد الرازي والعنزي، والبكري والإدرسي وابن خلدون وغيرهم، وقد نص بعضهم صراحة على ذلك^(١).

وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوي بنشر هذا الكتاب في بيروت منذ عدة سنوات. أما عن أخبار الممالك المسيحية الإسبانية التي عاصرت الحكم الإسلامي في الأندلس، فهي كثيرة ومتعددة في كتابات المؤرخين الأندلسيين، ونذكر على رأسهم المؤرخ القرطبي أبا مروان بن حيان (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) الذي يعتبر من أعظم مؤرخي إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط. فلقد ثبت من الأخبار التي رواها في كتابيه المقتبس والمتين أنه على دراية واسعة بكل ما يتعلق بتاريخ إسبانيا المسيحية على أيامه، بل وأيضًا بعض جوانب التاريخ الفرنسي فيما وراء جبال البركات في الشمال. ولقد أثار ما كتبه ابن حيان عن الممالك المسيحية في إسبانيا دهشة المؤرخين الذين رأوا في تفسير هذه الظاهرة أنه لابد وأن ابن حيان كان يعرف اللاتينية التي مكنته من الاطلاع على المدونات المسيحية، أو أنه كان على اتصال برواة العجم العارفين بأخبار هذه الممالك المسيحية^(٢).

^(١) العنزي أشار إلى طائفة Italica والبكري أشار إلى جزر الخالدات أو السماعات أو كنارياس Islas Fortunatas فرطناطس.

راجع حسين مؤنس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص ١٩-٢٠، مدريد، ١٩٦٧.

^(٢) راجع مقدمة ابن حيان: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، القسم للخاص بالأمير عبد الرحمن بن الحكم، تحقيق محمود مكي، بيروت ١٩٧٢م.

وما يقال عن ابن حيان يقال أيضاً عن معاصره وصديقه النقيه أبى محمد على بن حزم القرطبي (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٢م). فكتاب ابن حزم المعروف باسم "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" يعتبر تاريخاً مقارناً للأديان، ويدل على اطلاعه وتحققه بكتابات اليهود والنصارى مستشهداً بنصوص من الإنجيل والتوراة التى كانت تترجم عن اللاتينية والعبرية، وكل هذا يدل على سعة اطلاعه وتوفر النصوص اللاتينية بين يديه^(١). ولا نستبعد على ابن حزم -الذى ينحدر من أصل إسباني وتربى فى تصور الخلافة- أن يكون عارفاً باللغة اللاتينية خصوصاً وأنه -كما سبق أن ذكرنا- كان يتعجب من أن قوماً من قبيلة بلئ العربية لا يحسنون الكلام باللطينية.

مثل أخير نضربه بالمورخ والوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)، فى رواياته التاريخية نلمس ذلك التداخل بين الثقافتين العربية والإسبانية، مثال ذلك كثرة استخدامه للألفاظ والمصطلحات الإسبانية التى كانت سائدة بين مواطنيه مثل كلمة قاله Cala بمعنى ميناء أو خليج (لها ميناء وقاله البرتغالى Porto Cala)، ومثل كلمة Camara بمعنى مخزن أو غرفة، ولاطونى Laton بمعنى النحاس الأصفر (الأنوار اللاطونية)، البرطل Portal بمعنى المدخل، وهكذا.

ولقد استغل هذه الألفاظ كل من المستشرق الهولندى رينهاردت دوزى Dozy فى معجمه تكملة على المعاجم العربية^(٢)، والمستشرق الإشباني فرانسكو سيمونيت F. Simonet فى معجمه الخاص بالألفاظ اللاتينية والأيبيرية المتداولة بين المستعربين^(٣). كذلك أفرد ابن الخطيب فى القسم الثانى من كتابه أعمال الأعلام (نشر بروفنسال) فصلاً عن تاريخ الممالك المسيحية الإسبانية

^(١) كتاب الفصل لابن حزم نشر فى القاهرة سنة ١٣٢٤هـ، ونشر على هامشه كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني الذى عاش بعده بقرن من الزمان، وقد ترجم الراهب الإشباني أسين بالاثيوس كتاب الفصل إلى الإسبانية فى خمسة أجزاء، مدريد ١٩٢٧ - ١٩٢٨.

^(٢) R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, 2 Tomes, Paris, 1927.

^(٣) F. Simonet : Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los mazarabea, Madris, 1888.

وهي قشتالة وأراجون والبرتغال، ونص صراحة على أنه استعان في كتابة هذا الجزء بسفير مملكة قشتالة يوسف بن وقار الطليطلي أثناء زيارته لمملكة غرناطة في مهمة رسمية وأنه استخرج هذا التتيد من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون ألفونس أى ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sabio^(١).

وليس بعيداً أن يكون لابن الخطيب رؤية باللغة الإسبانية، ففي حوايات ملوك قشتالة التي كتبها المؤرخ الإسباني لوبيث دي أياالا Lopez de Ayala وهو معاصر لابن الخطيب، نجد مجموعة من الرسائل باللغة الإسبانية موجهة من ابن الخطيب Ben Hatim إلى ملك قشتالة بديرو القاسى Pedro El Cruel وهو على شكل مواظ ونصائح أخلاقية وتوجيهات سياسية يحذر فيها من مكائد الذين حوله من أنصار أخيه المنافس له على العرش Enrique de Trastamara ويشيد بالصدقة التي تربط ملك قشتالة بسلطانه ملك غرناطة محمد الخامس الغنى بالله^(٢).

ومن الطريف أن ابن الخطيب يؤيد ما جاء في الحوايات الإسبانية؛ إذ يذكر في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" أن سلطانه محمد الغنى بالله، لأن له بتوجيه الوعظ إلى صديقه بطره ملك قشتالة، وأنه نفذ الأمر وتلقى رداً من الملك القشتالي يشكره فيه على نصائحه ويعدده بالعمل بها^(٣). وكل هذا يرينا مدى الأخذ والعطاء الذي تميزت به الرواية الإسبانية بشقيها الإسلامى والمسيحى.

^(١) راجع ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، القسم الثانى، من ٣٢٢، نشر ليفي بروفسال، بيروت، ١٩٥٧.

^(٢) انظر

Lopez de Ayala: Crónicas de Los Reyes de Castilla, Vol. I, p. 493, Madrid, 1779.

^(٣) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، من ٥٥ - ٥٦، طبعة القاهرة.

المعراج الإسلامى وأثره فى الكوميديا الإلهية لدانتى (١) :

مسألة أخيرة فى موضوعنا عن البعد المتوسطى فى الأدب، وهى تتعلق بدور إسبانيا بشقيها الإسلامى والمسيحى فى موضوع المعراج الإسلامى وأثره فى الكوميديا الإلهية لدانتى :

منذ خمسين سنة تقريباً أو على وجه الدقة سنة ١٩٤٩م ثبت تاريخاً أن إحدى صور أو روايات المعراج النبوى قد ترجمت من اللغة العربية إلى القشتالية (الإسبانية) بأمر من الملك الإسبانى ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sabio وذلك سنة ١٢٦٤م، وقام بهذه الترجمة طبيب يهودى فى بلاطه بمدينة إشبيلية يدعى إبراهيم الفقيه أو الحكيم، وفى نفس تلك السنة ١٢٦٤م، طلب الملك ألفونسو العالم من الإيطالى منتورا داسينا ترجمتها من الإسبانية إلى اللاتينية والفرنسية لإذاعتها وراء الحدود الإسبانية (٢) .

(١) الكوميديا الإلهية لدانتى ملحمة شعرية مجموع أبياتها ١٤٢٣٣ بيتاً وتنقسم إلى ثلاثة فاشد متسارية الطول : للجحيم والمطهر والفردوس، وهى تصور رحلة خيالية قام بها الشاعر دانتى إلى العالم الآخر، ولد نقلها إلى العربية لستاندا المرحوم حسن عثمان فى ثلاثة أجزاء مع دراسة تحليلية لكل جزء منها إلا أنه أسقط من الترجمة جزءاً من الجحيم وهو الخاص بوصف الرسول (ص) وابن عمه على بن طالب تعرجاً من إمراده لأمه يسىء إلى مكانتهما (نشر دار المعارف) ولد علق على هذا الجزء الناقد د. رشا حمود الصباح بجامعة الكويت على اعتبار أن لقل الكفر لبحس بكال، وشرحت التصورات الأوربية للإسلام فى المصور الوسطى التى لرضمت نفسها على الشاعر الإيطالى فى ملحمته.

راجع رشا حمود الصباح: التصورات الأوربية للإسلام على المصور الوسطى وتأثيرها على الكوميديا الإلهية، مجلة عالم الفكر، المجلد الحادى عشر، العدد الثالث، ١٩٨٠م. راجع كذلك مقالنا (المعراج وصداءه فى التراث الإسبانى)، عالم الفكر، يناير-فبراير، ١٩٨٢م.

(٢) النسخة العربية التى ترجمت مفقودة، وأغلب الظن أنها كانت حديث المعراج المنسوب لعبد الله بن عباس بن عم الرسول الذى دعا لابن عباس بقوله «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل». ويشير بالنشأ إلى وجود نسخة فى لندن رقم ٧٨٦ (تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٥٥٤).

وعلى هذا الأساس كانت الفرصة سانحة أمام الشاعر الفلورنسى الإيطالى دانتي أليجيرى Dante Alighieri الذى عاش فى ذلك الوقت (١٢٦٥-١٣٢١م) لكى يصل إلى الترجمة اللاتينية والفرنسية للمعراج الإسلامى. وهناك احتمال أن يكون أستاذه Brunetto Latini برونيتو لاتينى أو غيره ممن كانوا يترددون بين فلورنسا وبلاط ملك تشتالة قد حمل لدانتي مسودة من الترجمة. المهم هنا هو أن هذه الأصول العربية واللاتينية والفرنسية والإسبانية ظلت مختفية منذ ذلك الوقت إلى أن اكتشف منها حديثاً النص اللاتينى فى مكتبة البوليانه بأكسفورد، والنص الفرنسى فى المكتبة الوطنية بباريس، وقام كل من الإسبانى Muñoz Sendino^(١) سندينو والإيطالى Enrique Cerulli^(٢) تشرولى بنشر ودراسة الترجمة اللاتينية والترجمة الفرنسية تحت عنوان Escala de Mahoma أو المعراج المحمدى كل على حده وفى وقت واحد سنة ١٩٤٩م كما سبق أن ذكرنا.

لماذا كان هذا الاختفاء ؟ لا أدرى ! المهم هنا أنه قبل ذلك التاريخ ١٩٤٩م كانت النظرية السائدة هى نظرية المستشرق الإشبانى Miguel Asin Palacios فى كتابه الذى وضعه بالإسبانية سنة ١٩١٩ بعنوان :

العالم الإسلامى لما بعد الحياة فى الكوميديا الإلهية
La Escatología musulmana en la Divina Comedia (Madrid, 1945)
ويقوم على بيان أوجه الشبه بين ما كتبه دانتي وما كتبه الشاعر الأندلسى أبو عامر أحمد بن شهيد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٤م) فى "رسالة التوابع والزوابع"^(٣)، وما كتبه أبو العلاء المعرى^(٤) (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٨م) فى "رسالة

^(١) José Muñoz Sendino : La Escala de Mahoma, traduccion del arabe al castellano, latin y francés ordenado por Alfonso el Sabio (Madrid 1949).

^(٢) Enrique Cerulli: El libro della Scala e la question della fonte árabe-espagnoles della Divina Comedia, Città del Vaticano, 1949.

^(٣) رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد تحقيق بطرس البستالى (دار صادر، بيروت، ١٩٧٦م).

^(٤) نمبة إلى معرة النعمان من أعمال حلب فى شمال سوريا مكان مستط رأس لى العلاء المعرى (٣٦٣-٤٤٩هـ).

الفقران^(١)، وما كتبه محيي الدين بن عربي المرسى الإشبيلي (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) في فتوحاته المكية، فكل منهم له رحلة إلى العالم الآخر كما هو معروف وظن أسين بلاثيوس أن دانتي تأثر بهم. وبطبيعة الحال، بعد اكتشاف الترجمات الأوربية لقصة المعراج، فقدت نظرية أسين أهميتها^(٢) من هذه الناحية، خصوصاً وأنه من الصعب أن يكون دانتي ملماً بالعربية لكي يقرأ كتب ابن شهيد والمعري وابن عربي^(٣) ذات الأسلوب المعقد الغامض في كثير من الأحيان، ولكن من السهل جداً أن يكون دانتي قد استفاد من الترجمة الأوربية للمعراج وكذلك من القرآن الكريم الذي ثبت تاريخياً أن ترجم ملخص له إلى اللغة اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي^(٤). ولعل أوجه الشبه التي تجمع بين دانتي وبين المعري وابن شهيد وابن عربي ترجع إلى أنهم جميعاً استقوا من معين واحد رئيسي وهو قصة المعراج النبوي.

على أن المهم هنا هو أن كل هذه المؤثرات الإسلامية والمسيحية التي تأثر بها دانتي لا تقلل من قيمة عمله الرائع ولا تنقص من أصالته لأن العبرة هنا ليست بالحكم على نوع المادة التي صنع منها عمله وإنما بالحكم على موضوعية العمل نفسه.

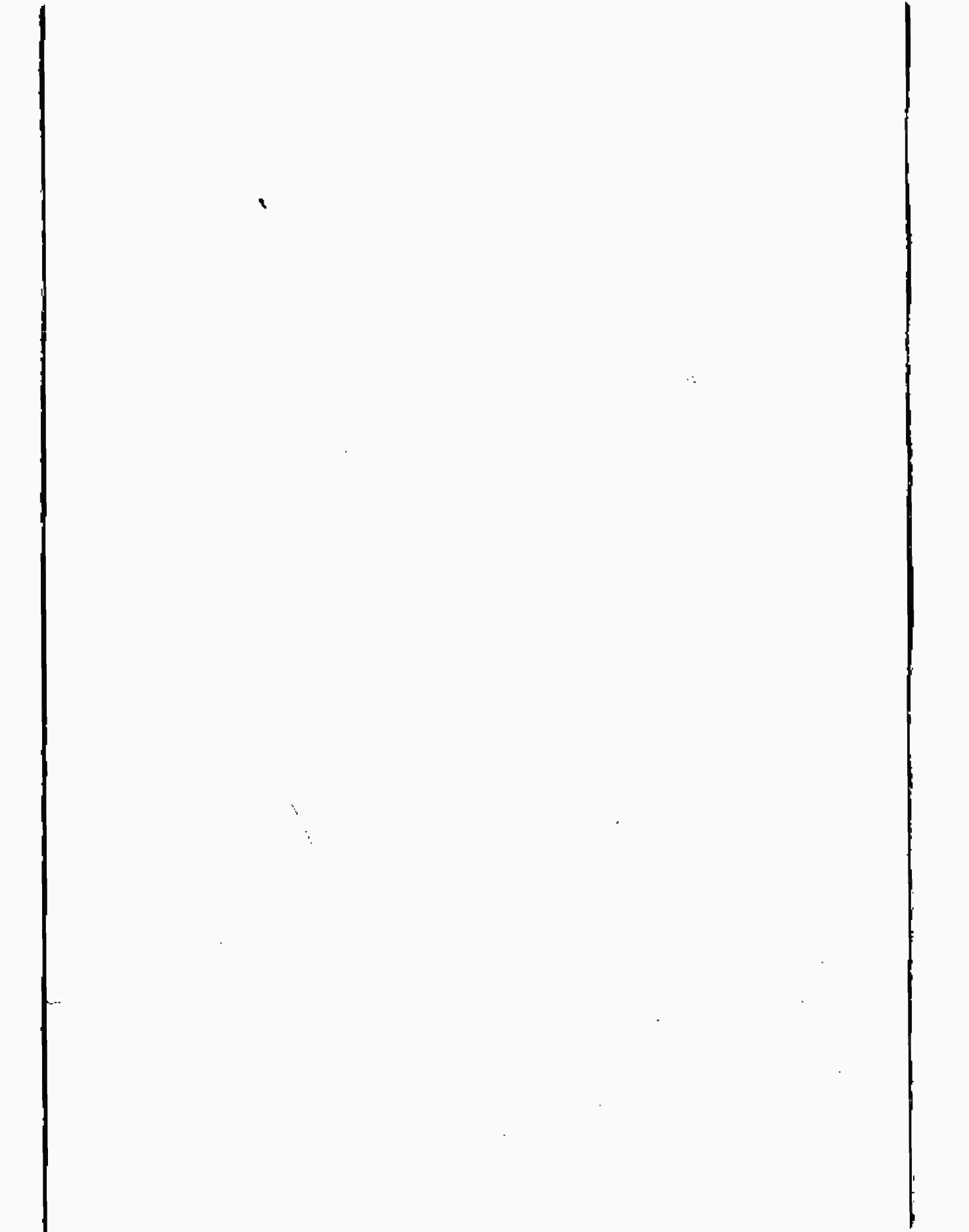
وهكذا نرى مما تقدم أن هناك قصة عربية أندلسية للمعراج، وترجمات لها بالإسبانية واللاتينية والفرنسية، بالإضافة إلى ملحمة دانتي الشعرية الإيطالية، وكلها أبعاد متوسطة ساهمت في إخراج رائعة دانتي.

^(١) رسالة الفقران تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن (نخلة العرب، دار المعارف، ١٩٦٣م).

^(٢) أورد جنثالث بالثيا ملخصاً لنظرية أسين بلاثيوس في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ٥٥١-٥٧٣م.

^(٣) هناك ابن عربي آخر وهو القاضي أبو بكر بن العربي المعافى الإشبيلي، صاحب كتاب "العواصم من القواصم" عاش قبل محيي الدين بن عربي وتوفي بفاس سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م.

^(٤) حسن عثمان : كوميديا دانتي أليجيرى، ج ١ (الجحيم)، ص ٥٩، دار المعارف.

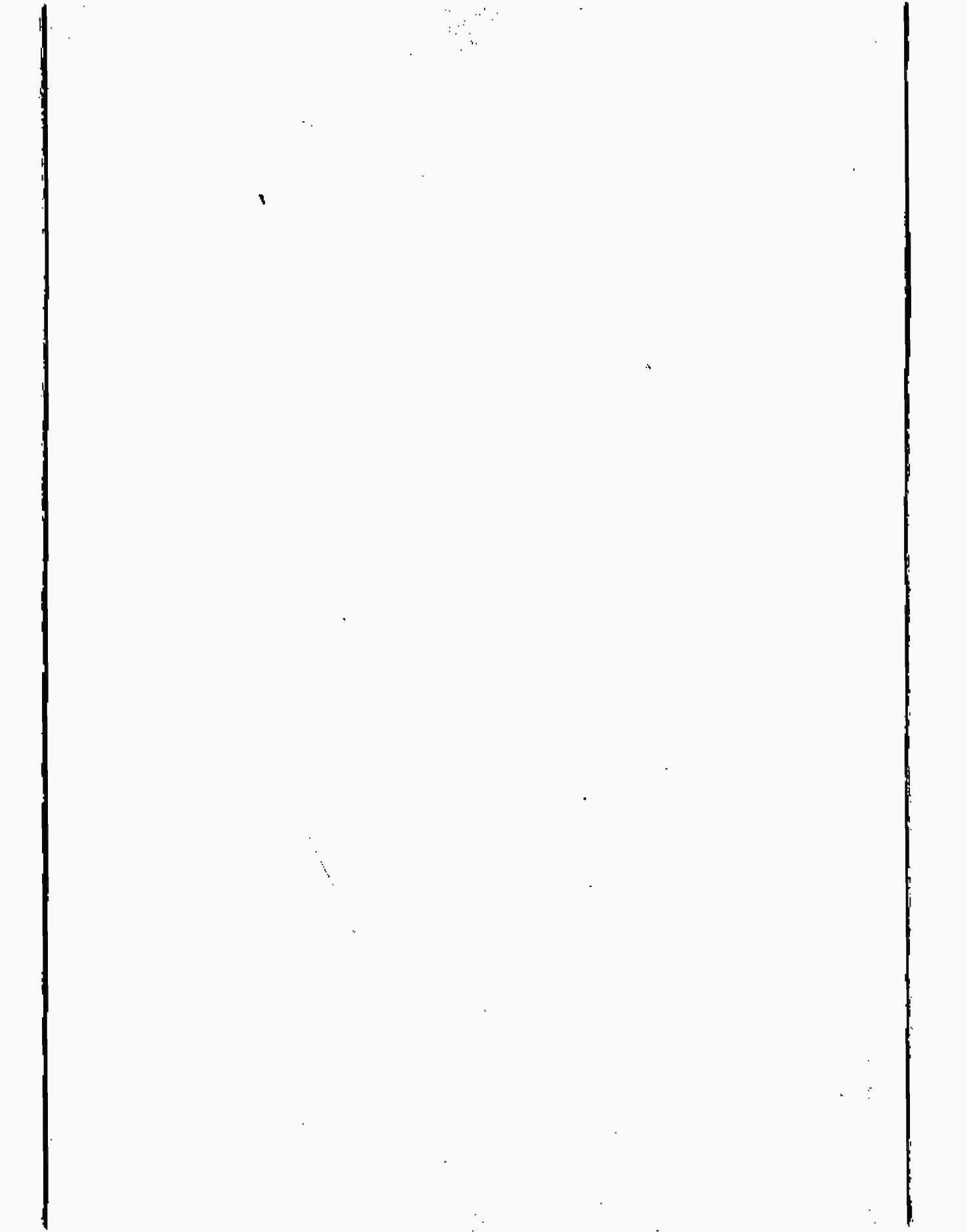


**من ثمار التواصل الثقافي بين مصر وفرنسا
في مجال علم النفس**

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن العيسوي



من ثمار التواصل الثقافي بين مصر وفرنسا في مجال علم النفس

١

أهمية التواصل الثقافي بين المجتمعات :

ترجع العلاقات الثقافية الرسمية، وغير الرسمية، بين المجتمعات العربية وفرنسا إلى عهد بعيد يزيد عن المائتي عام. وفي هذه الأيام تثار قضية "العولمة" ولذلك يخشى على الهوية العربية والإسلامية من الذوبان والطمس والزوال في خضم مثل هذه الدعوات العالمية. ومع ذلك فإن الثقافة العربية والإسلامية لا تعرف الانغلاق على الذات، ولا تعرف التعصب أو التحيز، ولكن يخشى على شعور شبابنا بالانتماء الإسلامي والعربي والوطني والأسري أن يناله الضعف في خضم فكرة العولمة هذه. والقاعدة التي تدير عليها مجتمعاتنا العربية، في مضمار التواصل الثقافي، هي الاستفادة من كل زاد، ومن كل فكر ومن منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة، ولكن شريطة أن يتفق ما ننقله مع أمهات ثقافتنا الإسلامية والعربية وعمومياتها، بحيث نحمل أنفسنا وشبابنا من طمس الهوية أو الشخصية، ومن ضعف مشاعر الانتماء في نفسه، وبحيث ننقى ونغري ونصلي ما نأخذه عن الغرب، مما قد يكون عائقاً به من الشوائب أو الكفر أو الإلحاد أو التفرنج والتحلل الأخلاقي أو النزعات المادية، على حساب النزعات الروحية والقيم الأخلاقية، ومن أمثلة ثمار التواصل الثقافي والعلمي والإيجابي والفعال ما فعله علمائنا العرب حين نقلوا كثيراً من مظاهر التراث العلمي في مجال علم النفس إلى البيئة العربية. ومن ذلك أعمال ألفريد بينيه عالم النفس الفرنسي الشهير، وصاحب الاختبار المعروف باسمه والمخصص لقياس ذكاء الأطفال والمراهقين والراشدين. ويكمن وراء تطبيق هذا الاختبار، بعد نقله إعادة تقنينه واستخراج معايير لتفسيره على عينات عربية، وراء هذا تاريخ طويل^(١) من الجهاد والكفاح والمثابرة في ملأه النضال العلمي والثقافي.

ولقد شهد العالم حركة نقل هذا الاختبار من الفرنسية إلى معظم دول العالم، ولم تتخلف مصر عن غيرها من بلاد العالم في هذا المضمار إذ قام

الأستاذ إسماعيل القباني منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٣٧ بنقل المقياس إلى العربية مع إدخال التعديلات الضرورية عليه لجعله ملائماً للبيئة المصرية. وكان من نتائج ذلك أن تيسر للمشتغلين بالمقياس العقلي في مصر وغيرها من البلاد الناطقة بالضاد تطبيق هذا المقياس.

وفي الطبعة التي أصدرها كل من تيرمان وميريل في أمريكا صورتان بدلاً من صورة واحدة، كذلك امتد المقياس ليشمل سنوات أكثر، حيث أصبح صالحاً للاستخدام من عمر عامين بدلاً من ثلاثة أعوام، وامتد ليشمل من الرشد كذلك.

وبعد نحو عشرين عاماً من جهود الأستاذ إسماعيل القباني، قام كل من الدكتور محمد عبد السلام أحمد والدكتور لويس كامل مليكه بمراجعة الاختبار وتنقيحه، وقاما بإعداد المعايير ونماذج الإجابات والتأكد من صدقه وثباته وصلاحيته للتطبيق على البيئة العربية.

الفريد بينيه : حياته ونشأته :

الفريد بينيه Alfred Binet (١٨٥٧ - ١٩١١م) عالم نفس فرنسي وضع أول اختبار ذكاء مقنن، درس القانون والطب وعلم الحياة، ولكن علم النفس استهواه، فدرس العمليات العقلية العليا، واستخدم اختباراً قائماً على استعمال الورقة والقلم. واستخدم الأسئلة اللفظية وبقع الحبر، وكان ذلك أساساً وبداية لنشأة الاختبارات الإسقاطية، وأصدر مجلة علم النفس الفرنسية ١٨٩٥، ولقد وضع اختباره بتكليف من وزارة التربية الفرنسية لاكتشاف الأطفال المتخلفين عقلياً بين أطفال المدارس الابتدائية، وذلك توطئة لوضعهم في مدارس خاصة بضعاف العقول، والاختبار عبارة عن سلسلة من الأسئلة التي تتدرج في الصعوبة، ويناسب كل منها مستوى معين من مستويات النمو وهو عبارة عن ٣٠ سؤالاً^(١).

يقال إنه ولد عام ١٨٥٦ أو ١٨٥٧ ميلادية، ونشر أول مجلة لعلم النفس

تصدر بالفرنسية عام ١٨٩٤، وابتكر أول اختبار مقيس لقياس الذكاء عام (١٩٠٥) درس القانون والطب والبيولوجيا في جامعة باريس، وجذبه علم النفس أثناء اشتغاله في جامعة السربون مع بونيه H.E. Beaunis ولقد أصبح بينيه، فيما بعد، خليفته كمدير لمعمل علم النفس^(٣). ولقد رفض علم النفس التركيبي، واهتم بدراسة العمليات العقلية العليا عن طريق استخدام اختبارات الورقة والقلم وكتب عن الإحياء، والتتويم، وعن الأمراض ودرس الفروق الفردية Individual differences وكان مساعده تيودور سيمون T.H. Simon يهتم بدراسة ضعف العقول^(٤). واختباره أول مقياس لقياس الذكاء وضعه بينيه وسيمون في عام ١٩٠٥. وقاما بمراجعتيه وتعديله في عام ١٩٠٨ وفي عام ١٩١١، وتمت ترجمته ومراجعتيه في الولايات المتحدة الأمريكية، وظهر بعد ذلك تحت اسم "مقياس ستانفورد - بينيه للذكاء" في عام ١٩١٦ وانتشر في جميع أرجاء العالم، ويعتبر الأساس الذي قامت عليه اختبارات الذكاء الحالية، وكان أول مقياس ينجح في قياس للعمليات العقلية العليا في الإنسان أو الوظائف العقلية العليا، كالتفكير والاستدلال والتجريد والحكم، ولم يكن في المستطاع قياسها من قبل، وإنما كان يعتمد في تقدير الذكاء على القدرات الحسية كحدة السمع أو حدة الإبصار أو القدرة على تقدير أوزان بعض الأجسام، وهو أول مقياس طبق في تصميمه مناهج تثمين الاختبارات أي إيجاد صدق الاختبار Test Validity أي التحقق من أنه يقيس فعلاً ما وضع لقياسه، وهو الذكاء، والتحقق من ثباته Test reliability بمعنى أنه يعطي دائماً نفس النتائج كلما أعيد تطبيقه على نفس الأفراد وتحت نفس الظروف^(٥).

وهو أشهر مقياس للذكاء في العالم على الإطلاق، ولقد تمت ترجمته إلى كثير جداً من اللغات العالمية، من بينها اللغة العربية، حيث ترجمه إلى العربية في مصر محمد عبد السلام أحمد ولويس كامل ملكيه في الخمسينات من القرن العشرين. كما قام بترجمته مرة ثانية في الثمانينات مصري حنورة وكمال

مرسى. وتمت إعادة تقنيه فى بلدان كثيرة أى إيجاد معايير له Norms، لقد كان هذا الاختبار فتحاً جديداً فى حركة القياس النفسى العلمى والموضوعى. وبالطبع يجرى تعديله قبل تطبيقه، كما تعاد عملية إيجاد صدقه وثباته، كما حدث له قبل الاستخدام فى المجتمع الأمريكى. والاختبار باسمه الجديد: ستانفورد - بينيه، ينسب إلى الجامعة الأمريكية التى تمت دراسته فيها وتعديله وتقنيه. وفى عام ١٩٣٧ أعانت نفس الجامعة تعديله، وأصبح له صورتان وفى عام ١٩٦٠ تمت مراجعته بإشراف عالم النفس تيرمان Terman، وأصبح مرة ثانية مكوناً من صورة واحدة جيدة المفردات أو البنود أو الأسئلة وهو مقياس يطبق فردياً Individual، أى على فرد واحد عن طريق باحث واحد، وليس اختباراً جمعياً Group test يمكن تطبيقه على مجموعات كبيرة من الأفراد، وتبدأ مفرداته من الأسئلة الصالحة لقياس أطفال العامين إلى سن الرشد. وتتكون هذه المفردات من مفردات لفظية وأخرى عملية، ويصلح هذا الاختبار للتطبيق على الأطفال والمراهقين وشباب الجامعات^(١) ولا يصلح للكميين ولا لكبار السن.

ولإسهام الفريد بينيه أهمية قصوى فى مجال علم النفس، ذلك لأن اختبارات الذكاء يتم تصميمها لقياس القدرات التى تميز الشخص الذكى عن الغبى، وما لا شك فيه أن الذكاء والغباء يلعبان دوراً رئيساً فى النجاح المدرسى وفى النجاح المهنى وفى تحقيق التكيف الاجتماعى Brightness and dullness are important in school success, in vocational success, and in social adjustment^(٢)

وكذلك يفيد اختبار الذكاء فى تقرير ما يوجد بين الناس من فروق فردية. ولقد طلبت منه الحكومة الفرنسية أن يصمم مقياساً لفرز الأطفال العاجزين عن مواصلة الدراسة فى المدارس العادية To detect those children who were too dull to profit from ordinary schooling. ويعد اختبار بينيه الأساس الذى قامت عليه بقية اختبارات الذكاء فى العالم. ولقد كان له الفضل فى تقديم الأساس اللازم لبناء الاختبارات Test

construction وافترض أن الذكاء ينمو مع النمو العادى للطفل، وأن الطفل الغبى يتصرف كما يتصرف الطفل السوى، ولكن الأصغر منه سناً.

ولذلك كانت وحدة القياس التى اعتمدها بينيه هى العمر العقلى Units of mental age والذى يقابل العمر الزمنى Chronological age الطفل الذكى يسبق عمره العقلى عمره الزمنى، والطفل الغبى يتأخر عمره العقلى عن عمره الزمنى، ومن هنا كانت سهولة تفسير درجات هذا المقياس لدى المعلمين وغيرهم.

والفريد بينيه يعد أبناً لحركة قياس الذكاء المعاصرة، وهو واضع اختبار بينيه لقياس الذكاء Bient-Scale، وحيث أن مساعده سيمون قد ساهم معه فى وضع هذا الاختبار فلقد سُمى هذا الاختبار باسم اختبار بينيه - سيمون Bient-Simon Scale وهو أول مقياس يوضع لقياس ذكاء أطفال المدارس. ولقد قال بيرت عالم النفس الإنجليزى الشهير عن هذا الاختبار أن بينيه قد نجح فى تصدير شيء ما إلى إنجلترا ولم يرفضه الإنجليز. ولقد رحب علماء النفس فى جميع أنحاء العالم، فى ذلك الوقت بتصميم هذا الاختبار، حيث اعتبروه فتحاً جديداً فى مجال القياس النفسى. ولقد أثار هذا الاختبار اهتمام العلماء فعكف كثير منهم على مراجعته وتنقيحه، ولكنه ظل مرتبطاً باسم بينيه حتى فى آخر تعديلاته والمعروفة الآن باسم مقياس ستانفورد - بينيه لقياس الذكاء Stanford Bient Scale وذلك نسبة إلى جامعة ستانفورد الأمريكية، حيث قام عالم النفس تيرمان وغيره من علماء هذه الجامعة بتعديل هذا المقياس.

والحقيقة أن بينيه هو الذى رمخ أقدام علم النفس التجريبي فى فرنسا فى الفترة ما بين عام ١٨٩١ حتى ١٩٠٠. والغريب أن بينيه لم يكن من دارسى علم النفس فى بداية حياته، ولكنه درس القانون وحصل على شهادة فيه فى عام ١٨٧٨. ولكن بحوث شاركو Jean Martin Charcot (١٨٢٥ - ١٨٩٢) فى علم النفس شجعتَه وجذبته نحو هذا الميدان الخصيب، ولذلك تتلمذ على يد

شاركو. وأصدر دراسة فى التنويم المغناطيسى لدى الحيوانات ١٨٨٦. ولقد درس بينيه العلوم الطبيعية وحصل على درجة البكالوريوس فيها عام ١٨٩٠ ثم حصل على درجة الدكتوراه فى ١٨٩٤.

ولقد تأثر بينيه فى حبه للعلم والبحث العلمى، بوالده ووالدته فلقد كان والده طبيبًا، وكانت أمه تهوى دراسة الفن والأدب، ولذلك اتجه بينيه نفسه إلى التأليف فى الأدب، وكتب مسرحية "الرجل الغامض" ١٩١٠ ظلت تعرض لأكثر من خمس وعشرين ليلة على المسرح فى فرنسا.

وكان بينيه مهتمًا بدراسة الجوانب الغامضة من النفس البشرية وظواهرها الخارقة، وانتقد الدراسات المعملية التى كانت تجرى فى ألمانيا لبحثها فى موضوع الإحساسات وردود الأفعال، ولكنه اتجه إلى دراسة العمليات العقلية العليا فى الإنسان ونذكر منها العمليات الآتية :

(١) التفكير، (٢) التخيل، (٣) التصور، (٤) الإدراك، (٥) التعلم، (٦) التذكر، (٧) الإبداع، (٨) الاستنباط، (٩) الاستقراء، (١٠) التعميم، (١١) التمييز، (١٢) التجريد، (١٣) الحكم، (١٤) المقارنة، (١٥) التحليل، (١٦) التركيب.

وهى العمليات التى كانت لا تخضع للقياس النفسى المباشر، فى ذلك الوقت، ولذلك تراه يصدر كتابًا عن الاستدلال (١٨٦٦) وكتابًا عن الوعى المزدوج ١٨٨٦، وعن التغيرات فى الشخصية ١٨٩٢، ولقد ترك أستاذه شاركو وانتقده بشدة لبعده عن النزعة التجريبية فى الدراسات النفسية، وانتهج هو المنهج التجريبى الذى ازداد نشره فى فرنسا.

ولقد أسهم بينيه إسهامًا كبيرًا فى تطور علم النفس المرضى وعلم النفس التربوى والتعليمى فى فرنسا، والواقع أن الاتجاه العلمى لدى بينيه، إنما هو وليد عصره، فلقد سادت النزعة التجريبية فى فرنسا فى هذا العهد.

ومن أشهر دراساته تلك الدراسة التى أجراها على ابنتيه "مدلين وأليس"

والتي نشرها تحت عنوان "دراسة تجريبية في الذكاء" ١٩٠٣ حيث كان يطلب منها إعمال فكرهما في بعض المسائل وأن يخبراه بالخطوات التي سارا فيها للوصول إلى الحل. وأكدت له هذه الدراسة إمكانية حدوث التفكير بلا صور، وأدرك أن هناك فروقاً فردية بين ابتتيه في الوظائف العقلية، ومعلوم أن الفروق الفردية التي توجد بين الناس من الأسس التي قامت عليها حركة القياس الكمي في علم النفس، وهي تلك الفروق التي تميز فرداً معيناً عن غيره من الأفراد، وتوجد هذه الفروق في كافة السمات والقدرات الجسمية والعقلية والميول والاستعدادات والمهارات والخبرات والمعارف في الإنسان^(٨).

ولقد قال بينيه بوجود نمطين من أنماط الشخصية، وسبق بهما نظرية أنماط الشخصية عند يونج وهما :

أ- النمط الموضوعي Objective.

ب- النمط الذاتي Subjective.

النمط الموضوعي يهتم صاحبه بالعمل والأفعال والحركة والسلوك، أما النمط الذاتي فيميل إلى التفكير الذاتي التأمل أو الاستبطاني، وذهب إلى القول بأن علم النفس هو علم دراسة الأفعال^(٩).

ولقد ارتبط بينيه بعلاقة المصاهرة، حيث تزوج ابنة عالم من علماء الحياة، فشجعه ذلك إلى أن يتخصص هو نفسه في علوم الأحياء، وأبت علاقته هذه إلى أن يصبح الرجل الثاني في معمل علم النفس الفسيولوجي مساعداً لصهره الذي كان يتولى رئاسة هذا المعمل، وأصبح بينيه رئيساً لهذا المعمل عام ١٨٩٥ وظل يحمل مديراً له حتى وفاته في العام ١٩١١.

وفي عام ١٩٠٤ اقترح بينيه على وزارة التربية الفرنسية أن تشكل لجنة لدراسة أوضاع الأطفال المتخلفين عقلياً والموجودين في المدارس مع الأطفال الأسوياء، ويتقنون معهم نفس المناهج والمقررات الدراسية، وبالطبع لا يحققون إنجازات تحصيلية.

وكان بينيه قد حول اهتماماته البحثية، منذ عام ١٨٨٧ لدراسة المدارس دراسة ميدانية، واشتهر عنه أنه أجرى دراسة في "القدرة العقلية العامة" والتي تعرف الآن بالذكاء العام General intelligence ومن هنا رأت الوزارة أن تعهد إليه برئاسة هذه اللجنة، ولم ينقض عام واحد حتى أصدر بينيه وزميله تيودور سيمون (١٨٧٣ - ١٩٦١) اختباراً في قياس القدرات العقلية العليا وللتمييز بين الأفراد في هذه القدرات، وهو الاختبار المعروف باسم اختبار بينيه - سيمون ومن خلاله تمكن من تحديد ذكاء الأسوياء وغير الأسوياء، أي ضعاف العقول، وكان ذلك في عام ١٩٠٥، وفي هذا الصدد وضع تعريفاً للذكاء العام، بأنه قدرة تتميز بالنزعة نحو اتجاه عقلي محدد، والاستمرار فيه، والقدرة على إجراء التعديلات اللازمة وصولاً إلى هدف معين، مع القدرة على النقد الذاتي، ولقد قبل هذا التعريف عالم النفس تيرمان، وأكدت صحة هذا التعريف بحوث التحليل العاملي Factor Analysis التي كان يجريها سبيرمان، من خلال ما ذهبت إليه من أن النشاط العقلي كله يتكون من عامل عام، يوجد في كل الأنشطة الذهنية، وعامل خاص يوجد في بعض الأنشطة دون غيرها كالحامل الخاص في النبوغ في الموسيقى أو الرياضيات، حيث ترتبط الأنشطة العقلية المختلفة لتكون عاملاً عاماً مشتركاً.

ولم يكن بينيه جامداً في فكره أو عمله، حيث أجرى العديد من التعديلات والتنقيحات على مقياسه هذا وكان آخرها عام ١٩١١ (قبل وفاته، واختباره يتكون من مجموعة من الأسئلة تناسب أطفال الأعمار المختلفة ابتداء من سن الثالثة، فطفل الثالثة يمكن قياس ذكائه عن طريق سؤاله بأن يشير إلى أجزاء من جسمه أو وجهه، كالأنف والأذن والعين، وأن يعرف اسم عائلته، وفي سن الرابعة يعرف الطفل أسماء الأشياء البسيطة في بيئته، وأن يعرف الفرق في طول خطين طول أحدهما خمسة سم وطول الآخر ٦ سم وفي سن الحادية عشر يطلب منه تكوين عدة عبارات من كلمات محددة، وأن يعيد تركيبها في كل مرة

لتمطى معنى جديداً، وأن يعرف معنى بعض المفاهيم المجردة، كالعطف والشفقة، وفى سن ١٢ سنة يطلب منه أن يشرح موضوع بعض الصور، ويحصل الطفل على درجة تعرب عن عمره العقلى إذا أجاب عن الأسئلة المخصصة لهذا العمر العقلى بصرف النظر عن عمره الزمنى.

ولقد لاقى فكرته عن الذكاء، بأنه قدرة عامة أو قدرة القدرات نجاحاً كبيراً وقبولاً واسعاً، مما ساعد فى تحقيق هذا النجاح أنه أتيح له فرصة لتطبيق اختبار هذا على عينات كبيرة من الأطفال الأسوياء والمتخلفين عقلياً. أثر الفقر فى الذكاء :

وعندما تم تطبيق اختبار بينيه على أطفال مجتمعات أوربية أخرى، أظهر هؤلاء الأطفال تفوقاً كبيراً عن أطفال بينيه، ولذلك أرجع هذا الفارق إلى المستوى الاجتماعى والاقتصادى، حيث كانت عيناته من الأطفال الفقراء فى باريس، ولقد أوحى إليه هذا أن يكتب مقالة يوضح فيها تأثير الذكاء بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى والمهنى لأباء الأطفال أسماء "البؤس الفسيولوجى والبؤس الاجتماعى" وأثرهما على مستوى الذكاء، ومن هذا القبيل كتابة الأفكار العصرية عن الأطفال ١٩٠٩ تضمن أفكاراً عن الطفولة وتوصياته التربوية^(١٠). أعماله ومؤلفاته وجهوده فى تطور علم النفس التجريبي والكمي :

١. دراسات فى علم النفس التجريبي ١٨٨٨م

٢. سيكولوجية الاستدلال ١٨٨٦م.

٣. القيشية فى الحب ١٨٩١م.

٤. التغيرات فى الشخصية ١٨٩٢م.

٥. التعب الفكرى ١٨٩٨م.

٦. الاستهواء أو الإيحاء ١٩٠٠م.

٧. أصدر المجلة الحولية السيكلوجية ١٨٩٥م.

وكان يعمل فى معمل علم النفس فى جامعة السربون بباريس، ومن بين

أهدافه في إصدار هذه الحولية نشر الوعي بعلم النفس أو التعريف بعلم النفس والدعوة لتطويره في فرنسا من خلال نقل تراثه العالمي إلى اللغة الفرنسية، والإعلان عن التجارب الجديدة التي تجرى في علم النفس سواء في فرنسا أو في غيرها^(١١).

ويعد بينيه من أنصار علم النفس الكمي والقياس الكمي للظواهر أو القدرات العقلية كال تفكير :

Psychophysics and quantitative psychology and measurement
ويقع اختبار بينيه ضمن الاختبارات المعرفية Cognitive tests والتي استخدمت في عملية التشخيص Diagnosis ويحتوى اختبارها هذا على سلسلة من الأعمال منها الألغاز ومسائل حسابية Puzzles and Arithmetic ومفردات لغوية Vocabular items ولقد اعتقد بينيه أن ما نسميه الذكاء يتكون من عدد من القدرات والمهارات، ولذلك وضع مفردات تقيس هذه القدرات، وتلك المهارات المفردة التي ينجح في حلها الغالبية الإحصائية من أرباب عمر معين، تصلح لقياس ذكاء أطفال هذا العمر، وبذلك يكون قد استخدم معايير العمر age norms ومن ثم العمر العقلي ونسبة الذكاء وكيف كان أداء الطفل مقارنة بأداء زملائه في السن^(١٢).

إسهامات الفريد بينيه في الكشف عن العبقرية والضعف العقلي :

وكما يقول شان ماجام T.E. Shanmugam أن أول محاولة لتصنيف التخلف العقلي mental retardation بالنسبة للذكاء كانت على يد بينيه حيث بدأ في وضع اختبار للذكاء في وقت مبكر نسبياً يرجع إلى عام ١٩٠٥ في فرنسا بقصد التعرف على أولئك الأطفال العاجزين عن الاستفادة من التعليم العادي، والذين لا يرجع عجزهم إلى علة جسمية، وتضمن الاختبار قياس القدرة على الاستدلال وحل المشكلات Reasoning and Problem - Solving أكثر من اهتمامه بقياس القدرات الحركية أو المهارات الحركية Motor Skills وميز بين مفهوم العمر العقلي والعمر الزمني، ولقد تبع ذلك ابتكار تيرمان لمصطلح نسبة

الذكاء وهي عبارة عن نسبة العمر العقلي للفرد إلى عمره الزمني Intelligence quotient^(١٣).

وفي الحديث عن تاريخ دراسة العبقرية Genius أو ما يمكن أن يسمى بالشذوذ الإيجابي Positive abnormalities، يقال أن ألفريد بينيه قد أسهم في إجراء البحوث المنظمة حول العبقرية بابتكاره اختبارات الذكاء الحديثة، بالاشتراك مع سيمون Simon في فرنسا^(١٤). وفي عام ١٩١٦ قام لويس تيرمان Lewis Terman في جامعة ستانفورد الأمريكية بترجمة طبعة معدلة من اختبار بينيه سيمون وأسمها اختبار ستانفورد - بينيه للذكاء The Stanford-Bient Test of Intelligence وكان الشخص الذي يحصل على درجات عالية جدًا على هذا المقياس يعد عبقرًا. وبذلك تم وضع كلمة عبقرية في شكل كمي موضوعي محدد لدرجة جعلت الناس يطلقون على تيرمان اسم أبو علم نفس الشواذ الإيجابي Positive abnormal psychology^(١٥).

لقد كان بينيه من الروائد الأوائل في حركة القياس العقلي Psychological measurement حيث ساهم في فهمنا لتوزيع القدرات العقلية في مجموع سكان المجتمع، كما ساهم ذلك في تحديد الفروق بين الذكاء والإبداع^(١٦) Creativity.

مفهوم الذكاء ومكوناته في نظر ألفريد بينيه :

ولقد نجح بينيه في التغلب على الصعوبات التي واجهها العلماء في وضع تعريف دقيق للذكاء، واهتم فورًا بقياسه لتحقيق مطالب المجتمع من الاستفادة من تطبيق هذه المقاييس، حيث نحا نحوًا عمليًا، وتبعه في ذلك علماء النفس الأمريكيان، حيث لم يكن بينيه مهتمًا بتحديد طبيعة الذكاء بقدر ما كان مهتمًا بالتعرف على المفردات التي سوف تميز الطفل الخبي من الطفل الذكي أو النجاح والفشل الدراسي، ولذلك كان اختباراه عبارة عن غربة اجتماعية للأذكاء والأغبياء أكثر من كونه دراسة أكاديمية حول طبيعة الذكاء، ولقد نجح بينيه في التنبؤ بالنجاح الدراسي^(١٧).

وكما ساهمت أعمال بينيه في دراسة العبقرية والإبداع ساهمت أيضًا في

فلسفة الفريد بينيه التى تكمن وراء تصميم المقياس :

ويشترط فى اختيار المفردات ألا يلزم للإجابة عليها تلقى الطفل تدريباً أو تعليمًا معينًا. ولذلك فإن اختبار الذكاء يقيس الاستعداد العقلى Mental aptitude أكثر من كونه مقياسًا لتحصيل الطفل Achievement لا يحتاج إلى تدريب خاص مسبق Training ولذلك يلزم اختيار مفردات جديدة، بحيث لا يختلف فى الإجابة عليها الطفل الذى ذهب إلى المدرسة، وذلك الذى لم يذهب بعد المفردات تصبح غير مالوفة بالنسبة لجميع الأطفال، أى لم يسبق لأى منهم الخبرة التعليمية بها، كأن تقدم له مجموعة من الرسوم والأشكال، ويصبح عليه أن يدرك الشكل المختلف من بينها. ولاختيار المفردات الصالحة، افترض بينيه أن الطفل الكبير سنًا ينجح فى الإجابة الصائبة على المفردة بينما الأصغر سنًا لا يحقق نجاحًا.

Unless older children are more successful than younger ones in answering the item is unsatisfactory⁽²⁰⁾.

القدرة على الحل الصائب تزداد بالتقدم فى السن، ويكفى أن ينجح ٦٠٪ من أرباب سن معينة ليكون السؤال صالحًا لهم، ومن ثم يتم وضعه فى الاختبار النهائى المخصص لقياس ذكائهم، من الأسئلة الصالحة لأرباب من السبع سنوات ما يلى :

الأخ ولد والأخت ... وكلما تقدمنا فى العمر، كلما نحت الأسئلة نحو التجريد Abstracting كأن نقول مثلاً ماذا نعنى بكلمة الحرية، وإذا كنا نقيس شيئاً عاماً واحداً، فإن كل مفردة من مفردات الاختبار يتعين أن تترابط مع الدرجة الكلية للاختبار المعبرة عن ذكاء الفرد نسبة الفجاح فى الإجابة على سؤال معين تزداد بالتقدم فى العمر⁽²¹⁾.

هناك استخدامات عديدة لاختبارات قياس الذكاء، ولقد كان الفريد بينيه طبيئاً فى الأصل، وطلب منه التعرف على التلاميذ ضعاف العقول، بغية القيام بالتدريس لهم باتباع مناهج تدريس خاصة ومختلفة Different Methods عن

تلك المستخدمة مع الأسوياء من التلاميذ^(٢٢)، وكان من الطبيعي أن يصمم الفريد بينيه اختباراه على أساس من مفهومه عن الذكاء وطبيعته on his notions of intelligence والناسم عن ملاحظته حول بنائه هو شخصيًا، من حيث ملاحظة أن القدرة العقلية تزداد بالتقدم لى السن Intellectual capacity increases with age ما الذى نلاحظ على سلوك الشخص الذكى؟

وتعتبر اعمال بينيه من بين أنشطة علم النفس الفردى، ذلك الفرع الذى وجه اهتمامه نحو ما يوجد بين الناس من فروق، بعد أن كان الاهتمام موجهاً نحو ما يوجد بينهم من اتفاق، واعتبارهم جميعاً نسخة واحدة، ولقد ابتكر بينيه، لأول مرة، مصطلح العمر العقلى فى عام ١٩٠٨ تأسيساً على مقارنة أداء الطفل بأداء زملائه.

طرق اختيار مفردات المقياس وتكوينه :

وتتدرج الأسئلة فى الصعوبة بالتقدم فى العمر على هذا النحو :

العمر العقلى ١-٢ سنة : حرك عوداً من الكبريت المشتعل أمام عين الطفل، يحصل الطفل على الدرجة الكلية إذا حرك عيناه فى اتجاه الضوء.

العمر العقلى ٣ سنوات : اطلب من الطفل أن يريك أنفه وعينه ولغه.

العمر العقلى ٤ سنوات : اعرض على الطفل سكيناً وأسأل ما هذا؟ وماذا نسميها، ثم اعرض عليه شئناً ثم مفتاحاً مع توجيه نفس الأسئلة السابقة والمطلوب اللجاح فى تسمية ثلاثة أشياء.

العمر العقلى ٥ سنوات : ارسم مربعاً طول ضلعه ٤ سم بالحبر، واطلب من الطفل أن ينسخه بعد إعطائه قلمًا وحبراً.

العمر العقلى ٦ سنوات : لرسم شكلاً هندسياً بالحبر واطلب من الطفل أن ينسخه على أن يأخذ الشكل الهندسى شكل "المعين" diamond بعد إعطائه أيضاً الحبر والقلم.

العمر العقلى ٧ سنوات : خذ هذا المفتاح وضعه فوق الكرسي،

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) Higland, p. 403.

(١٨) *op. cit.*, p. 404.

(١٩) Edwards, D.C., *General Psychology*, Macmillan Co., London, 1968, p. 252.

(٢٠) Sanford, F.H., *Psychology : A Scientific Study of man*, Wadsworth, San Francisco, 1961, p. 102.

(٢١) *op. cit.*, p. 103.

(٢٢) *op. cit.*, p. 104.

(٢٣) كمال نسوكي، مرجعه السابق، ص ١٤١١.

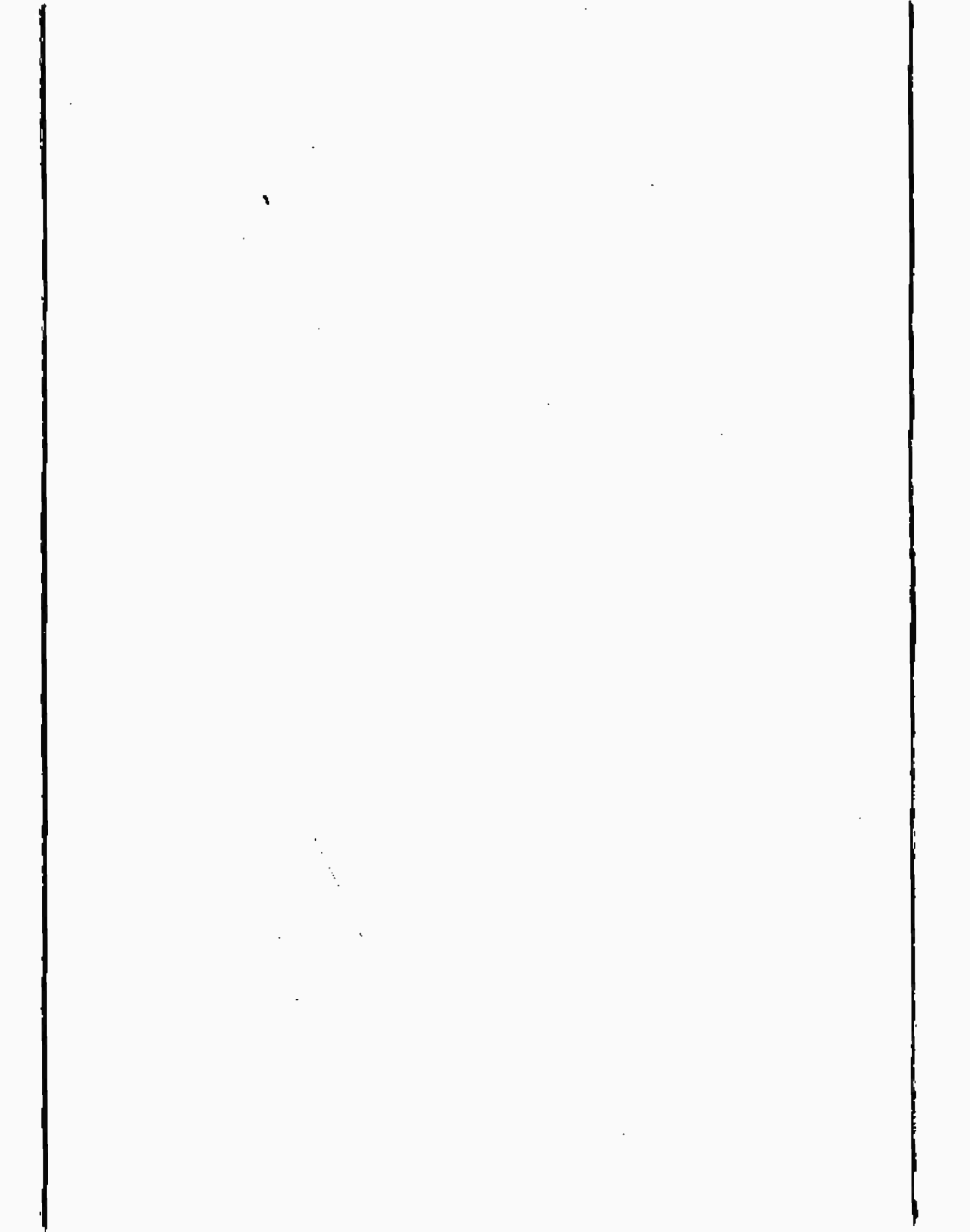
(٢٤) Sanford, p. 100.

تطور حركة الاستعراب الإسباني

بحث مقدم من

الدكتور

خالد إبراهيم سالم



تطور حركة الإستعراب الإسباني

تشهد ساحة الإستعراب في إسبانيا مدرستين، كلتاهما تعملان في مجال الدراسات العربية والإسلامية وتتمتعان بالشرعية العلمية، وهما المدرسة الكلاسيكية، أي التي تهتم بالدراسات العربية الأندلسية والكلاسيكية، والأخرى حديثة تهتم بما هو معاصر. وتسير الأولى منهما على خطى العلامة الراحل إميليو غارثيا غوميث بينما تتبع الثانية تعاليم تلميذه، أعني، لنا الأستاذ بدرو مارتينيث مونتاييث الذي يعمل في جامعة مدريد الأوتونوما.

ورغم أن هذا لا يعني أن المدرسة الأولى وليدة الأمس القريب فإن بصمات التأسيس والريادة للعلامة غارثيا غوميث واضحة على الجيل الحالي. فقد سبقه في هذا الدرب أساتذة آخرون مثل غايانغوس وكوندي وكوديرا وغونثاليث بالنثيا وأسين بلاتويوس ...، وهي تضرب بجذورها في العصور الوسطى.

من الملاحظ أن حركة الإستعراب المعاصر في إسبانيا تأخرت في نشأتها عن مثيلاتها في الدول الأوروبية الأخرى، إذ بدأت محاولات في هذا الصدد في القرن الثامن عشر ولم تتأصل حتى القرن الماضي.

وهو أمر ملفت للنظر في بلد هو البلد الأوروبي الوحيد الذي بنى العرب عاصمته، وهو أمر له دلالات وتبعات تكمن في وعي ولا وعي الإسبان، فلا يزال الحضور العربي موضع جدل ونقاش حتى اليوم بين الإسبان على إختلاف هويتهم ووعيهم الثقافي. فلم يحسم الجدل بعد حول هوية الأندلس وإنتمائها، وخاصة فيما يتعلق بالإجابة على سؤال: لمن هذا التراث؟ للعرب أم للإسبان؟

أما تخلف إسبانيا عن اللحاق بقطار الإستعراب حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فمرجعيته دينية بحته، فقد أغلق باب البحث في الشؤون العربية بعد محرقة المصاحف والكتب والمخطوطات التي أمر بها الكاردينال ثيسنيروس سنة

1511، وفيها أُنْتُ المحرقة على 80.000 مجلد عربي حسب بعض المصادر -أعداء هذا الكاردينال- و 3.000 مجلد حسب مصادر أخرى متناصرة له.

ولم يكتف الكاردينال ثيسنيروس بذلك بل سعى ونجح في إستصدار قرار ملكي مؤرخ في إشبيلية في 20 يونيو سنة 1511 يقر جمع كافة المصاحف والكتب العربية وتحريم إمتلكها على أي فرد من العامة. وبعد ذلك تحولت الجهود التي كانت تبذل في حقل الإستعراب إلى مجالات أخرى.

ولم يكن هذا الموقف عفواً عن الإسلام وعن ثقافته أو شعور بالذنب، بل لبء مرحلة جديدة من التصيير وحمل رسالة الإنجيل بين سكان العالم الجديد الذي إكتشف مع حملات الإسبان والبرتغاليين في أمريكا اللاتينية التي بدأت في العام نفسه الذي شهد سقوط غرناطة، آخر معقل للعرب في الأندلس. علماً بأن سقوط غرناطة كان في مطلع يناير من عام 1492 ووصل كريستوفر كولمبس إلى القارة الأمريكية في أكتوبر من العام نفسه.

وبذلك كانت محاكم التفتيش وراء وأد حركة الإستعراب الإسباني التي ولدت مبكراً. وكانت وطأة هذا القرار الملكي ومحرقة الكتب العربية والمصاحف شديدة إلى درجة أن الحوليات وبعض الكتب تؤكد أن الكثيرين سجلوا على أغلفة الكتب عبارة كهذه "إن الخوف يملكني، هذا ليس القرآن العنيد".

وكان الدين وراء نشأة ودفن الإستعراب الإسباني في مرحلته الأولى، أي قبل القرن السادس عشر، إذ كان قد ظل معطلاً حتى القرن الثامن عشر ولم يأخذ طريقاً جاداً حتى التاسع عشر.

ويضاف إلى ذلك أن من أسباب تجمد حركة إستعراب الإسبانية في تلك الفترة كان تراجع القوة السياسية والحضارية للعرب، بينما أخذ العالم المسيحي في النهوض والرواج الفكري والثقافي وتأكيد الذات، مما حمل إسبانيا على الإهتمام بالنهضة الأدبية التي بدأت في أوروبا تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك نسي الإسبان الكتب والمخطوطات التي كانت تضم بين صفحاتها خلاصة الحضارة العربية وظلت سنوات طويلة بين أرفف المكتبات والمحفوظات، ولم يقترب منها سوى بعض الباحثين من حين لآخر.

وكانت رغبة الكنيسة الإسبانية في توحيد البلاد دينياً سبباً آخر في واد حركة الإستعراب الإسباني التي نشأت قبل أي حركة أخرى في أوروبا وهو الأمر الذي حملها على وضع الدعاية هدف لدراسة القرآن والتراث العربي. غير أن من الإنصاف أن نشير إلى أن إسبانيا كانت سباقة في هذا المجال، إذ بدأ الإستعراب الإسباني نشاطه والعرب كانوا ما يزالون في الأندلس، بغية التعرف على الأعداء، أي العرب، وضرب كتابهم المقدس، القرآن. وهناك من يبرر هذا الهوس الديني بأن إسبانيا كانت طوال تاريخها ذات نزعة تبشيرية، وهذا مثبت تاريخياً من قبل الإسبان (1).

ومن هذا المنطلق أنشئت مراكز إستعرابية في الأديرة والكنائس بالمدن التي إستردها الإسبان من العرب ابتداءً من القرن الثالث عشر، وكان السبب هو رد الصفة - حسب الكنيسة - للمحتل العربي والإنتقام من دينه ممثلاً في القرآن الأمر الذي أسفر عن وجود متخصصين ذوي باع في تفنيد كتاب المسلمين المقدس والنيل منه دينياً وثقافياً.

وتأكيداً لهذا السياق فإن أول ترجمة إلى الإسبانية للقرآن كانت إهداء - تمت سنة 1143م - على يد روبرتو دي رتييس، بأمر من ألفونس بدرو البينورابلي أو بدور الموقر Pedro el venerable، حملت إهداءً إلى القديس برناردو يقول: "إلى الدعاية ضد الإسلام". إلا أن هذا الوضع سمح للإستعراب أن يشكل جزءاً من التراث الثقافي للإسبان، دون أن يكون من أهداف رجال الدين.

وجدير بالإشارة أن المسؤول الأول عن هذا الوضع، أي تكثيف الإهتمام بالدراسات العربية، كان الملك ألفونسو العاشر، العاشر بالحكيم، الذي أسس مدرسة طليطلة للترجمة التي عملت طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. والمعروف أنها قامت بترجمة أمهات الكتب العربية في شتى العلوم إلى الرومانثية مباشرة - أي الإسبانية - دون نقلها أولاً إلى اللاتينية: بلو غرلر ما كان يقوم به رئيس أساقفة طليطلة دون رامونندو.

لقد شهدت تلك الفترة حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية بحثًا عن التراث اليوناني الذي إستفاد منه العرب وتمثلوه، إلى جانب دراسة الفلسفة والدين لأهداف جدلية.

وإلى هذا الملك الحكيم والعاشق للأدب العربي يرجع الفضل في أول ترجمة للقرآن إلى الإسبانية، وكان من رواد الدراسات المقارنة والتأثر بالتراث العربي الذي ترك بصماته على مؤلفاته نفسه مثل: *General Historia, Libros del Saber de Astronomia y las Cantigas de Santa Maria*. وإليه يعود الفضل في تأثر كتاب إسبان بالثقافة العربية في مراحل لاحقة عليه مثل: دون خوان مانويل في كتابه "الكونست لوكانور"، ورئيس أساقفة إينا في كتابه "الحب الحميد"، دون أن ننسى ثيربانتيس وروايته العالمية "دون كيخوتي". هذا بالإضافة إلى ترجمة كتب تنتمي إلى التراث العربي العالمي نذكر منها "كليلة ودمنة".

ورغم القرار الملكي الذي إستصدره الكاردينال ثيسنيروس وتحول إسبانيا صوب العالم الجديد بغية تنصيره، فلم تكن القطيعة تامة بين المتخصصين الإسبان والثقافة العربية، ففي القرن السادس عشر نفسه كتب بديرو دي ألكالا "Vocabulista aravigo en letra castellana" وهو كتاب أساسي في معرفة سموتيات اللغة العربية في الأندلس، وهو مجال ما زال يفتقر إلى الكثير من الدراسات العربية والإسبانية، أعني هنا دراسات لغوية عن العربية الأندلسية، وهي دعوة أطلقها لدارسي اللغويات والأندلسيات في الجامعات العربية على أساس واقع أعيشه في الجامعات الإسبانية.

وفي تلك الفترة صدرت كتب تتناول تاريخ الأندلس، خاصة تاريخ مملكة غرناطة وتمرد الموريسكيين، من بينها *Historia de los Reyes Catolicos* (تاريخ الملكين الكاثوليكيين) لأندريس بيرنالديت و *la Cronica de los Reyes catolicos* لفرناندو بولغار، و *la Guerra de Granada* (حرب غرناطة) لدييغو أورتلانو دي ميندوثا، و *Historia de la rebelion y castigo de los moriscos* تاريخ تمرد الموريسكيين وعقابهم لمارمول كاربخال

•Marinol Carvajal

ومع هذا النوع من المؤلفات ينتهي ما يمكن أن نطلق عليه بالإستعراب الإسباني الخاص أو الذاتي، ويصاحبه خوف المورييسكيين من محاكم التفتيش، ومعهم هوة التعرف على التراث العربي في الأندلس، مما حملهم على إخفاء أي معرفة بلغتهم الأم. وأمام هذه المخاوف تقلص عدد النقبليين على دراسة العربية إلى درجة أن الأستاذية في العربية بجامعة سلنكة، ظلت شاغرة ابتداءً من 1500م، وظل قسم اللغة العربية في جامعة الكالا- أوقلة عبد السلام- شاغراً من الأسفلة بينما لم يطلب الطلاب الإنضمام إليه.

ولم تقم قائمة للإستعراب الإسباني حتى القرن الثامن عشر، خلال ولاية الملك كارلوس الثالث- كان من أسرة البوريون المائلة في إسبانيا في الوقت الراهن. وأمام هذه المعطيات المحلية نشأت في إسبانيا حركة إستعراب معاصر مختلفة عن الحركات الأخرى في العالم، وبذلك ولد الإستعراب الإسباني واندثر ثم عاد للنهوض في ظروف مختلفة عن محيطه الأوروبي والعالمي. فقد ورد في مجمله من الخارج بسبب تصفية الإستعراب المحلي على يد المؤسسات الدينية منذ ولانته.

ولعل هذه الملاحظة تعد أبرز ميزات الإستعراب الإسباني المعاصر، إذ إستعير بينما كان لديه أرض محلية خصبة للنمو والتزعزع قبل أي إستعراب عربي. ولم يكن تطوراً لنشئ محلي، بل مستورداً، جاء بعد قرنين من التوقف والجمود. وقد يؤكد هذا مقولة: إسبانيا مختلفة! Spain is different التي يحلو للإسبان التشديق بها لتبرير أوضاع غريبة أو شاذة.

إن الوسط الذي يعيش فيه الإستعراب الإسباني معاد له، فالذاكرة الجماعية للإسبان تنظر إلى ما هو عربي نظرة ريبة وإزدراء، وفي أحسن الأحوال عدم إكترات وشفقة، والإسبان لهم عذرم في ذلك، فمن الضروري الأخذ بعين الاعتبار علاقات خضبتها دماء السكان الأصليين، أدني دماء سكان الأندلس الأصليين الذين أصبحوا الإسبان بعد سقوط غرناطة. وهذا أمر لا تغفره العقليّة الغربية، حتى وإن كانت هذه العلاقات قد أنتجت إحدى أبرز حضارات العالم على مدى التاريخ، وكان لها دور هام في تكوين هوية فريدة لإسبانيا ولا نغالي إذا قلنا

إن وصول إسبانيا إلى العالم الجديد يعود في جذوره السياسية والتجارية والدينية إلى ظاهرة الأندلس في بلد أوروبي.

والملفت للنظر بالرغم من كافة الظروف والملازمات التي أشرنا إليها أن الإستعراب الإسباني يشكل جزءاً من التراث التاريخي الثقافي لهذا البلد حيث يقوم فريق من الباحثين الجادين، يتمتعون بكفاءة علمية كبيرة، تبحث غالبيتهم في التراث المشترك للجماعة بينما هذه الجماعة أو المجتمع يدير ظهره لهم، باستثناء أقلية قليلة تعي هذا الدور وأهمية هذا التراث للبلد الأوروبي الوحيد الذي أقام فيه العرب حضارة امتدت لما يقرب مع عشرة قرون وأبست ثمانية كما يشاع فيجب الأخذ بعين الاعتبار تاريخ طرد الموريسكيين ومن تخطف منهم في إسبانيا إذ أثروا العيش في الأرض الذي ولد فيها على الانتقال إلى بلاد يجهلها تماماً وإن كان ذلك سيعني حفاظهم على هويتهم الدينية وعدم طمسها كما حدث فيما بعد، إضافة إلى عودة البعض منهم إلى شبه جزيرة أيبيريا بعد الرحيل، إلى شمال إفريقيا.

هذا دون أن تكون لدى رغبة في الدعوة إلى اتجاه أو الإعداد لحرب صليبية ونحن على أعتاب قرن جديد، ولكنني أردت التنبية إلى واقع يدركه اليوم المستعربون الإسبان والعرب المقيمون في بلاد الأندلس.

ولهذا عندما جاء كارلوس الثالث وأراد أن يدنل الدراسات العربية في إسبانيا، في منتصف القرن الثامن عشر، لم يجد من يستطيع أن يؤدي هذه المهمة بين الإسبان، فاضطر إلى إستيراد المعرفة والأشخاص في مجال الإستعراب. آنذاك أمر باحضار عدد من الرهبان الموارنة، برز بينهم ميشيل قصيري - بعض المراجع العربية تقول إن اسمه ميشيل غزيري - الذي شغل وظيفة أمين مكتبة الإسكوريال ووضع عدداً من المؤلفات، كان أهمها تصنيف مخطوطات هذا المكتبة، وبينها بالطبع المخطوطات العربية، وكتاب الأكلات العربية التي دخلت الإسبانية، ودراسة وملخص لكتابي "لمحة" و"الإحاطة" في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب.

كما أسفر مشروع كارلوس الثالث عن ترجمة المجلد الضخم الذي وضعه
بن العوام حول الفلاحة على يد خوسيه أنطونيو بانكيري ووضع قاموس عربي-
لاتيني على يد فرانثيسكو كانييس.

جدير بالإشارة أن الحياة دبت في حركة الإسمعراب الإسباني ليس فقط
بسبب رفع المرتب والترقي الوظيفي اللذين وعد بهما كارلوس الثالث لمن يتعلم
العربية، بل كانت أساساً بسبب تقليص صلاحيات رجال محاكم التفتيش إلى درجة
فكر البعض في إلغائها.

وكان من تبعات هذا الوضع ولادة حركة الإسمعراب الحديثة والحقيقية في
القرن التاسع عشر على يد العلامة عاشق الكتب باسؤول غايانغوس (1809-1897)
الذي درس بين باريس ولندن قبل أن يعود إلى مدريد. عام 1843 تفضل منصب أستاذ
اللغة العربية في جامعتها الذي أنشئ قبل بضع سنوات من عودته وهو في
منتصف عمره. ورغم أن شخصية غايانغوس تركت بصماتها على بداية
الإسمعراب الإسباني ومدرسته الحديثة من خلال نزائمه العلمية وإنسانيته، فمن
المعروف أنه تخلى عن درجة الأستاذية لطلابه ولم يرض عنهم بكتبه ومخطوطاته
وملاحظاته العلمية التي جمعها طوال مسار حياته المعهدة.

إلا أن هذه المدرسة لم تسر على خطى حركة الإسمعراب الإسبانية في
العصور الوسطى ممثلة في مدرسة طليطلة للترجمة ودرريغو خيمينيث دي رادا
ويرو دي ألكالا ومارمول كاربخال، بل تبعت خطى الرهبان اللبلانيين والسوريين
والاستقراق البريطاني وخاصة الفرنسي من خلال، يلفستر دي ساسي ودوزي.
ومع عودة الإسمعراب الإسباني إلى الساحة يلاحظ أنه ابتداءً من القرن
الثامن عشر أخذ يقتصر تقريباً على أساتذة الجامعات، أي يمكن وصفه بالنزاهة
وإنكار الذات والتحلي بالبحث التاريخي والعلمي بعيداً عن مقاصد إسمعراب
العصور الوسطى الذي نشأ في أحضان الكنيسة بعيداً، كان نفعياً وذا أهداف دينية
أيدولوجية غير خافية على أحد.

أما فيما يتعلق بمواضيع الإستعمار الكلاسيكي فيمكن وصفها بأنها كانت محلية بعيدة عن الأسباب الرومانسية التي كانت وراء نشأة الإستشراق الأوروبي في نهاية القرن السابع عشر.

وتتميز حركة الإستعمار الإسباني عن الحركات الأوروبية الأخرى أنها عاشت وعاشت الإسلام، فالأندلس كانت سبباً في خصوصية الإستعمار الإسباني، وهو وضع لم تتمتع به حركتا الإستعمار البريطانية أو الفرنسية رغم التاريخ الإستعماري الطويل الذي حظيت بها فرنسا وبريطانيا في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

حري بنا الإشارة هنا إلى أن الكثير من المستعمرين والمثقفون الإسبان يملكون تخلف إسبانيا حضارياً عن محيطها الأوروبي بطرد الموريسكيين من بلادهم إذ فقدت إسبانيا بخروجهم معظم العارفين بيوطن الأمور في الزراعة والتجارة. أما القائلون بأن الإحتلال العربي للأندلس كان وراء ذلك فهم قلة. ومجرد الجدل حول هذه المسألة لا وجود له بين حركات الإستعمار الأوروبية الأخرى، مما يؤكد على خصوصيتها في إسبانيا.

ومع حلول القرن التاسع عشر أخذ الإستعمار الإسباني، والغربي عامة، يكتفئ إهتمامه بما هو عربي لظروف معروفة للجميع، إذ أخذ الألباء والدارسون في البحث عن مغامرات ثرة خارج الزمان والمكان، في محاولة لإكتشاف الكنوز الممثلة في العصور القديمة والوسطى والآداب والثقافات الأجنبية. وكان الأدب الشرقي على رأس هذه الآداب التي حظيت بالإهتمام والدراسة، الأمر الذي رفع المستعمرين إلى مصاف رجال الدولة والمجتمع في الدول الأوروبية.

وفي إسبانيا أخذ الإستعمار المسار نفسه تقريباً وإن كان قد تخلف عن الحركات الإستعمارية في الدول الأوروبية الأخرى. وهناك من يذهب إلى القول إن إسبانيا مدينة بالكثير لمستعمراتها في القرن التاسع عشر نظراً لأنهم بدؤوا عملهم من الصفر تقريباً، إذ كان عليهم وضع كتب قواعد اللغة العربية والقواميس وترجمة المخطوطات وتحقيقها ونشرها. إلا أن هذا لطرح بجانبه شيء من الصواب لأن المستعمرين المحدثين أفادوا، بدرجة ما، من أعمال أسلافهم.

أما أبرز مستعربي بداية القرن الماضي فكان خوسيه أنطونيو كوندي الذي ترك بصمات واضحة على الاستعراب داخل وخارج إسبانيا. وبالرغم من الانتقادات التي وجهت إليه والتقليل من شأنه فإن أحدًا لم يحاول الكتابة في تاريخ الحضور العربي -أو الإحتلال كما يطلق عليه الإسبان- مباشرة من مصادره العربية، إذ إكتفى المؤرخون الذين سبقوه في إستقاء المعلومات من الحوليات المسيحية التي لم تكن كافية لسد الثغرات الكبيرة التي كانت قائمة قبله.

وبالرغم من أن خوسيه أنطونيو كوندي كان رائد الدراسات العربية إسبانيا فإن باسكوال دي غايانغوس يعد المؤسس الحقيقي لمدرسة المستعربين الحديثة الذي جمعته صداقة وعمل حميمين مع مستعرب لا يقل عنه أهمية هو سيرافين إستيبيانيث كالديورن المعروف بـ "السوليتاريو" el solitario أو المتوحد واشتهر بتأثره بما هو عربي في كتاباته من منطلق رومانسي. ثم تتلمذ على يد هذا الأخير فرانثيسكو خابيير سيمونيت وهو لا يتمتع بالقبول في الدوائر العربية والكثير من الإسبانية المحايدة، إذ يرون في أعماله مهارات كثيرة وتحاملاً على العرب. وكان سيمونيت قد خصص جزءاً من أبحاثه لدراسة اللغة، وخاصة دراسة الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية، مفنداً بعض نظريات سلفه في هذه المجال من منطلق التقليل من شأن التأثير اللغوي العربي على اللغة القشتالية، الإسبانية.

ويعود الفضل إلى مستعربي القرن التاسع عشر في إكتشاف الأدب الموريسكي إذ ظل حتى القرن الماضي مهملًا إن لم يكن مجهولاً. كما قاموا بمراجعة الأفكار المتعلقة بالفتح والحضور العربيين في إسبانيا على أساس علمي، إلى جانب إكتشاف الجانب الجذاب والرومانسي للأدب الأندلسي من منطلق روح العصر. وحري بنا أن نشير هنا إلى أن الحضور العربي في شبه الجزيرة العربية موضع خجل وعار للكثيرين وبفضل دراسات هؤلاء المستعربين تغيرت الصورة وأصبحت إيجابية أو أخذت طريقها نحو تصحيح للأفكار بهذا الصدد، وهو واقع ملموس من خلال معاملتي اليومية مع الطلاب والزملاء في الجامعات الإسبانية إلى جانب جزء من البعيدين عن هذا المجال.

غير أن القرن العشرين يظل أزهي عصور الاستعراب الإسباني بكل المقاييس، ففيه اكتشف أسين بلاثيوس أثر القرآن في الكوميديا الإلهية والكل يعلم أهمية هذا البحث، هذا إضافة إلى عدد ونوعية المستعربين الإسبان الذين يملأون الساحة بأبحاثهم ودراساتهم الكلاسيكية والحديثة إلى درجة تستحق التوقف والتأمل والدراسة، وهي تقببه إلى حد ما عدد دارسي أدب الإسبانية في الوطن العربي عموماً ومصر خصوصاً، وإن كانت البون لا يزال كثيراً بين نوعية دراسات وتكرس الجانبين لعمله في هذين المجالين.

ومن أبرز رواد الاستعراب في النصف الثاني من القرن العشرين إميليو غارثيا غوميث الذي ظل الحارس الأمين على التوجه القومي الرجوعي اللاهوتي في نظرته إلى التراث الأندلس إلى أن فارق دنيا في صيف 1995 ليدفن في المدينة التي بدأ فيها نشاطه العلمي والأكاديمي غرناطة مؤسساً لمدرسة الدراسات العربية. إلا أن هذا التوجه لا ينقص دوره البارز والمؤثر في حقل الاستعراب الإسباني والأوربي بصفة عامة شيئاً وإن اختلف معه البعض في بعض طروحاته بهذا الصدد.

وقد شهد القرن الحالي مولد مدرسة جديدة في الاستعراب الإسباني، هي المدرسة المعاصرة تضارع المدرسة الكلاسيكية التي تكرم نشاطها أساساً للدراسات الأندلسية والكلاسيكية العربية. ويعود الفضل كما أسلفت القول في إنشاء هذه المدرسة إلى الأستاذ بدرو مارتينيث مونتابيث فبالرغم من صغر سنه نسبياً - احتفل بعيد ميلاده الخامس والستين في يوليو 1998، وأستاذ الجامعة يظل عاملاً في إسبانيا حتى السبعين - نجد أن معظم مستعربي هذه المدرسة قد خرجوا من عباءته. وهم يملأون الجامعات الإسبانية ومعاهد البحث في الشؤون العربية في مدريد ومدن الأندلس وبرشلونة وطليطلة، وكلهم مدينون له ويملاهم العرفان بذلك والزهو بالتلمذ على يديه.

التبادل الثقافي

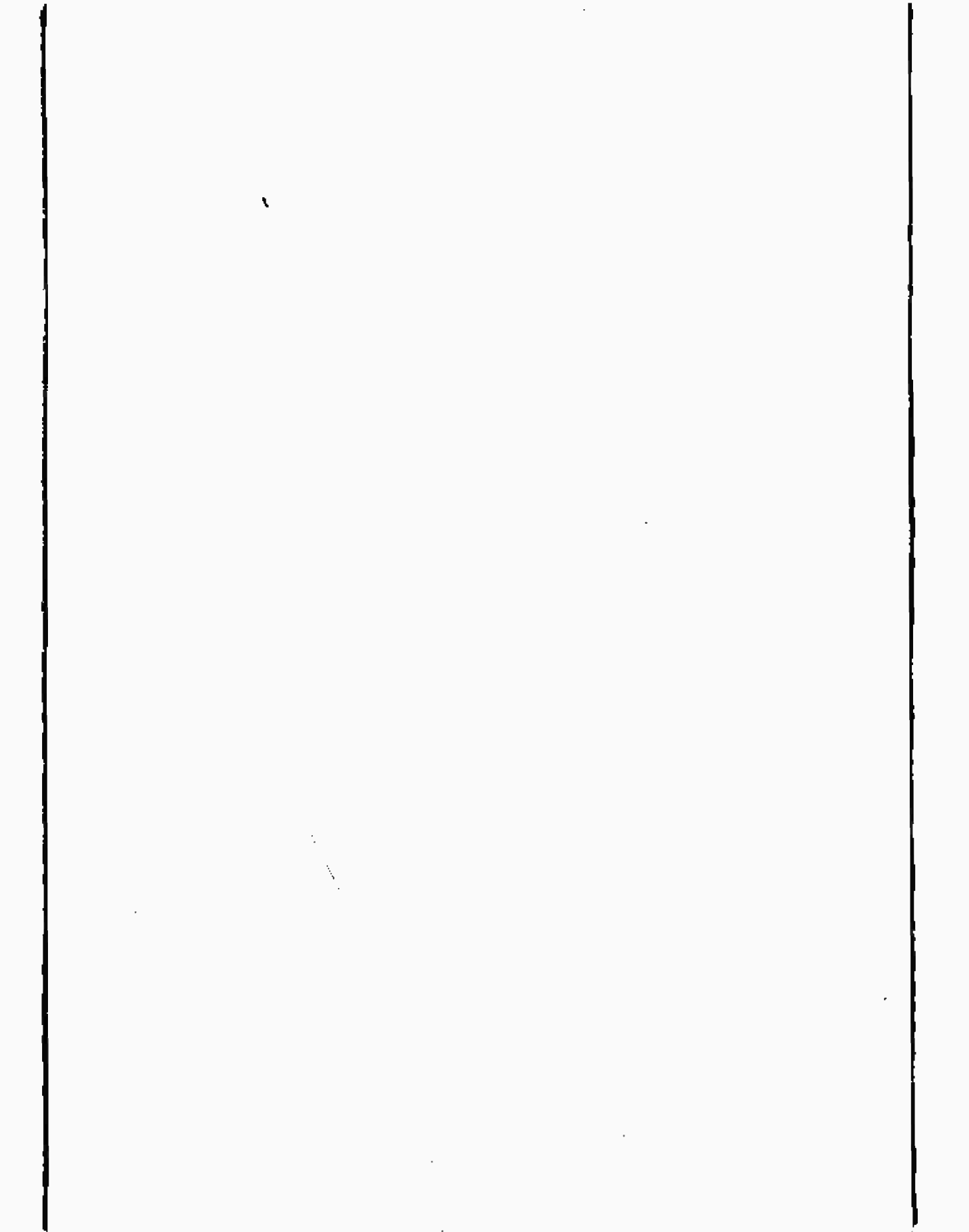
بين الإسكندرية والغرب الإسلامي

في العصور الوسطى الإسلامية

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

السيد عبد العزيز سالم



التبادل الثقافي بين الإسكندرية والغرب الإسلامي في العصور الوسطى الإسلامية

كانت الإسكندرية في العصر البطلمي -بمجمعها العلمي ومكتبتها المشهورة- منار العلم ومركز الإشعاع الأول للثقافة الهلنستية في عالم البحر المتوسط، وكانت منتهى الغاية، ومقصد العلماء، ووطن أولى العلم والحكماء، ومنتجع الفلاسفة والشعراء. وظل مجمعها العلمي ومكتبتها صرحان عظيمان يحملان مشعل الحضارة السكندرية^(١) إلى أن بُدِدت مكتبتها إثر حريق سنة ٤٨ ق. م. الذي اتهم قسماً كبيراً منها، ثم قضى الاضطراب السياسي والنزاعات الدينية والمذهبية بها في عصر انتشار المسيحية -وبالذات في سنة ٢٧٢م- على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب، وفقدت الإسكندرية بالتدريج مكانتها السياسية التي كانت تتبوأها بين مدن البحر المتوسط وحولضره في العصر الروماني بسبب سياسة القمع والاضطهاد التي كان يمارسها الرومان في عصر الوثنية ضد دعاة المسيحية ومعتقيها في مصر لا سيما في عهد الإمبراطور دقلديانوس الذي قدم إليها بنفسه سنة ٢٨٤م لإخماد ثورة أهلها عليه، وخرّب عمارتها واستباح أراضيها، وحتى بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية ديناً لها بسبب احتدام النزاع المذهبي بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة الإسكندرية وإيمان الأباطرة البيزنطيين في سياساتهم التعصّفية ضد كنيستها مما أدى إلى انتشار الفوضى في مصر، وتعرض الأقباط لصنوف العذاب والتكيل. وكانت الإسكندرية وقت لن انتتحتها عمرو بن العاص صلحاً في مستهل المحرم سنة ٢١هـ ما تزال تحتفظ ببعض مكانتها التي كانت تتبوأها منذ أن

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق عبد الملعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ١١١٨ المقرئى، كتاب المواضع والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بيروت، ج ١، ١٩٥٩، ص ٤٢.

أسسها الإسكندر، على الرغم مما أصاب عمرانها من أضرار بسبب الاضطرابات التي اجتاحتها إبان الصراع بين الوثنية الرومانية والمسيحية^(١)، والنزاع المذهبي حول طبيعة المسيح بينها وبين الكنيسة البيزنطية^(٢)، وكذلك بسبب تعرض جانب من عمرانها للتدمير أثناء الحصار الفارسي للإسكندرية من جهة^(٣)؛ ونتيجة لهبوط قسم كبير من واجهتها الشمالية (الحي الملكي) إثر الهزات الأرضية والزلازل العنيفة التي تعرضت لها من جهة أخرى^(٤)، بالإضافة إلى رحيل عدد كبير من سكانها عنها كليل الفتح العربي الأول لها في سنة ٢١هـ وفتحها الثاني سنة ٢٥هـ إلى القسطنطينية، بحيث خلت دورهم بعد رحيلهم عنها وأصبحت أخاذ للعرب الفاتحين، ويتضح من كل ما ذكرناه أن الإسكندرية فقدت كثيرًا من مكانتها ولم تعد بعد تأسيس القسطنطينية واتخاذها حاضرة للديار المصرية- المركز الإداري والثقافي الأول، لعدة اعتبارات تجعلها فيما يلي:

١- أن الإسكندرية بوقوعها على الساحل الشمالي لمصر كانت معرضة لأي هجوم بيزنطي من جهة البحر لى وقت لم يكن للعرب الفاتحين قدرات بحرية كافية لمواجهة البيزنطيين بحرًا؛ فقد كان هؤلاء أصحاب السيادة الفعلية على سائر أنحاء حوض البحر المتوسط شرقيه وغربييه بحيث أطلق على هذا

^(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٦٥.

^(٢) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

^(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦؛ ألفريد بقر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٤٥.

^(٤) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos
Memoires Presentes a l'Institut Egyptien, Vol. IX, Le Caïre,
1916, PP. 57- 63.

، Les Ports Antiques de Pharos, Bulletin de la Société
archéologique d' Alexandrie, 1912.

البحر اسم بحر الروم. وليس من شك في أن الإسكندرية بل مصر كلها ربما كانت تتعرض لكارثة حقيقية لو أن العرب اتخذوها حاضرة لهم وتعرضت لغزو بحرى بيزنطى؛ وهو ما حدث بالفعل سنة ٢٥هـ بعد أربع سنوات فقط من فتحها عندما دخلتها قوات البيزنطيين بقيادة ماتويل، الأمر الذى دعا عمرو بن العاص إلى حصارها بالمجانيق وتدميرها لقطاعات من أسوارها، وافتتاحها لها الفتح الثانى.

٢- الرغبة فى كسب قلوب المصريين باتخاذ حاضرة تقع قريباً من موقع منف الحاضرة القديمة لمصر^(١) لاسيما وأن أهل مصر كانوا ينظرون إلى الإسكندرية على أنها مدينة يونانية البناء والسكان ويعتبرونها خارج مصر Ad Aegyptum.

٣- كان الفاتحون العرب يستهدفون تعريب البلاد وذلك لا يمكن أن يتحقق باتخاذ الإسكندرية حاضرة للبلاد على الرغم من أخاذهما الكثيرة التى تسببهم عن بناء بيوت جديدة، وقد تطلب الأمر تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون مركزاً للتعريب ونشر الإسلام، وفى موقع وسط يهيئها للقيام بهذا الدور الإشعاعى للحضارة الإسلامية.

٤- انقطاع ترعة شيديا عن إمداد الإسكندرية بمياه النيل والاعتماد الكلى آنذاك على الآبار والصحاريح الجوفية؛ وهو أمر يعوق المشروعات الزراعية فى جنوب الإسكندرية مما يحتم اختيار موقع آخر تتوفر فيه مياه السقيا.

لهذه الأسباب كلها كان لازماً على الفاتحين العرب الاستغناء عن الإسكندرية كعاصمة إسلامية وتأسيس القسطنطينية لتقوم بدورها كمركز إشعاع للحضارة الإسلامية لاسيما وأنها كانت تشقها قناة تربطها بالبحر الأحمر وموانيه الحجازية (خليج أمير المؤمنين)، وقد ساعدت فى تزويد دار الهجرة بما كانت تحتاج إليه من التمتع.

^(١) سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمى، مقال فى كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أدم العصور، محافظة الإسكندرية، ١٩٦٣، ص ٢٤١.

وأخذت الإسكندرية تتعرب تدريجيًا لعاملين؛ الأول: انصراف أهل مصر عن الثقافة اليونانية وإقبالهم على الثقافة العربية الإسلامية؛ الأمر الذى دفع من بقى من سكان الإسكندرية الذين آثروا البقاء فيها بعد الفتح العربى إلى التخلي تدريجيًا عن ثقافتهم القديمة والإقبال على حضارة الإسلام، والثاني: نزول أعداد كبيرة من عرب اليمن بالإسكندرية ونواحيها بإقليم البحيرة لحراستها والمراقبة في محارستها، نخص بالذكر منهم بنو لخم وبنو جذام وبنو مدلج وكندة والأرد والحضارمة وخزاعة والمزاغنة، ويعتبر بنو مدلج اللخميون أئمة من نزلها من عرب اليمن^(١)

واستمرت الإسكندرية مع تعربها تحتفظ ببعض سمات الثقافة اليونانية في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ومن المرجح أن مجموعات من كتب الحكمة نجت من الكوارث التى تعرضت لها مكتبة الإسكندرية واحتفظ بها بعض العلماء السكندريين الذين استمروا يقيمون بالإسكندرية بعد الفتح العربى. وظهر من علمائها شخصيات علمية مرموقة فى الكيمياء والطب والفلسفة نذكر منهم على سبيل المثال الراهب مريانوس الذى أخذ عليه خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء^(٢)، وكان خالد هذا مولعًا بدراسة هذا العلم وعرف لذلك بحكيم آل مروان^(٣)، ومنهم يحيى النحوى الإسكندراني الذى نبغ فى الفلسفة والطبيعات، وعبد الملك بن بحر السكندرى فى الطب^(٤) وكان يعرف بغرماطيقوس، أما

(١) المقرئى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١، ص ١٠٥ سحر السيد عبد العزيز سالم، القبائل اليمنية فى الإسكندرية والبحيرة ودورها فى حوادث التاريخ الإسلامى، ندوة العلاقات المصرية- اليمنية، القاهرة، ٦-٨ فبراير ١٩٩٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست، نشر جستاف فلوغل، ليبزج، ١٨٧١، نسخة مصورة، بيروت ص ٢٥٤؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، ص ٤٣١.

(٣) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٤) ابن أبى أصيبعة، عيون الأكلباء فى طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥، ص ١٧١.

ترقيتاسيدس الطبيب، وكان يتولى التدريس بالإسكندرية في عصر الدولة الأموية وأريثاسيوس واشتغل بالطب أيضا ماغنوس وفوليس المعروف بالقوابلي، وكان خبيراً بعزل النساء، ويليطن الإسكندري (ت ١٨٦هـ) الذي يعث الخليفة هارون الرشيد في طلبه لتطبيب إحدى جواريه، وسعيد بن نوفل الذي كان يعمل في خدمة أحمد بن طولون.

وفي مجال الثقافة البحرية حظيت الإسكندرية في هذه القرون الثلاثة الأولى من الهجرة بشهرة كبيرة كقاعدة بحرية متوسطة مهمة، ودار صناعة رئيسة في مصر، وكان يعمل بها عدد كبير من صناع السفن؛ كالتجارين والمقلفين وقصاري الأقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار صناعتها البطلمية^(١)، وكان العرب الفاتحون لإفريقية (تونس) يعتمدون في غزواتهم البحرية من سنة ٢٨هـ إلى سنة ٨٩هـ على الأسطول المصري الراسي في قاعدة الإسكندرية البحرية، لكن بعد هذه القاعدة عن إفريقية وصقلية، بحيث يستغرق الوصول إليها فترة طويلة، يضاف إلى ذلك أن كثرة الصدامات البحرية بين العرب والبيزنطيين في شرق البحر المتوسط، واشتغال الأسطول الإسكندري بحراسة السواحل المصرية الشامية ألزم أحد ولاة العرب على إفريقية -وهو حصان بن

(١) السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ج ١، الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥، وقد عثر في شارع أسائل الغلال بميناء البصل في الثمانيات على مدخل أثرى على شكل صرح يقضى إلى درج هابط ينتهي بباب يعلو فتحته شق اتقى أغلب الظن أنه يتعلق بمشط حديدى كان يعلو ويهبط عند الضرورة عن طريق سريقات جانبية وكان الظن آنذاك أن هذا الأثر يتعلق بباب الخوخة الذي كان يفتح في الجانب الغربى من السور الشمالى، لكن وجود المدخل العلوى على شكل صرح فرعونى الطابع جعلنى أرجح أنه يرجع إلى العصر البطلمى، وفي تصورى أنه مدخل دار الصناعة البطلمية التى ورد ذكرها فى كتاب «الإمام بما كضت به الأحكام» للنويرى الإسكندري على أنها دار الصناعة الغربية، وهى دار الصناعة البحرية القديمة التى واصلت نشاطها فى العصر الإسلامى، وكانت تنتج مع زميلتها الشرقية السفن الحربية.

النعمان الغساني - بالتفكير جدياً في إنشاء قاعدة بحرية ودار صناعة على مقربة من ساحل قرطاجنة لإنشاء أسطول ينفرد بتحركاته لغزو جزر البحر المتوسط الغربي وحماية سواحل إفريقية من غارات البيزنطيين، ولم يقره حسان بن النعمان الغساني في الكتابة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يبعث إليه من الإسكندرية طائفة من البحريين الأكباط، المتفوقين في الثقافة البحرية، والمتمرسين في صناعة السفن، ليتولوا إنشاء دار صناعة تونس المحدثّة، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر يأمره بأن «يوجّه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر، ويحصن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس- وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ... وأن يصنع لها العراكب ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغار منها على ساحل الروم»^(١) فولد القبط عليه وهو مرابط بتونس، وأسهموا -على هذا النحو- في بناء هذه القاعدة البحرية، وقد سبق لأكباط الإسكندرية من البحريين وممن لديه قدرة على القتال بحراً، أن أسهموا في المعارك البحرية التي خاضها العرب مع البيزنطيين في شرق البحر المتوسط وأهمها قلعة ذات الصواري^(٢) وغزو قبرص سنة ٢٨هـ، وبالإضافة إلى تفوق الإسكندرية في مجال الثقافة البحرية، كانت الإسكندرية مركزاً متقدماً في الثقافة الفنية ويتمثل ذلك بحق في آثارها القديمة التي كانت مصدر إعجاب كل من شاهدها من رحالة المغرب والأندلس على وجه الخصوص، لا سيما من كانت لديه دراية بصناعة البناء، وأثارت بعظمتها مشاعرهم، وأشهرها منار الإسكندرية الذي كان يراه رباتو السفن والملاحون في

^(١) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سيلان، الجزائر، ١٩١١، ص

١٣٨، التجاني، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨، ص ٤٥

ابن أبي دينار، المولى في تاريخ إفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ، ص ١١.

^(٢) راجع التفاصيل في: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية في مصر والشام، ص ٣٢

البحر على مسافة بعيدة يقدرها ابن جبير بأكثر من سبعين ميلاً فيهديهم إلى طريق الأمان، وفي ذلك يقول ابن جبير في رحلته: «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي مَنْ سَخَّرَ لَكَ آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه في غاية العتاقة والثاقبة طولاً وعرضاً، يزاحم الجو سماءاً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف، وينحصر دونه الطرف...»^(١). وعنه يقول خالد بن عيسى البلوي صاحب كتاب «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»: «هتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط في أيدي الناس، فضجوا بالدعاء... واختلف إليهم أنواع الهلاك والبلاء... وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سروراً بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سروراً بعدما باتوا بأفئدة يراع خوافق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى في النفوس، وأوقع في القلوب، ولا أعظم سروراً من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلنت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت:

بشراكم لاح المنار الأسعد ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذي كنا به في حالة البلوى نقوم ونقع

وافتر من إسكندرية ثغرها الوضاح فهو منظم ومنضد^(٢)»

هذا المنار الشهير كان في تصور المسافرين في البحر أعجوبة من أعاجيب الدنيا، وهداية لهم إلى النجاة من صولة البحر، رسخت صورته في

^(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليام رايت، لندن، ١٩٠٧، ص ٤١.

^(٢) البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، ج ١، المحمدية، ص ١٩٦.

مخيلاتهم، واتخذوه أنموذجاً يقلدونه في بناء منائر مساجدهم؛ فنشهد تقليداً واضح المعالم لصورته الخارجية في كل من منئتي جامع القيروان وجامع سفاقس، كما نشهده مقلداً من جوفه في مآذن جامع الكتبية بمراكش وجامع حسان بالرباط في المغرب وجامع القصبة بإشبيلية في الأندلس من عصر الموحدين^(١)؛ ومن آثار الإسكندرية القديمة -التي أثارت إعجاب الرحالة والزائرين- بقايا دار الحكمة (ميوزيوم) التي ظلت قائمة في العصر الإسلامي، فوصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن رسته^(٢)، وصفاها الرحالة اليهودي بنيامين التيطلي باسم أكاديمية أرسطو^(٣)، كانت أنموذجاً لمكتبات ومجامع علمية مغربية؛ فقد قلدها الرستميون في تاهرت فيما أطلق عليه «المكتبة المعصومة» التي كانت تضم نحواً من ٣٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم، ولكنها بُدّدت على أيدي الفاطميين عند استيلائهم على تاهرت في سنة ٢٩٦هـ بعد احتفاظهم بعدد كبير من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب^(٤)، كما امتكها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩هـ) الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء بيت الحكمة بقيادة؛ فقد كان شغوفاً بالعلم، ودفعه ولعه بالعلوم الرياضية والحكمة، واشتغاله بالفلسفة وتقرّبه للعلماء إلى تأسيس هذا المجمع العلمي، واستقدم إليه أعداداً كبيرة من علماء الفلك والطب والنبات والهندسة والرياضيات من المشرق والمغرب^(٥)

(١) السيد عبد العزيز سالم، التبادل الفنى بين مصر والأندلس في العصر الإسلامي، بحيث التى في المؤتمر الدولى الأول للتبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط صبر

التاريخ، الإسكندرية ١٩٩٣،

E. A. Salem, The Influence of the Lighthouse of Alexandria on the minarets of North Africa and Spain, Rev Islamic Studies, vol 30, 1991.

(٢) ابن رسته، كتاب الأعلق النفسية، ج ٧ من المكتبة الجغرافية، تحقيق دى غويه، ليدن ١٨٨١-١٨٨٢، ص ١٠٨.

(٣) Benjamin de Tudela, Via de Benjamin, Madrid, 1918, P. 113.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٩٠.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق.

وزوده بالآلات الفلكية، وكان بيت الحكمة الأعلى مقرًا تعقد فيه المجالس العلمية للمناظرة، وكان يشهد هذه المجالس علماء بارزون من فقهاء المالكية والحنفية، ومن المكتبات التي جاءت تقليدًا لمكتبة الإسكندرية مكتبة قصر الخلافة بقرطبة، وكانت تضم في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ٤٠٠ ألف كتاب في مختلف أنواع الفنون والعلوم بُدئت سنة ٤٠٣هـ زمن الفتنة، فبيع أكثرها على يدى الحاجب واضح العامري، ونهب ما تبقى منها على إثر دخول البربر مدينة قرطبة في سنة ٤٠٣هـ المذكورة^(١).

واستعادت الإسكندرية منذ القرن الثالث الهجري بعض شهرتها في مجال الثقافات الفنية والدينية والأدبية، ففي مجال الثقافة الفنية، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً فيما يتعلق بفن عمارة منار الإسكندرية، ومدى تأثيره على مآذن المساجد المغربية الأندلسية، حظيت الإسكندرية بمكانة سامية في فن الغناء والطرب، فكانت مركزاً من المراكز الرئيسية في هذا الفن شأنها شأن دمشق والمدينة في عصر الخلافة الأموية، فكانت من بين من ضاقت الإسكندرية بهم من فنانيها في هذا المجال شاب حدث متظرف يحسن الغناء يدعى عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (ت ٢٣٧هـ) كان موهوباً بإجادته الغناء وبقدراته وذكائه، وفد إلى قرطبة في بداية إمارة عبد الرحمن الأوسط، فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد الذي توسم فيه الذكاء والكفاية، فنصحه بأن يمسك عن الغناء ويكتفى بالتركيز على قدراته الأدبية، فامتثل لنصحه، وحظى لديه بمنزلة رفيعة، وقدمه إلى الأمير عبد الرحمن الذي كان يقدر نبوغ الموهوبين، فأعجب به، ورفع منزلته، وناممه، وأسند إليه خطة صاحب المدينة بقرطبة، ورقاه بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة^(٢)، ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، على

^(١) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس، ج ٢، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ١١٦٢؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة، الأندلس بين سقوط الدولة العمارية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير نواشت بأداب الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥٧، ٤٤٩.

^(٢) ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، قطعة خاصة بالسنوات الأخيرة من عهد-

الرغم من أعبائه الثقيلة ومشاغله المختلفة بحث في سنة ٣٤٤ هـ إلى ثغر الإسكندرية سفينة ضخمة ليستقدم إلى الأندلس عدداً ضخماً من الجوارى البارعات في فنون الغناء والطرب^(١)، وفي مجال الفقه والأدب شارك عدد من علماء الإسكندرية الأعلام ممن اجتذبهم اهتمام بنى أمية في الأندلس بالتقافات المشرقية والعلوم في الحركة العلمية بقرطبة؛ ففي الحديث والفقه أسهم بعض علماء الحديث السكندريين في نشر المذهب المالكي وازدهاره في الأندلس، كما أدخل بعضهم المذهب الشافعي، ومن أبرز علماء الإسكندرية الذين رحلوا إلى الأندلس في عصر ملوك الطوائف الفقيه المحدث زيد بن حبيب بن سلامة التضايعي الإسكندراني الذي دخل الأندلس في سنة ٤٣٣ هـ وكان شافعي المذهب^(٢)، والفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني (عاش في القرن السادس الهجري) الذي تتلمذ في الإسكندرية على يد الشيخ الحافظ أبي الطاهر أحمد السلفي، والفقيه محمد بن محمد بن محارب القيسي الإسكندراني الذي دخل الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري، ونزل بقرنطبة، وروى عن الفقيه عبد المنعم بن محمد الخزرجي المعروف بابن الفرس (ت ٥٩٧ هـ)^(٣)، والفقيه المحدث أحمد بن معد التجيبي الإسكندراني المعروف بالإقليشي (ت ٥٥١ هـ)

١- الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد، نشر وتحقيق محمود علي مكي، بيروت ١٩٧٣، ص ١٣٠ سحر عبد العزيز سالم، أضواء على فن الغناء والموسيقى في الأندلس في عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف، من كتاب بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ٦٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٩٤ اعتماداً على ابن الأثير، الكامل في التاريخ، لندن ١٨٦٧، ج ٨، ص ٥١٣.

(٣) ابن بشكوال، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، القاهرة ١٩١٦، قسم ١، ص ١٩٢، ترجمة ١٣٤٩ كمال السيد أبو مصطفى، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ١٣٣.

(٤) كمال أبو مصطفى، المرجع السابق (شخصيات سكندرية في الأندلس)، ص ١٣٤.

الذى استقر بدائية، وأخذ على الفقيه القاضى أبى بكر محمد بن العربى المعانرى الإشبلى، وأبى على حسين بن محمد بن ليرة بن حيون المعروف بابن سكرة الصدفى السركسلى، وعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى^١ الغرناطى، والمؤرخ محمد بن أبى السرور الإسكندرانى الذى نخل الأندلس فى أواخر القرن الخامس الهجرى^(٢).

وازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية ونشطت نشاطاً واضح المعالم فى العصر الفاطمى، واستعادت نضارتها القديمة، وأصبحت مركز الرحلة وغاية الطلب، واجتذبت طلاب العلم إليها لا سيما من الغرب الإسلامى بحيث أصبح يطلق عليها باب المغرب^(٣)، وتأسست بها فى هذا العصر مدرستان سنيتان قبل أن ينتشر نظام المدارس السلجوقية بمصر فى عصر الدولة الأيوبية، هما المدرسة العونية أو الحانظية التى أسسها الوزير الفاطمى رضوان بن ولخشى فى سنة ٥٣٢هـ فى خلافة الحافظ لدين الله، وكان يتولى التدريس بها الفقيه العالم أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الإسكندرانى، وكان صلاح الدين يوسف يتردد عليه ويسمع منه العوطاً، وتوفى فى شعبان سنة ٥٨١هـ^(٤)، أما المدرسة الثانية فهى المدرسة السلفية أو العادلية التى أسسها العادلى على بن السلاى والى الإسكندرية أثناء ولايته وذلك فى سنة ٥٤٤هـ وقدم للتدريس بها الفقيه الشافعى أبى الطاهر عماد الدين أحمد السلقى الأصفهانى، وكان عالماً جليلاً أوحده زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية، قدم إلى

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٤.

(٣) الإبريسى، نزعة المشتاق فى اختراق الأكاف، القاهرة، ج ٢، ص ٥٠.

(٤) الذهبى، العبر فى خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المجد، ج ٤، الكويت، ١٩٦٠، ص ٢٤٢، جلال الدين السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج ١، طبعة مصر ١٣٢١هـ، ص ٢١٤، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١١٢-١١٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢١٨، هامش ٣.

الإسكندرية في سنة ٥١١هـ وتوفي في ٥ من ربيع الآخر سنة ٥٧٦هـ ودفن بمقبرة وعلة^(١)، وكان السلطان الناصر صلاح الدين يوسف علي الرغم من مشاغله العديدة في مواجهة الصليبيين وتوحيد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر- يغتنم فرصة وجوده بمصر فيزور الإسكندرية ويتردد على شيخها الجليلين العوفي والسلفي، وأهم هذه الزيارات زيارته للسلفي في ٢٥ شعبان سنة ٥٧٢هـ، وكان يقصده أيام الخميس والجمعة والسبت من الأسبوع^(٢)، وزيارته للعالم أبي الطاهر بن عوف في ١٧ شوال سنة ٥٧٧هـ وسماعه لروايته الحديث عن الطرطوشي ثاني يوم وصوله إلى الإسكندرية^(٣). ويرجع اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية إلى زمن الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد حيث أولاه كثيرًا من عنايته علميًا وعسكريًا، وكان محور رعايته لها عسكريًا تمكين عمارة أسوارها وتعميره لأسطولها، وعلميًا رعايته لأوفى العلم وللتقوى من أهلها الذين كانوا يميلون إلى المذهبين المالكي والشافعي اللذين كانت جذورهما متأصلة في الإسكندرية منذ العصر الفاطمي، وساعد على ذلك ما كان يبذله فقهاؤها من جهود لمناهضة التشيع، وكان من أبرز شيوخها في هذا المجال شيخ المالكية الفقيه العالم الأندلسي أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان الفهرى الطرطوشي نزيل الإسكندرية المعروف بابن أبي رندقة^(٤) المتوفى في

^(١) للسبكي، طبقات الشافعية، ج ٤، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص ٤٥، ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٢، القاهرة ١٩٣٢، ص ٣٠٧، السيوطي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥.

^(٢) أبو شامة، للروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج ٢، ص ١٦٨٩، ابن كثير الدمشقي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٩٦.

^(٣) المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٧٦.

^(٤) ابن بشكوال، كتاب السلسلة في تاريخ أئمة الأندلس، مجلد ٢، مدريد، ١٨٨٣، ص ٥١٨ الضبي، بغية الملتصق في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق كويبره، مدريد، ١٨٨٥، ص ١٢٥-١٢٨ الذهبي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٨، السيوطي، المصدر السابق، -

جمادى الأولى سنة ٥٢٥هـ، ومنذ هذا الحين توافد على الإسكندرية عدد كبير من علماء المغرب الأندلس الذى أسهموا فى تنشيط الحياة الثقافية بالإسكندرية، وكان لهم دور رائع فى ازدهار الفقه المالكي فى هذا الثغر، نذكر منهم على سبيل المثال أبو القاسم بن مخلوف المغربى نزيل الإسكندرية (ت ٥٣٣هـ)، وأبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة المالكي^(١)، والفقيه الشافعى أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمي الميورقي نزيل الإسكندرية (ت ٥٢٣هـ)^(٢) والفقيه أبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد العمري السركسلى (ت ٣٩٢هـ)، ومحمد بن عمر الفخار القرطبي (ت ٤١٩هـ)، والشيوخ المقرئ ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد الخزرجي الساعدي الغرناطي^(٣)، وناصر الدين محمد بن حسن بن عبد الملك بن ساطر البونى، الأديب جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حسن بن على بن التونسي^(٤) وأبو عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى^(٥) وعبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن القمام - وكان من شيوخ القراء فى الإسكندرية^(٦) - وأبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى المالكي القرطبي (ت ٥٥٦هـ)^(٧) والحافظ المقرئ الحسن بن

= ج ١، ص ٢١٢ جمال الشيال، المرجع السابق، ص ١٠٠٥٥٠ الشيال، أبو بكر الطرطوشى للعالم الزاهد الثائر، سلسلة أعلام العرب، عدد ٧٤ لسنة ١٩٦٨ والمصدر ص ٤ العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضاراتها فى العصر الإسلامى، ص ٢٢٣ هلمش ٤.
^(١) المقرئ، نفع الطيب من حصن أندلس الرطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، ج ٣، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩.

^(٢) السيوطى، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩.

^(٣) ابن رشيد السبتي، ملأ العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج ٣ تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن اللخوجة، تونس، ١٩٨١، ص ٣٤-٣٥.

^(٤) ابن رشيد السبتي، المصدر السابق، تقديم، ص ٣٧.

^(٥) الضبي، المصدر السابق، ص ١٣٢، ١٣٤.

^(٦) السيوطى، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٥.

^(٧) السيوطى، نفس المصدر، ص ٢١٥.

خلف بن بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية^(١) (ت ٥١٤هـ) واليسع بن حزم الغافقي الجبائي نزيل الإسكندرية في عصر السلطان صلاح الدين (ت ٥٧٥هـ)^(٢) والقاسم بن خيرة بن خلف الشاطبي (ت ١٥٥هـ)^(٣) وأبو علي منصور بن لب الأنصاري الأندلسي^(٤) ، وابن الجرج أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الأنصاري التلمساني، وكان لهؤلاء الفقهاء الروافدين من الغرب الإسلامي أعظم الأثر في دعم الدراسات والثقافات المتعلقة بالثقافة المالكية ، وساعد على ذلك وجود المدرستين الفاطميتين السلفية والحوالية، وتمسك أهل الإسكندرية بالمذهب المالكي متأثرين في ذلك بعلماء المغرب والأندلس المالكيين، وكان لكثرة عدد هؤلاء بالثغر السكندري الأثير لنزولهم في عصر الدولة الأيوبية أكبر الأثر في حمل السلطان الناصر صلاح الدين في إنشاء دار لهم بالإسكندرية ينزلون فيها متى شاعوا وبها من القومة من يتكفل بمعاشتهم، كما أقام لهم -عند زيارته للإسكندرية سنة ٥٧٧هـ- مارستاناً وحماماً ومدرسة على ضريح المعظم توراتشاه^(٥) .

وبلغت الإسكندرية ذروة تقدمها العلمي والثقافي في عصر دولة العماليك بفضل مدارسها العديدة التي أسهم في بنائها تجار الكارم؛ فكان منها -بالإضافة إلى الحوالية والسلفية- المدرسة الخلاصية، والمدرسة الفابلسية، ومدرسة التكريتي التي تنسب إلى ابن الكويك التاجر الكارمي السكندري، ودار الحديث للتكريتي للفقهاء الشافعي ، ودار الحديث النبيهية للفتية المالكي، ومدرسة الفخر، ومدرسة البليبيسي، ومدرسة ابن حباسة، ومدرسة الدماميني السكندري، والمدرسة الخضراء المنسوبة إلى منشئها الشيخ خضر بن أبي بكر العدوي،

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣٥ .

(٢) نفسه، ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٦ .

(٤) المقرئ، فتح الطب، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٥) ابن جبير، الرحلة ، ص ١٤٢ المقرئ ، السلوك، ج ١، ص ٧٦ .

والمدرسة السراجية، ومدرسة قايتباي، ومدرسة ابن الأبرار، وهذا بخلاف كثير من الربطة والخانقاوات التي كانت تضم خلوات وأضرحة مخصصة للصوفية والزهاد نذكر من بينها رباط سوار، ورباط الهكاري المنسوب إلى باخل بن عبد الله الهكاري متولى ثغر الإسكندرية في عهد السلطان المنصور قلاوون (ت ٦٨٣هـ) وكان يقع خارج باب رشيد (الباب الشرقي من أبواب الإسكندرية)، ومنها أيضا رباط ابن سلام المنسوب إلى مفتنه أبي عبد الله محمد بن سلام، وكان يقع خارج باب البحر، تأسس قبل وقعة القبارصة سنة ٧٦٧هـ بأكثر من عام، ورباط ابن طغية الواقع على مقربة من رباط ابن سلام، ورباط قجماس الإسحاقى نائب سلطنة الإسكندرية في عهد السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي، وكان يقع خارج باب البحر، وخانقاه بيليك الحسنى، الذى ولى الإسكندرية فى القرن السابع^(١).

وبفضل هذه المنشآت العلمية ازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية المملوكية وجمعت بيت الثقافات المغربية الأندلسية والمشرقية سواء فى الطب والهندسة والفلسفة أم العلوم والثقافات الإسلامية، ونتج عن ذلك ما صمى بالاندماج الثقافى؛ فمن علماء المغرب والأندلس الذين نزلوا بالإسكندرية وشاركوا بعلومهم فى الحركة العملية بالثغر فى هذا العصر الفقيه الزاهد نزيل الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان المعاترى الشاطبى الذى انقطع للعبادة فى رباط سوار بتربة أستاذه أبي العباس المرسى وتولى فى رمضان سنة ٦٧٢هـ^(٢)، والشيخ الأكبر العارف بالله أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى رأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلى (ت ٦٨٦هـ)^(٣)

^(١) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦، ج ٥ ص ١٤٣.

^(٢) المقرئ، نفح للطيب، ج ٣، ص ٣٤١.

^(٣) جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص ١٩٥ - ٢١٢؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٤٧٥، هامش ١.

وغيرهما من شيوخ المغرب والأندلس. وعلى أيدي هؤلاء الجلة من العلماء المغاربة والأندلسيين تتلمذ كثير من أهل الإسكندرية في الحديث والقراءات والفقهاء وبلغ منهم على سبيل المثال جعفر بن علي بن هبة الله أبو الفضل الهذائي الإسكندراني المقرئ المحدث (ت ٦٣٦هـ) وابن الصفراوي الإسكندراني (ت ٦٣٦هـ) وناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الإسكندراني أحد الأئمة المتبحرين في العلوم الدينية من التفسير والفقهاء والأصول، بالإضافة إلى نبوغه في العربية والبلاغة والأنساب (ت ٦٨٣هـ)^(١)، وابن أخيه عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير (ت ٧٣٦هـ)^(٢) والحافظ ابن العماد أبو المظفر منصور بن سليمان الهذائي الإسكندراني الشافعي الذي صنف في الحديث والفقهاء وتاريخ الإسكندرية^(٣)، والمكين الأسمر عبد الله بن منصور الإسكندراني شيخ قراء الإسكندرية (ت ٦٩٢هـ)^(٤)، ويحيى بن أحمد بن الصواف الجذامي الإسكندراني (ت ٧٥٠هـ)^(٥) والشيخ الزاهد أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى المالكي الإسكندراني المعروف بالقباري (ت ٦٦٢هـ)^(٦)، وتاج الدين ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني المتصوف، أحد تلامذة الشيخ أبي العباس المرسى (ت ٧٠٧هـ) وبالقوت العرش تلميذ الشيخ أبي العباس المرسى (ت ٧٣٢هـ)، وفي علوم اللغة والنحو محمد بن عبد العزيز الإسكندراني (ت ٦٩٣هـ) ويذر الدين محمد بن أبي بكر النعاميني الإسكندراني (ت ٨٢٧هـ) وفي الشعر والأدب النساج بن غنوم الإسكندراني (ت ٦٨٠هـ)^(٧).

(١) السيوطي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(٤) نفسه، ص ٢٤٠.

(٥) نفسه، ص ٢٤٠.

(٦) نفسه، ص ٢٤٨.

(٧) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٥٤٧.

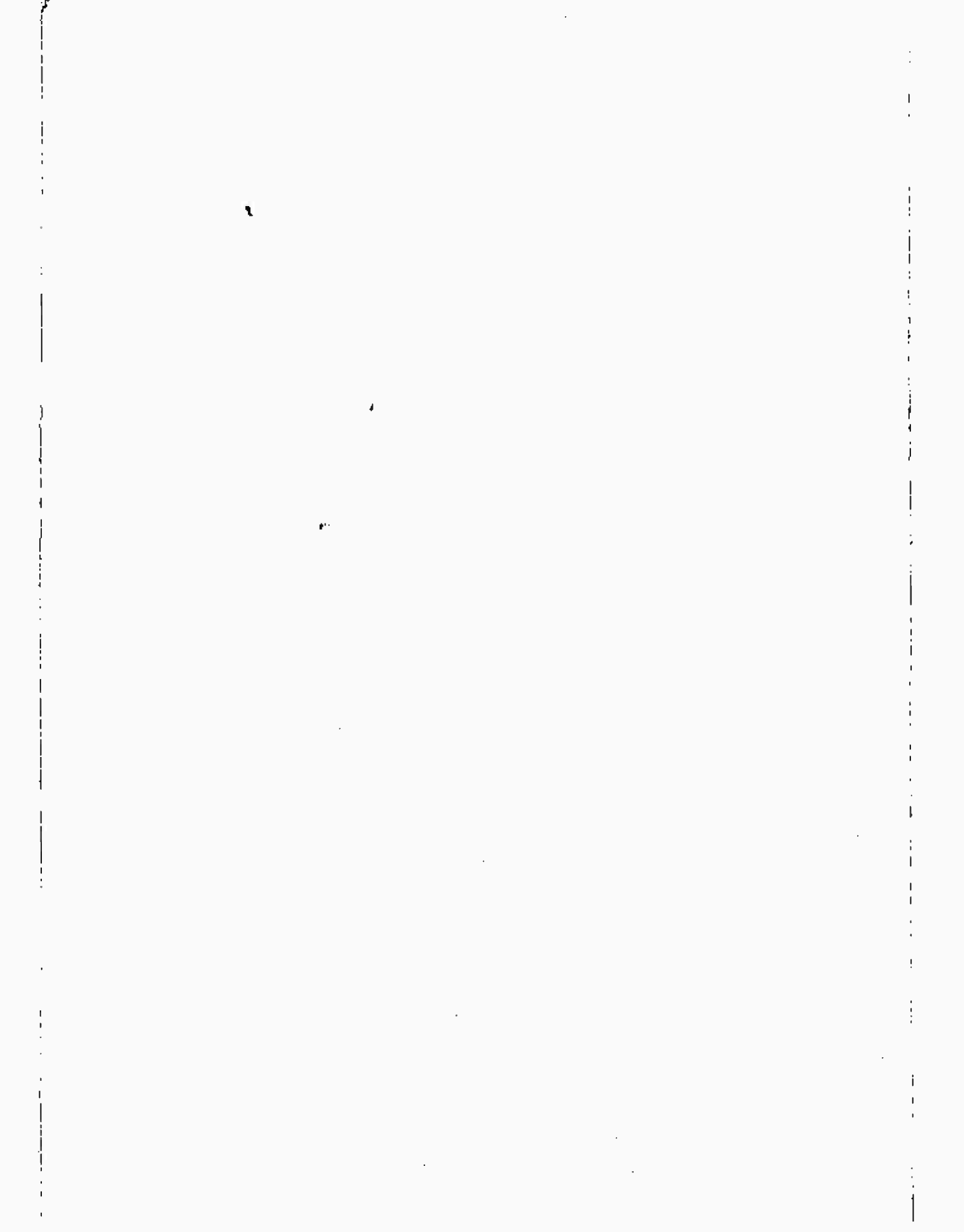
ويتبين مما سبق عرضه أن التواصل الثقافى بين الإسكندرية والمغرب لم ينقطع منذ عصر الخلافة الأموية حتى نهاية دولتى المماليك، وكان لوفود عدد كبير من علماء المغرب والأندلس إلى الإسكندرية فى موجات ونزولهم بها أعظم الأثر فى دعم ثقافتها برواند ثقافية مغربية أثرت الحياة الثقافية فى الثغر المحروس ، وأنجبت الإسكندرية أجيالا من علمائها توفرت لديهم مقومات نهضتها العلمية والحضارية فى العصر المملوكى بوجه خاص وجعلتها بحق من أهم مراكز الإشعاع الثقافى لى عالم البحر المتوسط.

العلاقات بين حضارات شرق البحر المتوسط القديمة من خلال دلالات الأساطير اليونانية

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

محمد السيد عبد الغنى



في أساطير العالم القديم لم تكن مجرد حكايات خرافية لغرض منها الإثارة والإمتاع وسرد الحكايات بصورة مبالغ فيها. لقد كان للأسطورة وظائف وأبعاد عديدة: فقد كانت تصوراً لمثلها في نظرة الشعب الذي أبدعها إلى الكون والعقيدة والأخلاق في عالمه وبيئته. كما كانت تلقي الضوء على الجوانب الحضارية والإنجازات والانتصارات والحرائث الجسام ليس في صورة سردية تقريرية بل في إطار رمزي متداخل في صلب نسيج الأسطورة في حبكة متقنة. باختصار، لقد كانت الأسطورة تمثل جهاز دعابة وإعلام قوي وفعال للدولة ومؤسساتها وحكامها ولبطلاتها ولسلاقتها. لكن هذه الدعاية كانت ذكية وجذابة تستخدم التلميح دون التصريح والرمز دون التقرير.

إن البعد الذي يعنينا في هذا البحث هو البعد التاريخي في مضمون الأسطورة وخصوصاً نظرة الإغريق إلى العلاقات بينهم وبين جيرانهم في حوض البحر المتوسط في الأزمنة القديمة كما تنعكسها أساطيرهم. ومما يجدر بالتنويه هنا أن الأسطورة - في هذا الإطار - لم تكن يوماً ثابتة على أقدم صورة لها، بل كانت في أحيان كثيرة عرضةً للتعديل والإضافة والحذف على مر العصور القديمة. إن الهدف من هذه التعديلات أو الإضافات اللاحقة على جسم الأسطورة الأصلية - فيما يبدو - هو جعل مثل هذه الأساطير رعاءً يتسع لإضافة المستجدات على هذه العلاقة بحيث تنخل في نسيج الأسطورة القديمة - المحددة - كما لو كانت جزءاً أصلاً منها. وفي هذا الإطار يتسع المجال للدعاية والترويج للمنظور والتصور الإغريقي لهذه العلاقات بين الإغريق وجيرانهم من ناحية، وإضفاء عرقلة أو زيادة مزعومة - في بعض الأحيان - على بعض جوانب هذه العلاقة بحيث تُبرز تميز الإغريق على من عداهم، وبالتالي تكررُ نظرية عاشت طويلاً في أذهان الإغريق ألا وهي تفوقهم على غيرهم؛ أي على "البرابرة". كل ذلك كان يتم من خلال جرّبة بفاعلة في نسيج الأساطير من جانب الإغريق وإضافة ما يلائم تصوراتهم الذهنية إليها في رموز وإشارات ومضامين في نسيج الأسطورة لترسيخ هذه المفاهيم في ذهن المتلقي سواء كان من الإغريق أو من غيرهم.

إن البحث الحالي لا يركز على سرد أحداث الأساطير المعطية - فهي معروفة ومذكورة في كتب الأساطير اليونانية - وإنما على تلك الدلالات والمضامين والرموز التاريخية والحضارية لهذه العلاقات المتشابكة بين الإغريق وجيرانهم من شعوب شرق البحر المتوسط من وجهة النظر الإغريقية. كما يحاول البحث الوصول إلى تصور موضوعي وتاريخي يحاول تصحيح بعض أوجه الانحياز في الأساطير الدعائية للإغريق.

والآن لنتناول اثنتين من هذه الأساطير ذات البعد التاريخي ونحاول استخلاص ما فيهما من دلالات ورموز أراد مؤلفهما توصيلها إلى أذهان المتلقين، ومعالجة هذه الدلالات والرموز معالجة نقدية.

أسطورة إيو

ملخص القصة ومصادرها:

"يو" في الأساطير الإغريقية هي ابنة لو من نمل "ليلاكوس" أول ملك لمتطوري لمدونة أرجوس في بلاد اليونان. وقد ولع زيوس كبير آلهة الإغريق في غرامها، ومن بعدها أصبحت تعاني من أحلام مفرعة مما دفع إيناخوس إلى استشارة وحى الآلهة بشأنها فصحروه بإبعادها عن منزلها ففضل. وقد ضيقت هيرا زوجها زيوس مثلبا وهو يحتضن الفتاة، فحولها زيوس إلى بقرة بيضاء وأقسم لزوجته هيرا أنه لم يضاجع يو من قبل. وكلفت هيرا الراعى أرجوس الذي كلف له عين في كافة أجزاء جسده بمراقبة يو في صورتها الجديدة طيلة الوقت (حتى لا يتمكن زيوس من مضاجعتها حين يحول نفسه إلى هيئة ثور) كما أرسلت إليها نבלية القطعان كي تدغها في كل حين حتى لا تستريح أبدا وبالتالي لا تتاح لزيوس أية فرصة لممارسة الحب معها. وللتخلص من مضايقات الحارس أرجوس أرسل زيوس هيرميس رسول الآلهة للتخلص منه، ولكن ظل شبحه يمكن يو على الدوام كما ظلت نبلية القطعان تنقص عليها عشبها وتجبرها على الترحل من مكان لآخر. وفي سباق ترحالها مرت بذلك الجزء من البحر الأيوني غرب اليونان والذي سمي بـ "البحر الأيوني" نسبة إليها، كما سمي مضيق "البيغور" (البيغوروس) (أو مخاض البقرة) بمناسبة ذكرى عبور البقرة (يو) له في تحوالها. وفي أثناء مرورها بـ "بروميثيوس" وهو مصفد بالأغلال في صخرة في جبل التوفتر شمال البحر الأسود تنبأ بروميثيوس لها بما سيحدث لها. وأخيرا وصلت "يو" إلى مصر حيث حولها زيوس إلى صورتها البشرية ومسها بيده ففجأ هذا أبنا هو إيليقوس (المولود بقلنس). وطبقا لإحدى الروايات فلها عبت ملك على أنها الإلهة إيزيس (ريمل إيليقوس على أنه العجل إيس). ثم ترد "نيينا" في الأسطورة على أنها ابنة إيليقوس وتتج (من بوسيدون، حسب روايات متأخرة) بيلوس الذي ينجب بدوره ولدين هما إيجيتوس ودفاعوس وينجب الأول خمسين ولدا والثاني خمسين بنتا وتحدث القصة المعروفة في مسرحية "الضلعات" لأيسخيلوس من تعقب أبناء إيجيتوس أبناء صهم في أرجوس للزواج منهم.

إن المصادر الأدبية التي ورثت بها التفاصيل المختلفة لهذه الأسطورة هي مسرحية إيسخيلوس "الضلعات" وكذلك مسرحيته "بروميثيوس في الأغلال" من القرن الخامس ق.م.، وكذلك قصيدة ديونورمبية كاملة من قصائد باخيليديس (المقطوعة التاسعة عشرة). كما ترد قصة "يو" كذلك عند أبولودوروس من القرن الثاني ق.م. في مؤلفه "المكتبة" الذي يتناول الأساطير البطولية للإغريق. ولكن أبولودوروس يزيد في هذه القصة أن ليبييا لم تتج بـ "بيلوس" فقط بل أنجبت كذلك أخاه "أجيدور" الذي تزوج من ابنة أخيه بيلوس المدعوة "دامنو" والتي أنجبت له ولدا هو "فوينيكس" حسبما ورد في رواية أخرى.

مصادر الأسطورة

(حسب ترتيب ذكر إيو في المصادر القديمة)

- Aeschylus; Prometheus Bound 705 ff and Suppliants 457 ff.
- Herodotus: I: 1 and II. 41.
- Euripides: Ephigenia Among the Taurians 382.
- Apollodorus: II. 1.3.
- Hyginus: Fabula 145.
- Strabo: X.1.3.
- Suda; sub IO and sub Isis.
- H. Malalas: Chronicles II.p.28, ed. Dindroff.
- Tzetzes: On Lycophron 835 ff.

دلالة الأسطورة :

إن ما يعنينا هنا هو الدلالة التاريخية للأسطورة حول علاقة الإغريق بمصر. ماذا يعنى مجئ إيو إلى مصر وتتبع زيوس لها وإجهاها منه بالمس والصراع بين لسلها العتمتل فى محاولة لبناء لاجبتوس للزواج عنوة من بدلت عنهم دافلوس وتعقيم حتى بلاد اليونان؟.

هل يشير ذلك إلى علاقة مبكرة نشأت بين الإغريق والمصريين منذ وقت مبكر فى التاريخ اليونانى؟ إن الحضارات اليونانية المبكرة مثل الحضارة المينوية فى كريت والحضارة الموكينية فى موكينى ووسط وجنوب اليونان خلال الألف الثانى ق.م. فى عصر البرونز فى البلاد اليونان كانت تربطها بمصر علاقات تجارية وحضارية وثيقة. ولعل خير دليل على قوة وكثافة تلك العلاقات العدد الهائل من الأكثر المصرية الذى عُثر عليه فى بلاد اليونان من الألف الثانى ق.م.، وكذلك فإن الكتابات الكريتية المبكرة التى ترجع إلى لولل الألف الثانى ق.م. كانت كتابية هيروغليفية شبيهة بالكتابة الهيروغليفية المصرية من حيث اعتمادها على الصور والرسوم فى التعبير عن الحروف مما يدل على تأثرها بالثقافة المصرية من خلال الوجود المكثف للتجار المصريين فى كريت. معنى ذلك أن اتصال الإغريق بمصر لم يتجاوز بدايات الألف التالى ق.م. - حيث لم تنشأ حياة حضارية منتظمة فى بلاد اليونان قبل ذلك - فى حين أن مصر عرفت الحياة الحضارية المستقرة منذ الألف الخامس ق.م. وتوحدت فى مملكة واحدة على يد ميناء (نلرمز) مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية فى لولخر الألف الرابع ق.م.

وحتى ذلك الاتصال الوثيق بين الطرفين الألف الثاني ق.م. كانت الكلمة العليا فيه للمصريين بمعنى أن المصريين كانوا هم الأكثر ذمياً إلى كريت وبلاد اليونان بدليل القرائن المنكورة أعلاه. أما مجئ الإغريق إلى مصر من تلك الفترة المبكرة فترائيه محدودة ويكتنفها الغموض ولعل أبرزها لوحة "الكنتيو" من عصر الدولة الحديثة والملك تحتمس الثالث التي يرجح بعض العلماء أنها تعنى أهل كريت. وفي قصة "نقوطة طروادة" على يد الحملة الإغريقية المتحدة التي ترعاها "الجامنون" ملك موكني في لواخر القرن الثالث عشر ق.م. لاسترداد "هيلين" زوجة الملك مينيلوس ملك لسيطة التي أغواها الأمير قطرودي بلريس وهرب بها إلى طروادة - وهي آخر جهد مشترك للإغريق تحت زعامة موكني - نجد رواية أخرى متأخرة عن "هيلين" من القرن السادس ق.م. بدءاً من الشاعر ستيسيخوروس. هذه الرواية - التي وردت كذلك في مسرحية "هيلين" للشاعر يورينديس من لواخر القرن الخامس ق.م. - تذكر أن "هيلين" الحقيقية لم تذهب مع بلريس إلى طروادة بل أن زيوس جعل هيرمس يحملها إلى مصر لتكون في حملة ملكها بروتوس، أما من ذهب إلى طروادة مع بلريس فهو شبحها لوطينها، وأن مينيلوس قد ذهب إلى مصر بعد نهاية الحرب قطرودية واصطحب زوجته الحقيقية - بعد اختفاء طيفها - بعد مغامرة مخوفة بالمخاطر ضد ملكها لين بروتوس الذي كان يطعم فيها لنفسه.

معنى ذلك كله أن منطق الأحداث والعلاقات المصرية اليونانية خلال الألف الثاني ق.م. لا يوحى بالرباط بين قصة "يو" الأسطورية وأية تراثين تاريخية من تلك الفترة، بل الأرجح أن دلالات الأسطورة تشير إلى عصر لاحق. ورغم مخالفة الأسطورة لتلك الوقائع والقرائن للتاريخية زمنياً فربما كان مجئ يو إلى مصر مجزأ عن أقدم مرحلة من مراحل العلاقات للتجارية والحضارية بين اليونان ومصر، وربما عثر في الوقت ذاته في الأسطورة وبقيّة تداعياتها عن استقرار بعض الإغريق بمصر، بمعنى أن الأسطورة أغلقت عنصر الزمن وركزت على الممثلين للتاريخية والحضارية لهذه العلاقة المتشابكة المتداخلة منذ أمد بعيد.

إن أول استقرار للإغريق في مصر يبدأ في لواخر القرن السابع ق.م. حين سمح الملك "بسمتيك الأول" من ملوك الأسرة السابعة والعشرين الفرعونية بإقامة مستوطنة تجارية لهم في "نقراطيس" شمال غرب الدلتا المصرية حوالي عام ٦٢٠ ق.م بعد أن سلطه المرتزقة الإغريق في طرد الأشوريين من مصر. وبدأت التجارة الإغريقية مع مصر تعاود ازدهارها من خلال هذا المرفأ على الفرع الكانوبي للنيل الذي كان يبعد عن البحر مسافة خمسين كيلومتراً تقريباً وتولد عليها إغريق المدن اليونانية لا سيما من ساحل آسيا الصغرى - خصوصاً ميليتوس - واستقروا بها وبالتالي أصبحت نقراطيس في عهد الفرعون أمزيس (٥٧٠ - ٥٢٥ ق.م) الميناء الرئيسي لمصر وبلغت درجة عالية من الأهمية للتجارية بحيث أصبحت تجارها تنظمها التواعد التجارية الملكية وأصبح الوجود الإغريقي في مصر متركزاً في نقراطيس. وظلت نقراطيس - تلك المستوطنة الإغريقية في مصر - تتبوأ وضع الميناء الرئيسي في مصر حتى أقيمت الإسكندرية على يد الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م.

الأرجح أن دلالة أسطورة "يو" التي نسجها الخيال الإغريقي ترتبط لكثير بفترة الاستيطان الإغريقي هذه في مصر خلال القرنين السابع والسادس ق.م. وأن "يو" ربما ترمز إلى كل الإغريق الذين استقر بهم الحال في مصر بعد طواف طويل في مناطق عدة أما ذبابة القطعان التي تظهر دائما في كل مكان فترمز إلى الفقر وسوء الظروف الاقتصادية في بلاد اليونان التي دفعت بالكثيرون إلى ترك لوطنهم والبحث عن أرزاقهم - كجند مرتزقة أو تجار - في مناطق أخرى. كما أن اتصال زيوس بيو في مصر فيرمز إلى ارتباط الإغريق في مصر بعقيدتهم اليونانية ورمزها زيوس رغم بعدهم عن الوطن، ولذلك فالإتصال كل غير مباشر بين هؤلاء المهاجرين أو المستوطنين الإغريق في مصر وعقائدهم ومعبوداتهم في بلاد اليونان لكنه لم ينقطع وهو ما يرمز إليه لتجلب يو من زيوس عن طريق اللبس. معنى ذلك أن حياة الإغريق استمرت في المهجر بعيداً عن الوطن وتواصلت بمباركة الهتهم ورعايتهم لهم من على البعد حسب اعتقاداتهم.

كما الصراع بين أبناء إيجيبتوس وبنت داناوس في الأسطورة ربما كان من الممكن الإشارة إلى دلالاته في أحداث القرن السادس ق.م. بين مصر وبعض المدن اليونانية، إن هيروdot يخرنا بوجود تحالف بين أمازيس ملك مصر (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م.) وبوليكراتيس طاغية جزيرة ساموس قرب ساحل آسيا الصغرى في حوالي منتصف القرن السادس ق.م. لمواجهة أي عدوان من قبل الفرس (كان بوليكراتيس مشهوراً بقوة أسطوله البحري بين المدن اليونانية). ويروي هيروdot قصة مفادها أن أمازيس ربما شعر بالغيرة والحسد تجاه بوليكراتيس فحرض تحالفه معه، ولكن الأرجح أن بوليكراتيس هو الذي فضّل تحالفه مع أمازيس وانضم للفرس بقيادة قمبيز في هجومهم على مصر التي أصبحت ولاية فارسية عام ٥٢٥ ق.م. تحت حكم قمبيز.

في هذا الموقف الأخير وهو هجوم الفرس على مصر بقيادة قمبيز بن كورش ومساندة بوليكراتيس طاغية ساموس لهم لابد أنه وقع اشتباك بين إغريق مصر من مرتزقة الملك أمازيس وإغريق بلاد اليونان من أهل ساموس. هذا الصراع بين الإغريق على الجانبين ربما كان يرمز إليه في الأسطورة صراع أبناء إيجيبتوس (إغريق مصر) ضد بنت داناوس (إغريق بلاد اليونان الأصلية وآسيا الصغرى الذين يُشار إليهم في المصادر اليونانية المبكرة بـ "الدقائين") حتى وإن كان مسرح الصراع الحقيقي في مصر وليس في بلاد اليونان كما أوردت الأسطورة. ولعل الخيال الإغريقي الذي ابتدع الأسطورة في تلك الأولة قد استفاد من ذكر المصريين "Αἰγυπτιοί" ومصر "Αἴγυπτος"، وكذلك "الدقائين" (إحدى التسميات التي تشير إلى اليونانيين δαῖται في إبيانة هوميروس) فابتدع شخصيتي "إيجيبتوس" و"داناوس" وابتدع صلة القرابة بينهما في إشارة إلى العلاقات القديمة بينهما وإن أضفى على الإغريق فضل السبق في هذه العلاقة، وهذا طبيعي في أسطورة إغريقية من وحي الخيال الإغريقي الذي يجلح إلى نسبة الريادة والمبادرة للإغريق رغم أن الأمر لم يكن كذلك في واقع الأمر.

(٢) أسطورة يوروبا وكادمويس

ملخص الأسطورة:

رأينا في أسطورة "هي" أن إيفاقوس ابن إيو الذي أنجبته هالمتس من زيوس وهى فى مصر قد أنجب بدوره ابنة هى "ليبيا" التى أنجبت من بوسيدون ولدين هما بيلوس (والد إيجبتوس ودانسوس) وأجيتور. غادر أجيتور مصر ليستقر فى أرض كنعان حيث تزوج من "تيليفاسا" - واسمها كذلك لرجيوس - التى أنجبت له خمسة أبناء هم كانوس وكلكس وفلسوس وفيلبوس وفوبيكس ولبنة ولحده هى يوروبا.

وقع زيوس - كبير آلهة الإغريق - فى غرام يوروبا فبحث بهرميس - رسول الآلهة - لكى يدفع مائتة أجنور إلى شاطئ البحر فى "سور" حيث كانت يوروبا ورقيقاتها قد اعتدن السير هناك. ولحق زيوس بقطيع مائتة أجنور وهو متكر فى هيئة ثور ناصع البياض ذى لفتين كبيرين ولحرون نقيفة تشبه الجواهر بينهما خط أسود. وحين وقعت عينا يوروبا على الثور الأبيض أخذت بحمله وتبهرت برقته كالحمل الوديع فلم تجل منه وبدلت تداعبه وتضع الزهور فى فمه وتضع أكاليل الزهور حول عنقه ثم استطلت فى نهاية الأمر وتركته يلف بها وبشئ الهيولى نحو حافة البحر. وفجأة بدأ يسبح بعيدا بينما كانت هى تنظر فى فزع إلى الشاطئ الذى فصر وكانت إحدى يديها قابضة على عنقه الأيمن والأخرى لا تزال ممسكة بسلة زهور.

ولتقرب زيوس (فى هيئة الثور) من جزيرة كريت وبدأ يخوض فى المياه للضحلة قرب مدينة "جورتيانا" الكريتية (فى الجنوب الأوسط من كريت) حيث تحول إلى نسر وألق يوروبا فى أحضان النصفاء قرب نبع ماء، لو فى رولية أخرى تحت شجرة تلب دائمة الأخضرار. وقد أنجبت يوروبا من زيوس ثلاثة أبناء هم ميلوس ورامانتيس وساريدون.

وعلى أثر اختفاء يوروبا أرسل أجيتور لولاده بحثا عن اختهم وشدد عليهم ألا يعودوا من غيرها فاجبروا على الفور، ولكن لما لم يكن لديهم فكرة عن مكان ذهاب الثور فقد اتجه كل منهم إلى سبيل مختلف عن الآخرين. فقد سلك فوبيكس طريق الغرب وسافر إلى ما وراء ليبيا إلى منطقة قرطاجة وما وراءها وأعطى اسمه للمناطق والسكان الفينيقين (البونيقين) هناك، ولكن نظراً لأنه عاد إلى أرض كنعان بعد وفاة أجيتور سميت هذه المنطقة من أرض كنعان "فينقيا" نسبة إليه، وأصبح لباً لألونيس وألفيسيبويا. وترجه كلكس إلى أرض لك "مياخين" التى سميت باسمه "كليكا" فى جنوب سيبا الصغرى فى حين ذهب "فونيوس" إلى "تينا" وهى شبه جزيرة تفصل بحر مرمرة عن البحر

الأسود (خرسونيس طريقيا على الخريطة المرفقة بكتاب روبرت جريغز) حيث أزعجته بعد ذلك الكائنات الخرافية الخطافة على شكل نصف امرأة ونصف طير. لما تأموس ورفاقه فقد اتجهوا أولاً إلى لولمبيا ثم انطلقوا بعد ذلك لاستيطان جزيرة تأموس^١ شمال بحر ليجه وتشغيل مناجم الذهب فيها.

ولما كانموس وأمه تيليفلسا فتجها إلى رودس حيث نفرا لأثينا ليندوس مرجلا من البرونز وأقاما معبدا لبومبيدون ثم مرا مرورا عبرا بجزيرة ثيرا، وفي الطريق ماتت أمه تيليفلسا، وتوجه كاموس ورفاقه على الأقدام إلى وحي ديلفى. وحين سأل كاموس كهنة ديلفى عن مكان يورودا نصحتهم الكاهنة بأن يكف عن البحث عنها وأن يتعقب بقرة ويبنى مدينة حيثما حطت هذه البقرة من لوط الإرهلق.

و غادر كاموس مكان الوحي من ديلفى إلى لوكيس وفي طريقه شاهد قطوعا من الأبقار فى خدمة الملك بيلاجيون الذى باعه بقرة على كل جانب من جانبيها شكل بدر ليض فى تملعه. ولما كانموس البقرة نحو الشرق إلى إقليم بورتيا ولم يدعها تسترح أبدا إلا حين خرث كثيرا من الشعب وحطت رحالها حيث ترجد مدينة "طيبة" بعد ذلك وهى التى أقامها كاموس حول المكان الذى حطت فيه البقرة.

وأوصى كاموس رفاقه بأنه لابد من تقديم البقرة قربانا لأثينا دون ليطاء وبعث بهم لإحضار ماء صاف من نبع أريس دون أن يدري أنه كان يحرس هذا النبع ثعبان ضخم. هذا الثعبان أهلك معظم رجال كاموس فانتقم الأخير منه بأن هشم رأسه بصخرة. وما إن قتم كاموس الأضحية إلى أثينا حتى ظهرت له أثينا واستنحت على ما قام به وكلمته أن يبذر لسان الثعبان فى التربة. وحين لطاع كاموس لولمها نبت من التربة رجال مسلحون فقمعوا مع بعضهم البعض بالأسلحة، وأخذ كاموس بحجر بينهم فبدلوا بالاستبائك والتشاجر وكل منهم يتهم الآخر بأنه الذى تلقى بالحجر وتحاربوا بضرورة بالغة حتى لم يبق منهم سوى خمسة رجال عرضوا جميعا تقديم ختماتهم لكاموس. ولكن أريس طالب بالانتقام لقتل الثعبان الذى كان يحرس نبعه وحكمت محكمة مقدسة على كاموس أن يصبح عبدا لمدة عام طويل.

مصادر الأسطورة:

- Herodotus: I, 1; II. 44; IV. 47; and VII. 91
- Apollonius Rhodius: Argonautica II. 174.
- Apollodorus: III. 1; 4. 1-2 and; 14. 4.
- Hyginus: Fabula 19 and 178.
- Ovid: Metamorphoses II 836 ff.
- Pausanias: V 25. 7 and IX. 12. 1-2.

تشير هذه الأسطورة إلى الاتصال المبكر بين بلاد الإغريق والساحل الكنعاني وإن كان هذا الاتصال قد تم في مرحلة لاحقة من اتصال الإغريق بمصر (وهو الاتصال الذي ترمز لأسطورة وصول إير إليها إلى بدء تلك العلاقات) إذ تبدأ هذه العلاقة - حينما ترمز الأسطورة - بمفارقة أجيونور - حفيد إير - مصر إلى أرض كنعان. وهكذا فإن أجيونور - حسب الأسطورة الإغريقية - يبحر من أصول إغريقية وسكن أرض كنعان قائماً من مصر. ربما كان ذلك يعني أن لقدم اتصال للإغريق بجيرانهم في شرق البحر المتوسط كان مع مصر الفرعونية التي ألفوا التعامل معها، وببدو أنهم تعلموا في مرحلة لاحقة على الساحل الكنعاني من خلال العلاقات القديمة والثيقة بين مصر الفرعونية وتلك المناطق، فالطلق بعض الإغريق من مصر وبدلوا في التعامل مع الساحل الكنعاني. إن اختطاف زيوس ليوروبا ابنة أجيونور ومولعتها في كريت ربما كان يشير إلى فترة توجهت فيها الحضارة الكريتية نحو التعامل مع الساحل الكنعاني بعد غزو الهكسوس لمصر (احتل الهكسوس مصر حوالي مائة وخمسين عاماً من ١٦٧٠ إلى ١٥٢٠ ق.م.) وتوطدت علاقات الطرفين الكريتي الليوناني والكنعاني وتنوعت بين علاقات تجارية وحضارية، وربما يشير الحادث الأسطوري أيضاً إلى أن للتأثير الكنعاني كان أقوى وأن الإغريق نقلوا المؤثرات الحضارية للكنعانية (المتدرجة بأصول يونانية إذ أن يوروبا وأياها أجيونور من نسل إير الليونانية) المتمثلة في شخص "يوروبا" إلى بلادهم. ونكاح زيوس ليوروبا وإنجاب منها مينوس يدل على أن ثمة تقاطع حضاري أو تلاحق حضاري قد تسم بين الحضارتين مستفاد من الحضارة الكريتية وازدهرت وتمثل ذلك في شخص إيرز وربما أهم ملوكها وهو مينوس الذي أطلق السير آرثر إيفانز اسمه على الحضارة الكريتية (المينوية).

ولعل طريقة اختطاف زيوس ليوروبا وما شابهها من حيلة وخديعة ترمز إلى دهاء الإغريق في نقل مجزات الحضارة للكنعانية إلى بلادهم والاستفادة منها وتطويرها (إنجاب يوروبا أبناء من زيوس)، والأرجح أن ذلك قد تم بغير رضا وموافقة الكنعانيين مما استفزهم وجعلهم يقومون برد فعل مضاد ملتحدت عنه بعد قليل. وهناك تفسير آخر لهذه الحادثة الأسطورية عند جون مالالاس الذي يكتب عن "المساء الأثم" في مدينة صور الفينيقية فيقول: "لقد هاجم تاوروس (الثور) - ملك كريت - صور بعد معركة بحرية أثناء غيب أجيونور ولولاده، وسقطت المدينة في أيدي الكريتيين في نفس المساء فأخذوا معهم كثيراً من الأسرى من بينهم يوروبا. إن هذا الحدث لا يزال يذكر في الحواشي في صور باسم (المساء الأثم)". لذلك من الصعب أن ترجح أن كانت حادثة خطف يوروبا على يد زيوس تشير إلى أن الإغريق قد نقلوا من الكنعانيين من أهل صور بعضاً من إنجازاتهم الحضارية أم أنهم شنوا على "صور" حملة عسكرية وأسروا بعض أهلها كما يشير ملالاس رغم أنه مصدر متأخر،

وإن كان هيرودوت كمصدر مبكر ينحو هذا النحو، عموماً حتى وإن صححت أخبار هذه الحملة العسكرية فإن هذا لا يمنع تأثير الإغريق بالمنجزات الحضارية لأرض كنعان قبل الحملة وبعدها.

لما انطلق أبناء أجيونور في مرحلة لاحقة من الأسطورة وانتشر معظمهم في شرق البحر المتوسط بحثاً عن أختهم يوروبا التي اختطفها زيوس فيشير إلى أن الكنعانيين وخصوصاً أهل صور - وإن كانت صيدا مذكورة أكثر في ملاحم هوميروس - قد بدلوا بطلون في تلك البقاع ببلالون الإغريق التجارة والحركة. بل أنهم أخذوا - في مرحلة لاحقة ربما كانت فترة انهيار الحضارة الكريتية واضمحلال وتدهور الحضارة الموكينية بدءاً من القرن الثاني عشر ق.م. - زمام المبادرة وأصبحوا أنشط من الإغريق في مجال التجارة عبر أرجاء البحر المتوسط وإقامة المستوطنات الفينيقية (التي سميها الجديدة بدلاً من "الكنعانية" وهي تسمية أطلقها عليهم الإغريق). ومن المرجح أن من بين العناصر التي ساعدت على فتح الباب على مصراعيه أمام الفينيقيين في لرتياد أفاق شرق البحر المتوسط والانطلاق إلى أقصى الغرب نحو شواطئ المحيط الأطلسي في بریطانيا وغرب أفريقيا هو الغزو الدوري للكسج لبلاد اليونان خلال القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م. وهو الغزو الذى لطاح بما بقى من الحضارة الموكينية وأشاع الذعر والنوضى بين الإغريق وجعلهم يتخلقون قروناً للوراء ويمودون بعد نهاية الفترة المسماة "بالعصر المظلم" من القرن الحادى عشر إلى أواخر القرن التاسع ق.م. إلى البداية للحضارية من جديد مستعنيين هذه المرة بالفينيقيين بعد أن أخذوا عنهم أبجديتهم وطوروها.

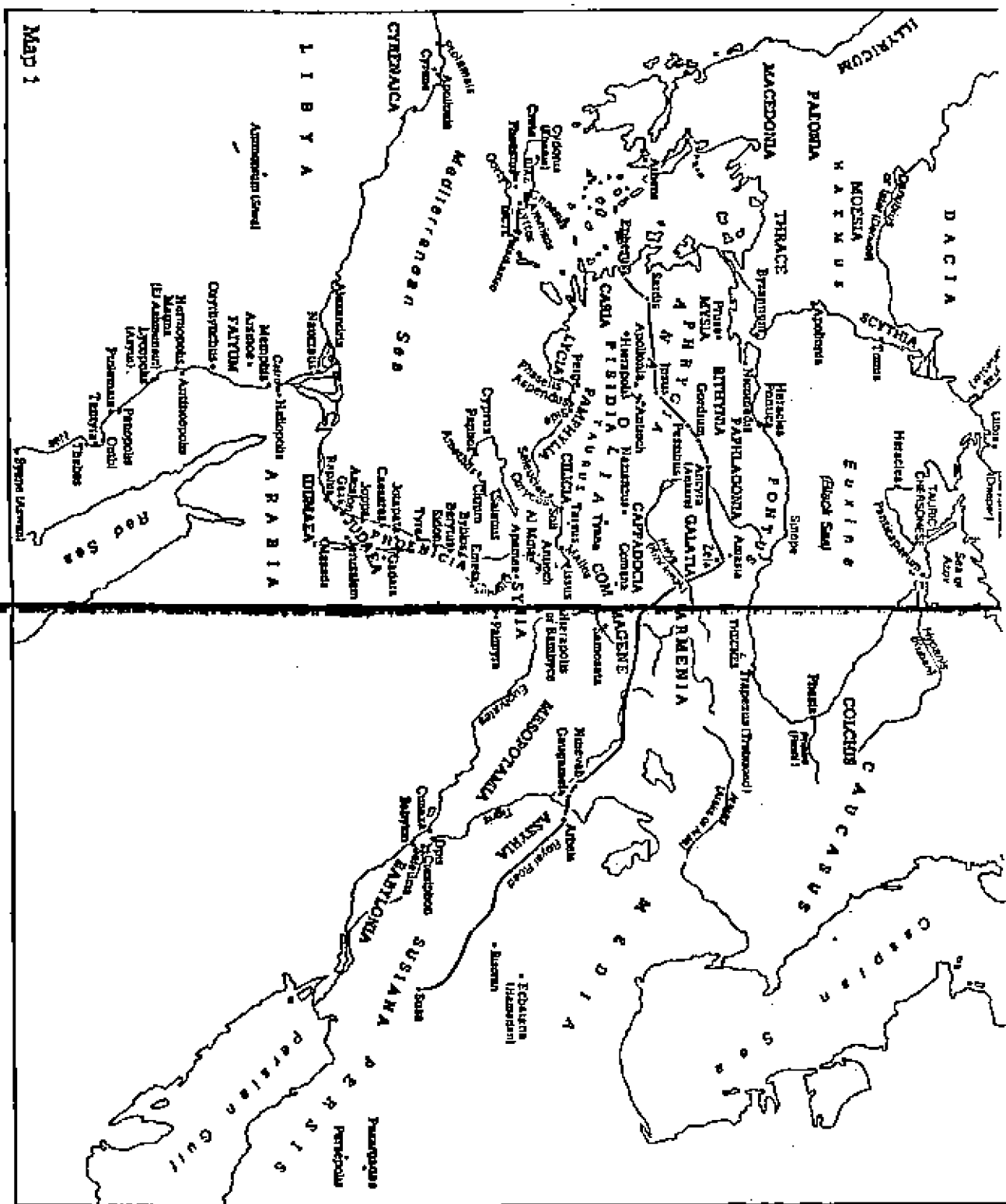
إن بحث أبناء أجيونور عن أختهم يوروبا في أرجاء مختلفة من بلاد اليونان وبحر إيجه وأسيا الصغرى واستقر أرام هناك وإطلاق اسماتهم على مناطق عدة هناك كما رأينا يشير إلى هذه الفترة من المد الفينيقى على ساحل بحر إيجه وتأثيراتهم التجارية والحضارية في المنطقة في الفترة من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن ق.م. تقريباً. ولعل أبرز إخوة يوروبا الذين ظلوا يبحثون عنها في بلاد اليونان كان كالموس الذى تنسب إليه الأسطورة بناء مدينة (طبية) اليونانية. إن هذا الجزء من الأسطورة يضم دلالات رمزية مثيرة إذ تقتل كالموس ولمه تليفلسا من صور إلى رودس ثم تهربا ولما أضحت ولما معابد لألهة الإغريق وفي ذلك دلالة على تأقلم بعض وجوه الحضارة الفينيقية مع البيئة الإغريقية الجديدة، ثم توفيت تليفلسا وهذا معناه تناقص المسحة الفينيقية في هذه المؤثرات ولكتسابها لمزيد من التأثير بالبيئة الجديدة واصطبغها أكثر فأكثر بالصبغة الإغريقية. وفي نفس الاتجاه ترمز بقية تفاصيل هذا الجزء من الأسطورة مثل طلب كهنة وحى ديلفى من كالموس الكف عن البحث عن يوروبا ونصحه ببناء مدينة جديدة في بلاد اليونان (مزيد من التخلي عن موروثة الفينيقى ومزيد من الاندماج مع البيئة الجديدة والتفاعل معها والتأثير الإيجابى فيها) ولعل تفاصيل المشهد الأخير من هذا الجزء يتوج هذا الاتجاه نحو الاستفادة القصوى من المؤثرات الفينيقية وصيغها تماماً بالمسحة الإغريقية: قتل معظم رجال كالموس على يد الشعبان الضخم الذى يحرس نبع أريس يرمز

إلى تكوين هذه المؤثرات الفينيقية وضمها تماما في البيئة الإغريقية، وكذلك فإن مشهد الرجال المحاربين المسلحين الذين نبتوا من الأرض بعد زرع لسان هذا النبلان فيها وقضائهم على بعضهم البعض بحيث لم يبق سوى خمسة في نهاية الأمر ربما يشير إلى تآكل وإبهار معالم الحضارة اليونانية القديمة إثر الغزو الدوري، لما الخمسة رجال المتبقين ربما كانوا يشيرون إلى الحروف المتحركة التي أضافها الإغريق إلى الأبجدية الفينيقية التي تبناها وأخذوها عن الفينيقين والتي كانت ذات حروف ساكنة وتخلو من الحروف المتحركة فأضافها الإغريق.

إن الأسطورة تشير كذلك إلى المد والتوسع الفينيقي حتى غرب البحر المتوسط وذلك يتمثل في ذهب فوينيكس ابن أجيئور إلى غرب البحر المتوسط وشمال أفريقيا وكيف أنه جعل للكنعانيين هناك موضع لهم سرعان ما توسعوا بعده نحو الغرب حتى وصلوا كما نعرف إلى جنوب إسبانيا بل وحتى سواحل المحيط الأطلسي وبريطانيا. ولعل هناك تساؤل يفرض نفسه هنا وهو: لماذا سمي هؤلاء الكنعانيين من أهل صور والمائل اللبناني بالفينيقيين نسبة إلى فوينيكس هذا دون بقية إخوته من أبناء أجيئور؟ إن الأسطورة تجيب عن هذا التساؤل بالقول بأن السبب في ذلك هو عودة فوينيكس - دون بقية إخوته - إلى صور بعد وفاة أبيه أجيئور ومن ثم أطلق اسمه على منطقة الساحل اللبناني وبقرة للمستوطنين الملحدريين من نسله في غرب المتوسط وشمال أفريقيا.

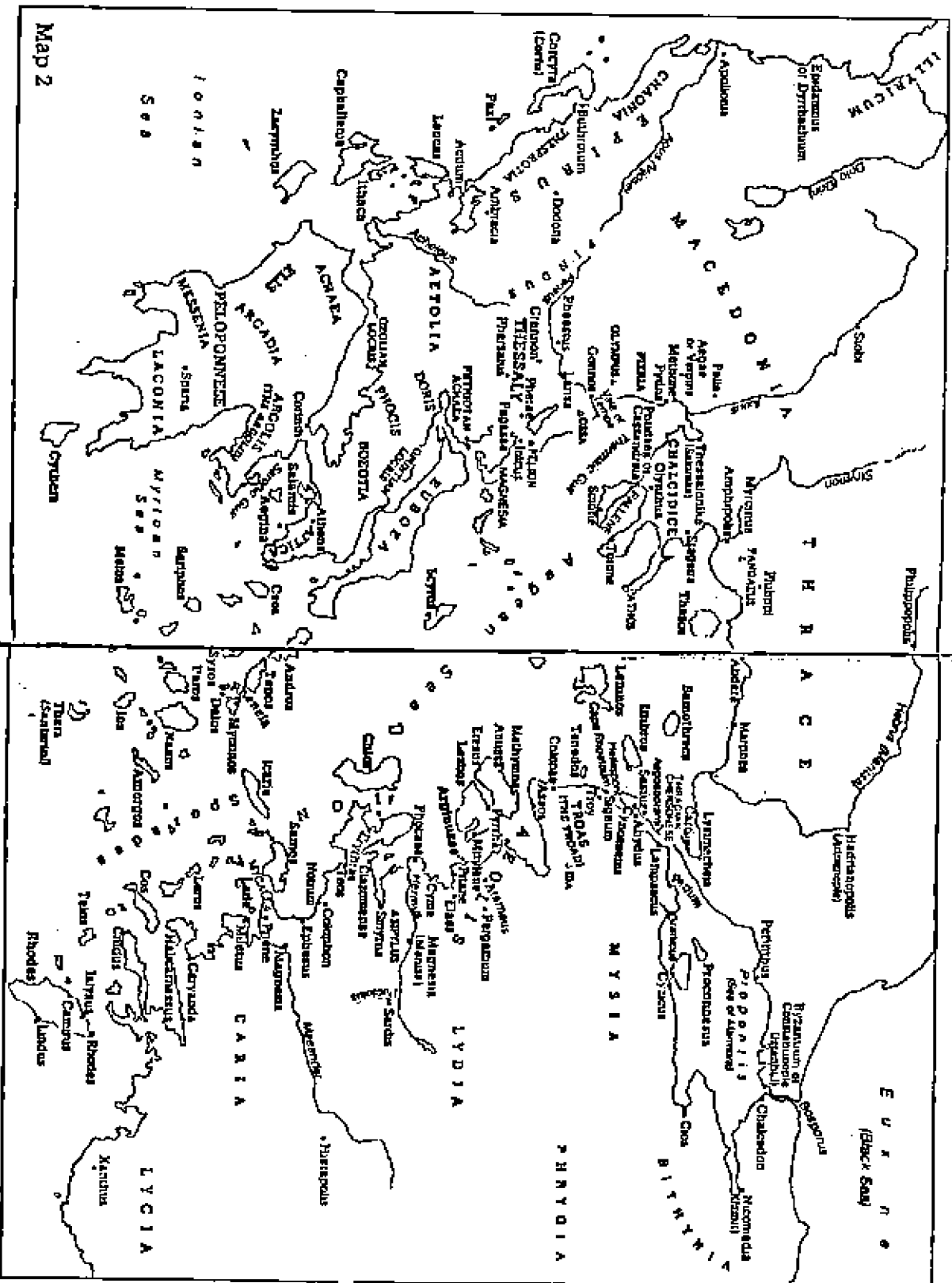
لكن المعالجة الأسطورية لمصير بقية أبناء أجيئور الذين ذهبوا على سواحل بحر ليجه وبلاد اليونان تريد أن توصل رسالة ضمنية مفادها أن تأثير أهل وحضارة الساحل الكنعاني لثرت في مناطق عديدة غير حضارية في غرب المتوسط وتركت بصماتها القوية عليها رغم قلة الجهود الكنعاني المبثول هناك (واحد فقط من أبناء أجيئور) في حين لم يستطع مجهود كنعاني مكثف (لربعة من أبناء أجيئور) في ترك بصماتهم على بلاد اليونان ذات الحضارة القديمة التي فرضت على هؤلاء الكنعانيين الاصطباغ بالصبغة اليونانية وإدماجهم في البيئة الجديدة؛ وأنه حتى وإن تأثرت بلاد اليونان تأثرا غير مباشر بهم من خلال اكتساب الأبجدية الفينيقية فإن ذلك ناجم عن فترة انعدام الوزن اليوناني إثر غزو الدوريين، ومع ذلك ترك الإغريق بصماتهم على تلك الأبجدية المقبسة بإضافة الحروف المتحركة الخمسة على الحروف الفينيقية الساكنة.

وهكذا تروج الأسطورة للحضارة اليونانية وتضفي عليها لفضل العراقة والإضافة في كل حين، وإنها حتى وإن أخذت عن غيرها فدائما ما تهضمه وتطوره. إنها الدعاية والإعلان في ثوب الأسطورة.



Map 1

Map 2

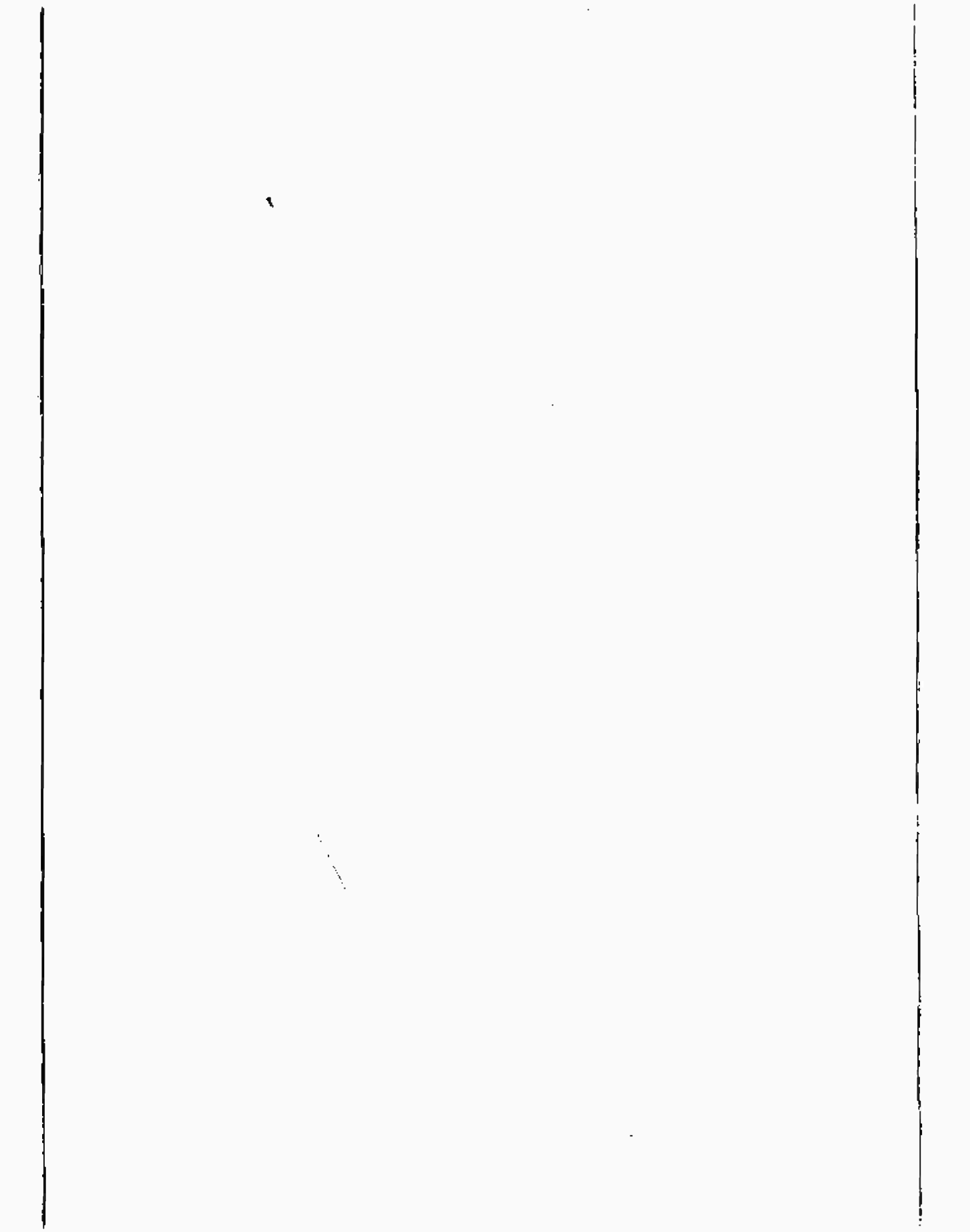


أثر ثقافات دول البحر المتوسط في شروم أسفار العهد القديم

بحث مقدم من

الدكتورة

فائزة عبد الفتاح عز الدين



بسم الله الرحمن الرحيم

أثر ثقافات دول البحر الأبيض المتوسط في شروح أسفار العهد القديم

تحتوى شروح وتفسير وتراجم العهد القديم على عدد كبير من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية وأخبار الخوارق والبطولات بعضها من نتاج العقلية العبرية وبعضها دخیل قد تهود.

ويتناول هذا التراث أفكاراً أسطورية عن بدء خلق العالم وخلق الإنسان الأول وخلق جنة عدن والجحيم والثواب والعقاب وقتل الأخ لأخيه وقصة الطوفان وتشتت الناس واختلاف ألسنتهم بالإضافة إلى عدد كبير من قصص آباء الجنس البشرى مثل آدم ونوح وإبراهيم وقصص عن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام وحكايات وقصص وأساطير عن الكهنة والقضاة والربانيين والأبطال الشعبيين وملوك بنى إسرائيل كما يتناول أساطير وخرافات عن الملائكة والجن والشياطين والسحر والسحرة والتنجيم والمنجمين والعرافة والعرافين وخرافات عن مخلوقات ما قبل الطوفان.

وتلوم هذه الدراسة على نقاط هي : أثر ثقافات دول البحر الأبيض المتوسط في الأساطير والقصص العبرية القديمة وتأثير هذا التراث في التراث الأسطوري عند الشعوب المختلفة ومصادر الأساطير والقصص والخرافات العبرية القديمة وعلامج الأسطورة العبرية القديمة.

^{٩٩} أن الدراسة الأدبية المقارنة دراسة واسعة ومستقلة لا مجال لها في هذا المكان الضيق إنما يشار هنا إلى بعض نماذج من المرويات العبرية القديمة ونظائرها في الآداب الأخرى وبالعكس.

أولاً أثر ثقافات دول البحر الأبيض المتوسط فى الأساطير والقصص العبرية القديمة^(١)

أحبب اليهود أثناء طوالهم المتصل الدائم طوال حياتهم^(٢) كسراً من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والأساطير الخاصة بالحضارات والشعوب الذين عاشوا في كنفهم أو احتكوا بهم أو تعاملوا معهم كالحضارة الكنعانية والفينيقية والبابلية ثم الفارسية واليونانية الرومانية وأبعد من ذلك

^(١) يراد بذلك القصص والأساطير التي وردت في أسفار العهد القديم وشرحها وتراجيحها .
^(٢) وذلك منذ خروج القبائل الرعوية العبرية من الجزيرة العربية ونزولهم العراق ثم خروجهم من أورد كلدان بقيادة تارح أبى إبراهيم و أسرته ونزولهم أول أمرهم في حران (تكوين ١١/١٣) ثم مجيئهم مصر والإقامة فيها ردحا من الزمن أيام إبراهيم (تكوين ١٠/٣١) ونزولهم مرة أخرى على هامش الحضارة الكنعانية (تكوين ١٣) والعودة إلى مصر أيام يعقوب وبنه (تكوين ٤٦) ثم الخروج من مصر بقيادة موسى ونزولهم برية سيناء (خروج ١٥/١٢) واستيلائهم على مدن كنعان بقيادة يشوع بن نون (يشوع ١٤) واتصالهم وتعاملهم مع الكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من سكان وجزيران فلسطين منذ أيام الملك سليمان (الملوك الأول) واتصالهم الدائم لثقافات الشعوب الذين عاشوا بينهم أو بجوارهم أو اتصلوا بهم ثم بقي بعد ذلك اتصالهم بالبابليين والآشوريين والفرس وفيما بعد اليونان والرومان . ولأجل معلومات أوسع أرجع إلى دروزة - محمد عيزة (تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم) بيروت ١٩٦٩/١٣٨٩ وكذلك انظر مثل :

Sarson Mary (The History of the people of Israel) copyright London 1956
Goldberg , David J & John D Rayner (The Jewish people their History and
Their Religion , Penguin Books England 1989 .

الحضارة الهندية.^(١) وقد جاءت الكشوفات والحفريات السومرية والأكدية فى العراق والأوجاريتية والكنعانية فى فلسطين وغيرها من الحفريات والنقوش المصرية القديمة فى السنوات الأخيرة الماضية لتكشف عن أوجه شبه شديدة جدا بين آداب وثقافات الشرق الأدنى القديم وخاصة الأدب السومرى والأكدى والكنعانى والمصرى، وبين ما ورد فى أسفار العهد القديم من أساطير وحكايات وقصص وحكم وأمثال.... فضلاً عن قليل أوجه الشبه بين العهد القديم بوجه عام والأدب الحيثى واليونانى والرومانى^(٢). كما ظهرت دلالات تلك المؤثرات الأجنبية بوضوح فى الأساطير والقصص التى نمت جنباً إلى جنب مع العهد القديم وتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل فتسربت إلى التلمود والمدراش وسائر المدونات التى شرحت أسفار العهد القديم بخاصة الأجزاء الأسطورية منها^(٣)، لذلك نحن نرى أن كثيراً من علماء الأساطير يرفضون اعتبار التراث الأسطورى العبرى بعامة تراثاً مميزاً على اعتبار أنه فى جملته ينتمى لتراث الأمم والشعوب التى كان بنو إسرائيل على اتصال بهم، ويقول (البروفيسور وليام سميت) فى هذا الصدد:

^(١) Encyclopaedia Britannica 15 (th ed, U.S.A. 1975 vol 10 P 193

^(٢) سورة بأحمد نسيم، (العرب واليهود فى التاريخ)، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٧٩

^(٣) Encyclopaedia Britannica vol 10 p 193

" عندما تطالعنا فكرة دينية أو تقاليدها عند العبريين سوف نجدها تراثا مشتركا بين أمم متقاربة ولا نحسبها إرثا مخصوصا لبني إسرائيل ^(١) .

فمن الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين وجيرانهم الفينيقيين أخذ بنو إسرائيل كثيرا من العادات والتقاليد والطقوس الدينية ^(٢) كما يبدو أن كثيرا من المأثورات وقصص البطولات والخرافات التي تتحدث عن الآلهة والتأله في الأساطير الكنعانية قد أدرجت في ثأيا العهد القديم بعد أن تم تعديلها وتبديلها وتحويرها لكي ترافق المقتضيات الأخلاقية لبني إسرائيل ^(٣) ومع ذلك فقد ظلت بقايا أفكار أسطورية وخرافية غير واضحة في أسفار العهد القديم، وهذا ما نلمسه من صرخات وتحذيرات أنبياء بني إسرائيل أمثال (أشعيا ، وأرميا ، وحزقيال ، وعاموس ، وهوشع) . ويقول (صموئيل كريم) "إن أساطير كنعان لهامة في أكثر من أمر واحد، فإن أهم دلالتها إنما تتمثل في تأثيرها على بني إسرائيل سواء حين يشملها العهد القديم أم حين يعرض عنها" ^(٤) .

ومن ثم يمكننا التعرف على أساطير كنعانية من خلال دراستنا للأساطير العبرية القديمة.

(١) Smidh W> Robertson : Lectures on the Religions of Semites, London 1927 P5

(٢) العرب واليهود في التاريخ ص ٢١٦ وما بعدها.

(٣) Graves Robert, and Patai Rophael, Hebrew Myth, the Book of genesis U.S.A 1967 P14

(٤) كريم/ صموئيل نوح: أساطير العالم القديم ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف البينة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ص ١١٩

ولم تكن الآداب المصرية القديمة بأقل شأن في ذلك ،حيث يرجح الباحثون أمثال (جيمس برستيد) أن الحضارة المصرية القديمة كان لها عظيم الأثر في تكوين الأدب العبري القديم ^(١) ويظهر ذلك جليا في الأسفار الشعرية مثل سفر الأمثال والمزامير ونشيد الأنشيد والجامعة وأيوب ^(٢). بالإضافة إلى ذلك هناك لمسات مصرية واضحة في قصة يوسف ويعقوب مما يرجح أن تلك القصص تأثرت بالثقافة والعادات والتقاليد المصرية القديمة ^(٣).

لم يقتصر التأثير الذي أحدثته الحضارات المختلفة في التراث الأسطوري العبري القديم على الحضارات السالفة الذكر بل امتد إلى الآداب البابلية الآشورية في عصور اتصالهم بأشور وبابل أثناء الأمر. فقد ذكر الباحثون أن عقالية اليهود وأفكارهم قد تأثرت تأثيراً كبيراً بالحضارة البابلية آنذاك، وقد ظهر ذلك بوضوح في الأدب العبري القديم فدونت أجزاء كبيرة من العهد القديم بخاصة أسفار موسى الخمسة (التوراة) التي استمدت قصصها وأساطيرها وخرافاتها من البيئة البابلية^(١). أضف

(١) بريتيڊ : جيمس هنري، الجوز الضمير، ترجمة سليم حسن ، دار مصر للطباعة
بدون تاريخ ص ٢٧٢ وما بعدها ،

(١) راجع تفصيلاً: حميدة: محمود علي: (أسفار الحكمة في العهد القديم والتأثيرات المصرية والبابلية عليها)، مجلة الدراسات الشرقية دورية نصف شهرية، العدد الأول، ١٩٨٣، ص ١٧٧ وما بعدها.

(^٢) راجع تفصيلاً : فجر الضمير ص ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، انظر (X135 دجلة* ٤٦٥٥) والأمتة التي أوردها المؤلف على ذلك من العهد القديم ص ١٤٢ وما بعدها.

(١) جلال/ الدكتوراة ألفت محمد : الأدب العبري القديم، والوسيط، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٨ ص ١٠٤

إلى ذلك فقد أخذ اليهود أغلب معتقداتهم عن السحر والحيوانات والطيور الخرافية التي تبنت أسماؤها في الأسفار الشعرية من العهد القديم^(١) كما ظهرت في رؤى أنبياء بني إسرائيل^(٢) ثم امتدت إلى أساطير التلمود والمدرش والابوكريفا فيما بعد - كما سيأتي شرحه - كذلك إن من تأثير بابل في المعتقدات العبرية القديمة ما يظهر عند مقارنة الأساطير المأخوذة من ألواح بابل بما ورد في أسفار العهد القديم حيث يقول (ويلز) : " لو تأملنا قصة الخلق وخلق آدم وحواء والطوفان في أسفار العهد القديم لوجدنا وثيقة مماثلة لأساطير بابلية تشبهها كما أن قصة موسى وشمشون لها نظائر سومرية وبابلية"^(٣) .

ويبدو أن تلك الأساطير والقصص كانت من المعتقدات الشائعة لدى شعوب الشرق الأدنى بعامة والساميين بخاصة وكان من يكتبون أسفار العهد القديم على علم بها .

(١٤٦)

(١) انظر سفر أشعيا ص ١٣ ، ص ٣٤ ، ظهرت فكرة الغول أو العقرب في ليليث - الأشاعر - والتهوم و العالقة بعد السبي البابلي وهي من المؤثرات الأجنبية التي تسربت إلى الفكر الديني اليهودي =

Black and cheyne Encyclopaedia Biblica London 1899/1903 vol 3 P 2799

(٢) راجع سفر حزقيال الأصحاح الأول ، وسفر دانيال الأصحاح السابع والثامن .

(٣) ويلز : هـ - ج . (معالم تاريخ الإنسانية) ترجمة عبد العزيز توفيق جـاويد ،

الطبعة الثانية لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ١ ص ٩٠ وما بعدها .

ولأجل معلومات أوسع عن ديانة بابل وأساطيرها وتأثيرها على الديانة اليهودية وأساطير العهد القديم يمكن مراجعة :

Smith, Homer, (Man and his god s) copy right 2nd universal Library N.Y 1956

ص ٩١ وما يليها

ويقال إن كل تصورات اليهود عن الملائكة والجن والشياطين^(١) والأرواح إلى جانب الثانية عن الخير والشر. قد جاءتهم عن طريق الفرس^(٢) وإن لم يبد ذلك بوضوح في العهد القديم وبدا ظاهرا في أساطير التلمود .

زد على ذلك إن أفكارا أسطورية عن خلق الإنسان الأول (سفر التكوين ص ٢) لها نظائر في الآداب الفارسية^(٣) وإن قصة أستير في العهد القديم بها كثير من الملامح الفارسية والبابلية.^(٤)

ويقول نقاد العهد القديم إن اليهود قد استقوا تلك المعتقدات والأفكار من الفرس ليس فقط لأن فارس كانت دولة متحضرة آنذاك ولكن لأن الديانة الفارسية تشبه الديانة اليهودية من حيث معاداة فكرة عبادة التماثيل والصور^(٥) التي نهت عنها الشريعة الموسوية في قوله:

(٦) في سفر صموئيل الأول ٧/٢٨ : ٢٤ جاء أن سبب انتقال عرش شاول إلى داود خطيئة سببها أن شاول طلب من الجن عن طريق إحدى العرفات إحضار روح صموئيل فأمرته الرب وحول مملكته إلى داود . كذلك ورد في سفر صموئيل الثاني/ ٢٤ أول فكرة عن الشيطان . كانت خطيئة داود حين وقف الشيطان ضد إسرائيل فاعزى داود بأحصاء الشعب فغضب الرب عليه . كما ظهر الشيطان مرة أخرى في سفر أيوب عندما تحدى الرب ضد أيوب (الاصحاح الأول)

(١) فجر الضمير ص ٣٦٩ : ٣٧٠ ، علم الفولكلور ص ٢١٠ .
(٢) ديورانت/ ولي : قصة الحضارة ترجمة محمد بدران الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية بدون تاريخ ج ٣٦٨/٢

(٣) كامل / مراد : (الكتب التاريخية في العهد القديم) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩٠/٨٩ وانظر كذلك : (علم الفولكلور) ص ١٩٠ .

(٤) Ginzberg / Louis : Legends of the Bible, The Jewish Publication Society of America U.S.A 1972 introduction PXIX

“ لا تصنع لك منحوتا ولا صورة شيء مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل ولا في المياه من تحت الأرض ولا تسجد لهما”^(١) .

وأبان العصر اليوناني ثرت الثقافة الهيلينية أيما تأثير فني العقلية اليهودية ، وظهر ذلك جليا في تأثير اليهود ببعض الأفكار والاتجاهات الأدبية والفلسفية عند اليونان^(٢) ولعل خير مثال على تأثر العهد القديم بالثقافة اليونانية هو سفر الجامعة الذي دون في ذلك العصر^(٣) .

فيما بعد ظهر التأثير اليوناني في أدب ما بعد التوراة أي في أساطير وخرافات التلمود والمدارش. ولم يستطع كاتبو الميثولوجيا الذين كانوا يكتبون باليونانية آنذاك إخفاء المؤثرات الأجنبية تماما لذلك فقد ظهرت آثار للخرافة المصرية مثلا في بعض الأساطير الخاصة بوفاة آدم وحواء وموسى والعثور على التابوت الذي دفن فيه يوسف كما ظهرت آثار يونانية في المدراش عند تفسير سفر نشيد الأنشيد وسفر الجامعة^(٤) وميثاقي شرحه.

أما عن التأثير الروماني فقد نقل اليهود الكثير من الآداب والفنون الرومانية التي توافقت معقدااتهم وصبغوها بالصبغة اليهودية.. وإن لم

(١) سفر خروج : ٤/٢٠ ، التثنية ١٦/٤ : ١٨ .

(٢) جلال : للتكتورة الفت محمد، الأدب العبري القديم والوسيط مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨ ص ١٠٥

(٣) مومكاتي : مبييتو: الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ ص ١٦٤

(٤) Hebrew Myths pp 3 : 4

يظهر ذلك بوضوح في أسفار العهد القديم، وتظهر في أدب ما بعد العهد القديم^(١).

هذا إلى جانب غير قليل من التأثيرات العربية على التراث الأدبي العبري^(٢)، وحسبنا أن نضرب مثلاً على ذلك بما ورد في سفر الأمثال بخاصة الإصحاحين الثلاثين والواحد والثلاثين من حكم وأمثال عربية يرى الباحثون أنها تتشابه تشابهاً مذهلاً مع حكم وأمثال وعادات وتقاليد عربية صميمية^(٣) كذلك وردت أفكار أسطورية في هذا السفر مثل فكرة العالوقة أو البومة ماصة الدماء^(٤) وهي من المعتقدات العربية القديمة التي تسربت إلى العهد القديم، ويرى كثير من الباحثين أن سفر أيوب ما هو إلا قصة عربية أدرجت في العهد القديم بعد أن تهويت^(٥).

ويقول (إسرائيل ولفنسون) في هذا الصدد : " لا أعلم من تاريخ اليهود إقليماً تأثر به اليهود بالعادات والتقاليد سوى إقليم الجزيرة العربية وذلك أثناء وجودهم فيها..."^(٥) وميأتى شرحه -

(١) الأدب العبري القديم والوسيط ص ١٠٩

(٢) راجع مراجع عدة منها مثلاً : الأدب العبري للقديم والوسيط ص ١١٦ : ١١٩ .
(٣) راجع تفصيلاً التأثير والتأثر العبري والعربي : المراسي : محمود حسن (الصور الأدبية في أسفار المكتوبات والأدب الجاهلي) ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة جامعة عين شمس القاهرة ١٩٨٤ .

(٤) سفر الأمثال الإصحاح ١٥/٢٠
(٥) راجع الآراء التي قالت بعروبة سفر أيوب في مثل : نلظا : حسن : الفكر الديني الإسرائيلي أظواره ومذاهبه جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ ص ٥٦/٥٥

(٦) ولفنسون ، إسرائيل : (أرنوب) (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) تحقيق طه حسين ، لجنة الترجمة والنشر مطبعة الاعتماد ، مصر ، ١٣٤٥ / ١٩٢٧ (المقدمة) وكذلك راجع ول ديورانت في قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢٦٨

. لقد جاءت الكشوف المومرية اللاسامية والأكادية السامية في العراق وغيرها من الكشوف فأوضحت الكثير من الغموض بالنسبة للتراث العبرى القديم وبخاصة حقيقة أصل معظم ما ورد في أسفار العهد القديم من أساطير وخرافات وقصص وحكم وأمثال ..^(١) (وإن هذه المجموعة من المآثر لم تأت إلى الوجود كاملة النمو كالأزهار الصناعية النامية من فراغ إنما تمتد جذورها في الماضي البعيد وتنتشر انتشاراً واسعاً في تراث البلدان المجاورة)^(٢) لذلك يظن الباحثون أنه ليس بغريب أن يكون التراث الأسطوري العبرى على وجه التقريب تراث السومريين والآكديين بخاصة ، وصل اليهود عن طريق الوساطة الكنعانية مثلهم في ذلك مثل سائر الشعوب السامية وذلك عقب انتقال التراث السومري إلى الورثة المباشرين وهم الآكديون^(٣) ومنهم إلى ورثتهم الكنعانيين والحيتيين.

فقد كانت فلسطين منذ البدء ممراً يلتقى فيه الشرق بالغرب كما استوطنها عدد من الشعوب والأجناس المختلفة التي أثرت في التراث الكنعاني . علاوة على ذلك كانت البوثة التي انصهرت فيها عدة حضارات كالحضارة المصرية والبابلية ... وبعض الحضارات في آسيا وأفريقيا^(٤)

(١) للعرب واليهود في التاريخ - راجع المقدمة

(٢) الأديب العبرى القديم والوسيط ص ٨ : ١٠٠

(٣) يرى (كريمر) أن الأساطير الآكادية استمدت أصولها من النماذج السومرية وأشهر الأساطير المأخوذة من سرور هي أسطورة الخلق والطوفان وقد نقلت هذه الأساطير من كنعان مباشرة - أساطير العهد القديم ص ٩٨

(٤) فجر للضمير ص ٣٦١ : ٣٦٢ و ص ٢٧٢ وانظر كذلك : الحضارات السامية القديمة ص ١٢٦ : ١٢٧

وعن طريق الكنعانيين الذين سبقوا بنى إسرائيل في استيطان فلسطين ،
وبعض مدن الساحل الفينيقي سرى إلى الوجود تراث الحضارة السومرية
المندثرة.

١
قد لعبت الحضارة الكنعانية والفينيقية - نظرا لاقترامهما المبكر
للبحرين الأبيض والأحمر - دور الوسيط في حمل تراثى مصر وبابل
والإبحار به ونشره على طول سواحل البحر الأبيض^(١) بمعنى آخر لعل
فكرة خلق حواء من ضلع آدم مثلا ترد منحجرة من التراث السومرى
اللاسامى ميتيدية في التراث السامى عند الورثة البابليين منتقلة إلى
الكنعانيين والفينيقيين ظاهرة في أسطورة الإله (موت) فى أساطير
الخلق الكنعانية ، فكان أن نقلها اليهود إلى أسطورة الخلق فى سفر
التكوين^(٢) كذلك طوف بيا الكنعانيون والفينيقيون إلى الحضارة الإيجية .
ومنها دخلت هذه الجزئية إلى التراث اليونانى ثم الرومانى فيما بعد ثم
اللاتينى فى وقت متأخر^(٣) .

ومن هنا يقول (موسكاتى) : إن تأثير التراث السومرى لم يقتصر على
الحضارات السامية فحسب ، بل بلغ بلاداً غير سامية مثل اليونان^(٤) كذلك
يقول (برستيد) : إن أسطورة الخلق البابلية شقت طريقها متجربة غربا
صوب البحر الأبيض حتى انتشرت فى فلسطين وكان أن نقلها اليهود

(١) الحضارة السامية القديمة ص ١٢٧

(٢) Warren, w Jackson : legends , Myths and History of The O.T copyright
U.S.A 1970 PP 3:4

(٣) Myths , and History of the O.T P 4

(٤) الحضارات السامية القديمة ص ٧٤ .

إلى الأدب العبري القديم^(١) وبشكل مجمل يقترح الباحثون أن أساطير سفر التكوين التي تقع في الإصحاحات الإحدى عشرة الأولى (وهي أساطير الخلق وخلق آدم وقايل وهابيل والطوفان و برج بابل) تنتمي بكاملها إلى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة عن البابليين^(٢) وهذا أن دل على شيء إنما يدل على أن العقل اليهودي كان واعيا لهذا الموروث الثقافي القديم وقد عبر عنه بأفكار مختلفة بعد أن صبغها بالصبغة الدينية اليهودية التي تناسب الفكر الديني اليهودي، لذلك نرى (هوك) يقول : " إن الباحث في أساطير العيد القديم يعترضه عدة أسئلة هي :

ما مصدر وأصل الأساطير الموجودة في العيد القديم؟ وما التعديلات التي أجريت على الأصل وما مدى معرفة اليهود الحقيقية بالأساطير؟^(٣) وكما تأثرت أسفار العيد القديم بالثقافات الأسطورية الإنسانية تأثرت شروحه وتفسيره أيضا حيث تسربت إلى التلمود والمدراش أعداد كبيرة من الخرافات والأساطير والمعتقدات الخاصة بالشعوب الذين عاش اليهود بينهم أو بجوارهم أو تعاملوا معهم^(٤) فقد أدرج في التلمود أساطير

(١) فجر الضمير ص ٣٦١ : ٣٦٢

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي مثلا (صموئيل هوك) في كتابه :

Hooke S. Middle Eastern Mythology Penguin Books , Baltimore Great Britain 1963 (Hebrew Mythology)

(٣) Middle Eastern mythology P 104

(٤) كما سيأتي شرحه ظل الأخبار يكتبون تفسير وشروح العيد القديم على مدى قرون طويلة ومن هنا أضيفت أساطير وخرافات الأمم المختلفة إلى هذه الشروح بعد أن تهود بعضها وظل بعضها الآخر كما هو راجع تفصيلا الأدب العبري القديم والوسيط ص ٩٣-٩٤ و ١٠٢-١٠٥ والفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه ٧٣-١٠٨

ولم يقتصر التأثير الذي أحدثته الحضارات الأجنبية في الخرافات والأساطير العبرية القديمة على الحضارة المصرية والفينيقية والكنعانية والحيثية واليونانية والبابلية والفارسية بل امتدت إلى الحضارة الهندية ، فقد قدر لأعمال هندية عظيمة أن تترجم على أيدي أخبار اليهود وتدرج في تفاسير وشروح العهد القديم بعد أن تهونت قصة خلق حواء من ضلع آدم وقصة إبراهيم والنمرود ملك العراق ليا مثل في الخرافات الهندية (١)

ويقول جنزبرج* ربما تكون قصة الملك سليمان واشمداى ملك الجن التي رواها التلمود والتي تقول إن ملك الجن اغتصب عرش الملك سليمان بينما ظل سليمان هائما على وجهه في بلاد بعيدة يستجدي الناس ربما تكون هذه القصة من أصل هندي (٢) أو قد أخذ مفسرو المسلمين من رواية الإسرائيليات أمثال (كعب الأخبار - ووهب بن منبه) هذه الخرافة وفسروا بها الآية الكريمة (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) (٣) كما يظن أن خرافات كثيرة عن الطيور والحيوانات الخرافية قد

(١) Myths and legends of Ancient Israel pxxviii

(٢) - Legends of the Bible pxxiii

(٣) راجع تفسير سورة من الآية ٣٤ في الخازن : لباب التاويل في معاني التنزيل الطبع في القاهرة ١٩٥٥ ج ٤ من ٤٠ وما بعدها وفي التلمبي : قصص الأنبياء المسمى بالعراس طبعه دار

لكتب بدون تاريخ من ١٧٢ وقارنها بما ورد في : (در ذرات ٢٢٢٤٢٧٠)
 (قصة الملك سليمان)

تسربت من الهند وغيرها من البلاد واستقرت في التلمود^(١)

وقد تردد صدى كل هذه الأساطير والخرافات في تفاسير العهد القديم
وشروحه بعد أن حورت وبذلت كي تناسب روح الإيمان بالإله الواحد
عند اليهود^(٢) .

خلاصة القول كان مدونو العهد القديم وشروحه على علم بالتراث
الأسطوري لدى شعوب مصر والشرق الأدنى القديم ولم يعدموا لونا من
الوان الحياة الأسطورية. إلا أن أساطير العهد القديم وشروحه اتخذت
الطابع الديني. ومن ثم نستطيع أن نقول إن التراث الأسطوري العبري قد
حفظ لنا الكثير من خرافات وأساطير الشعوب القديمة .

(١) Encyclopaedia Britannica vol 10 P 194

(٢) Hebrew Myths P 14

ولأجل معلومات أوسع عن مصادر الأساطير والتخصص والخرافات الموجودة في
لسفار العهد القديم راجع على سبيل المثال :

- Hooke S. Middle Eastern Mythology Penguin Books , Baltimore Great Britain
1963 (Hebrew Mythology)

- Frank Fort: Henri : The Legends of the Bible and their origins double day and
Co. N.Y. 1950

- West James, King, introduction to the O.T Copyright 2nd London 1981

james, Prichard: Ancient near eastern Texts relating to the O.T U.S.A 1955

- فريزر/ جيمس جورج : الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم الهيئة
المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢ ج ١ ، ٢

ثانيا : تأثير الأساطير والقصص والخرافات العبرية القديمة على التراث

الأسطوري لدى الشعوب المختلفة:

إذا كان التراث الأسطوري العبري^(١) يحمل أثارا لتأثير المصري والكنعاني والفينيقي والبابلي والفارسي واليوناني والهندي فإن الباحثين يرون أنه قد تسرب بدوره وانتشر عبر الأرجاء شرقا وغربا تاركا آثاره المميزة في عدد كبير من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية وقصص الأبطال الخاصة لدى كثير من الشعوب للمختلفة^(٢) فحيث كان اليهود يرتحلون كانت ترحل معهم أساطيرهم وخرافاتهم وقصصهم وأمثالهم وحكمهم. ويبدو أن الذي ساعد على الانتشار الواسع لهذه الماثورات ترجمة العهد القديم وشروحه بلغات مختلفة^(٣) ويرى بعض الباحثين أمثال (فيليب حتى) أن العهد القديم كان المنبع الأساسي الذي أمد كثيرا من الفنانين والشعراء والأدباء في مختلف العصور و الأزمان بفيض غزير من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية والأمثال والأشعار^(٤). كما ذهب علماء الأساطير أصحاب نظرية الكتب المقدسة

(١) يراد بذلك أساطير العهد القديم وتفسيره.

(٢) علم الفولكلور، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٣) ترجم العهد القديم بلغات مختلفة منها الكلدانية و الآرامية والسريانية واليونانية واللاتينية والعربية إلى جانب التراجم الانجليزية والالمانية الحديثة راجع تفصيلا :

The Jewish Encyclopaedia, New York, London 1904 Vol 111 PP185:197

كما راجع تراجم التلمود في نفس المرجع (Talmud) vol IIX

(٤) حتى/فيليب: (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) ترجمة جورج حداد - عبد الكريم

رافق - دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ ج١ ص ٢٢٨-٢٢٩

إلى أن جميع الأساطير والقصص الموجودة في الأدب المختلفة مشتقة من العهد القديم. وقد أخذ منها كل شعب ما يوافق مزاجه الشعبي الفني ومذهبه الخلقى في القصص^(١) ويرجح الباحثون أمثال (هجرتي كواب) و (جيلزبرج) أن بعض الحكايات المتدولة في مختلف الأدب قديما وحديثا منقولة من قصص ولساطير وخرافات موجودة في العهد القديم وشروحه. ولعل خير مثال على ذلك أن تكون القصة التي تروى حكاية تدمير سدوم مدينة لوط (سفر تكوين ١٩) فحين يمعن البشر في لوثكاب المعاصي تكون لسطورة لو خرافة مأخوذة من العهد القديم فنظر على التفسير والشرح من أي مرجع تاريخي، لو غير تاريخي. كذلك إذا روت خرافة قصة لشخص خست بهم الأرض نتيجة ظلمهم وطغيانهم كانت خرافة (دلتان - وأبريام - وهورج) (سفر العدد ١٦) المثال المحتذى في ذلك ، وثمة أمثلة على ذلك لا مجال لحصرها هنا^(٢).

وبالرغم من أن ليست كل الأساطير والخرافات الموجودة في العهد القديم وشروحه يهودية الأصل إلا أن عددا كبيرا منها قد له أن يجد طريقه إلى مختلف أدب للعالم في مختلف العصور. فعلى سبيل المثال إن الخرافات الخاصة بالطيور والحيوانات والنباتات في العهد القديم وشروحه والتي يرجعها العلماء إلى أصول كنعانية أو بابلية أو مصرية

(١) بلننش/ توماس: عصر الأساطير المجلس الأعلى للفنون والأدب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٦ ص ٤١١

(٢) راجع في ذلك : علم الفولكلور ص ١٢٩ وما بعدها وص ٢٠١ وما بعدها وانظر أيضا :-

Ginz berg . Legends of the Bible P XIX

أو هندية قام اليهود بنقلها إلى الآداب الأوروبية وسائر آداب الشعوب الذين كانوا على صلة بهم في مختلف العصور والأزمان. وقد ذكر الباحثون أن كثيراً من الأساطير والخرافات الخاصة بالخلق وخلق آدم وحواء والطوفان وبعض شخصيات من العهد القديم الموجودة في آداب العصور الوسطى والآداب الحديث يمكن ردها إلى العهد القديم مباشرة^(١).

ويبدو أن اليهود خلال العصور الوسطى كانوا من أفضل المترجمين ومن خلال تراجمهم المختلفة لآداب الشرق القديم والتي استقرت في التلمود والمدراش تعرف الأوروبيون على التراث الأسطوري السامي خاصة والشرقي بعامة. وقد أقر العلماء المتخصصون بالتأثير اليهودي على الأساطير والقصص المسيحية حيث يمكن رد أساطير خلق آدم والطوفان وقصص إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام الموجودة في التراث الأسطوري المسيحي إلى تأثيرات يهودية^(٢). كما يمكن رد عدد كبير من الخرافات التي تتحدث عن الجن والأرواح الشريرة وما إلى ذلك في أدب العصور الوسطى إلى مآثرات شرقية بعامة وعبرية بخاصة حيث جلبها الصليبيون إلى أوروبا ضمن ما جلبوه من حضارات وثقافات عربية وشرقية^(٣) وأظن أن اليهود الذين كانوا يعيشون في الأندلس زمن الشتات أو قبل ذلك بكثير قد لعبوا دوراً في نقل كثير من الأساطير والقصص والخرافات العبرية والتي تهودت إلى الأدب الأندلسي وسائر الآداب الأوروبية^(٤) ويحتمل أن اليهود الذين أسلموا واخلوا الأندلس مع العرب أثناء الفتح الإسلامي قد أمدوا الأدب الأندلسي بالأساطير العبرية القديمة.

كذلك أن الأساطير والخرافات التي ذكرتها أساطير التلمود عن الملك سليمان وحكمته التي فالت حكمة أهل زمانه والأساطير التي نسجت حول زواجه بابل فرعون وحكايته مع بلقيس ملكة سبأ وبنائه القصر والهيكل وتسخيره للطير والجن والرياح لأغراض منشأته قد تردد صداها في كثير من كتب الأدب العربي التي

^(١) Hebrew Myths P. 7

^(٢) علم الفولكلور ص ١٣٩ وما بعدها وص ٢٢١ وما بعدها.

^(٣) Myths and Legends of Ancient Israel vol. I P XXVIII

^(٤) الأدب العبري القديم والوسيط ص ١٢٩ ، ١٣٠

تهتم بالإسرائيليات^(١) كما نقلت إلى الآداب الأوروبية المختلفة في صور وأشكال مختلفة^(٢) وأكثر من ذلك يقول الباحثون أن الخرافات التي حيكت حول قصة الخلق وخلق آدم وخلق حواء من ضلعه والقصص الخاصة بشخصيات العهد القديم الموجودة في آداب العصور الوسطى والأدب الحديث لدى الشعوب المختلفة مأخوذة من أساطير التلمود والمدراس والقرجوم الآرامي والأبوكريفا (أي أدب ما بعد التوراة) فمثلاً أن قصة ليليث زوجة آدم الأولى ذات الأصول الصومالية والبابلية يمكن تتبع تأثيرها في الحكايات الشعبية السامية وغنير السامية بأشكال وأسماء مختلفة^(٣) كما أن قصة نوح وإبليس وزرع الكرم ذات الأصل الهندي التي وردت في أساطير التلمود والمدراس (تفسير تكوين ٢٠/٩) وجدت طريقها إلى الآداب العربية^(٤) والأوروبية (الألمانية واليونانية بخاصة)^(٥) وقصة إبراهيم وسارة وفرعون مصر والنمرود ملك العراق ذات الأصل الهندي الموجودة في المدراس (تكوين الأصحاح ١٢) نقلت إلى الآداب المختلفة ومن أمثلة ذلك أيضاً الخرافات التي حاكها التلمود عن عوج بن عناق من العمالقة وخوارقه العجيبة قد تسربت إلى الأدب العربي^(٦). ويوجد لها أشباه ونظائر في الأدب الأوروبي^(٧) وأعتقد أن المأثورات العبرية باختلافها وصلت إلى أدباء العرب وشعرائهم ممن يهتمون بالإسرائيليات عن طريق من أسلم من اليهود أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شربة وغيرهم الذين قدر لهم إثراء الأدب العربي بقصص وأساطير العهد القديم وشروحه وسيأتي شرحه.

ويقال إن الأساطير التي نسجت حول الكهنة الذين كانوا يطردون الأرواح الشريرة

(١) الحوت - سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب - بيروت ١٩٥٥ ص ٢٦٤

(٢) Myths and Legends of Ancient Israel vol.3 P139

(٣) Encyclopedia Biblica vol3 p 2799

(٤) هذه القصة الموجودة في رواها الدميري

(في حياة الحيوان الكبرى) في قصة آدم فليراجع

(٥) Hebrew Myths P. 9

(٦) في طريق الميثولوجيا عند العرب ص ١٨٢

(٧) Myths and History of The O.T P 4

ويشفون الناس من الجن والشياطين الموجودة في آداب العصور الوسطى ما هي إلا أساطير مقتبسة من التلمود^(١) .

ويظن أن العهد القديم بما حواه من مادة أسطورية ضخمة قد أثر بطريقة ما على الفكر العربي القديم في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ، ولاشك أن الباحث يحتاج إلى جهد كبير لمتتبع هذا التأثير وإظهاره وليس هنا مجال للإفاضة في ذلك ولكن يكفي فقط بالإشارة إلى بعض الطرق التي رآها العلماء والدارسون في سبب تسرب هذا التراث الأسطوري إلى الفكر العربي القديم ، فيظن أن جماعة من أهل الكتاب ومعظمهم من اليهود الذين كانوا يقطنون الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يحملون ترجمة عربية للعهد القديم وقد ذاعت تلك الترجمة بين الأدباء العرب في ذلك الحين وربما يظهر ذلك في شعر أمية بن أبي الصلت - ولكن تلك الترجمة فقدت^(٢) زد على ذلك أن قبيلة قريش في الجاهلية كانت تقوم

(١) Legends of the Bible p XIX .

(٢) سكنت الجزيرة للعربية منذ القدم بعض الأسر اليهودية وقد فرحت إلى بلاد العرب من مواطن متعددة تحت ظروف قهرية وقد تضاربت الأقوال عند تحديد الفترة التي هاجر فيها العبريون إلى الجزيرة العربية واليمن لندرة المصادر التي ترجع إلى هذه الفترة المحيطة من الزمن كما لم يرد في العهد القديم سوى إشارات بسيطة عن صلة العرب باليهود وعن القبائل اليهودية التي سكنت بلاد العرب . ويمكن القول بأن اليهود قد تعرضوا إلى اضطرابات مختلفة طوال حياتهم سواء طبيعية أم سياسية أم اجتماعية . ومن هنا فقد تكون الهجرات الأولى منذ موسى حيث طلب من جماعته محاربة العماليق الذين يسكنون فلسطين فيعتل أن يكون بعضهم قد فر إلى الجزيرة العربية حيث الأمان أو قد يكون قبل ذلك بكثير والثابت من كتب التاريخ معظمها أن الهجرات الأولى لم تظهر واضحة إلا في القرن الأول بعد الميلاد بخاصة في حصر الرومان وتحطيم الهيكل الثاني . وكان أكثر تواجد اليهود في المدينة وفدك وخيبر وتيماء واليمن وقد عاشوا بجوار العرب يتأخرون عليهم بكتابهم المقدس ويقصون عليهم قصص الأنبياء والخلق والطوفان وكان ذلك -

برحلتين صيفا وشتاء (وذلك ما يخبر به القرآن الكريم في سورة قريش)
فرحلة الصيف كانت إلى الشام والشتاء إلى اليمن وفي اليمن والشام كان
يسكن كثير من اليهود ولا بد أن قريشا كانت تتصل بهؤلاء اليهود وربما
تعرفت منهم على تراثهم الأسطوري. ولما جاء الإسلام وقف المسلمون
على التراث الأسطوري العبري بخاصة أساطير الخلق والطوفان
وقصص الأنبياء مثل (نوح - وإبراهيم - ويعقوب - وموسى -
وسليمان - ويونس ... الخ) وذلك عن طريق من أسلم من اليهود أمثال
(كعب الأحبار - وهب بن منبه - عبيد بن شريح - عبد الله بن سلام)
الذين قدر لهم أن يؤثروا في التفاسير الإسلامية واملأوا كتب الأدب
العربي بالقصص والخرافات الإسرائيلية^(١) - المسماء بالإسرائيليات
الآن - والتي جلب اليهود معظمها من بابل وكنعان وفارس والهند
ومصر - وقد سبق الإشارة إليه -.

سجند العرب اليهم لما جاء الإسلام قيل المسلمون على من أسلم من اليهود
يستمعون إلى ما عندهم من قصص. راجع تفصيلا عدة مراجع منها:
(تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) (ص ٢٦ - ٤٠)
- على / جواد (تاريخ العرب قبل الإسلام) المجمع العراقي ببغداد ، ١٩٥٧
(ج ٦) ص ٥٠٠ وما بعدها.

- ابن هشام / محمد (السيرة) طبعة جوتنجن ١٨٥٨ / ١٨٦٠ ج ١ / ٢١١
(١) أمين : أحمد (فجر الإسلام) الطبعة العاشرة القاهرة ١٩٦٥ ص ١٦٠ كذلك
لنظر الخولي : أمين (مادة تفسير) في دائرة المعارف الإسلامية طبعة دار الشعب
بدون تاريخ

و اظن ان المسلمين قد اقبلوا على قصص اهل الكتاب حتى لا يكونوا
اقل شأنا منهم وهم الذين طالما كانوا يتفاخرون عليهم بهذه المأثورات .
وقد أشار ابن هشام إلى ذلك في كتاب السيرة فليراجع^(١) .

كذلك يرى الباحثون أن من الطرق التي تصرب منها القصص اليهودي
بعد الإسلام الترجمة العربية للعهد القديم التي ظهرت في الأعصر
العباسية^(٢) . ويذكر (ابن النديم) في كتاب الفهرست أن أحد علماء اليهود
المتكئين من اللغة العربية ويدعى (الجاؤون سعيد بن سعديا الفيومي)
قد ترجم العهد القديم إلى العربية . ويذكر ابن النديم أيضا ترجمة عربية
أخرى لأحمد بن عبد الله بن سلام^(٣) .

ولقد تأثر كثير من المفسرين والأدباء العرب والمسلمين بالعهد القديم
وغيرها من كتب اليهود الدينية ولكن معلوماتهم كانت يشوبها الخلط
التاريخي فتأتى مليئة بالخرافات . ولعل تفسير الخازن المسمى (لباب
التأويل في معاني التنزيل) يأتي في مقدمة التفاسير الإسلامية المليئة
بالقصص اليهودية بشكل يخول معه للقارئ أنه أمام كتاب أساطير
وخرافات أكثر منه كتاب تفسير القرآن . كذلك يمكن أن ينطبق هذا القول
على كتاب (قصص الأنبياء) للثعلبي .

(١) السيرة جـ ٢١١/١

(٢) راجع تفصيلا : زيدان : جورجى (تاريخ آداب اللغة العربية) مطبعة الهلال
مصر ١٩٤١ جـ ١٥٥/٢

(٣) ابن النديم - محمد بن اسحق الورلق : (الفهرست) لبيزك سنة ١٨٧١ م ص ٢٣
وكذلك راجع الترجمة للعربية لسعيد الفيومي في

- The Jewish Encyclopaedia Vol 3 P 188

كما يقول الباحثون، إن أساطير وقصص العهد القديم كانت أحد مصادر كتاب (ألف ليلة وليلة) وإن أساطير التلمود والمدرش ذات الأصل الهندي واليوناني أو الفارسي أو البابلي قد نفنت وانتشرت في (ألف ليلة وليلة) أيضا. (١)(*)

ولم تدخل الأساطير العبرية القديمة ألف ليلة وليلة فقط بل استخدمها فنانون العصور الوسطى في كثير من أعمالهم حيث كانوا يرسمون أساطير سفر التكوين مثل أسطورة الخلق والطوفان، آدم وحواء وشخصيات أخرى من العهد القديم ... على نوافذ الكنائس والمعابد آنذاك (٢)(**)

ويقول (كراب) " رغم ذلك يجب ألا نفرط كثيرا أو نبالغ في تأثير أدب العهد القديم وشروحه على الأدب المسيحي أو الإسلامي (٣) ولكن يمكن

(١) Encyclopaedia Britannica vol 10 P 194

(٢) لو قارنا الأساطير التي وردت في مثل : פֶּסַח, חַג־הַמַּצֹּת, חַג־הַכּוֹסֶה (٤-٢)

וכדלל אצל חזקוני The Jewish Encyclopaedia vol XI solomon وفي صدد الملك سليمان وخوارقه وتسخيره للجن والحيوانات والطيور لوجدنا مثيلا لها في كثير من قصص ألف ليلة وليلة. وكتب الأديب العربي والتفاسير الإسلامية .

(٣) Legends of the Bible P XLX (Introduction)

(٤) كان مايكل انجلو رساما ومثالا وشاعرا فذا وقد ارتبط لسمه بأروع الآثار الفنية في تاريخ النهضة الأوربية كنمثال دارد العريان وتمثال موسى التضخم وقصة الخليفة على جدار القبة الواسعة في كنيسة القديس بطرس بروما - ولدم وحواء والطوفان نوح وقصة قابيل وهابيل على نوافذ كثير من الكنائس في أوروبا .. راجع تفصيلا

- Legends of the Bible P XLX

(٥) حلم للفولكلور ص ٢١٢

ثالثًا - مصادر الأسطورة والقصة والخرافة اليهودية القديمة:

قامت على المادة الأسطورية الموجودة في أسفار العهد القديم أساطير وخرافات متعددة توجد متناثرة في كل مكان مع المناظرات والنقاشات الدينية في كل من التلمود^(١) والمدراش^(٢) والأبوكريفا^(٣) كما يوجد جزء كبير منها في الترجمات الآرامية^(٤) وسائر تفاسير وشروح وتراجم العهد القديم وهو ما يسمى بأدب ما بعد التوراة . وتسمى الأجزاء التي تتناول الأساطير والخرافات في تلك الشروح والتراجم (بالهاجادة أو الأجدادة)^(٥)

(١) التلمود: وهو مكون من المشنا والجمارا وهي شروح قامت على أجزاء من أسفار العهد القديم وينقسم إلى البابلي وكتب في بابل ولورشليمي ووضع في فلسطين. وتنقسم المادة الموجودة فيه إلى الهاجادة التراث الأسطوري والبالاغا الأحكام والوصايا الدينية. راجع تفصيلا

H. Polano, 'The Talmud Selections,' London 1978 Part 1-2 pp 1:10

والفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه ص ٩٥ وما بعدها

(٢) المدراش: التفسير أو الشرح أي شرح النص الشرعي ويطلق عليه الأدب التفسيري وهو فرع من فروع المشنا ويحتوي على أجزاء من الأساطير والخرافات = عبد المجيد : محمد بحرة اليهودية مصر ١٩٧٠ ص ١١٩:١٢٠

(٣) الأبوكريفا: كلمة يونانية لها معان متعددة منها مخبأ سرى خفي. يتصل بها الأسفار الخارجة التي لم يكن لها وجود في العهد القديم العبري ثم وضعت ضمن الترجمة اليونانية - السبعينية - للعهد القديم إلا أن اليهود لم يعترفوا بها ولم يضمروها إلى أسفارهم القانونية المسماة العهد القديم راجع الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه ص ٧٧/٧٢

(٤) الترجمات الآرامية: ترجمة وتفسير لسفار العهد القديم بالآرامية في عصر اضمحلال اللغة العبرية وازدهار الآرامية وهو أقدم كتاب آرامي منتشر بين اليهود = الأدب العبري القديم والتوسط ص ٥/٤

(٥) الهاجادة كلمة عبرية تعني تراث اليهود الأسطوري والخرافي القائم على أسفار العهد القديم وهي مأخوذة من الفعل المزيد (مَجِيد) بمعنى أخبر روى قصص وكان يراد بها أصلا =

وكانت الكلمة تعنى أصلاً تعليم و تلاوة العهد القديم ثم وصارت تعنى الإفاضة التفسيرية للفقرات المذكورة في العهد القديم بخاصة الأجزاء التي لا تمس الشريعة ثم تحولت بالتدريج فأصبحت تعنى تفسير وتأويل أسفار العهد القديم بوجه عام^(١).

و تشمل الهاجادة موضوعات متعددة ومتنوعة منها أساطير وخرافات مستقاة من العهد القديم تدور حول خلق العالم وأسراره وخلق آدم وحواء من ضلعه وطردهما من الجنة وخلق جنة عدن. وتشمل أيضاً حكايات شعبية وقصص تاريخية هيكت حول شخصيات جاء ذكرها في العهد القديم مثل قابيل ، وهابيل ، ونوح ، وإبراهيم وزوجته سارة ، وإسحاق ويعقوب وبنيه وموسى ومعجزاته في صحراء سيناء ومعجزة المن والسلوى طعام بني إسرائيل في الصحراء. أضيف إلى ذلك قصص عن داود وهو صغير يرعى الغنم وهو كبير يرعى بني إسرائيل وقصته مع الملك شاول ومقتل جالوت الفلستيني على يده وقصص وخرافات عن ابنه الملك سليمان وحكمته وحكاياته مع ملكة سبأ ومع الجن والشياطين والطيور والنمل^(٢) والوحوش وسائر الكائنات.

قصص موسى وخروجه مع قومه من مصر وكان رب الأسرة يرويهما على أسرته في عيد الفصح ثم استخدمت بدلاً منها الكلمة الآرامية لاجادة وهي أعص وأصل.

The jewish Encyclopaedia vol VI P 141 (Haggadah)

(١) The jewish Encyclopaedia vol VI P 141

(٢) من الطيور التي كثرت حولها الخرافات في قصة سليمان البنحد والنصر. وفي قصة نوح والحمام والغراب. لأجل معلومات أوسع ارجع إلى : כְּלֵי חַיִּים וְחַיִּים : כְּלֵי חַיִּים :

חֲלָקֵי חַיִּים - שְׁלֵשׁ סְפָרֵי חַיִּים : חֲלָקֵי חַיִּים

وقصص عن بناء سليمان للهيكل^(١) أضيف إلى حكايات وخرافات لا
 حضر لها عن معجزات منسوبة إلى شخصيات أخرى ظهرت بعد فترة
 العهد القديم^(٢)، كما تزخر الهاجادة أيضا بألوان شتى من الخرافات
 الخاصة بالسكر والتجيم والعرافة والملائكة والشياطين والأرواح
 والهوام والجن ... وما إلى ذلك. وهناك قصص وخرافات لا نهاية لها
 عن معجزات رجال الدين اليهودى ولا تحتوى الهاجادة على خرافات
 فقط بل فيها ما يتعلق بالطب والفلك وما يختص بالنواحي الأخلاقية
 والفلسفية والصوفية إلى جانب كم هائل من الحكم والأشعار والتشبيهات
 التي استخدمت في ضرب المثل والعبرة والقصص الرمزية التي ترشد
 اليهود إلى الأخلاق الكريمة وتحثهم على التمسك بالدين^{(٣) *}

ويذكر الباحثون أن السبب الرئيسى في ظهور تلك المادة الأسطورية
 الضخمة هو الرغبة في شرح وتفسير ما غمض من أسفار العهد القديم
 في عصر تدهور اللغة العبرية ونسيانها . فبعد السبى البابلي استمر
 اليهود في نسج الأساطير حول شخصيات من العهد القديم و أجزاء منه

(١) بناء الهيكل - الجزء الثانى من ١٩٢ - ٢٠٤ The Talmud Selections

(٢) راجع مثل هذه القصص وغيرها في The Talmud Selections الجزء الثالث

(٣) The Jewish Encyclopaedia vol IX p 215 (Parable) و VI p 141

(*) ليس من الضروري أن تكون هذه المأثورات من نتاج العقيدة اليهودية حيث يقال إن
 علماء اليهود قد اقتبسوا معظمها من الهند ومن مصر واليونان وكنعان . راجع في ذلك مثل
 ظاظا ، حسن : في حديثه (لغة العبر ماذا تقول) لجريدة أخبار اليوم ١٩٧٠/٧/١٨ ومثل
 لجر للضمير ٢٩٠

وامتد هذا النشاط الشعري على مدى عشرة قرون ورمت الأساطير باستخدامها الخيال والتخيل والخرافة إلى الإفاضة فيما هو غير مفهوم من العهد القديم. وكان الغرض من ذلك تشويق المستمع وجذبه لسماع ما يروى إليه مع الاهتمام بتقريب اليهودى من الرب الذي خلق الكون ، وحثه على تمجيده والسير في طريقه ونشر الطمأنينة في قلوب اليهود أثناء الأسر البابلي^(١) وكانت الهاجادة الفرع الأكبر شعبية لأنها بدلا من التعامل مع الشرائع والنصوص التشريعية كما تفعل الهالاخا^(٢) كانت تتعامل مع العادات والمعتقدات والتقاليد القديمة والخرافات والأساطير والأمثال والتخصص أي كل ما يتعلق بعلم الأساطير والتراث الشعبي. ورغم أن الهاجادة تقوم مادتها على أسفار العهد القديم ، إلا أنها تحاول أيضا عرض أفكار جديدة للنص مستشهدة بفقرات من العهد القديم لكي تترك في الناس^(٣) .

وتتناول الهاجادة بوجه عام ما جاء في العهد القديم من شرائع دينية وقصص وأحداث تاريخية في شكل قصص وأساطير وحكايات وخرافات من أجل التشويق والترهيب والترغيب ،

(١) The Jewish Encyclopaedia vol VI P 141

(٢) الهالاخا الجزء الذي يهتم بالنصوص والشرائع والاحكام الدينية بعيدا عن الأساطير والمعتقدات

~The Jewish Encyclopaedia vol VI p 141

(٣) The Jewish Encyclopaedia vol VI P141

مراجع أيضا الأدب العبري القديم والوسيط ص ٦/٥

ونظرا لأن الهاجادة كانت تستمد أصولها من تأملات الإنسان والحريّة
الفكرية فهي تعد نتاج للزمان والأفكار التي كانت منتشرة آنذاك ، بمعنى
أنها قد تعرضت لمؤثرات أجنبية متعددة ، حيث تركت الحضارات
المختلفة التي كان اليهود يعيشون في كنفها مثل الحضارات الكنعانية
والفينيقية والمصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية آثارها على
الهاجادة^(٦) التي لم تقته بإتمام التلمود بل استمرت لعدة قرون . وقد صلي
كتاب الميثولوجيا اليهودية على صبغة تلك المؤثرات الأجنبية بالصبغة
الدينية اليهودية كي تتناسب مع الفكر الديني اليهودي والمقتضيات
الأخلاقية عند اليهود لكن رغم ذلك ظلت بقايا تلك المؤثرات الأجنبية
واضحة في ثايا الهاجادة فمثلا في قصة وفاة أنم وحواء وإبراهيم
وموسى وحضور ملاك الموت وكيفية دفنهم ظهرت بقايا الخرافات
المصرية التي تتحدث عن دفن الموتى وظهور ملائكة الموت^(١) وتبدت
آثار يونانية في المدراس عند تفسير سفرى الجامعة ونشيد الأناشيد^(٢)
وظهرت آثار لخرافات بابلية وفارسية فى الهاجادة تتحدث عن الجن
والشياطين والأرواح وثنائية الخير والشر عند الفرس.وعوالم الآلية

(٦) راجع ص ١٤ : ١٥ من هنا للبحث

(١) لاخل مطومات أوسم راجع:

=legends of the Bible (المقنمة) /Myths and Legends of Ancient Israel vol I .

(٢) الحضارات السامية القديمة ص ١٦٤ و الألب العبري القديم والوسيط ص ١٠٥

وعن سحر والسحرة والتنجيم (*) كما تسربت معتقدات وخرافات من الأمم الأخرى مثل خلق صفات البشر على الزرب ووصف العالم السفلي والصوت والحياة ووصف الجنة والنار. وفوق ذلك كله ظهرت بوضوح في ثنايا الهاجادة عناصر خرافات وأساطير تتحدث عن كيفية خلق الشمس والقمر والكون والإنسان والحيوان وسائر الكائنات وخرافات تتعلق بصفات الرب وأشكال الملائكة والجن والشياطين وتجسيد الطبيعة وتجسيد الإله (1) وهذه المعتقدات والخرافات بعيدة عن الروح الإيمانية عند اليهود .

وقد انتعشت الهاجادة ونمت عبر القرون كفرع من فروع الأدب الشعبي وابتكرت أساطير وخرافات وحكم وأمثال جديدة لا تعتمد على العيد القديم. وحدثت القديمة بطريقة تخدم الأهداف الأخلاقية والسياسية أيضا . وجمع الأخبار الذين أتوا في فترة ما بعد التلمود الخرافات المبعثرة ونقضوها محاولين تكظيمها كي تناسب احتياجات اليهود (2)

(*) يمثل التلمود بطقوس السحر والشعوذة والخرافة ويعتقد بوجود المناريت والنجن

وكيفية طرد الأرواح الشريرة : שו"ת נדב"ר, ח"א : ט"ז ה'תק"ך

Copyright - Tel Aviv 1970 - P 406

(1) The Jewish Encyclopaedia vol VI P 141 (Hagadah)

(2) انظر النسخ الإسرائيلي لطواره ومذاهبه ص ١٠٤/١٠٥

وينسب اليهود بداية تأليف الهاجادة إلى عصر عزرا الكاتب في القرن الخامس الميلادي عندما حاول أن يجعل العهد القديم مقبولا لدى عامة اليهود ففسره في شكل قصص وأساطير لجذب الناس إليه.^(١)

وخلاصة القول تعنى الهاجادة الحكاية أو الأسطورة أو الخرافة اليهودية التي أوحى بها العهد القديم فهي نابعة منه مفسرة لما غمض فيه. وقد عبر كتاب الميثولوجيا اليهودية تعبيراً وافياً عن معتقدات وعادات وتقاليد وآمال وآلام اليهود في تلك المادة الأسطورية الضخمة لذلك فهي تعد بمثابة مرآة للكشف عن أخلاق اليهود وطباعهم وأفكارهم كما تمنحنا بشئ عن تاريخهم وتعرفنا بأداب الشعوب الأخرى التي كانت موجودة عصر التلمود وبعده. ومن هنا يمكن اعتبار الهاجادة من الوثائق التي تعتمد عليها في معرفة تاريخ اليهود وأدبيهم و آداب من كانوا على اتصال بهم وهذه المادة بالطبع ذات طابع ديني وأخلاقي بالرغم من المبالغات والخيالات الواسعة التي تحيط بها .

(١) مرسى : لعمد على : وفاروق جودي الفولكلور والإسرائيليات : دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ١٧ وما بعدها.

ملاحح الأساطير والخرافات العبرية القديمة:

من الملاحظ أن الأساطير والخرافات في العهد القديم وشروحه وتراجمه تشترك مع أساطير وخرافات الأمم الأخرى في أنها تخضع كل قوى الطبيعة إلى سيطرة قوة ذات مشيئة أعظم وتعتبر أساطير العهد القديم سواء التي من نتاج العقلية العبرية أم التي تهوت أساطير رمزية وإشارية وتاريخية تصف أصل تطور القوة الطبيعية مثلها في ذلك مثل أساطير الأمم الأخرى^(١) كما تشترك الخرافات المذكورة في أسفار العهد القديم وشروحه مع خرافات الشعوب الأخرى في أنها وليدة الخيال وليس لها أساس من الواقع والغرض منها فقط العوظة أو العبرة أو الترضيب أو التخويف، لكن مع ذلك فإن الأساطير العبرية القديمة تختلف اختلافاً بيناً في كثير من ملامحها عن أساطير وخرافات الشعوب الأخرى.

فقد كانت الشعوب القديمة تنظر إلى القوى المجسدة ومظاهر الطبيعة على أنها عدد كبير من الكائنات المستقلة وكانت الطبيعة مزيجاً من الإلوانات بحكم الكون آلهة متعددة^(٢) أما الأساطير العبرية القديمة فهي تختلف عن ذلك في أن الفكر الديني اليهودي يعتمد على فكرة الإله الواحد والإرادة الواحدة التي تحكم الكون كله. ومما يميز الأساطير

(١) الأدب العبري القديم والوسيط ص ١٧

(٢) راجع تفصيلاً

=Hamilton Edith (Mythology) Amentor Book U.S.A. 1955

في أكثر من مكان

العبرية القديمة عن أساطير الشعوب الأخرى أيضا إن الكائنات العليا التي تظهر في صورة مادية والتي تلعب دورا في النشاطات الإنسانية لا تنفصا أي أسباب أخلاقية لتكون كذلك^(١) على العكس من ذلك فإن الأساطير والخرافات العبرية القديمة تقوم على أسس تأديبية و تعليمية لأنها ورنث في كتب دينية. ومن الملاحظ في أساطير الشعوب الأخرى أن الأسطورة تمتزج بالدين امتزاجا قويا كما هو الحال مثلا بالنسبة لأساطير اليونان حيث كانت الآلية وأنصاف الآلية وحتى الأبطال اليونانيين دين لكل واحد منهم على حده ، كما كانوا يتمتعون بالعبادة والشرف الذين لا يلبان^(٢) إلا بالآلية^(٣) أما بالنسبة للأساطير العبرية القديمة فليست لها علاقة بالعقيدة أو عبادة الرب إلا فيما يتعلق بإثبات وحدانية الرب أو فيما يتعلق بتسيحه وتمجيده^(٤) أو عند تهديد أعداء بني إسرائيل^(٥) أو عند شرح شريعة أو طقس وما إلى ذلك . كذلك مما يميز الأساطير العبرية القديمة عن غيرها من الأساطير عند سائر الشعوب الأخرى الفنون التشكيلية فقد كانت الأساطير عند تلك الشعوب

(١) يقول فريزر : في هذا الصدد تخيل الإنسان أنه بواسطة البحر يمكن التحكم في مظاهر الطبيعة كالمنطق والشمس والرياح .
 فريزر : جيمس هنري : الغصن الذهبي البيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ج ١ ص ٢٤٣ وما بعدها . وكذلك لمعلومات في هذا الصدد راجع :
 الحضارات المصرية القديمة ص ٧٨ : ٧٩ والخام : سعد : (الفن الشعبي والمعتقدات المسحورية) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدون تاريخ

(٢) Mythology pp 24 . 25

(٣) راجع أكثر من مكان في سفر المزامير
 (٤) راجع أسفار الأنبياء مثل سفر أشعيا وأرميا

مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفنون التشكيلية وممزوجة بها فكل نتاج خيالي مهما بلغت غرابته كان يتم تجسيده للشعب وطبعه في الأذهان عن طريق تمثيل هذا النتاج باللون والخطوط في صورة رسم يتم على القماش أو نحت في رخام أو حجارة وما إلى ذلك وأينما نتجه الأنظار في المعابد أو الأماكن العامة وحتى المنازل يجد الناظر في هذه الأشكال تمثيلا لخرافة أو حكاية شعبية معينة وبذلك ترسخ تلك الماثورات في الأذهان^(١) ولكن إذا ما عدنا إلى العهد القديم لاحظنا أن الشريعة الموسوية قضت بتحريم تشكيل أو تمثيل أو تصوير أو نحت لأي مظهر من مظاهر الطبيعة^(٢)

وهناك سمة أخرى تميز الأساطير والخرافات العبرية القديمة عن غيرها من الأساطير الأخرى ففي الأساطير اليونانية والمصرية والكنعانية والقصائد السومرية والملحمة البابلية تلعب الإلهة دورا هاما بجانب الإله في المجتمع الإلهي^(٣) لكن على العكس من ذلك تم استبعاد الجنس الأنثوي من الأساطير والخرافات العبرية القديمة من المناطق السماوية حتى أننا لا نسمع عن ملائكة أنثى مثلا . ولكن مع ذلك في فترات لاحقة ظهرت إشارات إلى عرافات وكاهنات مثل (خلد) العرافة^(٤) ونبيات

(١) زكي. دكتور أحمد كمال الأساطير : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) سفر الخروج ٤/٢٠ وكذلك انظر سفر الملوك الثاني ٢/١٨

(٣) مجلة للدراسات الشرقية دورية نصف سنوية العدد الثاني يوليو ١٩٨٤ مقالة للدكتورة مريم البغدادي بعنوان (الأمومة في الأسطورة والملحمة)

(٤) سفر الملوك الثاني ١٤/٢٢ واخبر ثلث ٢٢/٢٤

مثل (نبوة) النبوة^(١) وإن لم تتحكم تلك الشخصيات في المجتمع كتحكم الإله .

أما بالنسبة للقصص الموجودة في التراث الأسطوري العبري فهي تتخذ طابعا آخر غير القصص الموجودة في أداب الشعوب الأخرى حيث يتخذ معظمها طابعا تعصيبا وسياسيا وتقوم على أهداف قومية تصل أحيانا إلى حد لا يمكن تصديقه^(٢) وهناك ظاهرة واضحة تميز التراث الأسطوري العبري القديم هي ظاهرة تعليل وتفسير العلل والغايات والأهداف أو شرح أصل الأسماء والأشياء و الأمكنة أو تفسير وشرح عادة من العادات أو تقليد أو أصل أو شعيرة أو طقس^(٣) .

كذلك أن ما يميز ذلك التراث الأسطوري استخدام الصور المجازية المختلفة لتقريب المفاهيم إلى الأذهان فقد استخدمت مظاهر الطبيعة بالوانها المختلفة كما استخدمت طباع الطيور والحيوانات وسائر الكائنات

(١) سفر القضاة ٥/٤

(٢) راجع سفر القضاة فهو خير مثال على ذلك

(٣) خذ مثلا الأسطورة التي ارتبطت بتغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل وتحريم بعض اللحوم على بني إسرائيل (تكوين ٣٢/٥ : ٢٩) وأسطورة الطوفان التي جاءت بسبب فساد الأرض (تكوين ٦/٧ : ٨) وأسطورة برج بابل وأصل اختلاف الألسنة (تكوين ١١) أصل تسمية معظم الأشخاص الذين ذكرت اسمائهم في العهد القديم و لاجال لعصر ذلك هنا .

المختلفة من أجل ذلك^(١) .

أما بالنسبة لأساطير وخرافات أدب ما بعد التوراة فهي تتناول أكثر ما تتناول أجزاء من العهد القديم، فبينما أتجه كتاب الأساطير والخرافات في الشعوب الأخرى صوب الطبيعة فنسجوا حولها أساطيرهم عمد الربانيون إلى العهد القديم لتفسير ما غمض منه عن طريق رواية الأساطير والخرافات حتى يروق للعامة. وقد اخترقت عناصر وثنية جدار الأساطير والخرافات الموجودة في شروح وتفسير العهد القديم فحول الأساطير التي نبعث من العهد القديم قامت خرافات لا تدور حول الرب بل تتحدث عن السحر والتنجيم والملائكة والأرواح والعفاريت والصراع بين الخير والشر ... الخ^(٢). وأكثر من ذلك استخدمت هذه المخلوقات في دور الوسيط بين الرب والعباد . كما ظهرت تشبيهات ألصقت بالرب وذلك نتيجة لاتصال بني إسرائيل بالشعوب الأخرى وتأثيرهم بخرافات الأمم الوثنية^(٣) . فالمعروف أن إسرائيل شعب كثير الحل والترحال وهكذا كان حال تراثه الأسطوري بالطبع .

مهما كانت المادة الأسطورية سواء الموجودة في العهد القديم أو التلمود محاطة بالوان من الخيال والمبالغة فقد جاءت في إطار ديني يناسب مكانتها في كتب مقدسة.

(١) راجع أسفار الأنبياء والمكتوبات فهي أسفار شعرية تهتم بالصورة البلاغية المختلفة .

(٢) راجع البحث ص ٢٠ .

(٣) راجع البحث ص ٣٠ .

الختامة

ننهي هذه الدراسة فنقول أن العهد القديم والشروح والتفاسير التي قامت عليه تحتوي على مجموعة من الأساطير والخرافات والقصص الشعبية وحكايات الحيوان وأخبار الخوارق والأبطال .

وقد أنت الدراسة السابقة إلى أن هذه المادة الأسطورية الضخمة بعضها من نتاج العقلية العبرية وبعضها دخیل من أمم مختلفة سامية وغير سامية.

وقد ذكر علماء الميثولوجيا أن العهد القديم وشروحه يعد تسجيلاً لمجى الأحداث المبكرة لتاريخ الأمم والشعوب الذين عاش بنو إسرائيل بينهم أو بجوارهم أو تعاملوا معهم^(١).

ومن هنا يحق لنا أن نقول أن أسفار العهد القديم وشروحه علاوة على الصفة الدينية فهي تعد وثيقة مدونة مبكرة لها أهميتها في التعريف بعادات وتقاليد ومعتقدات و تاريخ بنى إسرائيل وفلسطين بخاصة وتاريخ الشرق الأدنى القديم بعامة تضاف إلى بقية الوثائق من حفرية وتاريخية ونصية وشفاهية^(٢).

(١) خذ مثلاً قصص إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وقصص قضاه وملوك بنى إسرائيل فكلياً تعرفنا معرفة تامة بالأمم والشعوب التي اتصل بنو إسرائيل بهم منذ نشأتهم الأولى .
(٢) راجع تفصيلاً:

نظرا لندرة أو انعدام المصادر والمراجع التي ترجع إلى عصور سحيقة من ناحية ومن جهة أخرى إن ما توصل إليه الباحثون والمكتشفون من كشوفات وآثار حفرية سومرية أو أكديّة ونصوص أوجاريتيّة وكنعانيّة ومصريّة قديمة و فينيقيّة وما إلى ذلك، مازالت قليلة جدا بل لندرة وغامضة وغير محددة لصعوبة التوصل إلى ترجمة دقيقة للغات تلك الكشوفات^(١) بالإضافة إلى أن كثيرا منها لم يسلم من العطب^(٢) أيضا قد تبين لنا مما سبق شرحه أن الأسر البابلي كان له عظيم الأثر في تغيير مفاهيم وأفكار اليهود حيث اكتسب اليهود أثناء وجودهم في الأسر كثيرا من العادات والتقاليد والمعتقدات البابلية بالإضافة إلى كثير من الآداب والفنون وشتى فروع العلوم وقد ظهر ذلك بوضوح في أجزاء من العهد القديم وشروحه.

كما اتضح أن المادة الأسطورية التي ورثت في العهد القديم وشروحه وتراجمه لها مثيل في التراث الإنساني فنظرا لأن العهد القديم لم يدون في حينه كما لم يدون في بيئة واحدة كذلك الحال بالنسبة لشروحه التي دونت على مدى قرون طويلة وفي بيئات مختلفة فقد تعربت كثير من المعتقدات والأفكار الأسطورية والخرافات والقصص والحكايات الخاصة بالأمم والشعوب الذين كان بنو إسرائيل على اتصال بهم طوال تاريخهم واستقرت في العهد القديم وشروحه بعد أن حورت وبذلت وصبغت بالصبغة الدينية اليهودية لكي تتناسب الفكر الديني الإسرائيلي.

(١) الحضارات السامية القديمة ص ١١٦-١١٧-١١٨-١٢٠

(٢) Middle Eastern Mythology p 103

وكما تأثر التراث الأسطوري العبرى بالتقافات و الأفكار والمأثورات الشعبية والمعتقدات التي كانت سائدة أثناء تدوينه أثر بدوره في كثير من آداب الشعوب المختلفة سامية وغير سامية في مختلف الأزمان وذلك لما يحتويه من مادة أسطورية ممتعة وجذابة ...

وتظن الباحثة أن التماثل بين التراث الأسطوري العبرى والتراث الأسطوري لدى الشعوب الأخرى يدل على أن شعوب الشرق الأدنى القديم والبيئات المحيطة بها بخاصة منطقة حوض البحر الأبيض قد تأثر بعضها ببعض وأن ذلك التراث كان منتشرا وسائدا جدا زمن تدوين العهد القديم وشروحه وتراجمة وكان من يكتبون العهد القديم وشروحه على دراية تامة بالمخلفات الثقافية لدى شعوب الشرق الأدنى القديم ،

ويمكن توضيح مجال التأثير والتأثر الفكري عن طريق الدراسات الأدبية المقارنة التي تقيد في تأصيل الرؤى الفكرية وتحديد مبدئها الأول وأماكن انتشارها. لكن البحث في مثل هذه الدواعي وتحقيق نتائج علمية سليمة يحتاج إلى مصادر يرجع إليها كما تقتضى طبيعة الدراسة الأنثبية المقارنة والآثار الباقية عن القرون الخالية في أساطير الساميين جميعا قليلة جدا ولا تحتفظ خرافات وأساطير أمة من الأمم إلا بعد أن تكون في آدابها وتاريخها ، و أدب الساميين الوثنيين ضئيل جدا وكل ما وصل إلينا من خرافات وأساطير الساميين إنما هو أخبار متقطعة ومبعثرة مثل الأساطير البابلية التي اكتشفت في الألواح المسبحة وقليل جدا من نقوش الساميين الشماليين أضف إلى ذلك أن هناك قصورا في نقل وترجمة الآداب السامية القديمة إلى اللغة العربية الفصحى .ولا يمكن للأدب

المقارن أن ينجح فى هذا المجال إلا بعد تقديم النصوص الأساسية للآداب السامية أو غير السامية موضوع المقارنة فى لغة عربية فصلى .
مجمال القول لا يمكن دراسة الأساطير والقصص والحكايات التى وردت فى العهد القديم وفى التلمود والمدراش والأبوكريفا والترجوم الآرامى بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى والعكس بالعكس . فالتراث الأسطورى العبرى يعد ذا أهمية كبرى فى الكشف عن عادات ومعتقدات وتقاليذ بنى اسرائيل ومن كانوا على اتصال بهم طوال حياتهم . إلى جانب ذلك فإنه يعرفنا بآداب الشعوب الأخرى التى طواها النسيان على مرور الأزمان واحتفظت بها المرويات العبرية السالفة الذكر .

أضف إلى ذلك كله إن التراث الأسطورى العبرى قد أمد الآداب المختلفة فى الصور المختلفة بثروة هائلة من الأساطير والقصص والتاريخ منها ما هو حقيقى ومنها ما هو غير حقيقى يشوبه الخيال والمبالغات لذلك وجب على الباحثين المتخصصين تنقية التراث العبرى والإسلامى من هذا التراث أو التتويه عنه حتى يكون القارئ أو الدارس على علم بما يصح ولا يصح . كما يجب أيضا توضيح أثر الحضارة السامية والفكر السامى فى تكوين الحضارات الإنسانية حيث لوحظ أن علماء الغرب ينسبون ذلك إلى الحضارة الهلينية والرومانية والهندية .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمصرية:

١. كتب العهد القديم
٢. أمين، نكتور أحمد
٣. ابن التديم، محمد بن اسحق
٤. ابن هشام، محمد
٥. برستيد، جيمس هنري
٦. بلفنش، توماس
٧. الطبري، أبو اسحق
٨. جلاله بكتورة ألفت محمد
٩. حتى ، فليب
١٠. الحوت، محمود سليم
١١. الخاتم ، سعد
١٢. الخازن ، علاء الدين على
١٣. الخولي ، نكتور أمين
١٤. دروزة ، محمد عزة
١٥. ديورانت ، ولي
١٦. زكي ، نكتور أحمد كمال
- تجميعاً للتوراة الامريكانية بدون تاريخ
- نجر الإسلام الطبعة العاشرة لجنه التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٥
- الفهرست لينزك ١٨٧١
- تسيره سيدنا محمد طبعة جوتجن ١٨٥٨ - ١٨٦٠
- فجر الضمير ترجمة حسن سليم دار مصر للطباعة بدون تاريخ
- عصر الأساطير المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية للقاهرة ١٩٦٦
- تخصص الأنبياء المسمى بالعرائس طبعة دار الكتب بدون تاريخ
- الأنب العبري القديم والوسيط مطبعة جامعة صين شمس ١٩٧٨
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد وجد الكريم رائق دار الثقافة بيروت ١٩٥٨
- في طريق الميثولوجيا ضد العرب الطبعة الأولى بيروت ١٩٥٥
- الفن الشعبي والمعتقدات السحرية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدون تاريخ
- تلبب التأويل في معاني التنزيل الطبعة الأولى مطبعة الاستقامة للقاهرة ١٩٥٥
- مادة التنصير في دائرة المعارف الإسلامية طبعة دار الشعب بدون تاريخ
- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم الطبعة الثانية للمكتبة العصرية بيروت ١٩٦٩
- قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية بدون تاريخ
- الأساطير الهيئة العامة المصرية للكتاب مصر ١٩٨٥

تتويخ لأدب اللغة العربية مطبعة الهلال مصر
١٩٤١م

:العرب واليهود في التاريخ الطبعة الأولى دمشق
١٩٧٣م

:تاريخ الأدب العرب العصر الجاهلي الطبعة
الحادية عشرة دار المعارف ١٩٨٦م

:الفكر الديني الإسرائيلي وأطواره ومذاهبه
جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات
العربية ١٩٧١م

: اليهودية - الطبعة الأولى مصر ١٩٧٠

:من الأدب العبري جامعة الدول العربية معهد
الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٣

:الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم
مراجعة حسن ظاظا الهيئة المصرية العامة
للكتاب القاهرة ١٩٧٢

:الكتب التاريخية في العهد القديم معهد البحوث
والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٨

:علم الفولكلور ترجمة رشدي صالح دار الكتاب
العربي للقاهرة ١٩٦٨

:لساطير العالم القديم ترجمة أحمد عبد الحميد
يوسف الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤

:الفولكلور والإسرائيليات جامعة للقاهرة ١٩٧٧

:العضارات السلمية القديمة ترجمة د/المسيد
يعقوب بكر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٨

:تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية
وصدر الإسلام لجنة الترجمة و النشر مطبعة

الاعتدال بمصر ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧ م

:معالم تاريخية الإنسانية ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد القاهرة ١٩٥٦

١٧. زيدان ، جرجي

١٨. سموسة، دكتور أحمد
نسيم

١٩. ضيف ، دكتور شوقي

٢٠. ظاظا دكتور، حسن
توفيق

٢١. عبد المجيد، دكتور
محمد بحر

٢٢. علي، دكتور لؤي
حسني

٢٣. فريزر، جيمس جرج

٢٤. كامل، دكتور مراد

٢٥. كراب ، الكزاسلر
هجرتي

٢٦. كريم ، صمويل نوح

٢٧. مرسى ، دكتور أحمد
علي وفاروق محمد

جودي

٢٨. موسكاتي ، سبتيو

٢٩. والفنسون ، دكتور
إسرائيل أبو نجيب

٣٠. ويلز، هـ ج

الدوريات

٣١. صحيفة أخبار اليوم القاهرة عدد ١٨ من أكتوبر ١٩٧٠
٣٢. مجلة الدراسات الشرقية القاهرة العدد الأول ديسمبر ١٩٨٣ - العدد الثاني يوليو ١٩٨٤

الرسائل العلمية

المراغى : الدكتور محمد احمد حسن
الصور الأدبية بين الأسفار المكتوبات والأدب الجاهلى رسالة دكتوراه
مخطوطة جامعة عين شمس كلية الآداب

ثانيا: المصادر والمراجع العبرية

1. נ"א ל"ס: ח. נ. זרבניצקי: ספר האגדה
מבחר האגדות של תלמוד ובסדר ש"ס.

Copyright Co LTD Tel Aviv 1933 - 1934

2. לבנר, י. ב: כל אגדות ישראל. Tel. Aviv, 1945

3. דובשני, מנשה: מבוא כללי למספרא. יבנה בע"נ

4. שטיינברג; יהשע: מלון התנ"ך
Copyright Tel Aviv 1970

ثالثا المراجع الأجنبية

- 1-Bratton,F.G

:Myths and legends of Ancient Near
east crowell N.Y 1970

- 2-Breasted: James,H

:The conquest of the civilization New
edition N.Y 1938

- 3-Ginzberg,Louis

Legends of the Bible -the Jewish
publication society of America U S A

- 1972
- 4-Graves, Robert, and Rophael Pptai :Herbrew Myths U.S.A 1967
- 5-Hamilton, Edith : (Mythology) Amentor book, the new American library of world literature N.Y. 1955
- 6-Hooke S.H : Middle eastern mythology penguin books, baltimore great Britian 1963
- 7-Pritchard, James,B : Ancient near eastern texts relating to the old testament Newjersey Princeton Univ. press 1950
- 8-Polano, H : The Talmud selection from the contents of the Ancient Book its commentaries teachings poetry, and legends transform the original by polano, London tamuz 36 76
- 9-Rappoport,Angels,s : Myths and legends of Ancient Israel London 1928
- 10-sarson, Mary : The History of the people of Israel copyright London 1912
- 11-Smith, William , R : Lectures on the religion of the semites London 1927
- 12-Smith, Homer, W : Man and his god copyright 2nd ed Univ. Library N.Y. 1956
- 13-Warren W, Jackson : Legends, Myths, and History of the O.T copyright U.S.A 1970

دوائر المعارف

- 14-Encyclopaedia Biblica :Edited by Black and cheyne London 1899-1903
- 15-Encyclopaedia Britannica :15th ed U.S.A 1975
- 16-The Jewish Encyclopaedia :New York, London 1903 -1905

هناك مراجع أقل أهمية ذكرت في الهوامش

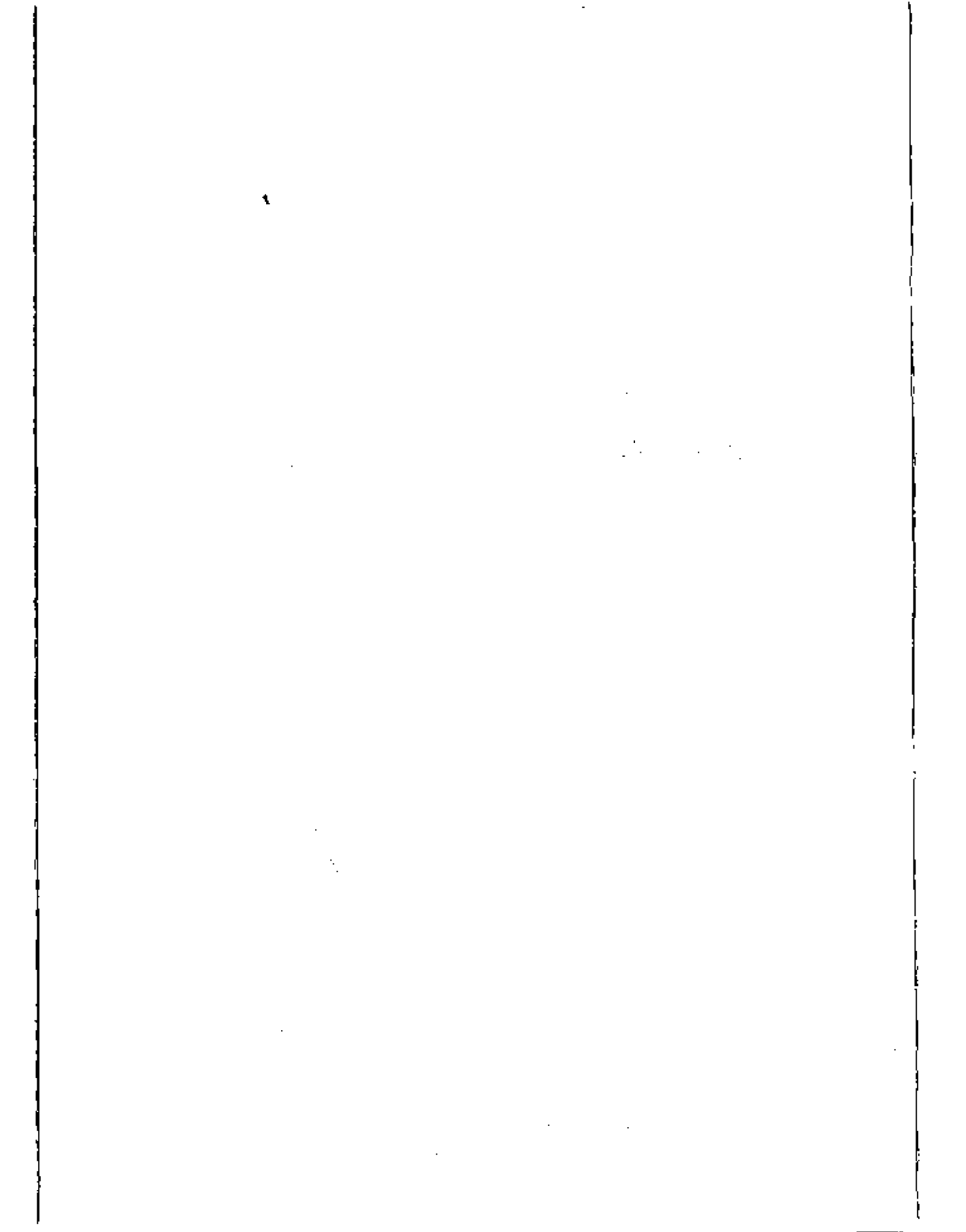
١

مظاهر التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط فى بعض العادات والتقاليد الشعبية القديمة

بحث مقدم من

الدكتور

إبراهيم حسين محمد



مما لا شك فيه أن طبيعة المواقع الجغرافي لأي دولة من دول العالم يكون له تأثيراً مباشراً في تحديد السمات الحضارية للدولة والتي تتكون كنتيجة طبيعية للتأثير المتبادل مع الدول المجاورة لها والمتعاملة معها في مختلف المجالات. ولذلك سأحاول أن أوضح من خلال هذا البحث بعض مظاهر التأثير الحضارى المتبادل لبعض مدن البحر المتوسط على بعض العادات والتقاليد الليبية القديمة، وذلك من خلال الدراسة التاريخية والأثرية لنقاط البحث الآتية:

- مدى تأثير صناعة الأرواب الليبية وزخرفتها بحضارات المدن القريبة منها.
- الأصل التاريخي لعادة استخدام الوالى الذكري (الجراب) عند القبائل الليبية.
- أنواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها.
- أصل وأنواع حافظة القدم (الخف) التي تستخدمها القبائل الليبية.

وقد اعتمدت في دراسة كل نقطة من نقاط البحث السالفة الذكر على محاولة التعرف على الجزور الأولى لاستخدام تلك الأرواب الليبية وأنواعها وكذلك إبراز المميزات الخارجية التي ظهرت في أساليب زخرفة تلك الأرواب.

أما عن النقطة الثانية من البحث فتهدف إلى إبراز أقدم استخدام الوالى الذكري عند القبائل الليبية (الجراب) ثم التعرف على مراحل تطور صناعته وزخرفته عبر العصور التاريخية. بينما أوضحت في النقطة التالية بعض أنواع أحزمة الوسط التي تستخدمها القبائل الليبية وكذلك أساليب زخرفتها وطرق ربطها حول الوسط. ثم خصصت النقطة الأخيرة من البحث لتوضيح بعض أنواع حافظة القدم (الخف) التي تستخدمها القبائل الليبية وطرق صناعتها وزخرفتها. وعلى أي حال فإن جميع نقاط هذا البحث تؤكد وتوضح إلى أي حد كان للتبادل الحضارى بين بعض مدن البحر المتوسط تأثيراً واضحاً على بعض العادات والتقاليد الليبية وذلك على النحو التالي:

أولاً : مدى تأثير صناعة الأرواب الليبية وزخرفتها بحضارات بعض المدن المقربية منها:

ترجع أقدم مراحل استخدام الستر إلى عصور ما قبل التاريخ حيث عثر على مجموعة من التماثيل العاجية في مواقع (هيراكونوبوليس) الكوم الأحمر بمدينة إدفو حيث تصور تلك التماثيل بعض النساء وهن يرتدين السترة التي تمتد من الوسط إلى نهاية القدم (Kilt) وثبتت حول الوسط بواسطة حزام، كما وجد نموذجاً آخر من العاج بصور امرأة وهي ترتدي عباءة تميزت بوجود طرف لتثبيتها حول الوسط بحيث بدت قريبة الشبه من البالطو^(١). انظر شكل رقم (١١).

وعلى هذا الأساس فإن الجذور الأوفى لصناعة الستر والأرواب الليبية التي أظهرتها بعض التماثيل على بعض جدران المقابر والمعابد المصرية فهي بدون شك كانت من نتائج ذلك التأثير المتبادل بين كل من الحضارتين المصرية والليبية. كما ساهم في تدعيمه الأمتداد الجغرافي الطبيعي بين البلدين وسهولة الاتصال بينهما سواء كان ذلك عن طريق البحر أو البحر.

أما عن السترة الليبية Kilt فكانت من أبسط نماذج الملابس التي ترتديها الغالبية العظمى من القبائل الليبية، وهي عبارة عن رداء يمتد من وسط الجسم إلى أسفل الركبة وقد ظهرت أقدم تصويروه لتلك الأنواع من الستر على بعض التماثيل العاجية. التي عثر عليها في (هيراكونوبوليس) الكوم الأحمر.^(٢) . انظر شكل (١) ب.

كما وجدت تصويروه في سعيد مدينة هابو ترجع إلى الأسرة العشرين تتضمن مجموعة من الأفراد الليبيين يرتدون أرواب جلدية، وتبدو أنها صنعت من جلود الأسود وهي تنتمي إلى تلك الأنواع البسيطة من الستر التي تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة. ومن نماذج المفترزة لباقة : على ذلك في صناعة الستر تمتد أظهرت تصويروه ترجع إلى عصر الملك تحوتمس الرابع^٣ وهو نوعاً جديداً من الستر حيث تم عمل فتحة بها من الأمام ثم ثبت عليها عند منتصف الوسط الوالى الذكرى وبالأضافة إلى ذلك فقد أظهرت أيضاً بعض تماثيل الدولة

^(١) Quibell, B.A.; Hierakonopolis, I. London, 1900, PL. IX, P.6.

^(٢) Quibell, B.A.; Ibid, PL. VII.

الحديثة نموذجاً لروب طويل كانت ترتديه الغالبية العظمى بين الليبيين في أول الأمر ثم أصبح يستخدم بشكل أكثر إنتشاراً من الطراز القديم الذي عرف باسم سترة الوسط^(١). أنظر شكل رقم (٢).

وعلى أى حال فإن معظم الوثائق الأثرية تشير بوضوح إلى أن ذلك الطراز من الأرواب الطويلة كان ارتدائه يعتبر علامة معيزة تدل على العظمة والمستوى الاجتماعي الرفيع لكل من يرتديه، كما أن ذلك الطراز كان يشبه تلك الأنواع من الأرواب الطويلة التي توضع على الكتفين وتثبت بمشابك مذهبة. ومن المحتمل أن تكون تلك الأرواب كانت بمثابة هدايا تقدم من الحكومة البيزنطية إلى أمراء ومشايخ القبائل الليبية عند قدومهم لدفع الجزية السنوية إلى الحكومة البيزنطية.

وعن مواصفات ذلك الروب الليبي فقد أوضح (سترابو) بأنه رداء لفضفاض وله أطراف عريضة^(٢).

وقد أظهرت بعض النقوش المصرية أن الأرواب الليبية كانت عبارة عن سترة بدون أكمام وتصنع من الجلد^(٣).

أما عن نماذج الأرواب المصنوعة من النسيج فقد ظهرت كتقطة طويلة وبميل شكلها العام إلى الشكل المستطيل، ولكن ما تميزت به تلك الأرواب أن الجزء العلوى منها أعرض من الجزء السفلى ويتم تثبيته بإتفافه حول الأكتاف، وفي معظم الأحيان كانت تعقد الحمالة التي توجد عند الطرف العلوى من الروب بحيث تبدو في شكل مقاطع على الصدر وأن تلك النماذج كانت تشبه تلك الأنواع من الأرواب المصنوعة من الجلد^(٤).

بالإضافة إلى ذلك فقد أظهرت تصويره على جدار مقبرة "الملك مبيتى الأول" نماذج أخرى من الأرواب الليبية تميزت بوجود أكمام ويبدو أنها ثبتت فوق أحد الكتفين بواسطة مشبك، كما يبدو الشكل العام لتلك الأرواب أنها كانت تصنع بطريقة منتظمة من أعلى إلى

Bates. O.; The Eastern Lybian, London, 1914, p.119, (Frontispiece); Fig. 31. (١)

Strabo, XVII, P.828. (٢)

Bates, O., Op Cit. (Frontispiece). (٣)

Bates, O. Ibid, P 119, Fig 10, PL IV (٤)

أسفل ولذلك فإن حزام المسترة كان يثبت من الداخل، وتميزت تلك النماذج من الأرواب عن غيرها بأنها كانت تزين ببعض التصميمات الملونة وذلك عن طريق وضع قطع من القماش فوق الثوب وذلك عن طريق الحياكة وكانت تتركز تلك القطع من القماش عند أطراف الثوب^(١). انظر شكل (٣).

ومن الأساليب الأخرى التي استخدمت في زخرفة الأرواب الليبية فقد تمثلت في وضع قطع من القماش عند وسط الثوب. كما ظهرت بعض الأشكال المتقاطعة فوق بعض الأرواب^(٢).

ويلاحظ أن الصديري (tunic) كان من أكثر الأنواع شعبية وانتشاراً عند القبائل الليبية، ولعل ما يوضح ذلك هي تلك التصويرة لاثنيان من القادة الليبيين وتوجد في متحف constantinop Le حيث توضح هذه اللوحة نموذجاً آخر (الصديري) مزود بأكمام، وكذلك زود بحزام ثبت عند الوسط^(٣). انظر شكل (٤).

لما عن المواد الخام التي كانت تصنع منها تلك الأرواب فقد ظهرت منها بعض الأنواع عالية الجودة خاصة في الجهة الشمالية الشرقية من ليبيا ولعل ذلك يرجع إلى وجود نوعاً من التبادل التجاري بين المدن المحيطة بالجهة الشرقية من ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر ق.م^(٤).

ومن المحتمل أن تكون الطريقة التي استخدمت في صناعة المنسوجات الليبية قد تأثرت بصناعة المنسوجات المصرية القديمة ولعل ما يرجح ذلك هو أن مواد صناعة المنسوجات الليبية كانت تجلب من المدن القريبة من ليبيا وخاصة من الجهة الشرقية منها، وإن ما يدعم ذلك أيضاً أن تلك الأبنية الأثرية من قطع المنسوجات الكتانية التي عثر عليها في موقع البداري في مصر وترجع إلى عصور ما قبل الأسرات^(٥).

Bates, O; Ibid, PL.III.

Champollion, F.d.; Monuments de l'Egypte, Vol 1, PL 17

Bates. O.; Op.Cit., P 120, Fig. 13

MacIver, & Wilkin, Libyan Notes, P 69 n

Brunton, C & Caton, thompson. The Dadian Civilization, London, 1928, P 62

أصل أساليب زخرفة المنسوجات الليبية:

وحول تحديد المصدر الذى تأثرت به طرق زخرفة المنسوجات الليبية فقد وجدت بعض الآراء التى حاولت إرجاع تلك الطرق من الزخرفة بأنها أحدى المؤثرات الخارجية وأن مصدرها جزيرة (سردينا - Sherden). ويستند أصحاب هذا الرأى فى تفسيراتهم لذلك إلى أن القادة الليبيين كانوا يحصلون على أسلحتهم المعدنية من سردينا^(١).

ويوضحون ذلك التأثير الحضارى المتبادل بين كل من سردينا وليبيا من خلال عقد مقارنة بين أصل الخطوط التى استخدمت فى زخارف المنسوجات الليبية وبين أشكال الخطوط التى زينت الجدران الخارجى لكسره من الفخار (شقالة) عثر عليها فى سردينا. وعند فحص كل من الأثرين نجد أن خطوط الزخرفة الموجودة على الشقالة الفخارية هى تمثل مجموعة من الخطوط المائلة فى الصف العلوى تقابلها مجموعة مماثلة فى الصف السفلى بحيث يبدو الشكل العام لكل من المجموعتين معاً (العلوى والسفلى) أنهما يشكلان معاً مجموعة من السهام بحيث يفصل بين كل مجموعتين (صف علوى وصف سفلى) مجموعة من الدوائر السوداء والتى يرجع أنها ترمز إلى قطع معدنية. أنظر شكل رقم (١٤)^(٢).

وبمقارنة تلك الخطوط التى زينت جدار الشقالة التى عثر عليها فى سردينا نجدها تتشابه إلى حد كبير مع أشكال تلك الخطوط التى استخدمت فى زخرفة المنسوجات الليبية، حيث نجد أن تصميم الخطوط الزخرفية الليبية تكونت أساساً من ثلاث خطوط أفقية عليها مجموعتان من الخطوط المائلة بحيث يظهر الشكل العام لكل خط من الخطوط الأربعة إنها تمثل مجموعة من السهام، ومن أوجه التشابه الكبير أيضاً بين أساليب الزخرفة الليبية والمردينية هو وجود تلك العلامات من الدوائر التى يرجع إنها ترمز إلى المعادن قد رسمت فى صف أفقى أيضاً ويفصل بين كل خط أفقى والذى يلو. ولعل تلك المقارنة التى عقدت بين أساليب الزخرفة الليبية والمردينية كان الهدف منها إبراز التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلك الجماعات التى تعيش على السواحل الليبية الشرقية^(٣).

Muller, M.W; Egyptological Researches, Vol. II P. 126.

Bates, O., Op.Cit., Fig. 16.

Bates, O., Ibid P. 121

وعلى أى حال فمن المحتمل أيضا أن تكون أساليب زخرفة المنسوجات الليبية أنها ترجع فى أصولها إلى الحضارة المصرية القديمة وذلك بحكم الأمتداد الجغرافى الطبيعى بين مصر وليبيا، ولعل من الأدلة الأثرية التى تدعم ذلك هى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع (نقادة Nagada) حيث نلاحظ أن الخطوط التى زينت أحد وجهى تلك القطعة تشبه إلى حد كبير تلك الخطوط التى وجدت على الجدار الخارجى للمقبرة التى عثر عليها فى سردينيا وكذلك الخطوط التى وجدت على أحد الأرواب النسيجية الليبية، كما نلاحظ أيضا فى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع نقادة أن الدوائر السوداء التى تفصل بين كل مجموعتين من الخطوط المائلة فى الشقافة التى عثر عليها فى سردينيا قد وجدت أيضا مرسومة على القطعة العاجية فى منتصف مجموعتى الخطوط المائلة. أما عن الرسوم التى زينت الوجه الآخر لتلك القطعة العاجية فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر السوداء شغلت معظم مساحة سطح القطعة وهى تشبه إلى حد كبير الدوائر السوداء التى رسمت على شقافة سردينيا وفُسرت بأنها ترمز إلى المعادن. وبناء على ذلك فإذا كانت بعض الآراء حاولت إرجاع الأصول الزخرفية فى المنسوجات الليبية إلى جزيرة سردينيا فمن المحتمل أيضا إرجاع تلك الأصول إلى الحضارة المصرية القديمة وإن ما عثر عليه فى نقادة لخبر دليل على ذلك. انظر شكل رقم (٤ ب) (١).

وبالإضافة إلى ذلك فنذكر (سترابو Strabo):

أن معظم جماعات شمال إفريقيا كانوا يرتدون عباءات مصنوعة من جلود الأسود كما استخدمت تلك الجلود فى عمل ماوى لهم، عرفت تلك الأنواع من الملابس الجلدية باسم الصديري (٢).

بينما يذكر (مولا Mela):

أن بعض سكان ليبيا وخاصة فى المناطق الداخلية كانوا يرتدون ملابس صنعت من جلود بعض الحيوانات البرية أو من البيلة المحلية، كما يذكر أن جماعة الـ (Macaë) كانوا

Petrie, F. & quibell, D. A., Nagada and Ballas, London, 1896. PL. LXII-No. 24.

Strabo, XVII, p. 828.

يرتكون بعض الأنواع من الصديري المصنوع من الجلد والتي ارتدتها أيضا جماعة الـ (Marmarid)^(١).

ووجدت بعض الأنواع الأخرى من الثياب تشبه الجاكت كانت ترتديها جماعة الـ (linushagh) وهو عبارة عن قميص من الجلد، وإن ذلك النوع من الثياب لم يكن شائعا عند غالبية القبائل الليبية^(٢).

وإن ذلك الواقى الذكري (sheath) الذي يستخدم عند الجماع عرف عند الأثريين باسم (penistasche) وقد ذكر ذلك أكثر من مرة، فضلا عن ذلك فإن نماذج من تلك الوسائل الوقائية قد استخدمت في (Minoan crete)^(٣) كما تستخدمها بعض القبائل حتى اليوم في جنوب إفريقيا^(٤).

ثانيا: الأصل التاريخي لاستخدام الواقى الذكري (penistasche) عند القبائل الليبية: لقد كان من نتائج التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلك الجماعات الليبية القديمة وخاصة التي تعيش بالقرب من السواحل الليبية الشرقية أن ظهرت عادة استخدام الواقى الذكري عند تلك القبائل. والتي أرجعت أصولها التاريخية إلى الحضارة المصرية القديمة ولعل ما يدعم ذلك هي تلك المجموعة من التماثيل العاجية التي عثر عليها في (هيراكليونوليس) الكرم الأحمر - حيث مثلت تلك المجموعة من التماثيل العاجية بعض الأشخاص وهم يعلقون ذلك الواقى الذكري (الجراب) عن طريق حزام مثبت حول الوسط^(٥).

ويبدو بشكل واضح أن تلك النماذج من الواقى الذكري والتي ترجع إلى عصور ما قبل الأسرات في مصر تشبه إلى حد كبير تلك النماذج التي وجدت في بعض تصاوير الأسرة

Bates, O.; Op.Cit., P. 121.

Lyon, F.G.; travel in Northern Africa, p. 110

Burrows, M.R.; The Discoveries in Crete, PL. I.

Muller, M.W.; Op.Cit., Vol. II, P 121

Quibell, B.A., Hierakonopolis, London, 1900, PL. VII-VIII

الخامسة والتي أظهرت بعض الأفراد الليبيين وهم بضمون تلك الأجرية الذكرية بواسطة حزام يلتف حول الوسط^(١). أنظر شكل رقم (٥)

ويؤكد العالم (جيمس هنري وسند) أن اسم الواقي للذكرى ورد ضمن بعض نصوص الدولة الحديثة باسم
K , r , - N - ty

وإن هذه الكلمة تعلى بالتحديد:-

(٢) Phallus with a Fore skin, fore skin.

Sa-hu-r^c وتمتد تصاريح مقبرتي ساحو رع

Ne-user-r^c ولى أوسر رع

من الأسرة الخامسة من أقدم الأدلة الأثرية التي تظهر بداية استخدام الواقي الذكرى عند الجماعات الليبية^(٣). شكل (٦) -

ويلاحظ هنا أن الواقي الذكرى الذي وجد في تصويرة مقبرة الملك نسي أوسر رع يشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التي عثر عليها في موقع "هيراكولوبوليس" وهي عبارة عن مجموعة من التماثيل العاجية توضع بعض الأفراد وهم بضمون ذلك الواقي الذكرى في أشكال مختلفة ويبدو أنه مثبت بواسطة حزام يلتف حول الوسط^(٤).

أما عن طريقة تثبيت الواقي الذكرى فقد أوضحت تصويرة مقبرة (نسي أوسر رع) حيث ترى أن الواقي الذكرى كان يمر أسفل الحزام المثبت حول الوسط ثم يتكلى إلى السفلى

Bates, O., Op.Cit., Fig. 17, 19.

BAR., III, sec. 587 note.h,

BAR., IV, sec. 52

Bates, O., Op.Cit., P 122, Figs. 17, 18

Quibell, B. A. Op.Cit. Pl. VIII

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

ويدون أن يثبت على الحزام.

ومن المحتمل أن تلك الطريقة التي استخدمت في تثبيت الواقى الذكرى ظلت شائعة الاستخدام حتى عصر الدولة الحديثة، ولكن على الرغم من ذلك فقد ظهر نوعا جديدا من الواقى الذكرى في تلك الفترة حيث أظهرت تصويرة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة إحدى جماعات المشوش وهي تضع نموذجا جديدا من الواقى الذكرى تميز طرفه السفلى بوجود شكل أشبه بالكرة (دلايه)، كما يبدو أن الواقى الذكرى أصبح جزء من حزام التثبيت، بينما أظهرت بعض التصاوير الأخرى أن حلقة تثبيت الواقى الذكرى كانت من أبرز سمات طريق تثبيت تلك الأحزمة^(١). شكل (٧).

وبغلا عن ذلك فقد وجدت مجموعة من التماثيل الليبية المصرية في معهد الكرك و ترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشر تظهر شكلا جديدا من اشكال الواقى الذكرى حيث يظهر شكله العام مربع الشكل ومثبت فوق الحزام بواسطة عقدة مربعة للشكل ولأن ذلك التمثال محفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة. شكل (٨) -

ويمكن أرجاع الأصول الأولى لذلك الطراز أيضا إلى الحضارة المصرية القديمة ولعل ما يرجح ذلك هو تماثيل من العاج عثر عليه في (هيراكولوبوليس) صوّر عليه نمونجا قريب الشبه جدا من ذلك الطراز الذى وجد على التماثيل الليبية المقدسة^(٢).

ومن المحتمل أن يكون استخدام ذلك الطراز من الواقى الذكرى كان شائع الاستخدام بين القادة وزعماء القبائل الليبية، كما أن تلك الأنواع ذات النهايات المزخرفة لم تظهر فى التصاوير المصرية القديمة حتى وقت وصول المشوش فى عصر الدولة الحديثة.

كما يرجح أن وضع الواقى الذكرى كان علامة تشير إلى بلوغ الشخص ويستند على ذلك إلى وجود بعض الصبية عراة (بدون الواقى الذكرى) وذلك ضمن نقوش معبد سا حورع الأسرة الخامسة^(٣).

Bates, O; Op.Cit., Fig. . 2. 1

Bates, O , Op.Cit., P 125.

Bates, O . Ibid, P 125, PL, VII

١١

١٢

١٣

أما عن المواد الخام التي صُنع منها الوالى الذكرى فلم تعرف بالتحديد لأن استخدام الجلود عثر على ما يؤكد استخدامه منذ أقدم العصور في مصر. بينما استخدمت النباتات العشبية والاششاب في بعض مناطق جنوب أفريقيا، ولكن تظهر بعض نماذج من الوالى للذكرى الذى استخدمته بعض الجماعات الليبية انه كان يصنع من بعض المواد المرنة، كما يلاحظ أن بعض تلك النماذج كانت تزين بخطوط طولية بالوان حمراء وزرقاء وبيضاء^(١).

ثالثا: انواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها:

لقد أظهرت بعض نقوش المقابر المصرية التى ترجع إلى عصر الدولة القديمة نماذج من تلك الأحزمة الليبية وهى تشبه إلى حد كبير الأنواع التى تعرف فى العصر الحديث باسم Polo Belts، بحيث يبدو الشكل العام لهذه الأحزمة أن الجزء الملاصق للظهر، أعرض من الجزء الملاصق للبطن، وعن طريقة تثبيت الحزام لتوضح بعض تصاوير مقبرة ساحو رع أن الحزام كان يلتف حول الوسط وأن أحد طرفيه كان يرفع إلى أسفل بين الجسم والحزام ثم يتجه مرة أخرى إلى أعلى ثم يثبت بعمل عقدة لضبطه حول الوسط^(٢).

ومن المرجح أن كل من الحزام والحلقة كانا يصلعان من قطعة واحدة وفى هذه الحالة لابد من ضبط الوالى الذكرى أولاً، أما عن تحديد طول الحزام فكان يوضع فى الاعتبار أنه سوف يمر أسفله بعد التفافه حول الوسط وبعد ذلك توضع الحلقة التى سبق الإشارة إليها.

وبالنسبة للمواد الخام التى صنعت منها الأحزمة فمن المحتمل أنها صنعت من الجلود المصنوعة وأن تلك الأنواع من الأحزمة المزخرفة التى ظهرت ضمن تصاوير مقبرة (ساحو رع) يلاحظ أن الحلقة قد زخرفت أيضا وثبتت فوق الحزام (appendage) حلقة الربط (توكة الحزام)، كما يبدو أن تلك الحلقة صنعت من قطع طولية من الجلد لثقة العرض نصف جلبا إلى جلب. كما يلاحظ أن حافتي الحزام العليا والسفلى أنهما صنعا من قطع أكثر عرضا من تلك القطع الطولية التى تشكل جسم الحزام، كما يرجح أن تكون تلك الحافتيين قد صنعتا من العاج أو من مراد أخرى مع ملاحظة أن جميع الأنواع كانت تثبت من الأمام

Naville, E., *Figurines égyptiennes de l'époque archaïque*, II, Pl. XXII, P.68.

Bates O., *Op.Cit*, P. 126

بواسطة بعض الأنواع من الدبابيس^(١).

وعلى أى حال فإن المسألة بين الخطوط العريضة فى الأحزمة كانت تغطى ببعض أنواع من المشور للمحار البحرى والتى ظهرت فى شكل قطاعات من (shell) وهى عبارة عن أنواع من الأصناف البحرية، وأن تلك المواد التى استخدمت كأحد اساليب الزينة أو زخرفة الأحزمة قد عثر على نماذج لها فى بعض مقابر النوبة^(٢).

رابعاً: أصل أنواع حافظة القدم (الخُف) التى استخدمتها القبائل الليبية:

إن معظم التصاوير التى وجدت على جدران بعض المقابر والمعابد المصرية القديمة واشتملت على صور لزعماء أو رؤساء القبائل الليبية فقد أظهرتهم فى أغلب الأحيان وأقدامهم عارية، ولكن على الرغم من ذلك فقد وجدت تصويرة لهم فى مدينة هابو توضح أحد الزعماء الليبيين وهو يرتدى (خُف). انظر شكل رقم (٩). وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت تصويرة توضح الملك (Merwy) حيث وضع صندله فى حمالة ثبتت خلف ظهره وذلك أثناء خروجه من ملف للقتال^(٣).

ومن المحتمل أن تلك الأحزمة والصنادل كانت تهدى من الحكومة البيزنطية إلى أمراء وشيوخ القبائل الليبية أثناء توجههم لنزع الجزية السنوية لهم^(٤).

وعلى أى حال فإن ذلك النموذج البسيط من (الخُف) الذى استخدم كغطاء للقدم كان منتشرًا بدرجة كبيرة بالإضافة إلى استخدام الصندل فى ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض التصاوير الأخرى التى وجدت على بعض جدران المقابر المصرية أظهرت أحد الليبيين وهو يرتدى ذلك النوع من أغطية القدم والمعروف باسم (Leg-wrapping) وهى تشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التى يستخدمها أهل جزيرة سردينيا حتى اليوم وكانت تصنع من الجلد أو الصوف^(٥).

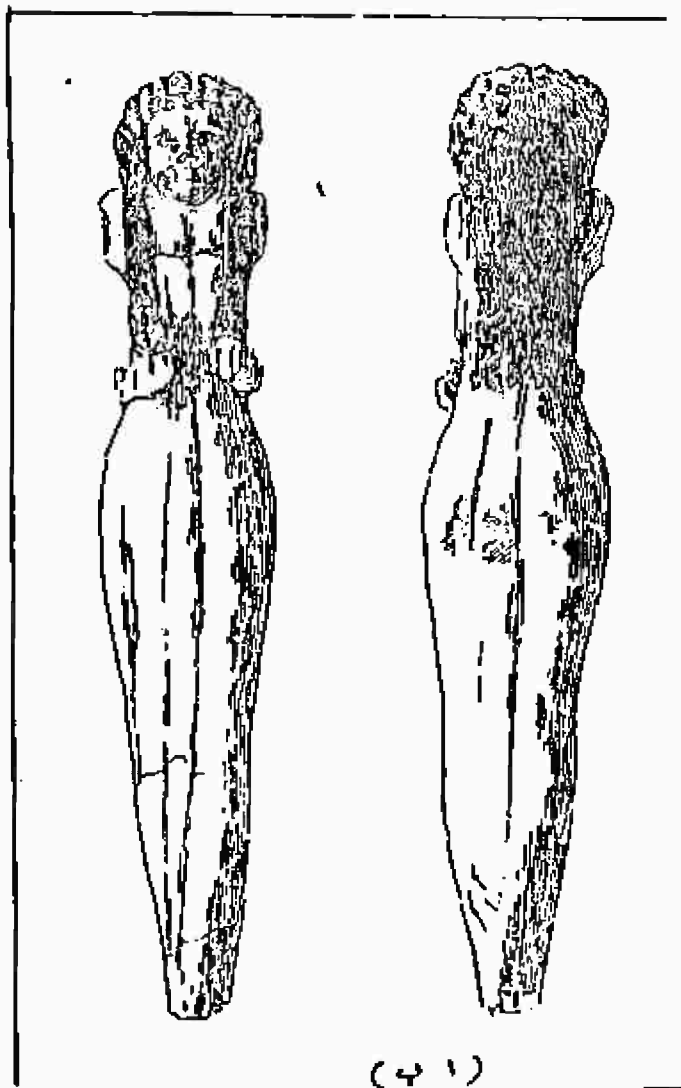
Dates O; Ibid. P. 126.

Datesm O; Ibid, p. 127, Figs 27, 28, 29.

B A R. III, Sec. 584.

Corippus, Johannis, II, 137.

Strabo : XVII, P. 831



شائيل من العاج تظهر نماذج من الستر والأرواب التي استخدمت في
عصور ما قبل التاريخ في مصر.

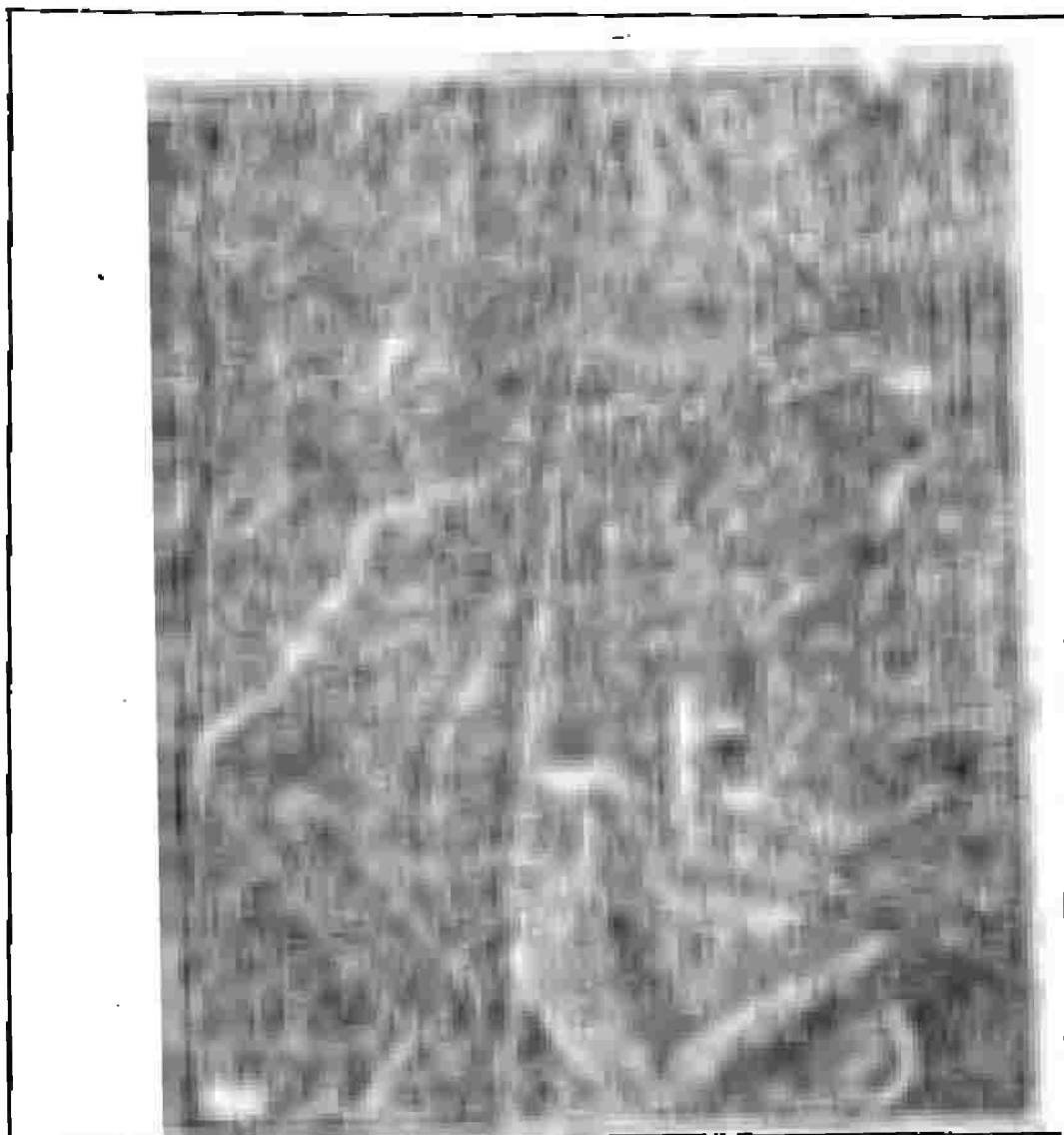
Quibell, B; Hierakonopolis, PL.IX.

شكل رقم (١ ا)

نموذج آخر من الستر التي تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة صورت
على تمثال من العاج يرجع إلى ما قبل التاريخ.

Quibell, B; Ibid. PL. VII.

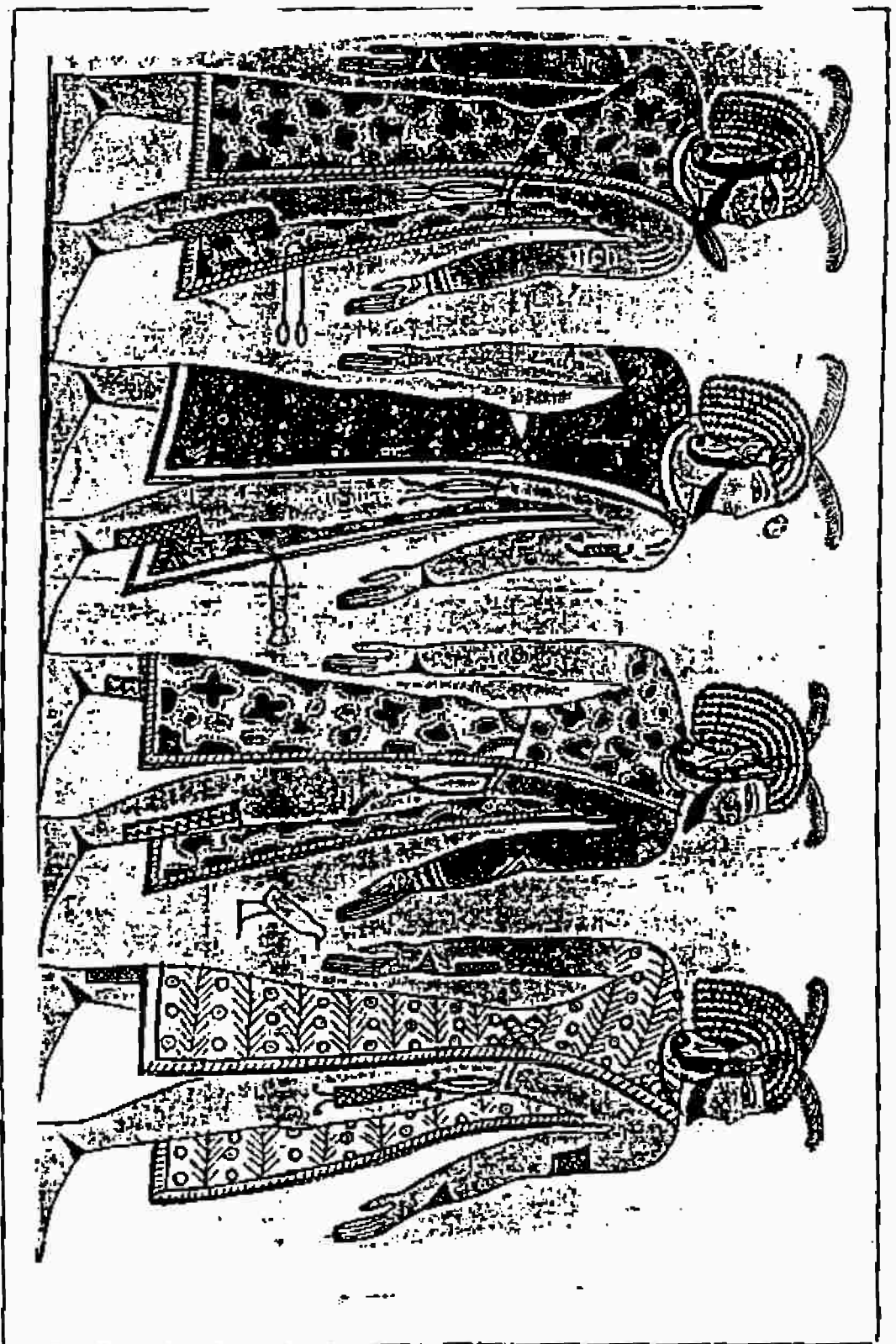
شكل رقم (١ ب)



تصويوة ترجع إلى عصر تحتمس الرابع توضح أحد الأسرى الليبيين
وهو يرتدى سترة مفتوحة من الأمام ومثبت عليها الوالى الذكري.

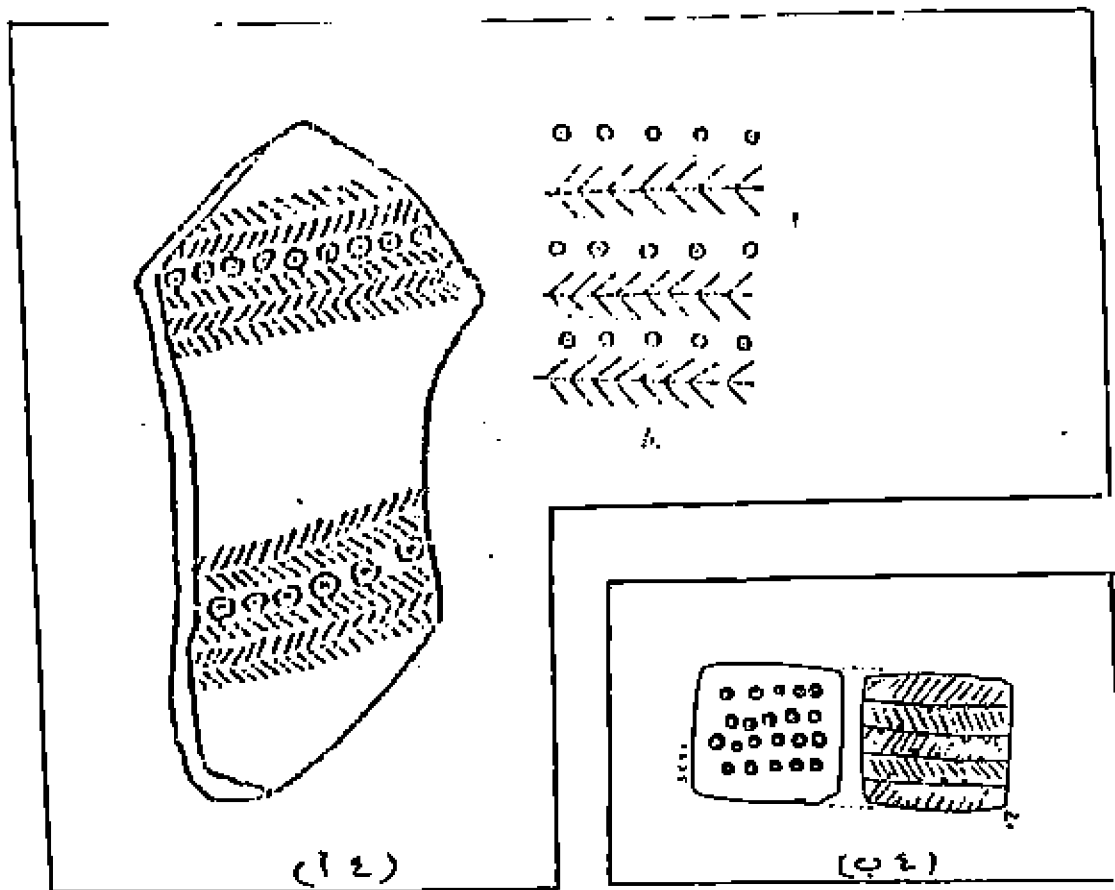
شكل رقم (٢)

Bates, O.; Eastern Libyans, Fig. 31



بعض أشكال الأرواح للطقس التي استخدمها رؤساء الجبال القديمة.
 مقبرة الملك سنوسرت الأول.
 Bates, O. *Ibid*, pl. 111

شكل رقم (٢)



الأساليب الزخرفية التي وجدت على جدران الشققة التي عثر عليها في
سردينا وبجوارها قطعة من المنسوجات اللببية استخدمت نفس الأسلوب
الزخرفي السرديني.

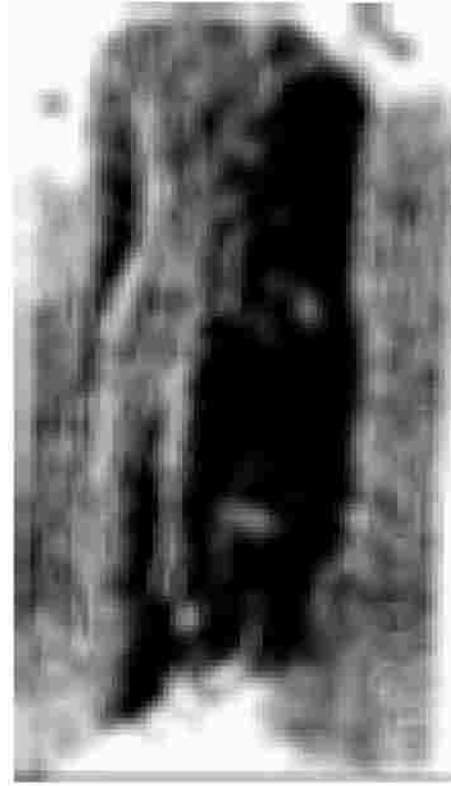
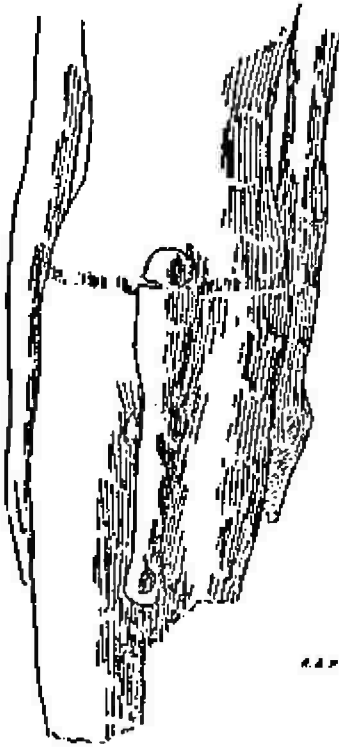
شكل رقم (16 أ)

Bates, O.; Ibid. Fig. 16. a-b.

قطعة من العاج عثر عليها في نقارة استخدمت نفس الأساليب
الزخرفية.

شكل رقم (16 ب)

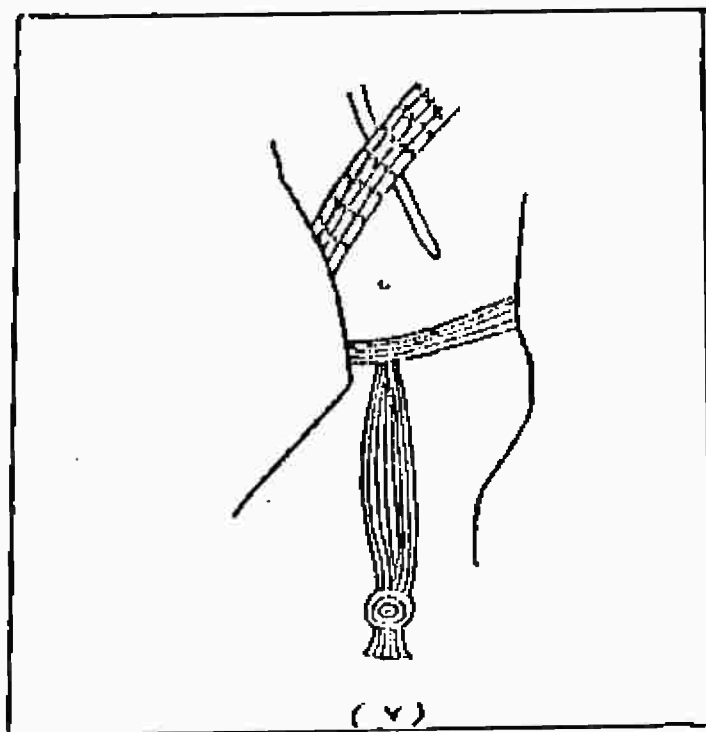
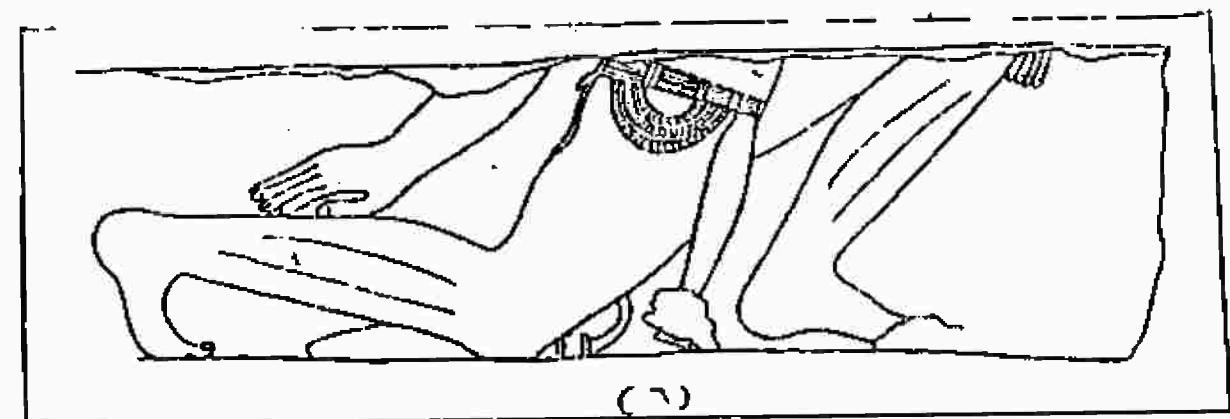
Petrie, & quibell., Nagada and Ballas, P L LXII



(٥)

شکل رقم (٥) نماذج من اشكال الوالى الذكرى على تماثيل من العاج ترجع إلى
عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

Quibell., Hierakonopolis, PL. VII, VIII.



نموذج لأحد أشكال الواقي الذكري على تصويرة من مقبرة (سى
أوسر رع) الأسرة الخامسة.

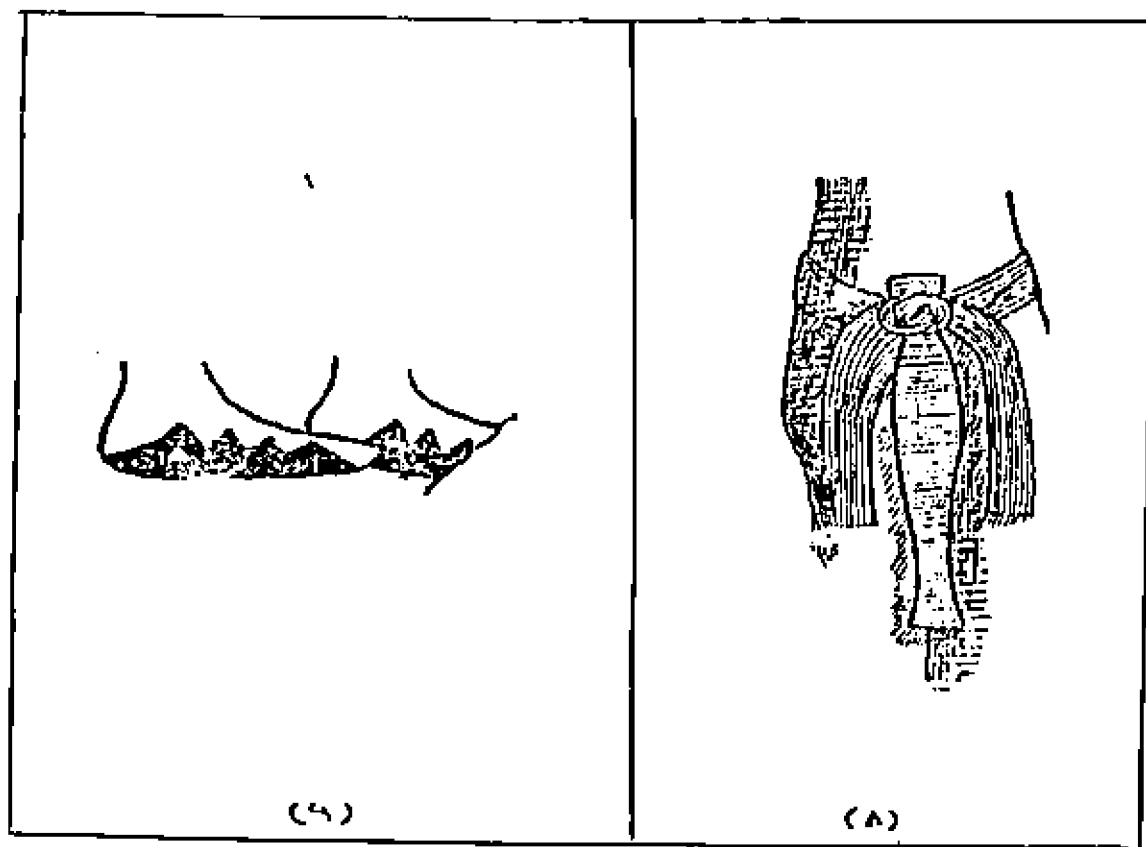
شكل رقم (٦)

Bates, O.; Op.Cit., Fig. 19

شكل جديد من الواقي الذكري يرجع إلى عصر الدولة الحديثة وتميز
بخطوط الزيتية الطولية وثبت عند نهايته دلالة كروية الشكل.

شكل رقم (٧)

Bates, O : Ibid, Fig 21.



شكل رقم (٨) ' أحد النماذج النبية المقدمة يظهر أسلوبا جديدا لطريقة تثبيت الوالى
الذكرى.

Bates, O., Ibid. Fig. 26.

شكل رقم (٩) نموذج أحد أشكال (الخف) التى استخدمتها لاقبال النبية.

Foot-Wear

Bates, O . Ibid . Fig 30

ترجمة مقال

Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente"
Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996,
p. 169 - 185

ترجمة مقال

الدكتورة واشيل أربييه 'رحلة من المغرب إلى المشرق' إحدى
مقالات كتاب 'الأندلس والبحر المتوسط' غرناطة، ١٩٩٥م

بحث مقدم من

الدكتورة

سحر عبد العزيز سالم

ترجمة مقال

**Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente" Al-Andalus
Y El Mediterraneo, Granada, 1995**

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996, p. 169 - 185

ترجمة مقال

الدكتورة راشيل آريه "رحلة من المغرب إلى المشرق" إحدى مقالات كتاب
"الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م

تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس
ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية؛ وأكثر تلك الصلات الروحية
عمقاً تتمثل فى الحج للأراضى الإسلامية المقدسة، مما حمل كثيراً من الأندلسيين
إلى المشرق.

وكان النقاء الأندلسيون ينتقلون من بلادهم طلباً للمعرفة، مدفوعين بدافع
الرغبة فى المشاركة والحضور فى مجالس شيوخ المشرق المشهورين للحصول
على إجازاتهم وطمعاً فى إثراء مكانتهم العلمية بين أقرانهم ومواطنيهم.
وكان طلاب العلم والحجاج الأندلسيون يبدأون رحلة طويلة كانت تنتهى
بهم إلى بلاد العرب (الحجاز) ليعودوا بعد ذلك فى النهاية إلى موطنهم الأم.

وكانوا يتغربون طوال أشهر وأحياناً سنوات عديدة مجتازين البحر
المتوسط مواجهين مخاطر الملاحة كما كانوا يجتازون برّاً طريقاً لا نهاية له
متموجاً بسبب تعرجات سواحل أفريقية ثم بعد ذلك خلال صحارى ليبيا حتى
يصلوا إلى ضفاف النيل الخضراء، وابتداء من القرن الثانى عشر شهد الغرب
الإسلامى ظهور نوع أدبى أصيل يتمثل فى أدب الرحلة. وكانت روايات
الرحالة تخضع للتقاليد المشرقية وعلى الأخص للرصيد الثقافى القديم الذى كان
يسود فى الساحل الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت كتابات البحريين

بوجه خاص لها أثر عميق على تطور الأدب الجغرافى خلال القرن العاشر. ومع ذلك فعلى تراب الأندلس نشأت الرحلة وبصفة خاصة عندما تحققت وحدة الغرب الإسلامى بفضل المرابطين والموحدين وكانت مادة الرحلة تقوم على طلاب العلم الذين يتوجهون للأراضى الإسلامية المقدسة للحج واطلب العلم والاستزادة على أيدي علماء فى الحواضر المشرقية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق مسجلين انطباعاتهم فى الرحلة يوماً بعد يوم وأحياناً ساعة بعد أخرى على هيئة يوميات حيث يصفون المفاجآت والصعوبات التى حدثت لهم أثناء رحلتهم، ويمثل أبو حامد الغرناطى (١٠٨٠ - ١١٦٩ - ١١٧٠م) النموذج الأول للرحالة المغاربة وقد ترك موطنه وهو فى حوالى الثلاثين من عمره ولم يعد إلى بلاده أبداً^(١). وعاش فى القاهرة ودمشق وبغداد لسنوات طوال ودفعه حب المغامرة للوصول إلى الحدود القصوى لأراضى الإسلام وفى عام ١١٣٠م وجدناه فى إيران وبعد ذلك وصل إلى مصب نهر الفولجا. وميزور بعد ذلك بقليل المجر حيث أقام لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١١٤٣م، ثم اجتاز بلاد الصقالبة ولحق بخوارزم ومن هناك توجه إلى بخارى، ومرو، ونيسابور، والرى، وأصفهان والبصرة، حتى أترك بلاد العرب لأداء الحج ثم تابع رحلته وأقام فى بغداد والموصل، وختم حياته فى دمشق بسوريا. وفى بغداد وبعدها فى الموصل ألف أبو حامد كتابين آخرين تلبية لرغبة صناعته ومريديه العراقيين، هما كتاب (المعرب عن بعض عجائب المغرب) وكتاب تحفة الأكباب (أو الأحباب) ونجمة^(٢) (الإعجاب) اللذين يحتويان على كثير من الحقائق الهامة والإرشادات القيمة الدقيقة عن مواضع وشخصيات قابلها فى جولاته^(٣).

ويغلب على رواياته فى الرحلة الطابع الخيالى وبعض المعائب مما جعل الأستاذ سيزار دوبري يقدّر من جانبه فى أبى حامد تشبعه بالمعاطفة الإنسانية وابتعاده عن الخطرسة الشخصية التى تحولته إلى "عالم غريب للأجناس والفنون

(٢) صحتها نخبه.

الشعبية في عصره" وهو يصفه بقوله : «أبو حامد رحالة متجول، اتصف بالبساطة، كما كان واعظاً في بعض الأحيان على قدر من الثقافة وليس عالماً متبحراً، كان يبدو يشوشنا مع الآخرين له مكانة عالية بين الناس وكان على علاقة طيبة بالجميع سواء أكانوا من الشخصيات الرفيعة أم أفراد الشعب البسطاء وكان يوجه محبه صادقة نحو الشعوب والأشخاص الأسوي/ أنريقيين الذين كان يطوف بهم، تعمقت خلال ما يقرب من عشرين سنة عن طريق علاقات مختلفة أسرية وعاطفية. وكانت تقديراته تنسم -بالإضافة إلى الرؤية الواضحة للموصوف في حد ذاتها- بالفهم الإنساني الذي تبحث عنه عبثاً في شخص آخر لا يملك القوة الفعالة لمؤلفنا؛ لقد كانت كتاباته الوصفية سهلة ذات طابع متحرر ورائع وكانت تهتم بوجه خاص بكل غريب وعجيب، ولا تجعلنا نراه يمثل عالماً متعمقاً بعلمه وإنما رجلاً متفهماً ذا رؤية واسعة، ولى الوقت نفسه متعمقاً في التفاصيل غنية بالمعركة الإنسانية»^(١٦).

أما رواية الرحلة عند ابن جبير فقد ارتبطت بأستاذه الأول (١١٤٥-١٢١٧)^(١٧) وهذا الأديب البننسى تلقى علومه في شاطبة حيث كان والده يعمل كاتباً لدى الموحدين، وتلقى التعليم التقليدي شأنه شأن متقني الأندلس وعلمائه. كما اطلع على مبادئ العلوم الدينية والآداب واكتسب الوسائل لاستخدام ملكته الشعرية. وقد اختاره الأمير الموحدى أبو سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن حاكم سبتة كاتباً خاصاً له، وبعد ذلك رافقه في منصبه التالى عندما أسندت إليه ولاية غرناطة، ثم التحق ابن جبير بخدمة أمير موحدى آخر وهو الذى حثه على شرب الخمر وقد أكرم كاتبنا على أن يذهب للحج لى هذا العام نفسه تكفيراً عن خطئه هذا، وحاز شهرته بفضل رواياته الشيقة عن رحلته إلى مكة المكرمة.

وغادر ابن جبير غرناطة فى ١٩ شوال سنة ٥٧٨هـ (١٥ فبراير ١١٨٣م) ووصل إلى سبتة عن طريق طريف، وركب سفينة جنوية فى طريقه إلى الإسكندرية مرت بجزيرة سردانيا وصقلية، وأريطش، ولذا فقد تأخر لمدة

شهر فى الوصول إلى الميناء الذى يهدف إليه، وروى لنا ابن جبير بكل مصداقية المضايقات التى تعرض لها فى الديوان الجمركى المصرى.

وقد زار القاهرة أثناء توجهه إلى البحر الأحمر للوصول إلى جدة، وبقي فى مكة ما يزيد على تسعة أشهر بعد أدائه فرائض الحج ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة وتابع رحلته عبر الصحراء حتى الكوفة، واستكمالاً للرحلة سار حتى بغداد والموصل وحلب Aleppo وحماة وحمص ودمشق حيث أقام شهرين ونصف ثم تابع رحلته إلى صور ومن هناك إلى عكا وبعدها ركب فى رجب ٥٨٠هـ (أكتوبر ١١٨٥م) فى سفينة جنوبية متجهة إلى صقلية بنية العودة إلى الأندلس، وعندما أدرك مسينا بعد اجتياز صعب انتهى الأمر بفرق السفينة وبقي فى صقلية لمدة ثلاثة أشهر ونصف حتى ركب سفينة من جديد فى ترابانى ووصل إلى قرطاجنة فى سنة ١١٨٥م فى شرق الأندلس.

وعند عودته إلى غرناطة، نعم بسلطة روحية كبيرة فقد أصبح أستاذًا للحديث والعلوم الدينية التقليدية وللصوفية أيضًا. واستمر بعيدًا عن العامة لكنه قام بدور المفتى والحكم. وعن رحلته الثانية إلى المشرق التى استمرت من ١١٨٩ - ١١٩١ / ١١٩٢م. واستقر بالإسكندرية حيث ائكب على التعليم، وبعد شهور رحلته، تولى هناك فى ٢٧ شعبان ٦١٤هـ / ٢٩ نوفمبر ١١٢١٧م، وكانت رحلة ابن جبير نموذجا احتذاه حجاج آخرون ومؤلفون كثيرون متأخرون، ولقد عرف كيف يسجل ملاحظاته اليومية ويصف البلدان التى كان يجتاها ويعند الآثار التى كان يزورها، وكان حبه للرحلات البحرية المثيرة يقدم لنا مدى احترامه للبحر مصدر إلهامه. وهكذا يذكر فى مذكراته رحلته البحرية الأولى التى بدأت "على متن البحر إزاء جبل شلير فى ٢٥ مارس سنة ١١٨٣م. وبعد أربعة أيام من الركوب فى الطريق تجاه قصر مصمودة (القصر الصغير) وبعد اجتياز بحرى يسره الله تيسيرا عجيبا والحمد لله، استكملوا الرحلة إلى سبتة حيث ألفوا بها مركبا للروم الجنوبيين مقلعا إلى الإسكندرية بحول الله عز وجل

نسهل الله علينا في الركوب فيه «ويمضي في روايته قائلاً من سبحة^(٩) : «وكان طريقنا في البحر محاذياً لبر الأندلس وفارقناه يوم الخميس ٣٠ مارس عندما حاذينا دانية. وفي صبيحة يوم الجمعة (٤ مارس) قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ... وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا بر جزيرة سردينيا أول ليلة الثلاثاء ... (وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل ... فكان قطعاً مستغرباً في السرعة وطراً علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور وبقينا مترددين بسببه حول بر سردينية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلم نميز شرقاً من غرب، مركباً للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسنل عن مقصده، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة عمل مرسية. وقد كنا استقبلنا طريقه التي جاء منها من غير علم فأخفنا عند ذلك في اتباع أثره والله الميسر لا رب سواه ... إلى أن وصلنا طرفاً من البر المذكور يعرف بقوسمرقة ... وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والخطب والزاد، وفي الثلاثاء الخامس عشر من مارس فارقنا بر سردينية المذكورة، ويسر الله علينا في التخلص من بحرها لأنه أصعب ما في الطريق والخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان والحمد لله على ذلك. وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح ويضيف ابن جبير : «وترسله الرياح بقوة كأنه شأبيب مهبام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاء الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ ما مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة بما هو أشد هولاً وأعظم كرباً وزاد البحر احتياجاً وارتدت الأفاق سواذا واستشرت الرياح والمطر

عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجأ إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكُسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها وهي المعروفة عندهم بالقرية.

وألمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور سرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيراً سريعاً وفي ذلك اليوم حائنا بر جزيرة صقلية.

وفي صبيحة يوم السبت ٢٥ مارس اطلع الله علينا البشري بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً وبالإضافة إلى خبرته بالبحر، كان ابن جبير كما وصفه موريس جوفري ديمومبينس^(١) عارفاً بخطط المدن ولديه حس بالمران. وقد امتدح الموصل وحدثها وأعجب بنواحي نصيبين التي كانت تتعارض مع بدوية المدينة. أما أوصافه لحلب ودمشق فلم تكن بالتقاهات الأدبية، كذلك لم يكن غير مكترث أمام عظمة الطبيعة ولا الهواء الحيوي لتجد بعد خروجه من جحيم الحجاز، ويبدو أن ذلك أيقظ فيه الرغبة التي كان يحس بها لأسلافه عند اجتيازهم أراضي الاستبس الفسحة.

وعن السكان الذين عاش بينهم ابن جبير يقدم لنا معلومات في رحلته اعتبرت من المصادر الرئيسية عن تاريخ الحروب الصليبية وعن الأوضاع السياسية والاجتماعية في المناطق التي اجتازها وعن الحج في مكة والأخطار الملاحية التي تمر بهم أثناء عبورهم في البحر المتوسط في العصور الوسطى. وقد تميز ابن جبير بإحساسه القوي وروحه المتزنة للغاية والمنطلقة للمعرفة. أما حساسيته الدينية فقد لمعت في فقرات معينة، ظهر خلالها مدى انزعاج المستنير السابق للحاكم الموحدى لغرناطة من تقدم السحيين في سورية وصقلية وهو الذي كان لديه ثقة مطلقة في الرسالة العالمية لأسرة الموحدين.

ولم يكن اهتمامه بأحوال الشعوب والعزاريين في المشرق الإسلامي عميقاً، ومع ذلك فإن أسلوبه كان سلساً ومركزاً ومهتزاً في الفقرات التي صور

فيها الأحداث على النحو الذي يمثلته الجوالة المحدثون. ويعتقد ريجيس بلاشير أن ابن جبير «كلما حدد ملامح حشد حركي أو جمع حيوي، كان يعرف كيف يصفه على نحو صادق وشخصي للغاية وثابت كما رآته عيناه الثاقبة المدققة»^(٧). وكان أسلوب ابن جبير زاخراً بالمحسنات فقد لجأ إلى استعمال النثر المقتنى في وصفه للمدن والظواهر العامة لكل بلد. أما شعره فكان يميل إلى طابع الحكم والأمثال وهو تقليدي وبرهن على بساطة في الإحساس والتجربة.

وقد اتخذت يوميات الرحلة إلى الأراضي المقدسة الإسلامية شكلاً جديداً في النصف الأول من القرن الثالث عشر بفضل محمد المبحري أحد الأدباء المغاربة^(٨). ونجهل تاريخ مولده ووفاته ولكننا نعلم أن يرجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وإنه كان ينتمي إلى قبيلة حاحة التي كانت تنزل بالقرب من المدينة المغربية الحالية الصويرة التي كانت تسمى من قبل بموجادور، ونشأ في بيئة أسرية. ولعله عاش في مراكش. وقد ترك أرضه في ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ (١٠ ديسمبر ١٢٨٩م)، وقرر الارتحال عبر الطريق البري، وزار تلمسان Termecen حيث عتد روابط روحية مع لقائها وعلمائها المحليين وذلك قبل انتقاله إلى مليانة Milliana، وبجاية Bugja وقسنطينة وبونة وباجة وتونس حيث أجرى مناقشات طويلة مع علماء أفريقية. ورحل إلى القيروان حيث اجتذب مسجدها الجامع إعجابه، ومن هناك انتقل إلى قابس وطرابلس. وتابع رحلته مجتازاً الصحراء إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث أتيحت له الفرصة فوصف ميناء الإسكندرية، ومن هناك لحق بالقاهرة ومن العقبة دخل الحجاز حيث أتم الحج في مكة والمدينة، وفي العودة تخير طريق فلسطين ليزور حبرون والقدس عائداً بعد ذلك عبر القاهرة والإسكندرية. وقد غير قليلاً من طريقه بعد أن اجتاز إقليم طرابلس، فقد سار من قابس إلى سوسة، وبعد ذلك تابع طريقه بمحاذاة الساحل حتى تونس. ووصل إلى بجاية عبر مليانة ووهران وتلمسان وفي المغرب وطنه كانت فاس ومكناس وازمور هي آخر محطاته، وتنتهي

رحلته بقصيدة طويلة، وفي رحلة العبدري نجد أن الأوصاف الفخمة للمدن الشهيرة ليست سوى أسلوب أدبي معتنى به وأسلوبه في ذلك يكاد يكون دائماً مفتعلاً، فإن سرده للرحلة كان مملوفاً بأبيات أنشدتها جماعة من المتصلين بالمؤلف.

إن الاهتمام بدراسة فكر الفقهاء يؤكد على الغايات الصوفية للعبدري^(٩) فهو يقدم حقائق كثيرة عن الحالة التي كان عليها الفكر الإسلامي.

إن مؤلفي المقال الذي كتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية رقم ٩ يرون أن نيته الأخلاقية كانت «تهدف إلى إبراز مدى الفقر المادي والروحي لأفريقيا والمغرب الأوسط في عصره» ولهذا السبب فإن رحلته تعتبر إسهاماً رئيساً في التاريخ الثقافي لشمال أفريقيا.

وعلى نسق الطابع الأدبي نفسه الذي شرع فيه العبدري ينتمي كتاب، لفتيه أندلسي مغربي لا يمكن فصل حياته ولا كتابه عن تاريخ الأدب في مملكة غرناطة وأعنى به ابن رشيد الذي ولد في سبتة سنة ١٢٥٩م حيث درس العلوم النقلية والنحو^(١٠).

وفي عام ١٢٨٤م قرر الرحيل إلى المشرق للحج والتوسع في علومه. وركب سفينة في المرية حيث اجتمع معه ابن الحكيم الرندي وزير البلاط النصري فيما بعد^(١١).

وخلال ثلاثة أعوام طاف كلاهما بأفريقية، ومصر، وسورية، والحجاز متابعين دروسهما على أيدي أشهر شيوخ العلم في المشرق وشمال أفريقيا. وعند العودة إلى سبتة أمضى ابن رشيد عدة سنوات لا نعرف فيها شيئاً عنه، ورحل بعد ذلك إلى مملكة بنى نصر في سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ / ١٢٩٣م) معتمداً على العون الذي قدمه إليه رفيق رحلته القديم المدعو ابن الحكيم. وإلى جانب وظائف أخرى مختلفة تولى منصب إمام وخطيب بقرناطة، وبعد اغتيال حاميه في مارس ١٣٠٩م عاد ابن رشيد إلى المغرب حيث عهد إليه عثمان بن أبي يوسف

السلطان المريني بإدارة خطبة الجامع القديم بمراكش وتوفى في ٢٣ محرم سنة ٧٢١ / ٧٢٢ هـ (نبرابر ١٣٢١م) في فاس مقدرًا من الجميع.

وتحتفظ مكتبة دير الإسكوريال بالجزء الأكبر من روايته لرحلته على هيئة قطع مخطوطة بعنوان "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيبة إلى الحرمين مكة وطيبة" حيث يحكى عن إقامته في تونس ودمشق والقاهرة، وتحتوى هذه الرحلة على معلومات جغرافية نادرة وبعد فإن المصادر أجمعت على الثناء عليه وعلى اتساع معرفته فقد تخصص في تسجيل القضايا التي عالجها وناقشها مع المتقنين الذين لاقاهم في طريقه.

أما خالد البلوى فهو من الحجاج الأندلسيين الذين رحلوا في القرن ١٤ في قوافل إلى مكة، وقد كتب يوميات رحلته إلى الأراضى المقدسة "تاج المفرج في تحلية علماء المشرق" وقد نشرت في الرباط منذ عدة سنوات^(١٢)، وينحدر البلوى من أسرة من الأدباء ترتقى إلى أصول عربية يعنى وولد في كَنْطُورِيَّة (المرية)، وتلقى البلوى في غرناطة ثقافة أدبية وفقهية راسخة.

وفي أكتوبر ١٣٣٥م عندما بلغ الثالثة والعشرين، ركب سفينة في المرية ووصل حتى هينن Hunnayn وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث أقام أكثر من ثمانية أشهر ثم أبحر إلى الإسكندرية، وفي هذه المرحلة التقى بحاج أندلسي آخر هو الشاعر ابن حاج نميرى ابن رجل غرناطي سامى المقام^(١٣)، وبعد شهر وصل إلى القاهرة حيث بقي خمسة عشر يومًا خصصها للدراسة.

وكان يحكم هناك آنذاك محمد بن قلاوون السلطان المملوكى الذى كانت له بعد ذلك بقليل مراسلات رسمية مع غرناطة النصرية. وقد جاز كاتبنا بعد ذلك كل من غزة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس حيث قضى شهرين. كما مر بالكرك والعلا ووادى القرى حيث وصل إلى المدينة ومن هناك وصل إلى مكة في ذى الحجة سنة ٧٣٧ هـ (يوليو ١٣٢٧م). أما رحلة العودة فقد أدت به إلى

القدس والرملة وعسقلان حتى وصل إلى القاهرة والإسكندرية ومن هناك رجع إلى تونس جاعلاً من طبرق محطة له في برقة.

وبعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هنين Hunayn حيث أبحر أخيراً في اتجاه المرية. ومن جديد وطأت أقدامه أرض الأندلس، وكان ذلك في يونيو من عام ١٢٤٠م بعد غيبة خمسة أعوام، وتولى قضاء قنتورية وبعدها برشانة وعلى نهر المنصورة أكمل محطات رحلته حتى أنجز كتابه في ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر / ديسمبر ١٢٦٦م).

أما لسان الدين بن الخطيب الوزير والمؤلف النصري، فقد ترك لنا صورة طريفة للبلوى. وقد صاحب ابن الخطيب السلطان يوسف الأول في زيارته التفتيشية على الأراضي الشرقية لغرناطة سنة ١٣٤٧م، وقد صور لنا قاضي برشانة في صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب الملكي فوصفه لنا كرجل لطيف في ترحابه، مختال ومزهو بتقائنه الأدبية مقلد في تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشاركة. وبدأ ابن الخطيب في هجائه، إذ كان مخدوعاً بمظهره كحاج بين رجال إدارته، وكان يضع طينساتاً أبيض على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفاً من عمامته ينسدل على جبهته تماماً مثل الجمل بلجائه على أنفه على حد وصف ابن الخطيب^(١٤).

وقد جاء أكثر هجاء ابن الخطيب وذهمه لقاضي برشانة على هيئة نثر مقفى مأخوذ من كتاب البرق الشامي^(١٥) للكاتب المشرقي عماد الدين الأصفهاني موهماً بأنها أبياته. وفي القرن ١٧ كرر المقرئ التلمساني اتهام ابن الخطيب بانتحال الأبيات كما علق على هجائه للبلوى بأنه كان عنيفاً^(١٦)، ولم يكن البلوى في كتابه عن رحلته يهدف إلى معالجة تاريخية أو جغرافية جادة، وكذلك لا يتسم وصفه لكل من الإسكندرية والقاهرة بالمصادقية والأصالة وملاحظاته عن ديوان الإسكندرية والمضايقات التي تعرض لها كثير من الرحالة المغاربة المسلمين أوردها كل من ابن جبير وابن رشيد.

وكذلك نجد أن وصفه لمارستان القاهرة والأهرام يذكرنا بما أورد ابن جبير. أما إلى الفقرات الكبيرة التي خصصها البلوى لوصف القرافة والمساجد في القاهرة فهي تتم عن تعصبه الديني وعن مشاعره الحية التي إظهارها في مناسبات مختلفة، مثلما كتب عن النصوص الجنائزية وشواهد القبور في تلك الأماكن والتي طالما أثارت إعجابه، ولم يأت بروايات غريبة في سياق حديثه عن الرحلة لاسيما عند عرضه لأخطار الطريق، واستدعائه للأحداث والخطوب التي ألمت به في طريقه الطويل.

وقد أفاد البلوى من إقامته في كل من المغرب والمشرق في متابعة الدروس التي تلقاها على أيدي أكبر العلماء في عصره وللحصول على إجازاتهم، كذلك قدم لنا بأسلوب نخم، مختصرات للمناقشات التي دارت بينه وبين علماء المشرق والمغرب الإسلامي، ونقل لمواطنيه الأندلسيين بعض النصوص الشعرية والنثرية التي لا زالت مقفولة وغير معروفة حتى الآن.

وتتدرج روايته للرحلة ضمن حلقات سلسلة العلاقات، والروابط الثقافية بين الأندلس وباقي أراضى العالم الإسلامي.

وفي القرن الرابع عشر أيضا يظهر رحالة آخر، ليعطينا بعدا جديدا في نسج أدب الرحالة ذلك هو ابن بطوطة الذي ولد في طنجة في سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) حيث تلقى علوماً فقهية قوية^(١٦).

ولى سنة ١٣٢٥م عندما بلغ إحدى وعشرين سنة رحل إلى المشرق عبر تونس ومصر والشام لأداء فريضة الحج في مكة لأول مرة، ثم رحل بعد ذلك إلى شرق أفريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى وأدرك الهند وأقام بعض السنوات في دلهي على نهر الجانج حيث أسند إليه قضاء المذهب المالكي، وقد كلفه محمد بن تغلق سلطان دلهي بالقيام بسفارة إلى الصين لرحل ابن بطوطة إلى تندهار على ساحل الدكن الغربى وأبحر حتى قاليقوت والمالديف حيث عمل قاضيا لمدة ثمانية عشر شهرا، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين.

وفى سنة ١٣٤٧م رجع عبر صومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوبى شبه جزيرة العرب ثم صعد مرة أخرى ساعياً إلى عبور الخليج الفارسى ليزور فارس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة وأتم حجته الأخيرة.

وفى أبريل من عام ١٣٤٩م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الإسكندرية حتى بلغ تونس وتابع بحراً حتى وصل تنس ومن هناك ركب برّاً حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبى عنان المرينى (أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / أكتوبر ١٣٤٩م)، وبعد إقامة قصيرة فى فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول، وطاف أهم مدنها مثل رندة ومالقة وغرناطة حيث ترك لنا انطباعات وإشارات قيمة -وجاز من جبل طارق بحراً إلى سبتة، وعقب رحلته الجديدة عبر بلاد المغرب، قرر التجول فى بلاد الزنج" ووصل إلى سجلماسة حيث أمضى أربعة أشهر، وهناك ألقى جمالاً والتحق بقافلة من التجار الذين رحلوا فى محرم من سنة ٧٥٣هـ (فبراير ١٣٥٢م)، وقد عاد إلى فاس بعد أن أقام مدة عامين فى مالى وتمبكتو، ويبدو أنه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة ١٣٧٢ وتسمى رحلة ابن بطوطة بتحفة النظار فى عجائب الأمصار وهى ليست مكتوبة بقلمه. بل كُلف ابن جزى القاتم بالكتابة فى ديوان غرناطة والذى كان قد عمل ليوسف الأول المرينى ومن بعده لأبى عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة فى بلاط فاس فأملاه ابن بطوطة نصها بنفسه وتحت توجيهاته^(١٨). وقبل أن نتصدى لمناقشة محتوى رحلة ابن بطوطة نقرر أنها أثارت نوعاً من الحساسية لدى كتاب غرناطة. فابن الخطيب الذى لم ير الرحالة الشهير مطلقاً خصه فى موسوعته الخاصة بتراجم الرجال "الإحاطة عن تاريخ غرناطة" بملاحظات ليست كلها مديحاً متشيداً بشيخه أبى البركات^(١٩) قائلاً :

«هذا رجل لديه مشاركة يسيرة فى الطب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٤ يونيو ١٣٢٥م). فدخل بلاد مصر والشام والعراق وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين،

وصين الصين وبلاد اليمن، وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦م) ولقى من الملوك والمشايخ عالماً وجاور بمكة، واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وأفاده مالا جسيماً وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وصحية. ثم نفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق لكذب وقال لقيته بفرناطة ..

وحدثنا لى تلك الليلة ونى اليوم قبلها عن البلاد الشرقية وغيرها. فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهى على قدر مدينة مسقة كلها، وفيها اثنا عشر ألف أسقف. ويضيف ابن الخطيب نفسه معلومات خاصة بملاحظته الشخصية معلقاً على أوصاف ابن بطوطة فيما يتعلق بالقسطنطينية «وأحاديثه لى الغرابة أبعد من هذا». ولم يكن ابن خلدون أكثر مديحاً له من معاصريه فقد اتهم الرحالة المغربى فى مقدمته بأنه شوه الحقيقة و«أن رجال الحاشية المرينيين فسروا هذه الروايات الغربية وعللوا ذلك بأن الرحالة روى أكاذيب».

ونصف رحلة ابن بطوطة تحت نوعية للكتابات غير متصلة العناصر. وقد عرفنا من ابن جزى كاتب النص أن ابن بطوطة تقتصر لى إملائه على وصف البلدان التى زارها والطرف والحوادث التاريخية التى استطاع أن يتذكرها بالإضافة إلى أن الرحالة نفسه (ابن بطوطة) أخبرنا عند حديثه عن بخارى أنه تعرض لى البحر لقراصنة الهنود، ولقد عندئذ الملاحظات التى أخذها عن رحلته السابقة كلها ، وهذا يفسر عدم وجود إشارات أو دليل للمسافر لى كتابه، أن أدلة المسالرين وعلم تسلسل التواريخ تطرح إشكاليات كما ذكر بوضوح السير هاملتون^(٢٠) جب الذى وضع مصداقية تأكيدات ابن بطوطة موضع شك متخذاً مشكلة رحلة ابن بطوطة إلى المراكز التجارية ببلاد البلغار فى الفولجا الوسطى مثلاً ولى بعض فقرات كتابه المتعلقة بجنوب شرق لاس، خلط بين ما رآه لى الرحلة وما حدث خلال رحلة أخرى فى مناسبة أخرى، ولكن توجد فى هذا

العمل بلا شك مادة تاريخية وتراجم وفيرة عن مصر وسوريا والحجاز، تسهل للباحثين المتميزين تنسيق ذلك بالمادة العلمية المستقاة من مصادر أخرى، كذلك توجد روايات أسطورية أخرى تتسجم مع ما هو خارج عن المؤلف بالإضافة إلى توصيفات متكررة إلا أن الملاحظات الشخصية للمؤلف حول المراحل والأحوال الطبيعية (طبيعة الأراضي والمزروعات والمناخ والمحاصيل) وما يتعلق بالأفراد، وكل ذلك يثير الاهتمام، ويؤكد ابن جزى أنه كان يسجل كل ما كان يقصه الرحالة (ابن بطوطة) دون إضافة شيء أو إغفال شيء، وأنه كان يروى قصصا ونوادير دون أن يتحقق من مصداقيتها مما يفسر التناقضات التي لا يغفل عنها أي ناقد، ويتتبع ابن جزى الكاتب في كتابته القواعد الخاصة باللغة العربية النحوية ولكن في بعض المواضع يستخدم الدقة الضرورية في كتابة أسماء الأعلام مما يجعل من المتعذر قراءتها بالعربية وإليه أيضا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التي تتداخل في نص كتاب الرحالة.

وقد نظم الصياغة النثرية لابن بطوطة وفقا للذوق الأدبي آنذاك وكان يقطع خط الرواية بأبيات شعرية وباختصار فإن رحلة ابن بطوطة تعتبر واحدة من المصنفات الممثلة لأدب المشاهدة والمعاناة، ويتخلل الكتاب لون من ألوان الإثارة، وذلك عندما يبدأ المصنف روايته بالنسبة للغات الأجنبية لاسيما بالنسبة للشعوب غير العربية في العالم الإسلامي، فوصفه لآسيا الوسطى مرصع بكلمات وتعبيرات تركية فارسية. إن ابن بطوطة يتجاوز ابن جبير بكثير في أصالة أخباره حول البلاد البعيدة فيما يتعلق بمجال المؤسسات والتقنيات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فإن ما أورده يعتبر مادة هامة، ومن العجيب على الرغم من عدم تكوين ابن بطوطة العلمي فقد وجه نظراته إلى آفاق أكثر بعدا ممن سبقوه وكما يعبر أندري ميكل فإن بطوطة استطاع في النهاية الارتفاع بالرحلة إلى لوحة تصويرية صادقة للعالم.

الحواشي

- ١- حوله انظر مقال بدائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية للفي بروفنسال، ج١، ص ١٢٥، ١٢٦.
- ٢- انظر فراند التحفة في الجريدة الآسيوية سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨، ٤٩٥ - ٣٠٣، وقام دبليو بنشر وترجمة جزء من المغرب : أبو حامد الفرناطي وروايته للرحلة في البلاد الأوربية الآسيوية، مدريد، ١٩٥٣ وكذلك الأبحاث الحديثة : أبو حامد الفرناطي (ت ٥٦٥هـ) (١١٦٩م) تحفة الألباب تقديم وترجمة أراموس، مدريد، ١٩٩٠، المغرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم ونشر وترجمة بيخارانو مدريد، ١٩٩١.
- ٣- دبليو، المرجع السابق، ص ١٧٤، ١٧٥.
- ٤- مقال شارل بلا في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ٣، ص ٧٧٧، ٧٧٨.
- ٥- أشير الآن إلى الترجمة التي قام بها مايو سالجاد وعنوانها "ابن جبير عبر المشرق" برشلونة، ١٩٨٨، ص ٤٨ - ٥٠.
- ٦- في مقدمة ترجمته الفرنسية : ابن جبير - الرحلات، ج١، باريس، ١٩٤٩م، ص ٥٩.
- ٧- رينيه بلاشير ودارمون : الجغرافيون العرب في العصور الوسطى، نصوص مختارة مع التعليق عليها، باريس، ١٩٥٧م، ص ٣٤٠.
- ٨- حول مقال محمد بن شنب ووليم هونرباخ في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ١، ص ٩٨، ٩٩، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٧م.
- ٩- ابن شنب، المرجع نفسه، ص ٩٩.

- ١٠- انظر مقال راشيل أرييه في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص ٩٣٣، ٩٣٤، قطع من رحلته المخطوطة رقم ١٧٣٦ بمكتبة الإسكوريال، نشرها بلخوجة في تونس.
- ١١- حوله انظر ماريا خيسوس روبيرا "لو الوزرائين، ابن حكيم الرندى"، الأندلسي، مجلد ٣٤، ١٩٦٩م، ص ١٠٥ - ١٢١.
- ١٢- لا يوجد مقال في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مخصص للبلوى، طبعة الرباط بدون تاريخ، عنوانها "تاج المفرق لحسن السائح".
- ١٣- ج.س. فانت، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، م ٣، ص ٨٠٣ : كانت شخصية ابن الحاج التميمي الذي ولد في غرناطة في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) موضع دراسة قام بها ج.ف.ب. هوبكنز بعنوان "ابن الحاج، شاعر أندلسي من القرن ١٤" في مجلة مدرسة اللغات الشرقية (Bulletin) مجلد ١٤، ١٩٦١م، ص ٥٧ - ٦٤. إن الرحلة التي قام بها ابن الحاج في صحبة السلطان المريني أبو الحسن سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) عبر شمال المغرب كانت موضع تحليل قام به أ.ل. دي بريمار بعنوان "ملاحظات عن رحلة أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج التميمي الأندلسي في عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م" مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزء التاسع، ١٩٧٠م، ص ٣١ - ٣٧، والمغرب والأندلس في القرن ١٤، ملاحظات عن رحلة أندلسي للمغرب، في ١٣٤٤ - ١٣٤٥م، ليون، ١٩٨١م.
- ١٤- هذا مسجل في كتاب "خطرات الطيف في رحلة الشتاء والصيف" من كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٣٦، ٣٧.
- ١٥- حول هذا المصنف للأصفهاني (ت ٥٨٧ / ١٢٠١م) : ن. إليسييف، نور الدين أمير مسلم عظيم، دمشق، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٢٩، ٣٠.
- ١٦- نفح الطيب، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م، ج ٣، ص ٢٨٥، ٢٨٧.

- ١٧- أ. ميكل، المرجع نفسه، ص ٧٧٩. ونشرت رحلة ابن بطوطة وحقت وترجمت إلى الفرنسية على يد دفرمرى، وب.ر. سانجينييتى بعنوان 'رحلات ابن بطوطة' باريس ١٨٥٣، ١٨٥٩، الطبعة الرابعة، باريس ١٩٦٨ مع مقدمة وتعليقات لمونتيل ويستحسن الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية مع تصحيحاتها اللازمة لجيب بعنوان رحلات ابن بطوطة، كامبردج، ١٩٥٨، ١٩٧١، وتوجد ترجمة بالإسبانية بعنوان ابن بطوطة عبر الإسلام لسيرافين فنخول، وفيدريكو أربوس، مدريد، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
- ١٨- وفقًا لترجمة ليفى بروفنسال، انظر 'رحلة ابن بطوطة في مملكة غرناطة سنة ١٣٥٠' وذلك في كتاب 'دراسات لتكريم وليم مارسيه، باريس'، ١٩٥٠، ص ٢١٣، ٢١٤.
- ١٩- العقدة، ترجمة دلا ملان، ج ١، ص ٣٧٠، ٣٧١، فقرة نقلها ليفى بروفنسال في الهامش رقم ١٩، ص ٢١٤ من مقاله الأخير.
- ٢٠- ملاحظات حول رحلات ابن بطوطة في آسيا الصغرى وروسيا، مقال نشر في الدراسات المشرقية المخصصة في ذكرى ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٦٢م، ج ١، ص ١٢٥-١٣٣.

تطبيق المترجمة :

تحدثت المؤرخة راشيل أرييه عن تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية وأشارت إلى أن الدافع الدينى كان الدافع الرئيس وراء رحلة هؤلاء الأندلسيين إلى المشرق كما ألمحت إلى دافع آخر وهو شغف الأندلسيين بطلب العلم وأصول المعرفة على شيوخ المشرق المعروفين.

واهتمت الباحثة أرييه بالرحلة البحرية وأشارت فى عجالة إلى الطريق الذى اعتاد المسافرون الأندلسيون سلوكه بحرًا، كما أكدت على أثر كتابات هؤلاء البحريين فى تطور الأدب الجغرافى، ثم انتقلت مباشرة إلى الحديث عن أشهر الرحالة الأندلسيين.

ومن الملاحظ أن المقدمة التى مهدت بها المؤرخة أرييه لبحثها جاءت مختصرة للغاية ومبتسرة، فالرحلة كانت لها آثار أخرى أكثر عمقاً وفعالية فى الحضارة الإسلامية فقد كانت من أهم عوامل الربط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة، فضلاً عن أنها كانت من أبرز خصائص المجتمع العربى الإسلامى فى عصور ازدهار الحضارى^(١)، فزالَت الحواجز والموانع بين أقطار العالم الإسلامى على الرغم من الخلافات السياسية أو المذهبية القائمة بينها فكان تجار الأندلس يرحلون إلى الهند والسند كما كان بعض التجار المشاركة يرحلون إلى الصين أو يقصدون المغرب والأندلس^(٢)، مما ساعد على

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٢١١.

(٢) لرجع إلى ما أشار إليه المقرئ نقلاً عن ابن حبان من أن تجاراً من الشرق من عدن كانوا يقدون إلى قرطبة زمن المنصور بن أبى عامر (المقرئ)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩م، ج ١، ص ٣٨٨، كما نستدل من شواهد القبور التى كشف عنها البحث الأثرى فى العمرة على أن تجاراً من مصر والشام وبغداد كانوا يشتغلون بالتجارة فى العمرة (لمزيد من التفاصيل راجع عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢) كما اشتهرت أسرات عراقية كاملة عملت بالتجارة فى مصر (لمزيد من التفاصيل عن بنى -

انتشار الإسلام فى الشرق والغرب عن طريق الاحتكاك السلمى، فضلاً عن شيوع وحدة ثقافية وفكرية إسلامية سادت من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه مما زاد من توثق عرى الوحدة الإسلامية.

وقد تعددت دوافع الرحلة فقد رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية المختلفة فى المشرق والمغرب أو للتجسس مثل الجغرافى والرحالة الشهير ابن حوقل، أو للقيام بمهمة أو للسفارة^(١) أو للحج وطلب العلم مثلما أشارت الباحثة أرييه.

ولا يعتبر هذا الموضوع جديداً، فقد سبق أرييه عدد كبير من مؤرخينا قاموا بالتصدي لدراسته بمزيد من الاهتمام والتفصيل ولعل أهم هذه الكتابات العربية المصنف القيم الذى ألفه الدكتور حسين مؤنس بعنوان "تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس" الذى تناول فيه تطور علم الجغرافية فى الأندلس وأهم الجغرافيين والرحالة المغاربة والأندلسيين وكتبهم ورحلاتهم إلى المشرق الإسلامى ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطى وابن جبير وابن سعيد والعبدى وابن الخطيب، كما عالج تطور أدب الرحلة فى الأندلس، وقد فات المؤرخة أرييه أن ترجع إلى هذا المصنف الهام الذى يعد من أكثر ما كتب قيمة فى هذا المجال خاصة ورجعت فى هذا المقال إلى بعض المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية، كما فاتها الرجوع إلى عدد من البحوث الهامة التى تناولت علم التاريخ ومنها على سبيل المثال الدراسة الجادة التى أصدرها الدكتور شاكى مصطفى عن علم التاريخ وكتاب "التاريخ والمؤرخون العرب" للدكتور السيد عبد العزيز سالم. وقد فرق الدكتور سالم فى كتابه هذا بين الرحالة والجغرافى فهو يرى أن الرحالة لا يتجاوز فى كتاباته وصف مشاهداته أثناء الرحلة أما الجغرافى فيعمل على تغطية الإقليم الذى يتناوله كله بالبحث فىسأل ويتقصى ويجمع المعلومات من

«الكوكب التكريتيين راجع محرر سالم، العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى،

الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٦٠ وما يليها.

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١١.

الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين وليس من الضروري في رأيه أن يكون الجغرافى رحالة^(١).

وإذا كانت الدكتوراة آرييه قد اعتبرت أبا حامد الغرناطى نموذجاً ممثلاً للرحالة المغاربة فإن الدكتور حسين مؤنس يرى أن كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة" الذى كتبه ابن العربى والذى يتضمن رحلته المشرقية وما درسه فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان، هو النموذج الأول للرحلة الأندلسية وأول وصف لرحلة يكتبها أندلسى كما أكد فى كتابه "تاريخ الجغرافية والجغرافيين" على أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس، ويرى أن أبا حامد الغرناطى كتب شيئاً قريباً من "ترتيب الرحلة" ولكنه لم يصف رحلته ولم يعين مراحلها أو "مراتبها" بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه، ويختتم الدكتور مؤنس رأيه فى رحلة ابن العربى بقوله «نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأور ابن جبير ولكنه دون شك، السابقة التى سيحتئنها أمثال ابن رشيد والمبدرى»^(٢).

وفيما يتعلق بما أوردته المؤرخة آرييه عن أبى حامد الغرناطى يتضح أنها اعتمدت كثيراً على ما أورده سيزار دوبلر فى مقدمة ما نشر من "المغرب من عجائب المغرب" لهى لم تأت بكثير عند حديثها عنه فلم يتجاوز ما ذكرته عن سير رحلته الذى تناولته باختصار شديد سوى مقتطفات من آراء وأوصاف سيزار دوبلر لأبى حامد الغرناطى كما وردت فى مقدمة المغرب. وقد أخطأت آرييه عندما أوردت اسم أحد كتابى أبى حامد الغرناطى اللذين ألفهما فى الموصل وهو "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" فقد أوردته على أنه "تحفة الألباب أو (الأحباب) ونجعة الإعجاب" كما لم تشر إلى سبب عدم عودته من رحلته

(١) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٢) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧م، ص ٤١١ - ٤١٢.

المشرقية إلى الأندلس مرة أخرى على الرغم من أن سيزار دويلر قد علل ذلك بسقوط بلاده أقليمش في أيدي النصارى^(١). كذلك لم تشر راشيل آرييه إلى زيارة أبي حامد الغرناطي للإسكندرية وزيارته لمنازها ودقة وصفه لها على الرغم من أهمية ذلك للمهتمين بدراسة هذا المنار للتعرف على التطورات التي تعرض لها كذلك لم تشر إلى وصف معبد السرايوم بالإسكندرية.

وقد ألف أبو حامد الغرناطي كتابه الأول "المغرب في بعض عجائب المغرب" في بغداد سنة ٥٥٦هـ وذلك عندما زارها للمرة الثانية، تلبية لطلب صديقه الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذي استضافه وأحسن إليه. وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس حيزاً كبيراً من كتابه للحديث عن هذا المصدر الهام، أشار خلاله إلى أهم محتوياته وحللها تحليلاً عملياً دقيقاً^(٢).

ويعتبر المغرب أول مؤلفات أبي حامد الغرناطي، أما تحفة الألباب فقد دونه أبو حامد في الموصل استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي مؤلف كتاب "وسيلة المتعبين"^(٣).

أما فيما يتعلق بابن جبير فلم توضح آرييه صراحة في سياق حديثها عن رحلته أنه قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، فقد تحدثت عن انطباعاته ومشاهداته إجمالاً وذكرت ضمناً ما يشير إلى رحلتيه البحريتين الأولى والثانية. والواقع أنه رحل إلى المشرق ثلاث مرات وأن كتابه "مذكرة الأخبار" تسجل لرحلته الأولى التي بدأها في شوال سنة ٥٧٨هـ وانتهى منها بموكنة إلى الأندلس لي ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ. ويعتقد د/ عبد العزيز سالم أنه كتب أخبار هذه الرحلة فيما يقرب من عام ٥٨٣هـ عندما شاعت في الأفاق أخبار انتصارات

(١) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٠٦، حاشية رقم ١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٦ وما يليها.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٢٣ وراجع السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون للعرب، ص ٢٢١.

صلاح الدين يوسف بن أيوب واسترداده لبيت المقدس ثم دفعه الحنين للمشرق إلى رحلته الثانية إلى هناك سنة ٥٨٥هـ عاد بعدها إلى غرناطة في سنة ٥٨٧هـ ثم استقر في سبتة وتزوج بها. وعندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد يثت أبي جعفر الوثقى، رحل إلى المشرق الإسلامي للمرة الثالثة في سنة ٦١٤هـ ونزل بالإسكندرية وظل مقيماً بها حتى وافته المنية ودفن بها، ومن المرجح أنه دفن في الموضع المعروف اليوم بسيدي جابر^(١).

وقد اعتمدت آرييه في وصفها لرحلة ابن جبير الثانية في البحر على ما أورده هو نفسه من وصف الأخطار التي تعرض لها أثناء رحلته فنقلت نصوصاً على لسانه في مقالها بعد أن ترجمتها إلى اللغة الأسبانية ووضعتها بين قوسين. وقد تصرفت راشيل آرييه في النصوص باستبدالها بالتواريخ الهجرية الواردة في النص الأصلي بالتواريخ الميلادية واختصارها لبعض الأحداث، وقد قمنا عند ترجمتنا لمقال آرييه إلى العربية بالرجوع إلى نص رحلة ابن جبير الأصلي، ونقلنا ما ورد فيه حرفياً حرصاً على الأمانة والدقة العلمية طالما وضعته راشيل آرييه بين قوسين.

واعتقد أن ما أورده ابن جبير من صور حية عن التعايش السلمي بين الصليبيين والوطنيين في مملكة بيت المقدس الصليبية على الرغم من الحروب التي كانت قائمة بينهما، شهادة حية على التسامح والاستتارة اللذين اتسم بهما الفكر الإسلامي.

وإذا كانت آرييه قد وصفت ابن جبير بالإحساس القوي والتدين الذي تمتعت مظاهره في فقرات معينة من كتابه فقد وصفه الدكتور حسين مؤنس بأنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامي فهو يقوم برحلته الثانية إلى المشرق احتفالاً باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وهو يوضح في رأي مدى

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢١. وارجع إلى ما ورد في ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، ١٣١٩هـ، ج ٢، ص ١٦٩.

عمق الروابط الفكرية والمعنوية ومدى توحيد المشاعر الإسلامية بين أطراف العالم الإسلامي رغم المسافات الطويلة والخلافات السياسية والمذهبية، كذلك وصفه الدكتور مؤنس بأن كان رجلاً ذا قلب إنساني كبير فقد هاجر في أواخر أيامه إلى المشرق ليتعزى عن مصابه في زوجته عاتكة للتأسي والنسيان وزيارة البيت الحرام^(١).

ولم تشر راشيل آرييه إلى قيمة ما أورده ابن جبير من إشارات هامة عن البحر والسفن وأحوال الملاحة في البحرين المتوسط والأحمر في القرن السادس الهجري ولا عن ملاحظاته الجغرافية التي كانت غاية في الدقة والصدق. أما العبدري فقد ذكرت آرييه أنه رجع بالنصب إلى أصول عربية بعيدة وأنه كان ينتمي إلى قبيلة حاحة التي كانت تنزل (الصويرة حالياً) بموجادور. وقد يبدو ما ذكرته راشيل آرييه متناقضاً في بداية الأمر إذ كيف يرجع العبدري إلى أصول عربية وينتمي إلى قبيلة حاحة البربرية في الوقت ذاته؟؟

وفي حقيقة الأمر فإن العبدري عربي الأصل، كرشي يرجع إلى بني عبد الدار بن قصي^(٢) وكان أصل بيته من بلنسية ثم هاجر به أهله وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا في الإقليم الذي ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية التي كانت تضرب حول مدينة الصويرة الحالية^(٣).

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، ص ٢٢٤.

(٣) لم يكن اسم الصويرة وارداً في العصر الوسيط وإنما استعمل زمن السلطان محمد بن عبد الله الذي بادر ببنائها واتخاذها ميناء أول لمبادلات المغرب التجارية مع الخارج وذلك ابتداء من عام ١٧٧٣م، وفتحها للأجانب وخصها بامتيازات جمركية مما جعلها تتفوق على غيرها من الموانئ المغربية (محمد زينبير، إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٧٧) وقد اختلف المؤرخون في أصل الصويرة، ويجمع بعض المؤرخين على أن موقع الصويرة هو أمكنول مرمى حاحة وموس (زينبير، المرجع السابق، ص ٨٠) في حين يرى آخرون أن الصويرة الحالية بخلاف الصويرة القديمة وأن الصويرة الحالية هي مرسى أكو أو كوز الذي ذكره-

وقد تحامل العبدري على مصر والمصريين وسب أهلها، لاسيما عند وصفه لما لآلاه على أيدي مفتشى المكوس، في حين نراه يمدح تونس وأهلها مدحاً شديداً.

ولم يكن هذا هو شأن العبدري وحده، فابن سعيد صور مدينة القسطنطينية تصويراً سيئاً وتهكم على أهلها^(١) مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار أن ذم أهل مصر أصبح موضوعاً تقليدياً لدى للرحالة المغاربة^(٢).

وأفضل ما في بحث راشيل آرييه حديثها عن البلوى وابن بطوطة فقد تناولت رحلتيهما بشيء من النقد والتحليل بخلاف دراستها السابقة لأبي حامد الغرناطي وابن جبير والعبدري وابن رشيد التي اقتصرت على مقدمة كتبهم المنشورة، وكنت أتمنى لو ختمت دراستها بالإشارة إلى رحلة أبي الحسن على بن محمد القلصادي القرشي البسطي المتوفى سنة ٨٩١هـ. وقد ولد القلصادي في مدينة بسطة الواقعة شمال شرقي غرناطة والتابعة لكرورة جيان، وبها نشأ وتلقى علومه الأولى على أيدي شيوخها أبي بكر الياز، وأبي عبد الله محمد بن محمد البيهقي، وأبي أحمد جعفر بن أبي يحيى، وأبي الحسن على اللخمي القرطبي. وكان خلال إقامته ببسطة يتردد على غرناطة عاصمة للمملكة، وقد بدأ القلصادي رحلته الحجازية سنة ٨٤٠هـ فزار تلمسان وتلقى العلم على أعلامها وقضى نحو ثمان سنوات أثناء ذهابه يضاف إليها ثمانية أشهر في طريق عودته للأندلس. أما تونس فكانت المركز العلمي التالي الذي حل به وأقام بها مدة سنة

= البكري (جد القادر زمامة، الصورة وإليهما في ذاكرة التاريخ، مجلة كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٩٥ وما يليها).

(١) ابن سعيد، المغرب إلى حلى المغرب، تحقيق زكي محمد حسن، وشوaily ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣م، ج ١، ص ٦٥٢.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين السادس والسابع الهجريين، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٨، ١٩٥٤م، ص ١٠٨.

كاملة، وعمل أثناء إقامته بها بالتأليف فقد صنف آنذاك كتاب "كشف الجلباب عن علم الحساب" وكتابه "القانون في الحساب" وكتابه "الكليات في الفرائض" ثم مضى في طريقه إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية وكانت إقامته بالقاهرة قصيرة نسبياً إذ لم تتجاوز ستة أشهر إلا بقليل، ثم رحل إلى الأراضى العنقة، وهناك صنف كتاباً في الفرائض وهو "شرح فرائض ابن الحاجب المراغى" الذى أجاز القلصادى فى أسانيده على كتب الأحداث. وقد شغلت هذه الرحلة خمس عشرة سنة رحل بعدها القلصادى إلى غرناطة حيث استقر، وتواصل عطاؤه العلمى، واشتغل بالتأليف والتدريس على الرغم من الاضطراب السياسى الذى كان يجتاح مملكة غرناطة فى هذه الفترة الحرجة. وعندما أحس القلصادى بالأخطار تحيط ببلاده، رحل إلى باجة أفريقية حيث واصل نشاطه العلمى، وكانت باجة من أكثر المراكز العلمية بقونص ازدهاراً وكانت بها جالية أندلسية ومغربية.

1

١

**رحلات عباس بن ناصم الجزيوي الأندلسي
الثقافية إلى العراق وأثرها في تشكيل ثقافات
الأندلس في عصر الدولة الأموية**

بحث مقدم من

الدكتور

إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا

رحلات عباس بن ناصح الجزيري الأندلسي الثقافية إلى العراق وأثرها في تشكيل ثقافات الأندلس في عصر الدولة الأموية

تقديم:

يتناول موضوع البحث دراسة عن النشاط الثقافي والعلمي في الأندلس خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة وتأثيره بعمق بالثقافات المشرقية لاسيما العراقية منها، ولجاء ذلك في تشكيل ثقافات الأندلس في هذا الوقت المبكر من تاريخها، وذلك من خلال رحلات الشاعر واللغوي الكبير عباس بن ناصح الجزيري الأندلسي الثقافية إلى العراق. فقد كانت هذه الرحلات وغيرها من رحلات أهل الأندلس إلى المشرق، بل ورحلات المشاركة إلى الأندلس تجسيدا للتأثيرات الثقافية والعلمية وكذلك الفنية المتبادلة.

نسب عباس بن ناصح:

هو أبو العلاء عباس بن ناصح بن بلتيت بن قطري من أهل الجزيرة الخضراء^(١). وكان كما يذكر الخشني بربري الأصل من قبيلة مصمودة، وأحد موالى قبيلة ثقيف العربية^(٢). ويفسر المفضل المدججي نسبة أهل الجزيرة الخضراء انتساب عباس بن ناصح إلى ثقيف بقوله «إن ناصحاً والد عباس كان عبداً لمزاحمة بنت مزاحم الثقفي الجزيري»^(٣). ولعل عباس هذا قد نال حرته وأربط بقبيلة مولاه بنوع من الرلاء، فانتسب إليهم.

الرحلة الأولى:

يتضح من الروايات أن ناصحاً كان مثل معظم الأندلسيين الذين كانوا يسمون إلى طلب العلم داخل وخارج بلادهم، وكانوا يركبون مخاطر الرحلة إلى المشرق الإسلامي في سبيل تحصيله^(٤). اصطحب ناصح ابنه عباس وهو بعد صبيًا إلى مصر حيث أقام فترة من الزمن، التحق خلالها بالصبي بمدارسها، ثم انتقل مع أبيه إلى الحجاز فدرس الفقه واللغة

عباس، وهل عاد معه إلى الأندلس أم توفي في العراق؟ كما أنها لم تحدد لنا تاريخ رحلة عباس الأولى إلى العراق؛ فقد خرج من الأندلس وهو صبي حدث غير معروف تاريخ مولده. غير أننا نستطيع أن نحدد على الأقل تاريخ عودته من العراق من خلال استقراء الروايات الخاصة برحلته الثانية، فربما حدثت هذه العودة قبل أن ينتقل أبو نواس من البصرة إلى بغداد في بداية عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) كما سوف نرى.

الرحلة الثانية:

ظفر عباس بن ناصح عن طريق أحد التجار القادمين من العراق بالخبر الذي كان يتظره عن تطور الحركة الشعرية هناك؛ فقد أخبره التاجر بظهور الشاعر الحسن بن هاني الشهير بأبي نواس^(٢٦)، كما أبلغه غير انتقاله من البصرة إلى بغداد^(٢٧)، ووصف له المكانة التي حظى بها عند البرامكة^(٢٨)، والأمين بن هارون الرشيد (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٨-٨١٣م)^(٢٩)، لم أنشد من شعره قصيدتين، قال في إحداهما:

جَرَيْتُ مَعَ الصَّبَا طَلْقَ الْجَرْحِ وَهَانَ عَلَى مَأْنُوهِ الْقَبِيحِ^(٣٠)

وقال في الثانية:

أَمَا لَرَى الشَّمْسُ حَلَّتِ الْحَمْلَا وَقَامَ رِزْنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَا^(٣١)

عندئذ قرر عباس بن ناصح أن يرحل إلى بغداد والالتقاء به والاستزادة من موهبته، وقال عن أبي نواس عندما عقد العزم على الرحلة إليه: «هذا أشعر الجن والأنس، والله لا حبسني عنه حابس»^(٣٢).

والواقع أن أبا نواس كان واسع المعرفة متصلاً بحياة عصره الفكرية، يمرض علينا في شعره مختلف لغانات هذا العصر التي اختلطت فيها علوم الدين الإسلامية وآراء البدع، بالعلوم المنقولة والحكمة الهندية والأساطير اليونانية^(٣٣)، كما كان متبحراً في العلوم اللغوية والإسلامية^(٣٤)، وكان نظم الشعر أقل مراعاة، وقد كان فحلاً راضية عالمًا^(٣٥)، ولقد كان أبرع شعراء عصره، وأحدثهم، واشتهر شعره عند الناس لسهولة رحمن ألفاظه رغم كثرة بدائع^(٣٦). وكانت أشعاره الخمريات والمجونيات بدعة لا نظير لها^(٣٧). وغير حكم على

مكانة أبي نواس الأدبية آراء نقاد عصره ، فالأصمعي يذكر أنه - أي أبو نواس - رغم خلاعته ومجونه كان يعد من كبار أدباء عصره ، ولقد جالس كبار الأدباء والعلماء ، فما تجاروا في شيء من فنونهم إلا جاراهم فيه ، ثم برز عليهم^(٢٨) .

ورغم ما تقدم فإن شعره كان متفارقاً في قيمته لذلك يوجد فيه ما هو في الشرا جودة وحسناً وقوة ، وما هو في الحضيض ضعفاً وكسافة^(٢٩) ، وأفضل شعره ، كما يقرر هو بنفسه ما كان ينظمه في مجالس اللهو والسرور^(٣٠) ويتم بالمعاني والألفاظ الجديدة ، فيه النكتة الحلوة ، والعبث والمجون والتعنت . ولهذا فإن أبا نواس كان يقف في شعره موقفين متناقضين ، موقف المقلد وموقف المجدد ، ففي بعض قصائده يسير على سنن القدماء المتمسكين بمقاييس الشعر القديمة ويتكلف الأسلوب الإعرابي ، وفي قصائد أخرى ينزع عن أساليب العرب ومعانيهم وأوصانهم ، ويذمها ويحاول القضاء عليها ، إلى مقاييس جديدة توافق بيته بأغراضها وتصويراتها . وكانت الحداثة هي الغالبة عليه من خلال خمرياته وملاهيه^(٣١) .

ولاشك في أن عباس بن ناصح أدرك بما كان يحظى به من حسن أديب مرهف وموهبة نقدية عالية ، قيمة أبي نواس ومكانته بين شعراء عصره ، وما كان يحمله شعره من لوعة على القوالب الشعرية القديمة ، يتضح هذا من وصفه له بأنه أشعر الجن والأنس .

خرج عباس بن ناصح من الأندلس متجهاً إلى العراق ، فوصل بغداد ونزل في أحد فنادقها ، ثم سأل عن منزل أبي نواس وذهب إليه فوجد عنده كثير من أدباء بغداد يتعاطون الشعر والأدب ، فلما انفض المجلس سأل أبو نواس عن حاله وبلده ، فأجاب عباس بأنه من قرطبة ، وأنه يتنقّى التأدب بأدب أبي نواس ، ولم يفصح له عن شخصه^(٣٢) . يبدو أن أبا نواس لم يكن لديه الدراية الكافية بالحركة الأدبية في الأندلس ، فهو يعرف أسماء البارزين من شعراء الأندلس ، غير أنه لا يحفظ من شعرهم شيئاً ، فالزبيدي يذكر أنه سأل عباس بن ناصح أن يروي له شيئاً من شعر أبي الخنسي عاصم بن زيد الإلبيري^(٣٣) ، فأنشده قصيدته التي وصف فيها حماه وأولها :

خضعت أم بناتي للمدى	أن قضى الله قضاء نمضي
رأت أعشى ضريراً إنما	مشيه في الأرض لمس بالعصا
نبكت وجداً وقالت قوله	وهي حرة بلغت منى المدى

نفوادی قرح من قولها ما من الأدواء داء كالعمى^(٤٤)

فلما بلغ قوله:

كنت أبا للدرى إلا الدرا ما نقأت عيني إلا الدفا

فاستحسن أبا نواس هذا الشعر وعلق عليه فقال «هذا الذي طلبته الشعراء فأضلك»^(٤٥).

كما طلب أبو نواس من عباس بن ناصح أن ينشده لشعراء أندلسيين آخرين مثل بكر الكنانى^(٤٦)، وأبو الأجرى، فأنشده^(٤٧)، ثم سأله أن ينشده شعر عباس بن ناصح شاعر البلد - يقصد أبو نواس الأندلس - فأنشده قصيدة من أبياتها:

نأدت القريض ومن ذا ناد

عندئذ قاطعه أبو نواس وسأله عن شخصه وهل هو عباس أم لا ١٩ فرد بالإيجاب، فنهض إليه أبو نواس وعانقه وانحرف له عن مجلسه، ولما أتم عباس بن ناصح شعره، علق عليه أبو نواس قائلا «هذا شعر الغرب»، ثم أكرمه واستضافه لمدة عام^(٤٨). وأجازته بجائزة عظيمة^(٤٩). فقد كان أبو نواس كريما سخيا، لا يحفظ ماله ولا يمسكه^(٥٠).

وتجدر الإشارة إلى أن أبا نواس بالغ في تكريم ضيفه، فاعترف له بالفضل على نفسه^(٥١). ولعل هذا يرجع إلى تقدير أبي نواس لفحل شعراء الأندلس في عصره^(٥٢) ومكانته الأدبية بين شعراء بلده، وتكبدته مشقة الرحلة إلى العراق لمقابله.

وما لا شك فيه أن هذه الرحلة أسفرت عن نتائج هامة بالنسبة للتبادل الثقافي بين الأندلس والعراق. فعباس بن ناصح - كما رأينا - أفاد العراقيين بالوان من الثقافات الأندلسية في مجال الشعر عندما أطلعهم على نماذج من شعر الأندلس، أو الغرب كما ذكر أبو نواس. وتأتى هذه الأهمية في إطلاع شعراء العراق على تناول جديد لأحد اتجاهات الشعر وهو شعر العمى الذي برز فيه أبو الخنسى الإلبيري، فأعجب به أبو نواس كثيرا إلى حد أن وصفه بأنه الشعر الذي طلبته الشعراء فأضلك، أى أنه تفوق في شعره في العمى على مثيله عند الشعراء المشارقة. وربما كان إعجاب أبي نواس بهذا الشعر يرجع إلى أنه ذا سمة خاصة تميز الشعر الأندلسي وتجعله ذا شخصية مستقلة عن مثيله المشرقي، فضلا عما كان يتميز به هذا الشعر

من تجويد فنى مشقن^(٥٣). وتجدر الإشارة إلى أن شعر العمى ظهر عند العرب ضمن اتجاه التعبير عن الذات وهو أحد الاتجاهات العامة الحديثة فى الشعر العربى لاسيما شعر القرن الثانى الهجرى^(٥٤).

كما أنه من المرجح أن عباس بن ناصح أفاد كثيرا من إقامته بالعراق، حيث نهل من بحر ثقافته الزاخر لاسيما وأنه احتك بكوكبة من أبرز شعراء مدرسة الحداثة من طبقة أبى نواس وندمائه الذين كانوا يترددون على التشدى الثقافى بمنزل أبى نواس^(٥٥)، ونقل هذه المعارف عند عودته إلى الأندلس. ومن المرجح أنه نقل نماذج من شعرهم وخاصة شعر أبى نواس وعرف الأندلسيين بها.

أما عن تاريخ هذه الرحلة فغير معروف، ويرى الدكتور محمود علي مكي أنها تمت قبل عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م، وهو العام الذى توفى فيه أبو نواس^(٥٦). ومن الطبيعى أن تحدث هذه الرحلة فى حياة أبى نواس، لأن الهدف منها كان الالتقاء به، وهلا ما تم بالفعل. ومن جانبى أرجح أن رحلة عباس بن ناصح الثانية إلى بغداد تمت فى عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م، استنادا على الحقائق التالية:

١ - أن عباس بن ناصح تلقى أخبارا عن أبى نواس بعد أن بلغ منزلة رفيعة لدى الأمين بن هارون الرشيد الذى تولى الخلافة العباسية فى عام ١٩٣ هـ. حقيقة أن أبى نواس كان على علاقة طيبة بالأمين عندما كان وليا للعهد، ولكنه لم يحظ بهذه المنزلة السامية إلا بعد أن تولى الأمين الخلافة.

٢ - كان أبو نواس يعاني مرارة الفقر فى عهد الخليفة هارون الرشيد رغم أعطيات البرامكة والرشيد له^(٥٧)، ولم تحسن أحواله المادية إلا فى عصر الخليفة الأمين الذى كان يندى عليه الأموال^(٥٨) فتبدلت حالته، بحيث أصبح يقتنى الدور الفخمة، فعباس بن ناصح يذكر أنه لما وصل إلى بغداد وسأل بعض الأفراد عن منزل أبى نواس، فدلوه عليه، فوجده يعيش فى قصر فخم على باب حواس وخدم. ووجد أبى نواس جالسا فى مقعد نبيل^(٥٩). ولم يكن من الممكن أن تتحقق هذه الأبهة لأبى نواس قبل عهد الأمين غير أن حالة الثراء التى ظهرت عليه لم تستمر طويلا، فقد كان الأمين يزج بأبى نواس فى

السجن مرات عديدة لإفراطه فى شرب الخمر والمجون رغم تحذير الخليفة له بالإتلاع عنها، وقد اعترف أبو نواس نفسه فى إحدى قصائده بتقلب حياته بين نعيم وؤس^(٦٠) بالإضافة إلى سوء الأحوال فى بغداد بعد نشوب الصراع بين الأمين وأخيه المأمون منذ عام ١٩٥ هـ، وحتى مقتل الأمين فى عام ١٩٧ هـ^(٦١).

٢ - هناك قرائن تاريخية تؤكد هذا الرأى، فقد كان عباس بن ناصح موجوداً فى الأندلس فى عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م^(٦٢)، أى بعد أن قضى عاماً فى بغداد وعاد إلى موطنه. كذلك كان موجوداً بالأندلس فى عام ١٩٧ هـ / ٨١٢ م كما ورد فى المصادر الأندلسية^(٦٣).

عاد عباس بن ناصح إلى وطنه ، فخص الأمير الحكم بن هشام بالمديح، فعظم قدره عنده، وأغدق عليه بالعطايا الكثيرة، وقربه إليه وأدناه منه، فصار أثيراً لديه، كما كان يأنس به ويعجب بفصاحته، ولذلك كان يكثر مراكبته ومصاحبته فى المغازى^(٦٤)، مثلما حدث عندما اصططحبه معه فى غزوة وادى الحجارة عام ١٩٤ هـ^(٦٥). ولما تأكد للأمير الحكم بن هشام رغبة عباس بن ناصح فى أن يدخل فى خدمته، ولأهـ - بمشورة حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن منبث^(٦٦) - قضاء شلونة^(٦٧)، والجزيرة الخضراء، وظل يؤدي عمله بهذه الخطة حتى وافته المنية^(٦٨) فى عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٦ م^(٦٩).

وتجدر الإشارة إلى أن منصب قضاء الجزيرة الخضراء ظل يتوارثه بنو عباس بن ناصح بعد وفاته. فقد كان عباس منجباً فى الولادة^(٧٠)، وولى القضاء بعده ابنه عبد الوهاب بن عباس، وكان شاعراً^(٧١)، ثم ابن ابنه محمد بن عبد الوهاب بن عباس، وكان شاعراً كذلك^(٧٢)، فهم ثلاثة قضاء شعراء كلهم مدح أمراء الأندلس.

ونستدل من النصوص أن عباس بن ناصح لم يتفوق على نفسه فى الجزيرة الخضراء بعد أن أصبح قاضياً لها، إذ ظل يمارس دوره الطليعى فى نظم الشعر بالأندلس أينما ذهب. فقد كان عباس بن ناصح وهو قاض بالجزيرة يتردد على قرطبة فى عهد الأمير الحكم بن هشام، وكان أدباؤها ينتهزون هذه الزيارات ويتحلقون حوله للأخذ عنه^(٧٣)، وكانت تدور بينه وبينهم أحيانا محاورات أدبية يمكن أن تعتبر المحاولات الأولى للنقد الأدبى فى الأندلس^(٧٤).

وكان كل من يحيى بن حكيم الغزال^(٧٥) - فى حديثه عندما كان يطلب الأدب -

والشاعر بكر بن عيسى من رواد منتديات عباس بن ناصح الثقافية في قرطبة^(٧٦). ويتبين من أشعار عباس بن ناصح التي كان يلقيها في هذه المنتديات بعد عودته من رحلته الثانية إلى العراق، أنه كان مازال متأثراً بالأساليب الشعرية الكلاسيكية، فقد كان شعره ذا سمات بدوية واضحة ، ويتمثل ذلك في سذاجة بعض الأفكار، واهتزاز بعض الصور، واللحن، وقلق بعض الألفاظ التي كانت مشار مخزية بعض تلاميذه^(٧٧). فعندما قدم من الجزيرة الخضراء لزيارة قرطبة في إحدى المرات، ألقى قصيدة في الزهد في جمع غفير من الأدباء جاء فيها:

تجاف عن الدنيا ، فما لعجز ولا حازم إلا الذي خط بالقلم

فسأله يحيى بن حكم الغزال وما الذي خط بالقلم ففعل مع ناعل ١٢، فقال له عباس فكيف تقول أنت ؟ قال :

تجاف عن الدنيا فليس لعاجز ولا حازم إلا الذي خط بالقلم

نقال عباس : والله لقد طلبها عمك ليالي فما رجدها^(٧٨). وأشد يوماً قوله من قصيدة:

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشا بكفى حتى آب خاويه من بقري

فسخر منه الشاعر بكر بن عيسى لسذاجة هذه الفكرة^(٧٩).

كما أنكر بعض المتأدبين في حلقة جودي بن عثمان النحوي بقرطبة لحن عباس بن ناصح وعدم تشديده بآء النسب من لفظة نصراني في قوله :

يشهد بالإعلاص نوبها لله فيها وهو نصراني

فلما علم عباس بن ناصح وهو بالجزيرة بهذا الأمر ، احتج بيت شعر لعمران بن حطان من الشعراء الكلاسيكيين ، كان قد لحن فيه أيضاً، وأجاز التخفيف^(٨٠).

ومع ذلك، فمن المرجح أن عباس بن ناصح - وكان قد تأثر بالمدرسة الشعرية الحديثة التي تزعّمها أبو نواس ونظراؤه الذين قابلهم واحتك بهم أثناء زيارته الثانية لبغداد - نظم أشعاراً طيبة نزع فيها عن الأساليب الكلاسيكية إلى مقاييس جديدة غنية بالمعاني والألفاظ الجديدة. يؤكد هذا أن شعره الذي نظمته أثناء وجوده في العراق يختلف عن شعره الآخر الذي قاله بالأندلس. وقد لاحظ هذا الفرق بعض شعراء الأندلس في أواخر القرن الثالث

الهجرى وعلى رأسهم الأمير عبد الله بن محمد أمير الأندلس ٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م^(٨١)، ولا يعيب عباس بن ناصح تمسكه بالأساليب الكلاسيكية، فقد كان أبو نواس نفسه كما رأينا يقف موقفاً وسطاً بين الكلاسيكية والحدثة، وإن كان ميله إلى الحدثة أكثر ترجيحاً، كما كان شعره يتفاوت بين الجيد والركيك. وربما كان هذا ما دعا الدكتور محمود مكي إلى القول بأن عباس بن ناصح لم يكن كلاسيكياً متعصباً، إنما كان بين الكلاسيكيين وقبل المحدثين^(٨٢).

وتتضح قيمة شعر عباس بن ناصح وأهميته من الأثر الطيب الذى تركه فى نفوس المثقفين الأندلسيين الذين كانوا يعتنون بالشعر الكلاسيكى ، فالأمير عبد الله بن محمد - وكان شاعراً فصيحاً ومتصرفاً فى علوم اللغة والغريب وأيام العرب^(٨٣) - كان من أشد المعجبين بشعر عباس بن ناصح ، كما كان يحفظ منه كثيراً من القصائد وتوابع لغته وادراكاً لغريبه ، ولقد كان يعرف الذى قال منه بالمشرق بينه وبين الذى قاله بالأندلس ، ويحكى من أخبار عباس ما لا يحكىه أهله ولا رواه^(٨٤)، كما توفر كثير من رواة الشعر والشعراء فى أواخر ق^٢هـ، على جمع أشعاره والاستفادة منها، وكان الشاعر عفيف بن مسعود^(٨٥)، محتياً بشعر عباس بن ناصح أشد الإعجاب، روي له، حسن القيام به^(٨٦).

وتجدر الإشارة إلى أن شعر عباس بن ناصح لم يسهم فى تشكيل ثقافات الأندلس فحسب، بل أسهم كذلك فى الحفاظ على وحدة البلاد السياسية والمذهبية. فقد أسدى عباس بن ناصح بشعره خدمة جليلة للدولة الأموية، فعندما ظهرت بالجزيرة الخضراء حركة مذهبية تشبه فى خطوطها حركات الخوارج بالشرق، أرسل إلى الأمير الحكم بن هشام شعراً طويلاً ينريه فيه بهؤلاء الخوارج ويحثه على إنكار ما أحدثوه وبثوه من أفكار خارجية غريبة عن الأندلس، ومن شعره فى ذلك قصيدة وصفها الخشني بأنها من عز القصائد وفيها يقول:

فأمر بأمرك فيهم مرشكاً وأخف من كان من ربة الإسلام متخلماً^(٨٧)
صل بالأفيل الذى روى لقتهم من قبل أن يدخلوه نحونا جدعاً

فلما قرأ الأمير الحكم شعر عباس بن ناصح استنصر خطورة هؤلاء الخوارج ، وعزم على القضاء على حركتهم المتطرفة، فخرج بنفسه إلى الجزيرة على رأس قوة كبيرة وحمل

السيف على أكثر أهلها، وأحمد الحركة في مهدها ، قبل أن يمتد تأثيرها إلى المناطق المجاورة (٨٨).

الرحلة الثالثة:

تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الرضوي دست الإمارة في قرطبة خلفاً لوالده في ٢٧ من ذي الحجة عام ٢٠٦ هـ / مايو ٨٢٢ م، وفي عهده شهدت البلاد تراجعاً وانحساراً واضح المعالم للتقاليد الحضارية الشامية التي كانت سائدة في عصر عبد الرحمن الداخل (٨٩)، فقد واصل أهل الأندلس مسيرة تحررهم بحثاً عن آفاق جديدة ومقومات أخرى لحضارتهم، وهي مسيرة كانت قد بدأت في عهد الأمير هشام الرضا بالانفتاح على الحضارة الحجازية (٩٠)، فقد أخذ ليار التقاليد الحضارية العراقية الذي كان الأمراء الساهقون يعملون على عرقته بحكم عدائهم التقلیدی المتأصل للعباسيين (٩١)، يندفق على الأندلس ويؤثر تأثيراً عميقاً على حضارة الأندلس، بل ويطغى على جميع مناحي الحياة أدبية ومادية (٩٢). ولقد كان من الطبيعي أن تتطلع الأندلس مثل غيرها من الأقطار الإسلامية نحو حضارة العراق في العصر العباسي الأول التي بدأت بعد تأسيس بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٤٥-١٤٩ هـ) عندما اتسع عمران المدينة وشملت عناصر من أجناس مختلفة بثقافتها وفنونها وعلومها وتجارتها كالفرس والروم والصين والهنود، فأضحت بغداد كعبة يحج إليها المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأصبحت حضارتها تفوق الحضارات الإسلامية الأخرى كالشامية والحجازية (٩٣).

وكان انفتاح الأندلس على حضارة العراق بتوجيه من الأمير عبد الرحمن الأوسط نفسه رغم توتر علاقته بخلفاء بني العباس (٩٤) - فقد كان هذا الأمير رجلاً على مستوى رفيع من الثقافة والعلم والفهم بمقتضيات العصر الذي يعيش فيه، فرأى بثاقب نظره أنه من الخير لبلده أن يساهم حركة التجديد الحديثة التي ازدهرت في بغداد، فبذل قصارى جهده في بغداد (الأندلس إدراكاً وفكرية وعلمية وفنية) (٩٥). ولم يكن في ذلك مبتكراً ولا مجدداً، بل كان مقلداً لكل هذه المظاهر الحضارية متتبهاً إياها من الحضارة العراقية (٩٦).

وبهنا في هذا البحث إلقاء الضوء على التأثير العراقي في مجال العلوم خاصة القديمة

منها من خلال رحلة عباس بن ناصح الثالثة إلى العراق. فالروايات تذكر أن الأمير عهد للرحمن الأوسط كان من نبهاء ولد الحكم الرضى، وأنه كان أدبياً شاعراً ذا همة عالية^(١٧)، وعالمًا متبحراً في علوم الشريعة والفلسفة^(١٨)، ورجع الفضل في هذا إلى أبيه الحكم الرضى الذى اهتم بتعليمه وحرص على نبوغه في هذه العلوم^(١٩). كذلك أجمع المؤرخون على شغف الأمير عهد الرحمن الأوسط بجمع الكتب النادرة في سائر العلوم والآداب واقتناء ما يصدر منها بالشرق الإسلامى^(٢٠). فكان يبعث تجاراً إلى المشرق لشراؤها^(٢١)، وكانت جهوده في هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة القصر الخلفى بقرطبة^(٢٢)، فالزبيدي يذكر أن بعض التجار جلب للأمير عهد الرحمن الأوسط كتاب المثال من العروض للخليل بن أحمد^(٢٣)، وعهد إلى عباس بن ناصح - كما يذكر ابن سعيد نقلاً عن ابن حيان - بالرحلة إلى العراق والبحث عن مصنفات العلوم القديمة واستساخنها وشراؤها، فأتى له بكتاب السندهند^(٢٤)، وطائفة كبيرة من كنوز التراث العلمى المشرقى^(٢٥).

وتصمت المصادر عن ذكر سبب اختيار الأمير عهد الرحمن الأوسط لعباس بن ناصح بالذات وتكليفه لأداء هذه المهمة. ويمكننا أن نضع تصورًا لذلك من خلال استقراء الروايات الأخرى التى تتعلق بالنهضة العلمية في عصر عهد الرحمن الأوسط، وكذلك من خلال دراستنا لشخصية عباس بن ناصح ورحلته الأولى إلى العراق..

(١) فالأمير عهد الرحمن الأوسط لم يكتف بخدمات التجار في جلب الكتب من المشرق بل كان يرسل الخبراء المتخصصين من الأدباء والعلماء للفرض ذاته، فقد أرسل عباس بن فرناس إلى المشرق ليأتى له بكتاب الفرس في العروض للخليل بن أحمد، فأناه به، وكان عباس بن فرناس هو الذى أشار على الأمير بضرورة الحصول على هذا الكتاب نظراً لأهميته في دراسة علم العروض^(٢٦).

(٢) ما ذكره ابن حيان عن جوانب نبوغ أخرى في شخصية عباس بن ناصح، فقد كان فضلاً عن براعته في الشعر والأدب واللغة، بارعاً في علوم الهندسة والفلسفة والفلك^(٢٧)، وذلك كان من المناسب أن يكلفه الأمير عهد الرحمن الأوسط بإحضار هذه الكتب لإتمامه الواسع بهذه العلوم.

(٣) معرفته الكبيرة بالعراق واتصاله المباشر بالحركة الثقافية ورموزها هناك، ترجح كفته وتدعو الأمير إلى تفضيله على الآخرين في أداء هذه المهمة.

ولاشك أن الأمير كافأ عباس بن ناصح على مجاحه في أداء هذه المهمة، فقد كان هذا شأنه مع سبويه إلى المشرق سواء كانوا من التجار أو الأدباء والعلماء^(١٠٨).

أما بالنسبة لتاريخ هذه الرحلة، فيذهب الدكتور محمود علي مكي إلى أنها حدثت في عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م أي في بداية عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط^(١٠٩). ويعتمد الدكتور مكي في تخرجه هذا على رواية ابن سعيد السابقة، وعند الرجوع إلى هذه الرواية نجد أنها لا تحدد تاريخاً لرحلة عباس بن ناصح الثالثة إلى العراق. غير أننا نميل إلى رأي الدكتور مكي في أن الرحلة تمت في بداية عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط دون تحديد تاريخ معين لها، خاصة وأن الأمير تولى الإمارة في الأهم الأخيرة من سنة ٢٠٦ هـ (٢٧ من ذي الحجة)؛ فقد كان من الطبيعي أن يبادر الأمير بمجرد توليه إمارة قرطبة إلى توجيه عباس بن ناصح لجلب هذه الكتب إشباعاً لرغبته في النظر فيها والتعمق في دراسة العلوم القديمة المحببة إلى نفسه.

وما لا شك فيه أن عباس بن ناصح أناد أيضاً من وجوده بالعراق للمرة الثالثة للاستزادة من الثقافة العراقية لاسيما العلوم القديمة الهدف الأساسي لرحلته. واتسمت هذه الرحلة بأهمية كبيرة حيث تربت عليها أثار عميقة في تشكيل ثقافات الأندلس لاسيما في مجال العلوم القديمة. ولقد كانت الكتب التي جلبها عباس بن ناصح والتي دخلت الأندلس لأول مرة، موضع اهتمام أهل الأندلس حكاماً ووعياً، حيث نظر الأمير عبد الرحمن الأوسط بنفسه فيها، وعرف أهل الأندلس بها، إذ كان كما ذكرنا من قبل عالماً متبحراً في علوم الفلسفة^(١١٠)، ولقد وجهت هذه الكتب أنظار علماء الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد وحتى بداية عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٠ هـ) إلى دراسة العلوم القديمة، فاعتنوا بعلم الحساب والنجوم، وعلق القاضي صاعد الأندلسي على ذلك بقوله إنه في أواسط ق ٣ هـ، وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن «تجرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم، ولم يزلوا يظهرون ظهور غير شائع إلى قريب من وسط المائة الرابعة»^(١١١). ومن أشهر علماء الأندلس في علوم الحساب والنجوم في هذه الفترة والذين من المحتمل أنهم أفادوا من هذه المصنفات عباس بن فرناس^(١١٢)، وأبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي المعروف بصاحب القبلية (ت ٢٩٥ هـ)^(١١٣).

وكانت هذه الكتب التي أمر بجلبها عبد الرحمن الأوسط، هي ومثيلاتها الأحداث منها

والتي أمر الخليفة الحكم المستنصر - قبل وبعد توليه الخلافة (١١٤) - وراء نهافت أهل الأندلس على دراسة العلوم الطبيعية، فالقاضي صاعد يذكر أن الناس في زمانه - المستنصر - تحركوا إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذهبهم (١١٥). غير أن دراسة الفلسفة والعلوم القديمة لم تلبث أن تعرضت لمحنة شديدة في عصر الخليفة هشام المؤيد، عندما أمر حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر - وكان يريد أن يتقرب من الفقهاء والعمامة - بإخراج معظم كتب المنطق وعلوم النجوم من مكتبة القصر الخلافي بقرطبة، وحرقتها وأندسها فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وتسروا بما كان عندهم من تلك العلوم (١١٦) وفي أثناء احتدام الصراع الرهيب بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في عصر الفتنة اضطر الخليفة هشام المؤيد إلى إخراج ما في قصره من كتب وحلى لمينة وسائر المتاع وعرضها للبيع لتدبير الأموال لقتال البربر في عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م (١١٧)، فكان من بين الكتب التي بيعت بعض كتب العلوم القديمة التي كانت قد نجت من أيدي رجال المنصور، وأسهمت هذه الكتب هي وغيرها من الكتب التي كانت عند بعض أهل الأندلس في إنعاش دراسة علم الحساب والعدد والهندسة والفلك في عصر الطوائف (١١٨).

ومن المرجح أن كتاب السندهند الذي جلبه عباس بن ناصح من العراق كان من بين هذه الكتب، وأنه أصبح أساس دراسة علم العدد والهندسة والنجوم. فقد صنف علماء الأندلس كتباً في هذه العلوم على غرار السندهند، ومن أشهرهم مسلمة بن أحمد المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس، الذي اعتنى بزيج الخوارزمي - السندهند العربي - وصرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، ووضع أوساط الكواكب فيه على أول تاريخ الهجرة، وزاد فيه جداول حنة (١١٩)، ومن تلاميذ المجريطي الذين نهجوا نهجه أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح (ت ٤٢٦ هـ) الذي كان بارعاً في علم العدد والهندسة، متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وتنسب إليه فيها تأليف حنة منها زيجه الذي ألفه على غرار السندهند (١٢٠)، ومنهم أيضاً أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصغار، وكان متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم، وله زيغ مختصر على مذهب السندهند، وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكتف بالتأليف فحسب، بل جلس في قرطبة لتعليم الناس هذه العلوم (١٢١)، فأنمر ذلك عن تلاميذ نجباء منهم محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث، وأبو الإصبع عيسى بن أحمد الواسطي وغيرهما (١٢٢)، واستمرت هذه المدرسة الزاهرة في تلاميذ

ابن البرغوث ، فالف أحدهم وهو الحسن بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي القرطبي -
وكان بصيراً بالهندسة والنجوم - كتابها على مذهب المستهند (١٢٣).

وهكذا يتبين مما سبق أهمية رحلات عباس بن ناصح الثقافية إلى العراق، فقد كانت
هذه الرحلات من العوامل الهامة التي أثرت في تشكيل ثقافات الأندلس في عصر الدولة
الأموية في مجالي الأدب والعلوم القديمة، كما أنها كانت تجسيدا للتأثيرات الحضارية
المتبادلة بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

هوامش البحث

(١) سميت الجزيرة الخضراء Algeciras باسم جزيرة أم حكيم - نسبة إلى جارية طارق بن زياد التي كان حملها معه من المغرب عند عبوره إلى الأندلس وتركها بهذه الجزيرة حتى يستكمل فتح البلاد - وتقع هذه المدينة على مقربة من جبل طارق في أقصى جنوب الأندلس. ولقد هباً لها موقعها الجغرافي الممتاز أن تكون لممر الموانئ الأندلسية للجواز إلى العدو المغربية حيث تواجه مدينة سبتة على الساحل المغربي، ولهذا كانت من المدن الأندلسية الأولى التي فتحتها المسلمون واحتفظوا بها أول مسجد بني في الأندلس عرف بمسجد الرايات، كما اختط فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر داراً لصناعة السفن وأقن بناءها، وهي مدينة طيبة رفيعة بأهلها وفيرة الخير، كثيرة البساتين والأنهار العذبة مثل وادي العسل، وتعمت بانتعاش اقتصادي تمثل في كثرة أسواقها التي كانت مصدر من المسجد الجامع إلى شاطئ البحر. عن الجزيرة الخضراء راجع: العلوي (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس الدلاي)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترميغ الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة ١٩٦٥م، ص ١١٧-١٢٠ الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزعة المشتاق، طبعة لندن ١٨٩٤م، ص ١٦٦-١٦٧، ابن غالب (الحافظ محمد بن أبوب)، فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٥م، ج ١، ص ٢، ج ٢، ص ٢٩٤، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، م ٢، ص ١٣٦، ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، الحلة السمرية، تحقيق حسين مؤنس، ط ١، القاهرة ١٩٦٣، ج ٢، ص ١٢٩، ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي خليف، ط ٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م، ج ١، ص ٣٢٠، الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، صفة جزيرة الأندلس متخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، ط ٢، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨، ص ٧٣-٧٥، راجع أيضاً: كمال السيد أبو مصطفى، التاريخ السياسي للجزيرة الخضراء في عصر الدولة الأموية ودوليات الطوائف، مقال ضمن بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١١٧-١١٩.

Joaquin Vallvé (Bermejo), La división territorial de la España musulmana, Madrid 1986, pp. 325-327; Nuevas ideas sobre la conquista árabe de España, Madrid 1989, pp. 79-94.

(٢) الخشني (محمد بن حارث)، أعيان الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آيالا ولويس مولينا، مدريد ١٩٩٢م، رقم ٣٨٢، ص ٢٨٤، ابن القرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى)، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للنكائف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، ١، ١، رقم ٨٨١، ص ٢٩٦، يذكر السيوطي أن كنيته أبو المعري (السيوطي) (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن)، بنية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٧٦، وانظر أيضاً، أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٠٥. وتجدد الإشارة إلى أن النسابين اختلفوا في لقب، فمنهم من قال إنها من القيسية وإن لقباً هو قيس بن منبه بن بكر بن هوازن، ومنهم بالأندلس جماعة، وإليهم ينسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي أمير الأندلس في عصر الرواة (١٠٠-١٠٣هـ) [ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، نشره عبد السلام هارون، ط ٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢، ص ٤٦٨-٤٨٢]. بينما ذهب البعض بأنها من بقايا لعمود (المعري) (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشر وتحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م، ١، ص ٢٩٢.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٢٤.

(٤) يذكر المقدسي [أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دى غسويه، ليدن ١٩٠٦م، ص ٢٣٦ [أهل الأندلس كانوا وقتي يحسون العلم وأهله، ويكثرون التجارات والترب].

(٥) كانت الرحلة إلى البادية خاصة بادية الحجاز من أولى الوسائل وأهمها لدراسة علم البحر، فقد كان الدارسون يسعون إلى مناهل اللغة الصائبة، ويضربون في أعماق البادية ويدخلون الأهراب سعياً وراء الحرية الخالصة (عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، دار المعارف، مصر ١٩٦٨م، ص ٤٠٦، شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط ٣، دار المعارف، مصر ١٩٧٦م، ص ٥٨).

(٦) هو أبو سعيد عبد الملك بن الربيع بن عبد الملك بن علي بن أصمغ من أهل البصرة، أحد أئمة اللغة والغريب، وكان واحداً من أفراد الطبقة الرابعة من النحويين واللغويين البصريين، وكان يحرر في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية، كما كان من أولئك الناس في اللغة، وأعلم الناس في فقه، وكان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، كما كان من رواة الشعر الكلاسيكي يحفظ منه الكثير، وكان هو والشاعر خلف الأحمر أعلم الناس بالشعر القديم، استفدته الخليفة هارون الرشيد إلى بغداد، لما بلغه من علمه وفضله واتساع درايته للغة وروايته لأنساب العرب وأخبارها وأشعارها وأرجازها، وصار من كبار رجال حاشيته، ولقد صنف الأصمغى عدة مؤلفات منها: كتاب الألفاظ، وكتاب القلب

والإبدال، وكتاب نواحر الأعراب، وكتاب النبات، وكتاب النخلة، كما صنّف عدة كتب لغوية دينية منها كتابها قريب القرآن، وخلق الإنسان توفي ٢١٥ هـ (عن ترجمة الأصمعي وراجع: الأصمعي، الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٤، ص ١١ وما بعدها، الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٧٣، ص ١٦٧-١٧٤، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحق)، الفهرست، المكتبة التجارية، القاهرة ١٣٤٨ هـ، ص ٨٢-٨٣، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٥-٢٤٦، باقوت الحمصي، معجم الأدياء، نشر أحمد فريد رفاعي، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٣٨، ج ١١، ص ٦٧، السيوطي، بنية الرعاة، ص ٢٤٢، ٣١٣-٣١٤، أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف الغرناطي)، تذكرة النحاة، تحقيق عفيف عبد الرحمن، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦، ص ٣٠-٣١، ص ١٤٦-١٤٧، ١٤٨، أحمد كمال زكي، الأصمعي، سلسلة أعلام العرب، رقم ١٨، القاهرة ١٩٦٣ م، صفحات متفرقة، عبد الرحمن السيد، ملونة البصرة النحوية، ص ٤٢٠.

(٧) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٤، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٩٦، السيوطي، بنية الرعاة، ص ٢٧٦، أحمد مكي، نفس المرجع، ص ١٠٥.

Makki (M.A.), Ensayo Sobre las aportaciones Orientales en la España musulmana, Madrid 1968, p. 232.

(٨) المقرئ، نفح الطيب، م ١، ص ٢٢١.

(٩) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩٢، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٩٧.

(١٠) هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، كان من كبار علماء العربية بالبصرة، وكان أخص من صاحبه أبي حبيدة والأصمعي، وأغزر في اللغات منهما، وصنّف كتباً كثيرة في فقه اللغة، كذلك كان واحداً من أفراد الطبقة الرابعة من طبقات النحويين البصريين (عن ترجمته وراجع: الزبيدي، طبقات النحويين، ص ١٦٥، ابن النديم، الفهرست، ص ١٨١، السيوطي، بنية الرعاة، ص ٣٦٧، عبد الرحمن السيد، ملونة البصرة النحوية، ص ٤٢٠).

(١١) راجع: السيوطي، بنية الرعاة، ص ١٨٩، ٢٠٢، ٢٦٥.

(١٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٥٣، ابن الفرضي، نفس المصدر، ق ١، رقم ٧٧٨، ص ٢٥٧-٢٥٨، السيوطي، بنية الرعاة، ص ٣٠٣، شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص ٢٨٨.

(١٣) عن ترجمته راجع: الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٥٤-٢٥٥، السيوطي، بغية الرعاة، ص ٣٧١.

(١٤) مولى عبد الرحمن بن معاوية، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق، ودخل البصرة، واعتبره الزبيدي من أفراد الطبقة الأولى من نحاة الأندلس، وعند عودته إلى الأندلس أدب أولاد الأمير هشام بن عبد الرحمن (عن ترجمته انظر: الزبيدي، نفس المصدر، ص ٢٥٧، السيوطي، بغية الرعاة، ص ٢٦٥، المقرئ، نفع الطيب، م ٢، ص ٤٦). وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ البير حبيب مطلق (الحركة اللغوية في الأندلس، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، ص ١٩٦٧، ص ٧٧-٧٨) عندما تحدث عن النشاط اللغوي للعناصر غير العربية (الموالي والمولدتين) في الأندلس أغفل الإشارة عن جهود سوار بن طارق وحفيده محمد بن عبد الله بن سوار اللغوية. وكان محمد بن عبد الله بن سوار قد رحل إلى الشرق ولقى علماء النحو في البصرة وأدخل الأندلس علماً كثيراً (الزبيدي، نفسه، ص ٢٧٩، ابن الغرسي، نفسه، ق ٢، ص ٢٦، المقرئ، نفع الطيب، م ٢، ص ٤٦).

(١٥) كان الأصمعي كما رأينا أستاذاً لأوائل اللغويين والنحويين والأندلسيين، غير أن شهرته جاءت آفاق الأندلس عندما تلقب محمد بن سعيد بن مرس الزجالي كاتب الأمير عبد الأوسط بالأصمعي لقرط عانيته بالأدب وحفظ اللغة (أبو حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين)، المتعصب من أبناء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣، ص ٣٢، ٣٦، السيوطي، بغية الرعاة، ص ٤٤، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٣٣).

Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, pp. 262-263].

(١٦) هو أبو عبيدة معمر بن المنذر التميمي اللغوي البصري (١١٢-٢٠٩هـ) فارسي الأصل يهودي الآباء، يميّك بالولاء، مولى بنى تيم القرشيين رطب أبي بكر الصديق، كان من أجمع الناس للعلم، وأعلمهم بالأمم العرب وأخبارها وأنسابها، وكان كما قال الزبيدي «غليظ اللغة، إلا أنه قد اجتمع له علم الإسلام والجاهلية، وكان ديوان العرب في بيته»، ولقد تفوق على زميله الأصمعي وأبى زيد في علم الأنساب والأيام، وكان أبو نواس يتعلم منه ذلك، ويذكره فيه خاصة على الأصمعي (عن ترجمته راجع: الزبيدي، طبقات النحويين، ص ١٧٥-١٧٦، ابن النديم، الفهرست، ص ٧٩-٨٠، السيوطي، بغية الرعاة، ص ٣٩٥، أبو حيان الأندلسي، تذكرة النحاة، ص ١٤٦، السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨١، ص ٥٠).

(١٧) وتجدر الإشارة إلى أن الثلاثة قد تعلموا على يدي أبي عبيد القاسم بن سلام إمام أهل عصره في علم النحر (السيوطي، بغية الرعاة، ص ٣٧٦) وعن حلقات دراسة النحر في مسجد البصرة التي برز فيها الأصمعي وأبو عبيدة انظر: أحمد كمال زكي، الأصمعي، ص ٨٢-٩٣، عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية، ص ٤٠٧-٤٠٨، ٤٣٧.

(١٨) هو أبو الحسن علي بن حمزة، مولى بني أسد وسمى بالكسائي لأنه أحرم في كساء، تعلم النحو على يد كبار علماء البصرة مثل الخليل بن أحمد، وأخذ عن الأصمعي اللغة والإعراب، وكان أعلم الناس ضابطاً عالمًا بالعربية فصيح اللسان، استوطن بغداد وأدب ولد هارون الرشيد، وصنف كتباً كثيرة منها معاني القرآن، ومختصر في النحو، وكتاب العدد، وكتاب الهجاء، وكان أحد القراء السبعة المشهورين (عن الكسائي راجع: الزبيدي، طبقات النحويين، ص ١٢٧-١١٣٠، ابن النديم، الفهرست، ص ٩٧-٩٨، ياقوت، معجم الأدباء، ج ٢٠، ص ١١٣، السيوطي، بقية الرعاة، ص ٢٣٦، أبو جهمان الأندلسي، تذكرة النحاة، ص ١٢٧-١٣٠، ١٤٧-١٤٨، ١٥١، شرقى ضيف، المدارس النحوية، ص ١٧٢-١٩١).

(١٩) الزبيدي، نفس المصدر، ص ٢٥٦-٢٥٧، السيرطي، نفسه، ص ٢١٣-٢١٤، البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، ص ١٥٦ وجردي بن عثمان من أهل مورور، وكان طاهطلي الأصل، رحل إلى المشرق ولقى الكسائي والقراء والرهاشي، وسكن قرطبة بعد عودته من المشرق، وكان له حلقة، وأدب أولاد الأمراء بالنحو واللغة، كما تولى قضاء البيرة (عن ترجمته راجع: الزبيدي، نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧، ابن الأثير، التكملة لكتاب العلة، نشر عزت المطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٥م، ج ١، رقم ٦٥٩، ص ٢٤٩، ياقوت، معجم الأدباء، ج ٧، ص ٢١٣، السيوطي، نفسه، ص ٢١٣-٢١٤).

(٢٠) من طبقة اللغويين والنحويين البصريين والكوفيين المعاصرين للأصمعي راجع: البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، ص ١٥٧، عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية، ص ١٤٢٠، شرقى ضيف، المدارس النحوية، ص ٥٧-٩٣، ١٩٢-٢٢٣.

(٢١) الخشن، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٤، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٩٧.

(٢٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٢، ابن الفرضي، نفس المصدر، ق ١، ص ٢٩٧.

Makki, Ensayo sobre las aportaciones, p. 233.

(٢٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن مسلمة بن عامر بن هرمة القرشي، شاعر غزل من سكان المدينة، كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مدح الوليد بن يزيد في دمشق فأجازه، ثم وفد على الخليفة المنصور العباسي فأكرمه وعاش إلى آخر أيامه، وكان من المواليد للطلالبيين وله فيهم مدائح كثيرة، لما ثار محمد بن عبد الله (النفس المذمومة) على المنصور في عام ١٤٥ هـ، ابتعد عنهم خوفاً من بطش العباسيين، ولقد صنف أبو بكر محمد بن يحيى الصولي كتاباً في أخبار ابن هرمة، (عن ترجمته راجع: ابن المعتز (عبد الله)، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد خراج، ط ٢، دار

المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص ٢٠-٢١ ابن النديم، الفهرست، ص ٢٢٧، الأصفهاني (أبو الفرج)، الأغاني، طبعة بولاق، ج ٤، ص ١٠١، ج ٥، ص ٤٦، خبر الدين الزركلي، الأعلام، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٥٠، محمد مصطفى هدار، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٣٢، ٣٥٢-٣٥٣، ٥٧٧-٥٧٨.

(٢٤) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٠، الزركلي، نفس المرجع والجزء والصفحة، وتجدر الإشارة إلى أن أبا عبيدة البصري كان يرى نفس رأى الأصمى في الشعر الكلاسيكي، فكان يقول «انتج الشعر بأمر القيس وختم بأبن هرم»، (أحمد كمال زكي، الأصمى، ص ٢١٢).

(٢٥) الزهدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٢، ابن القرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٩٦.

(٢٦) أبو علي الحسن بن هاني الشهير بأبي نواس، ولد بالأهواز من أم أهوازية تسمى جليان، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان، وكان من موالى الجراح بن عبد الله الحكمي، نشأ بالبصرة، لم انقطع إلى والده بن الحباب الشاعر الماجن بالأهواز لاعتنى بتأديبه وهما له الاتصال بشعراء العصر والمجون، فلما مات والده لزم خلف الأحمر بالبصرة الذي كان أشعر أهل زمانه وأعلمهم فحمل عنه علماً كثيراً وأدباً واسعاً، فخرج الحسن في ذلك أواخر زمانه. ثم ارتحل أبو نواس إلى بغداد في بداية عهد هارون الرشيد ١٧٠هـ ليحظى لديها بما حظى به الشعراء ويطلب رد ملوكها. ولقد اختلف الرواة في مولد أبي نواس ووفاته، ولكنهم أجمعوا على أنه مات وهمه سبع وخمسون سنة. ولما كان أبو نواس قد رلى الأمين (ت ١٩٨هـ) لما يرجح أنه توفي عام ١٩٩هـ، ولما يكون مولده في عام ١٤١هـ (عن ترجمة أبي نواس راجع: أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب)، أخبار أبي نواس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٠٨-١٠٩، ١٢٤، ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٩٣-٢١٧، الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ومنغولات في ج ٦، ج ١١٦ ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٢٨ بالقول، معجم البلدان، ج ١٦، ص ١٧٤ ابن منظور، أخبار أبي نواس، ج ١، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٢٤م، ج ٢، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٢، عبد الرحمن صدقي، أبو نواس: قصة حياته وشعره، القاهرة ١٩٤٤م، صفحات متفرقة، أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦١، ص ١٠٤-١١٤ هدار، اتجاهات الشعر العربي، صفحات كثيرة متفرقة.

(٢٧) انتقل أبو نواس من البصرة إلى بغداد في بداية عهد الخليفة هارون الرشيد الذي تولى الحكم في عام ١٧٠هـ ومدحه بكثير من القصائد (راجع: أبو نواس، ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢١٨، ٣٠٤ وانظر هوامش ٢٦، ٢٨ من هذا البحث).

(٢٨) البرامكة؛ من أصل فارسي، ينسبون إلى أشراف بلخ، وينلقبون بالبرامكة من برمك، وهي ربة وراثة لرئيس كهنة معبد نوبهار بلخ، وكان خالد بن برمك أول من اتصل منهم بالعباسيين في مرحلة الدعوة لقيام دولتهم، وأسند إليه الدليفة السباح الخراج والديوان، ثم تولى فارس في عهد المهدي، وعند وفاته أسند المهدي إلى ابنه يحيى بن خالد تربية ابنه هارون، ثم ساند، للنظر بالخلافة، ولذلك أخذ نجمه يتألق في عهده، فأُسند إليه الوزارة ودخوله كثيراً من السلطات وأطلق يده في تصريف شئون الدولة بحيث أصبح الحاكم الفعلي للدولة، ثم اصطحب ابنه الفضل وجعفر، فولى الفضل غمرسان، وقرب جعفر إليه، فبال حظوة كبيرة عنده، فأُسند إليه ديوان الخاتم والمهر، والنظر في المظالم. وهكذا نال البرامكة من النفوذ والسطوة والجاه والمنزلة ما لم تحظ به أسرة أخرى في تاريخ الدولة العباسية. [الجهشباري (محمد بن عبدوس)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ١٩٣٨م، ص ٨٧-٨٩، ١٧٨، ٢٠٣-٢٤٠، الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٦م، ج ٧، ص ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٧، ج ٨، ص ١٤٧، ١٢٠٧، ابن طهطايا (محمد بن علي)، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٦، ص ١٥٦-١٥٧، ١٩٨، ١٢٠٥، ابن الساعي (علي بن أحمد)، تاريخ الخلفاء العباسيين، قدم له عبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٣٣-١٣٤، ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد)، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٨م، م ٦، ص ١٤٩، عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، بغداد ١٩٤٥، ص ١٥٦، ١٥٨-١٦٦، إبراهيم سلمان الكروي، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٨٣-١١٠، السعيد عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ١٣٥ وما بعدها].

وكانت قصورهم مناط الآمال، ومحط الرحال لطلاب المعالي والأقدار الرفيعة من ذوي الطموح والمهمة، كما كانت سوق العلم لديهم نافذة لبضاعة الأدب عدهم راتبة (عبد الرحمن صدقي، أبو نواس، ص ١٢٤). ولقد اتصل أبو نواس بهم عندما حل ببغداد ليملاّ يديه من جوائزهم التي غمرت شعراءهم وأبرزهم إبان بن عبد الحميد اللاحق، فمدحهم، ولقد أدرك يحيى بن خالد قسوته الشعرية فاختاره لينقل كتاب كلبلة ودمعة من النثر إلى الشعر، غير أن اللاحق احتال عليه ليقوم هو بالمهمة، وكان الفضل بن يحيى يعلم مقدرة الشعرية كما كان يكافأ على مديحه له، غير أنه لم يقره إليه ولم يماشره بحورته وخلاعه، وكان أبو نواس يهجو جعفر بن خالد لصداقته للاحق، وعندما نكسبهم الرشيد في عام ١٧٨هـ لاستشارتهم بالسلطة دونه، اتصل أبو نواس بالفضل بن الربيع فزبر الرشيد وانقطع له ومدحه. (أبو نواس، ديوان أبي نواس، ص ٩٦، ٣٩٠، ٤٣٠، أبو هفان، أخبار أبي نواس، ص ١١٨، عبد الرحمن صدقي، أبو نواس، ص ١٢٤، حذارة، اتجاهات الشعر العربي، ص ١٠٣، ٢٣٤، ٤٠٠، ٥٤٨، ٥٧٩).

(٢٩) محمد عبد الله الأمين ولد هارون الرشيد من زبيدة بنت جعفر، تولى الخلافة بعد وفاة والده عام ١٩٣هـ / ٨٠٨م، ورغم عناية الرشيد بتأديبه وتغلبه بالشجاعة، إلا أن طبيعة اللهو كانت الغالبة عليه، فانصرف عن تدبير شئون الدولة، وانقطع إلى معايشرة المُجَّان، ووجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق، واشترى الخصيان وصيرهم لخلوته، وكان يقضى أوقات لهو وفراغه معهم في المنادمة والشراب، فلا جرم أن هذه طبيعة العصر، أن يطلب الأمين أبا نواس أشهر خلطاء زمانه ليناديه، وأصبح أبو نواس شاعر بلاطه ونديمه، وكان لا يتورع في مدائح الرسمية للخليفة الشاب عن الإشارة إلى عاداته وشربه منه، وكان الأمين يناديه بخير النمامي (عن الأمين وعلاقته بأبي نواس (راجع: أبو نواس، ديوان أبي نواس، قصائد كثيرة، ص ٨٣، ٨٤، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٧٢، ٣٩٨، أبو حنبل، أخبار أبي نواس، ص ٢٣، ٧٠، ٧١، ٨٣-٨٥، ٨٨، ٨٩، ١٠١، ١٠٢، تاريخ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص ٤٣-٤٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القاسمين بأمر الأمة، القاهرة ١٣٥١هـ، ص ١١٩٧ عهد الرحمن صديقي، أبو نواس، ص ١٤٩-١٥٦).

(٣٠) عنوان هذه القصيدة كما جاء في ديوان أبي نواس «نمتع من الشباب» ومن أبياتها أهدأ:

وجدتُ ألدَّ عاربه الليالي	فيران النغم بالولع الفصيح
ومسمة، إذا ما شئت غنت	مضى كان الخيام بذي طلوح
نمتع من شباب لوس يمتنى	وصل يمرى الغبوق عرى الصبوح

(الديوان، ص ١٥٠-١٥١).

(٣١) عنوان هذه القصيدة - كما جاء في الديوان ص ٤٨٧ - «عمره حسن وطيب»، وفيها يقول:

وغنت الطير بعد عجمتها	واستوفت الخمر حولها كملا
واكتست الأرض من وخارقتها	وشى ليمات، نخاله حللا
فاشرب على جدّة الزمان، فقد	أصبح وجه الزمان مقتبلا

وجدير بالذكر أن ابن قتيبة اعتمد على هذه القصيدة في أن أبا نواس كان على معرفة بعلم النجوم وعلم الطبائع وتأثره بالثقافة الهندية التي أمدت الثقافة العربية بهذين العلمين (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٤هـ، ص ٧٧٢، هناية، انجماوات الشعر العربي، ص ١٠٤-١٠٥).

(٣٢) الخشن، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٤ الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٢ ابن الفرضي،

تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٩٦ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠م، ص ٢٤.

(٣٣) أبو نواس، مقدمة ديوان أبي نواس، ص ٥-٦، هدارة، نفس المرجع، ص ١٠٤-١٠٦ .

(٣٤) يقول ابن المعتز (طبقات الشعراء، ص ٢٠١) عن خصال أبي نواس المحمودة إنه كان عالماً فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومثابه.

(٣٥) ابن منظور، أخبار أبي نواس، ج ١، ص ١٥٣ أنيس المقدسي، أسراء الشعر العربي، ص ١١١، ولقد قال أبو نواس عن نفسه ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب منهن النساء وليلي فما ظنكم بالرجال (ابن المعتز، نفس المصدر، ص ١٩٤).

(٣٦) ابن المعتز، نفسه، ص ٢٠٤ .

(٣٧) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)، العقد الفريد، نشره أحمد أمين وآخرون، ط ٣، القاهرة ١٩٦٥، ج ٣، ص ٢٦٨-٢٦٩، أنيس المقدسي، نفسه، ص ١١٣ .

(٣٨) ابن المعتز، نفسه، ص ٢١٦ .

(٣٩) ابن المعتز، نفسه، ص ١٩٤-١٩٥ .

(٤٠) قال أبو نواس «لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة، وأكون في بيتان مؤتى، وعلى حال أرتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أحياناً لا أرضاها» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ج ١، ص ١٥٥، أنيس المقدسي، نفس المرجع، ص ١١٧-١١٨).

(٤١) أبو نواس، مقدمة ديوان أبي نواس، ص ١٥، أنيس المقدسي، نفسه، ص ١١٠، ١١٤-١١٩ .

(٤٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٢

Makki, Ensayo sobre las aportación Orientales, p. 232.

(٤٣) هو أبو الغيث عاصم بن زيد بن يحيى الإلبيري، اشتهر بغزارة القول وحسن المعاني فأصبح شاعر الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، غير أنه كان جوراً على الأعراض بقدح اعتاده وبذلف نسا لهم يهتك حرمهم، ومدح سليمان وهشام ابني عبد الرحمن الداخل، غير أنه انقطع إلى سليمان وأكثر من مدحه، وعرض بهشام في إحدى هذه القصائد - وكان بين الاثنين تنافس ومشاحنة في حياة والدهما - فقال:

وليسوا مثل من إن ميل عرفا بقلب مقله فيها أعـرر

وكان هشام أحرلاً، فاحتاط لذلك واستدعاه إلى مدينة ماردة التي كان والياً عليها، فرحل حاملاً معه طائفاً في جوارحه، فأمر هشام بقطع لسانه وسمل عيناه، فعولج من جراحه، فانجبر لسانه بعد وقت إلا قليلاً، ولكنه ظل كفيفاً، فعظم مصابه، فقال في الحمى شراً حسناً، ولما بلغ الأمير الداخل ما حدث عَنف ابنه هشام، وأعطى أباه الخشخشي النفس ديناراً، وضاعف له دية العيينين، وعندما تولى هشام الرضا الإمارة، اغتم لما حدث لأبيه الخشخشي بسببه وأعطاه الدية مضاعفة، وذكر ابن حبان أن أباه الخشخشي مات في دولة الحكم بن هشام في عام ١٨٠ هـ. ويقال أن الإمام مالك بن أنس حينما بلغ خبر أبي الخشخشي بالمدينة المنورة، عدل في بعض أحكامه، وأثنى بالتأني في دية اللسان لمدة سنة بدلاً من تأديتها على الفور مستنداً في ذلك بمعادلة أبي الخشخشي (عن ترجمته راجع: ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ انتشاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإيساري، دار الكتب الإسلامية، القاهرة - بيروت ١٩٨٢، ص ٥٦-٥٧، ابن سميعة المغرب، ج ٢، ص ١٢٣-١٢٤، ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٧، م ٤، ص ٢٣١-٢٣٥). وقد نشر الدكتور مكي ترجمة أبي الخشخشي كملحق من ملاحق رسائله للدكتوراه واستفاد منها. وذلك قبل أن ينشر الأستاذ عنان كتاب الإحاطة

Makki, op.cit., pp. 77-78.

انخل جنتال بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٥، ص ٥١-٥٢، إحسان عباس، نفس المصدر، ص ١٠٥-١٠٦، أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ١١٧-١١٨.

(٤٤) ابن القوطية، تاريخ انتشاح الأندلس، ص ١٥٧. ولقد احتفظ ابن الخطيب بكثير من أبيات هذه القصيدة واعتذر عن عدم ذكرها كلها لطولها (ابن الخطيب، الإحاطة، م ٤، ص ٢٢٣-٢٢٤).

(٤٥) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٣ ونحو الإشارة إلى أن ابن القوطية (نفس المصدر، ص ٥٧) لم يذكر بيت الشعر، إنما ذكر تعليق أبي نواس على القصيدة كلها.

(٤٦) هو بكر بن حميس الكنتاني، من أهل قرطبة، وكان من علماء اللغة العربية وبلغ الغاية في الفصاحة حتى ضرب النمل بفصاحته، فقبل أقصع من بكر الكنتاني، وكان من الشعراء المجهدين، وأدرك أيام الأمير الحكم بن هشام (عن ترجمته راجع: الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦١، ابن الأثير، التكملة، ص ٢١٦، السيوطي، بنية الرعاة، ص ١٢٠٣ انخل جنتال بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٨).

(٤٧) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٣، ابن الأثير، التكملة، ج ١، ص ٢١٦. وأبو الأحرار هو

جسونة بن الصمة الكلابي ، كان شاعراً وفارساً شجاعاً، يدعى فترة الأندلس، وشعره بدوى الطابع على مذهب الشعراء الكلاسيكيين، وجعله ابن حزم في طبقة جرير والفرزدق لكونه معاصراً لهما، وكان يهجو الصميل بن حاتم، فلما ظهر به الصميل به عفا عنه، فأصبح مدحاً له. وكان أبو الأجر من العرب الطارئين على الأندلس، ومات قبل قيام دولة بني أمية في الأندلس (عن ترجمته راجع: الحميدى (أبو عبد الله محمد بن نضر)، جذوة المقشيس في ذكر رجال الأندلس، القاهرة ١٩٦٦م، رقم ٣٦١، ص ١٨٩-١٩٠، ابن سيده، المغرب، ج ١، ص ١٣١-١٣٢، إحيان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص ١٠٥).

(٤٨) الزبيدي، نفس المصدر، ص ٢٦٣. وما لا شك فيه أن أبا نواس كان يتمتع بالذكاء والفراصة، فقد عرف عباس بن ناصح من شطرنج من شعره. ويذكر الزبيدي (نفسه، ص ٢٦٣) أنه عرفه من طريقته في إلقاء الشعر، فقد كان تأمله عندما كان ينشد لغيره، فوجد، لا يزال بما حدث في الشعر من استحسان أو استقبح، وعندما أنشد لنفسه ظهر عليه وجهه، فعرف أبو نواس أنه صاحب الشعر.

(٤٩) الخشنى، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٥.

(٥٠) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٩٥.

(٥١) الخشنى، نفس المصدر، ص ٢٨٥، ابن القرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ١٢٩٦.

Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 233.

(٥٢) ابن سحيد نقلاً عن الرازي، المغرب، ج ١، ص ٣٢٥.

(٥٣) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٨٦-٨٨.

(٥٤) كان اتجاه التعبير عن الذات قليل الظهور في الشعر القديم خلال القرنين ١٠هـ، أما في القرنين ١١هـ، فقد انتفت الشعراء إلى أنفسهم وينشئون في حياتهم عن مشاعرهم وأحاسيسهم، ولعله لأول مرة في هذا القرن نسمع شعراً يصور فيه صاحبه مأساة فقد بصره، وانطواءه في عالم الظلام الرهيب (محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص ١٧٤-١٧٥). ومن الشعراء المشاركة الذين نظموا هذا الشعر يصفون فيه مأساتهم أبو يعقوب الخرمي، وصالح بن عبد القدوس (عن تراجمهم راجع: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر)، الجوهان، نشر مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٣٨، ج ٣، ص ١١٣، ج ٧، ص ١٥١، الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١م، ص ٧١، هدارة، نفس المرجع، ص ١٧٥-١٧٦).

(٥٥) يتضح من الروايات أن أبا نواس كان رأى هذه المناسة ، وكان هناك بعض الشعراء على شاكلته ومن طيفته ومنهم الحسين بن الضحاک الخلیع وأبی هفان ويوسف بن الذابة وإسماعيل القراطیسی ، وعلى بن أبی مخطمة وغيرهم كثير (راجع: أبو هفان، أخبار أبی نواس، ص ٧٩، ٤٥، ١٠٨، ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٤٢، ابن النديم، الفهرست، ص ١١٢، ياقوت، معجم الأدباء، ج ١، ص ٥-١٦، ج ١٢، ص ١٥٤، هدارة، نفسه، ص ١٢٧، ١٣١، ٢٦١، ٤٨٥).

(07)

(٥٧) في أحيان كثيرة كان أبو نواس يمر بأزمات مالية عصبية، وكان يحتاج حاجة شديدة لدرجة أنه كان لا يجد ثمن الخمر التي كان يذمن شربها، كما كانت بعض الجوارى يبايننه بإفلاسه. (أبو هفان، أخبار أبو نواس، ص ١٩، ٢٥).

(٥٨) يذكر أبو هفان (أختبار أبي نواس، ص ٧٠-٧١، ٨٤-٨٥، ١٠٥-١٠٦)، أن الخليفة الأمين كان يقدى على أبي نواس بالعطاء، فقد أعطاه في إحدى المرات ألف درهم من كل بيت شعر مدحه به وهو بناديه، ومرة أخرى أعطاه خمسة آلاف دينار عندما أجاز له أحد الأبيات الشعرية ومرة لثالثه كافأه بفسطاط فيه ثوب لإحسانه في مدحه.

(٥٩) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٦٠) جاء في إحدى قصائد أبي نواس التي نظمها في السجن بعنوان «الحياة نعم وليس»

كثير العيش أننى محبوب
والشعرت من المدام الكلدس

وَحَمَتُ نُرْهَا كَرِيمِ الْغُلَّالِ ج وَحَالَاتٍ عَنْ طَعْمِهَا الْخَلَّالِ

ولمصرى لئن تماسك غربى ولهاتى عنها الهمام الرئيس

(الدبوان، ص ٢٦٢)

(٦١) من الفصاع بين الأسمن والأسمن، راجع: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٢٤٠، ٢٨٠.

٢٨٥، ٢٨٩ الجغنياري، الوزراء، والكتاب، ص ١٦٩، ١٧٠، ٢٢٢، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٩٢.

٣٠١-٣٠٢) ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، مس ٤٢-٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، م ٦، ص

٤٩، ٨٩، ٩١، ٩٢، السمرطى، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٧-١٢٠٤ عهد العزيز الدورى، العصر

المعاشي الأول، ص ٧٧، ١٩٠، ١٩٦، ابراهيم سلمان الكروبي، نظام الوزارة، ص ١٢٧-١٥٦.

(٦٢) كان عباس بن ناصح في مدينة وادي الحجازة بالشعر الأوسط في ١٩٤ هـ يتفقد أحوال أهلها (المن

عفاري (أبو العباس أحمد بن محمد)، البهتان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان

وليفي بروفنسال، ط ٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ج ٢، ص ٧٣. ابن الخطيب، الإحاطة، م ١، ص ٤٨١.

Lévi Provençal, Historia de España, ed. Ramón Menéndez Pidal, Madrid 1957, p. 119).

(٦٣) في هذا العام وقعت مجاعة شديدة بالأندلس، فسارع الأمير الحكم بن هشام برفع المعاناة عن رعيته وراسي أهل الحاجات، فمدحه عباس بن ناصح لجروء وكرمه فقال فيه:
نكد الزمان فأسئت أهامه من أن يكون بعصره عسر
طلع الزمان بأزمة فجلاله تلك الكربة جروء العسر
(المقري، نفع الطيب، م ١، ص ٢٤١، ويحدد ابن عذاري تاريخ هذه المجاعة بعام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م
(البيان، ج ٢، ص ٧٣) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط ٣، مكتبة الخالجي،
القاهرة ١٩٨٨، ج ١، ص ٢٤٢.

(٦٤) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٥.

(٦٥) ابن عذاري، البيان، ج ٢، ص ٧٣ المقري، نفع الطيب، م ١، ص ٢٤٣.

(٦٦) هو عبد الكريم بن عبد الواحد بن مفيث أحد كبار الموالى في عصر الدولة الأموية، ولاه الأمير هشام الرضا على كورة جيان، كما قلده قيادة جيوشه التي أرسلها إلى الية والقلاع وإلى إسترقة، وعلى يديه جرت فتوح كبيرة، وكان بليفاً وشاعراً مفوهاً، تولى الكتابة للحكم بن هشام، ثم صار حاجباً له، وعلى يديه استأمن أهل الرض بقرطبة في عام ٢٠٢ هـ، وظل في منصب الحاجب، على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته في عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م (عن ترجمته راجع، ابن حبان، المقتبس، مكي، ص ١٧٧ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦ ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٤٠ ابن عذاري، البيان، ج ٢، ص ٦٩، ١٧٥ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١ المقري، نفع الطيب، م ١، ص ٣٤٤-٣٤٦ حمدي عبد النعم محمد حسين، مجمع قرطبة في عصر الدولة الأموية، رسالة دكتوراة لوشت بأداب الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ١١٦
(Lévi Provençal, Historia, p. 113).

(٦٧) تقع كورة شذونة Sidona في الجنوب الغربي للأندلس على مقربة من الجزيرة الخضراء، وكانت تضم بعض المدن مثل قرمونة وشهش وقلشانة، أما قاعدتها فكانت مدينة شذونة التي عرفت في عصر الحميري بمدينة ابن السليم نسبة إلى بني السليم الذين ارتحلوا إليها عند غروب قلشانة، وشذونة حالياً مركز إداري تابع لمقاطعة قانس. وكانت شذونة من الكور المجددة التي نزلها جند فلسطين، وهي كورة جليلة القدر، جامعة لخيرات البحر والبر، كريمة البقعة تربتها خصبة، غزيرة المياه انقلت

أهل الأندلس عند وقوع تحط سنى برباط ١٣٠ هـ (عن شذونة واجع، الإدريسي، نزهة المشتال، ص ١٧٤، ١٢٠٦، باقرت، معجم البلدان، م ٢، ص ١٣٢٩، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٦١-٦٢، ج ٢، ص ٢٩٧، هـ ١٢، الحميرى، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٠-١٠١، ١٦٢-١٦٣،

Joaquín Vallvé, La división territorial, pp. 324-325).

(٦٨) الخشنى، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٢٨٥، الزيدى، طبقات النحويين، ص ٢٦٣، ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ل ١، ص ٢٩٧

Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 232.

(٦٩) السيرطى، بنه الوعاة، ص ٢٧٦

(٧٠) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٢٤ .

(٧١) كانت له رحلة إلى المشرق في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم، فسمع بالقيروان من سحنون بن سعيد، وبمصر من أصبغ بن الفرج، وانصرف إلى الأندلس فولى قضاء الجزيرة (ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ل ١، رقم ٨٤٣، ص ٢٨٤).

(٧٢) كان فقيهاً حافظاً للرأى والمائل على مذهب الإمام مالك، كما كان بصيراً باللغة والإعراب. وله رحلة إلى المشرق، فولى قضاء الجزيرة وكان شاعراً (الخشنى، أخبار الفقهاء والمحدثين، رقم ١٨٦، ص ١٦٦، ابن الفرضى، نفس المصنوع، ل ٢، رقم ١٢١٠، ص ٤٣).

(٧٣) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٣٢٤، المقرئ، نفع الطيب، م ٢، ص ٢٦١-٢٦٢، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسى، ص ٣٦.

(٧٤) أحمد هبكل، الأدب الأندلسى، ص ١٠٥ .

(٧٥) يحيى بن حكم البكرى الجيالى الملقب بالغزال لوسامته وطره، ولد سنة ١٥٦ هـ، ونشأ نشأة علمية أدبية، غير أن الشعر جلب عليه فاشتهر به، عمل سفيراً للأمير عبد الرحمن الأوسط الذى أوفده إلى سفارة إلى بيزنطة، ومدح الإمبراطورة ليوذكرا زوجة الإمبراطور البيزنطى ليوئيل، ولقد أذاع الغزال فى هجاء زرياب، فأنكر الأمير عبد الرحمن الأوسط ذلك، وأمر بنفيه لمرحل إلى العراق، فأعجب أهلها بشعره، ثم عاد إلى وطنه بعدما أفلح عن الشراب، ومال إلى الزهد حتى مات عن عمر يناهز التسعين عاماً لى عام ٢٥٥ هـ. (عن ترجمته واجع : ابن حيان، المقتبس، مكى، ص ١١-١٣، ١٤٣٣، الحميدى، جلدو المقتبس، رقم ٨٨٧، ص ٢٥١-٢٥٣، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٥٧، ابن

ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسين)، المطرب من أشراف أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الإياري وآخرون، القاهرة، من ١٢٢-١٥٥، المقرئ: نفع الطيب، ج ٢، من ٢٥٤-٢٦٢، أحمد هيكمل، الأدب الأندلسي، من ١٥٣-١٦٦، ليفي برونفيل، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، ط ٢، الإسكندرية ١٩٩٠، من ١٠٠ وما بعدها، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، من ١١١-١٢٧.

(٧٦) ابن سيد نفع عن ابن حيان، المغرب، ج ١، من ١٣٢٤، نفع الطيب، م ٢، من ٢٦١-٢٦٢.

(٧٧) أحمد هيكمل، الأدب الأندلسي، من ١١٠٦. Makki, op.cit., p. 233.

(٧٨) ابن سيد، المغرب، ج ١، من ٣٢٤-٣٢٥، المقرئ: نفع الطيب، م ٢، من ٢٦١-٢٦٢.

(٧٩) المقرئ: نفع الطيب، م ٢، من ٢٦٢، إحسان عباس، نفس المرجع، من ٣٧.

(٨٠) البيت الشعر الذي احتج به عباس بن ناصح هو:

يوماً يمان إذا لاقت ذا يمين وإن لقيت مظلماً بعدنا نسي

(الزبيدي، طبقات النحويين، من ٢٥٦-٢٥٧، بالوت، معجم الأدباء، ج ٧، من ١٢١٤، إحسان عباس، نفسه، من ١٣٧، البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، من ٥٢).

(٨١) ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، نشر منشور أنطوية، باريس ١٩٣٧، م ٣٦.

(٨٢) Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 233.

(٨٣) ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، من ٣٤، ٣٦، ابن عداري، البيان، ج ٢، من ١٥٣، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، نشر ليفي برونفيل، الرباط ١٩٣٤، م ٢، من ٢٩.

(٨٤) ابن حيان، نفس المصدر، من ٣٦.

(٨٥) هو أبو الحزم عفير بن مسعود بن عفير الفسائي، كان من أهل اللغة وأخبار العرب وأبائها، كما كان شاعراً محباً متصرفاً في أنواع الآداب ورواه للشعر، وكان من شعراء الأمير عبد الله بن محمد، ولد بمرو في عام ٢٢٠هـ، لم ينتقل إلى إسبانيا، وعند حدوث الفتنة بها خرج إلى قرطبة لقتل بها حتى وفاته عام ٣١٧هـ. عن ترجمته راجع: الزبيدي، طبقات النحويين، من ٢٧٥-٢٧٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق ١، رقم ١٠٠٨، من ٣٤٣، ابن حيان، نفسه، من ٣٦، ٤٩.

(٨٦) يذكر ابن حيان نقلاً عن الرازي (نفسه، من ٣٦) أن عفير بن مسعود اعتنى بشعر عباس بن ناصح غاية شديدة، وقصد الجزيرة الخضراء مسقط رأسه، فتقابل مع بعض أولاده فنقل شعره عنهم ولغقه.

(٨٧) الحشني، أخبار الفقهاء، ص ٢٨٥.

(٨٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٧-٦٨، محمود علي مكى، الخوارج في الأندلس، مجلة نظران، العدد الأول، المغرب ١٩٥٦، ص ١٧١، كمال أبو مصطفى، الجزيرة الخضراء، ص ١٢٧.

Makki, op.cit., p. 175; Fierro (M.I.), La Heterodoxia en Al-Andalus durante el periodo Omeya, Madrid 1987, pp. 39-41.

(٨٩) يعتبر الأمير عبد الرحمن الداخل أول من نشر بلد الحضارة الإسلامية في الأندلس، وقد تمثلت التقلبات الحضارية الشامية في الأندلس في عهد، في تمكين نظم الإدارة والحكم الأموية في الأندلس، وغرس الأساليب الفنية في البناء والزخرفة، ونقل الفروس والنوى الحضارة من الشام إلى سائر قصور ونياته (راجع: ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٣٦-٣٧، النوري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال (مكي)، القاهرة ١٩٨٠، ج ٢٣، ص ٣٥٠-٣٥١، ابن عذاري، البيان، ج ٢، ص ٥٨، ٦٠، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص ١٩٨، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٤م، ج ١، ص ٤٩-٥٤.

Lévi Provençal, Historia, pp. 85-90; Suárez Fernández (Luis), Alvaros Palenzuela (vicente), La España musulmana y los inicios de los Reinos Cristianos (711-1157), Madrid 1991, p. 25.

(٩٠) تمثل ذلك في خلية المذهب المالكي في الأندلس، بعد ما كان أهل الأندلس يتبعون مذهب الإمام الأوزاعي الشامي (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م)، راجع التفاصيل في: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٥٦، ابن سحاك العاملي (أبو القاسم محمد بن أبي العلاء)، الزهرات المشورة في لكت الأخبار المأثورة، تحقيق محمود علي مكى، مدريد ١٩٨٤م، ص ١٢٩-١٣٠، المقرئ، نفع الطيب، ج ٢، ص ٧-١٠، عبد الحميد البهادي، الجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٩، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٥٤-٥٥.

Lévi Provençal, Historia, pp. 96-98; Makki, op.cit., pp. 90-94.

(٩١) عن العداء بين المباسيين والأمويين في الأندلس على عهد عبد الرحمن الداخل راجع: ابن القوطية، نفس المصدر، ص ٥٤-٥٥، ابن عذاري، البيان، ج ٢، ص ٥١-٥٣، النوري، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٣٤١-٣٤٢، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر وديوان المتأخر والخير،

بيروت ١٩٨٣ ، م ٤ ، ص ٢٦٤-٢٦٦ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق ٢ ، ص ٨-١٩ سالم،
تاريخ المسلمين، ص ١٩٨ ، ٢٠١-٢٠٢ ، المبادئ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٢-١٠٩

Lévi Provençal, Historia, pp. 72-73; Suarez, op.cit., pp. 25-26.

(٩٢) السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات العراقية في البناء الحضاري الأندلسي في عصر الدولة الأموية،
بغداد ١٩٧٤ ، ص ٣٩٩-٤٠٠ ،
Lévi Provençal, Historia, pp. 163-164.

(٩٣) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٩٤) بلغ العهد بين العباسيين والأمويين على عهد عبد الرحمن الأوسط حداً كبيراً ، فقد سعى
الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى إقامة علاقات ودية مع أمير الأندلس من أجل تكوين حلف بيننظلي
أندلسي يستهدف ضرب مصالح العباسيين في غرب البحر المتوسط (المقرى، نفع الطيب، م ١ ، ص
٣٤٦-٣٤٧ ؛ ليفي پروينسال ، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢-١١٨ ؛ السيد عبد العزيز
سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١ ، ص ٦٥-٦٦ . ورداً على ذلك فقد كان الخليفة المعتصم
العباسي يزعم في القيام بغزو الأندلس من أفرنجية، غير أن وفاته حالت دون تنفيذ هذا المشروع .
(السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٣-٢٢٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات المشرقية،
ص ٢٩٦-٣٩٧ ، Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 171).

(٩٥) عن جهود الأمير عبد الرحمن الأوسط في هذا الصدد، وتلاق التأثيرات العراقية على الأندلس في
عهد هبة راجع، ابن الأثير، الحلة السيرة، ج ١ ، ص ١١٣-١١٤ ؛ ابن سعيد، المغرب، ج ١ ، ص ٤٥-
٤٦ ؛ ابن هذاري، البيان، ج ٢ ، ص ٩١ التويري، نفسه، ج ٢٣ ، ص ٢٨٦-٢٨٧ المقرى، نفع
الطبيب، م ٢ ، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين، مجتمع قرطبة، ص ٤٥٤ ، ٤٦٣ ؛
Lévi Provençal, Historia, pp. 169-174; Makki, op.cit., pp. 179-182; Suarez, op.cit.,
pp. 46-47.

(٩٦) Lévi Provençal, Historia, p. 170; Makki, op.cit., p. 179.

(٩٧) ابن حبان، المقتبس، ط مكى، ص ١٢٣ ؛ ابن عشاري، البيان، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٩٨) التويري، نهاية الأرب، ج ٢٣ ، ص ١٣٧٥ ؛ ابن خلدون، المعبر، ص ٢٧٤ المقرى، نفع الطيب،
م ١ ، ص ٣٤٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وتأثيرهم في الأندلس، ص ٢٢٨ .

(٩٩) ابن سعيد، المغرب، ج ١ ، ص ٤٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات العراقية، ص ٤٠١ ؛ خالد
الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس في عصر الإمارة، ط ٢ ، منشورات جامعة قاربولس، كلية الآداب،
١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(١٠٠) ابن حيان، تحقيق مكى، ص ٢٣ .

(١٠١) يذكر العلامة ليفي پروفنسال أن معظم هؤلاء التجار كانوا يهوداً من أربونة.

Lévi Provençal, Historia, p. 174.

(١٠٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، ق ١، ص ٢٨١ .

(١٠٣) الزهيدى، طبقات النحويين، ص ٢٦٨ .

(١٠٤) كان الهنود يتميزون بمصفاة القرائح وسلامة التمييز، ولذلك تقدموا لى جميع المعارف، واشتهروا بالحكمة لقرط حياتهم بالعلوم خاصة علم العدد والأحكام بصناعة الهندسة، كما نالوا حظاً وافراً فى معرفة حركات النجوم وأسرار الفلك وسائر العلوم الرياضية (صاعد الأندلسى (أبو القاسم صاعد بن أحمد)، طبقات الأمم، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٣-١٤). وصنفوا فى علم النجوم ثلاثة مذاهب مشهورة هى السندهند، والأزجهر، والأركند، وتفسير السندهند بالهندية الدهر الدهر . (صاعد، طبقات الأمم، ص ١٦) ويرجع الفضل إلى الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى الاهتمام بالعلوم القديمة خاصة علم المنطق وعلم صناعة النجوم فقد كان كلّفها بها وأهلها (صاعد ، نفس المصدر، ص ٦٤) وفى عام ١٥٦ هـ وفد على أبى جعفر المنصور عالم هندى بارع فى النجوم ومعه كتاب السندهند، فأمر المنصور بترجمته إلى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتاباً يتخله العرب أساساً لدراسة حركة الكواكب، لقام محمد بن إبراهيم الفزارى بتأليف زيج يسمى بالسندهند الكبير، وظل العمل به حتى عصر المأمون فقام أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى باختصاره ، وصنّف منه زيجه الأول والثانى المشهوران ببلاد الإسلام وهران بالسندهند (ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٨٣ صاعد، نفسه، ص ٦٧) فاستحسنه أصحاب السند هند، وطاروا به كل مطهر، وهو السندهند الذى جلبه عباس بن ناصح إلى الأندلس. (صاعد، نفسه، ص ٦٨) وعده سلسلة المجهضى .

(١٠٥) ابن سعيد، نقلاً عن ابن حيان، ج ١ المغرب، ج ١، ص ١٤٥ عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، ج ١، ق ١، ص ٢٨١-٢٨٢ السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات العراقية، ص ١٤٠٤

Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 233.

(١٠٦) الزهيدى، طبقات النحويين، ص ٢٦٨ أحمد مختار العبادى، لى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٦٤

Lévi Provençal, Historia, p. 174; Terés (Elias), Abbas Ibn Firnas, R. Al-Andalus, Vol. XXV, Madrid, 1960, pp. 240-241.

- (١٠٧) هناك نقلا عن الجزء المفقود من المتن لابن حيان، نفس المرجع، ج ١، ق ٢، ص ١٥٢ .
- (١٠٨) يذكر الزبيدي (طبقات النعمانيين، ص ٢٦٩) أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كانا عباس بن فرناس عندما عاد من المشرق بكتاب الفرس بظلمات ديار وكسوة . . . Terds (E.), op.cit., p.241.
- (١٠٩) Makki, Ensayo sobre las aportaciones Orientales, p. 233.
- (١١٠) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٤٥، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١١٦١.
- (١١١) مساعد، طبقات الأمم، ص ٨٦ .
- (١١٢) كان عباس بن فرناس بارعا في علوم الرياضة والفلك والكيمياء، كما كان شاعرا وكاتباً بليغا ومنجما محققا جيد الاختراع، ولقد حاول الطبراني غير أن يحاربه فشلت، ولقد صنع في ربه قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وأنلاك واستطاع أن يحدث فيها ظواهر الرعد والبرق بطريقة آنية، ولعل كل هذا كان تطبيقا عمليا لما استرجعه واستفاده من كتاب السند هند (عن ترجمة عباس بن فرناس راجع: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٧، الزبيدي، طبقات النعمانيين، ص ٢٩١-٢٩٢، ابن حيان، المتنبي، نشر أنطوليه، ص ١٤٤، نشر مكى، ص ١٢٤، ٢٧٩-١٢٨٧، الحميدى، جذوة المتنبي، رقم ٧٢١، ص ٣١٨، ابن سعيد، المغرب، ج ٦، ص ٢٣١-٢٣٢، ابن مساك العاملي، الزهرات المنيرة، ص ١٣٢، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق ٢، ص ١١٤).
- Teres (E.), Abbas Ibn Firnas, pp. 239-249.
- (١١٣) كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وحرف بصاحب القبة لأنه كان يسرب كثيرا في صلاته، وكان كذلك صاحب لغة وحديث وله رحلة إلى المشرق (مساعد، نفس المصدر، ص ٨٦-٨٧).
- (١١٤) يذكر القاضي مساعد (نفس المصدر، ص ٨٨) أن الأمير الحكم ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان معتقيا بالعلوم ويؤثر أهلها واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التأليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من بعده ما كان يضاها ما جمعت ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة.
- (١١٥) مساعد، نفسه، ص ٨٨ .
- (١١٦) مساعد، نفسه، ص ٩٨، آتخل جنالك بالشاء تاريخ الفكر الأندلس، ص ٤٥٠ .
- (١١٧) من تفاصيل هذه الأحداث راجع: إبراهيم عبد النعم سلامة أبو العلاء الأندلس بين سقوط الدولة العباسية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير غير منشورة توفقت بأداب الإسكندرية ١٩٩٣.
- Scales (P.), The Fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994.

(١١٨) صاعد، طبقات الأمم، ص ٨٩-١٩٠ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ل ٢، ص ١٣٧، نبراهيم عبد
المنعم سلامة أبو العلا، نفس المرجع، ص ٢٥٧، ٤٤٩ .

(١١٩) صاعد، نفس المصنوع، ص ١٩٢، أنخل جثالث بالثيا، نفس المرجع، ص ٤٤٨ .

(١٢٠) وكان له مؤلفات أخرى منها: الدخول إلى الهندسة، وطبيعة العدد، وكتابين في الأسطرلاب .
(صاعد، نفسه، ص ١٩٣ بالثيا، نفسه، ص ٤٤٩) .

(١٢١) صاعد، نفسه، ص ٩٣ .

(١٢٢) صاعد، نفسه، ص ٩٥-٩٦ .

(١٢٣) صاعد، نفسه، ص ٩٨ . وعن ترجمته راجع: ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ،
الصلة، الدار المصرية للكتاب والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ م، رقم ٣٢٢، ص ١٤٠-١٤١ .

مصادر ومراجع البحث

(أ) المصادر العربية:

- ١ - ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، التكملة لكتيب الصلة، نشر حوت المطار، مكتبة الخالجي بمصر والنشر ببنقاد ١٩٥٦ .
- ٢ - _____، الحلة البراء، تحقيق د. حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٣ - ابن بشكوال (أبو القاسم علف بن عبد الملك) ت ٥٧٨هـ / ١١٨٣م، الصلة في تاريخ الحة الأندلس وعلمائهم ومطليهم وفننائهم وأدبائهم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.
- (٤) ابن نثرى بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف الأنايكي)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٢٣ .
- (٥) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد) ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨ .
- (٦) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ت ٢٥٥هـ / ٩٢٢م، الحيوان، نشر مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٣٨ .
- (٧) الجيهشباري (محمد بن عبدوس)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٨ .
- (٨) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م، جمهرة أنساب العرب، نشره الأستاذ عبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ .
- (٩) _____، نطق المروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق د. شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م ١٣، ١٩٥٢ .
- (١٠) الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، جلوة الفتن في ذكر رجال الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.
- (١١) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٠٥هـ أو ٧٠٩هـ / ١٣٠٦م، ١٣٠٩م، صفة جزيرة الأندلس متخبة من كتاب الروض المطار في غير الأقطار، نشر الأستاذ ليلى برونسال، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

(١٢) ابن حبان (أبو مروان حبان بن خلف بن حسن) ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م؛ القتيبي في تاريخ رجال الأندلس، نشره منشور أنطوية، باريس ١٩٣٧ .

(١٣) ————— القتيبي، من أنباء أهل الأندلس، تحقيق د. محمود علي مكى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣ .

(١٤) أبو حبان الأندلسي (محمد بن يوسف الغرناطي) ٦٥٤-٧٧٥هـ، تذكيرة النحاة، تحقيق عفيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.

(١٥) البشتي (أبو عبد الله محمد بن حارث) ت ٣٦١هـ / ٩٧٢م، أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق ماريا ليزا آيلا ولويس مولينا، مدريد ١٩٩٢ .

(١٦) ابن الخطيب (إسحاق الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد) ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م؛ أعمال الأعلام لـيحيى بن يعقوب لعل الاحتلام من ملوك الإسلام، ٢، تحقيق ليفي بروفسال، الرباط ١٩٣٤ .

(١٧) —————، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عثمان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٣-١٩٧٥ .

(١٨) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م؛ الغبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المنيرة، بيروت ١٩٨٣م.

(١٩) ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن) ت ٦٣٣هـ / ١١٣٥م؛ المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، القاهرة ١٩٥٤م.

(٢٠) الإبريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك) ت ٥٤٨هـ / ١١٥٥م؛ حلة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ عن كتاب «نزهة المشتال في اعتراق الأقاليم»، نشر درزي ودي نخبة، لندن ١٨٩٤م.

(٢١) الرصدي (أبو بكر محمد بن حسن) ت ٣٧٩هـ / ٩٩٠م؛ طبقات النحويين والنفرين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤م.

(٢٢) ابن الساعي (علي بن أنجب) ٥٩٣-٦٧٤هـ؛ تاريخ الخلفاء العباسيين، قدم له د. عبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة ١٩٩٣م.

(٢٣) ابن سعد (أبو الحسن علي بن موسى بن محمد) ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م؛ المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨ .

(٢٤) ابن سحاك العاملى (أبو القاسم محمد بن أبى العلاء)، النصف الثانى من ق ٨هـ / ق ١٠م،
الزهرات المنشورة فى نكت الأخبار المأثورة، تحقيق د. محمود على بكى، مدريد ١٩٨٤م.

(٢٥) السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن)، بنية الوعاء فى طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة،
بيروت، بدون تاريخ.

(٢٦) _____، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائلين بأمر الأمة، القاهرة ١٣٥١هـ.

(٢٧) صاعد الأندلسى (أبو القاسم صاعد بن أحمد) ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٢م، طبقات الأم، القاهرة،
بدون تاريخ.

(٢٨) الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك بن قريب)، ت ٢١٥هـ / ٨٣٠م، الأصمعيات، تحقيق أحمد
محمد شاكر وزميله، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر ١٩٦٤.

(٢٩) الصفدى (صلاح الدين خليل بن أليك)، نكت الهخيان فى نكت النعمان، نشر أحمد زكى،
القاهرة ١٩١١م.

(٣٠) الأصمعيانى (أبو فرج على بن الحسين)، كتاب الأغاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ.

(٣١) ابن طباطبا (محمد بن علي): الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٩م.

(٣٢) الطبرى (محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٦.

(٣٣) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)، العقد الفريد، نشر أحمد أمين وآخرون، ط ٣، القاهرة ١٩٦٥م.

(٣٤) ابن عسارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد)، كان حيا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م، البيان
المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليلى برونسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.

(٣٥) العلى (أحمد بن عمر بن أنس) ت ٤٧٨هـ / ٩٨٨م، ترميغ الأخبار وتنويع الآثار والبستان لى
غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك، تحقيق د. عبد العزيز الأهلوانى، مدريد ١٩٦٥م.

(٣٦) ابن غالب (محمد بن أيوب)، فرحة الأنفس، نشر د. لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات
العربية، ج ٢، القاهرة ١٩٥٥.

(٣٧) ابن القزوينى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف) ت ٤٠٣هـ / ١٠١٣م، تاريخ علماء
الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

(٣٨) ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر) ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإيباري، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، بيروت ١٩٨٢.

(٣٩) ابن المعتز (عبد الله) ت ٢٩٦هـ / ٩١١م، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٨.

(٤٠) المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دى غره، لندن ١٩٠٦.

(٤١) المقرئ (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد)، ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م، نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

(٤٢) ابن منظور المصري، أخبار أبي نواس، ج ١، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٢٤م، ج ٢، مطبعة المعارف، العراق، ١٩٥٢م.

(٤٣) ابن التميم (أبو الفرج محمد بن إسحاق)، ت ٣٨٥هـ / ٩٩٦م، الفهرست، المكتبة التجارية، القاهرة ١٣٤٨هـ.

(٤٤) أبو نواس (الحسن بن هاني)، ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(٤٥) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٣، تحقيق أحمد كمال زكي، القاهرة، ١٩٨٠.

(٤٦) أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب)، أخبار أبي نواس، تحقيق د. عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٣.

(٤٧) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله)، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، معجم البلدان، نشر د. أحمد زهد رقاعي، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٣٨.

(٤٨) _____، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(ب) المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة:

- ١ - بالنسبة (الأستاذ أفضل جتالت)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥ م.
- ٢ - حسين (دكتور حسدى عبد النعم محمد)، مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية، رسالة دكتوراه غير منشورة، توفقت بآداب الإسكندرية ١٩٨٤ م.
- ٣ - نهر الدين الزركلى، الأعلام، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ.
- ٤ - الدورى (دكتور عبد العزيز)، العصر العباسي الأول، بغداد ١٩٤٥ .
- ٥ - زكى (دكتور أحمد كمال)، الأصمعي، سلسلة أعلام العرب، رقم ١٨، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٦ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز)، تاريخ المسلمين وأقاربهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣ م.
- ٧ - _____، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٤ .
- ٨ - _____، التأثيرات العراقية في البناء الحضارى الأندلسي، بحث منشور في كتاب أبحاث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد ١٩٧٤ م.
- ٩ - _____، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٠ م.
- ١٠ - _____، العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥ م.
- ١١ - السيد (دكتور عبد الرحمن)، مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها، دار المعارف، مصر ١٩٦٨ م.
- ١٢ - صدى (عبد الرحمن)، أبو نواس: قصة حياته وشعره، القاهرة ١٩٤٤ .
- ١٣ - الصوفى (دكتور خالد)، تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة)، ط٢، منشورات جامعة قازوينس، كلية الآداب، ليبيا ١٩٨٠ .
- ١٤ - ضيف (دكتور شوقي)، المنابر النحوية، ط٣، دار المعارف، مصر ١٩٧٦ م.
- ١٥ - العبادى (دكتور أحمد مختار)، في تاريخ المغرب والأندلس، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- ١٦ - العبادى (الأستاذ عبد الحميد)، الجمل في تاريخ الأندلس، المكتبة التاريخية، العدد الأول، القاهرة ١٩٥٨ م.

١٧ - عباس (دكتور إحسان) ، تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سبادة قرطبة ، ط ١ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ م .

١٨ - حنان (الأستاذ محمد عبد الله) ، دولة الإسلام في الأندلس ، ط ٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٨ م .

١٩ - أبو العلا (دكتور إبراهيم عبد النعم سلامة) ، الأندلس بين سقوط الدولة العباسية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بأداب الإسكندرية ١٩٩٣ م .

٢٠ - الكروى (دكتور إبراهيم سلمان) ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٨ م .

٢١ - أبو مصطفى (دكتور كمال السيد) ، التاريخ السياسي للجزيرة الخضراء في عصر الدولة الأموية ودلالات الطوائف ، مقال ضمن «بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي» ، الإسكندرية ١٩٩٣ م .

٢٢ - مطلق (أبى حبيب) ، الحركة اللغوية في الأندلس ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧ م .

٢٣ - المقطبي (أنيس) ، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦١ م .

٢٤ - منارة (دكتور محمد مصطفى) ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٢٥ - هيكل (دكتور أحمد عبد المقصود) ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ١٠ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٦ م .

(ج) المراجع الأوروبية الحديثة:

1. Fierro (María Isable), La Heterodoxia en Al-Andalus durante el periodo Omeya, Madrid 1987.
2. Guichard (Pierre), La España Musulmana, Al - Andalus Omeya, Madrid, 1995.
3. Lévi - Provençal, Historia de España Musulmana, ed, Romón Menéndez Pidal, Madrid 1957.
4. Makki (Mahmud Ali), Ensayo Sobre Las aportaciones Orientales en la España musulmana, Madrid 1968.
5. Joaquín Vallvé (Bernaldo), La división territorial de la España musulmana, Madrid 1986.
6. _____, Nuevas ideas sobre la conquista árabe de España, Madrid, 1989.
7. Scales (Peter), The fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994.
8. Suárez Fernández (Luis), Alvarez Palenzuela (vicente), La España musulmana y los inicios de los Reinos Cristianos (711-1157), Madrid 1991.
9. Terés (Eliás), Abbas Ibn Firnas, R. Al-Andalus, Vol. XXV, Madrid 1960.

المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

محمود سعيد عمران

المراكز المطارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى

ينصب هذا البحث على دراسة بعض المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى، ونخص بهذه المراكز مدينة الإسكندرية، وغزة، وقيسارية، وبيروت، وأنطاكية، لتعرف عليها وعلى بعض علمائها وأنواع الحضارة فيها، وإلى أى مدى أثر وتأثر بعضها ببعض في تلك المرحلة الموعلة في القدم، والتي كان لها أكبر الأثر على المنطقة بأثرها حتى يومنا هذا. وإذا بدأنا بمدينة الإسكندرية نقول إن المدينة بلغت في العصر قبل المسيحي درجة عالية من النهضة العلمية حتى أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة، وكانت أروقتها تزخر بالوادين إليها من العلماء والطلاب من الأنحاء كلها حاملين معهم ثقافتهم. وعاش في المدينة أهلها الوطنيون بدياتهم واليونان بفلسفاتهم، والرومان بقوانينهم، فضلاً عن الطائفة اليهودية وبعض الأجناس الأخرى، وكان لهؤلاء كلهم آلهتهم وعاداتهم وثقافتهم المختلفة.

وقد تقابل هؤلاء كلهم وتناقشوا واتفقوا مرة واختلفوا مرات، وعلى الرغم من هذا فقد نتج عن هذا نوع من الحوار الفكري أفرز مذاهب فكرية جديدة لمحاولة التوفيق بين هذه المعتقدات كلها، التي عرف أهمها باسم الحركة التوفيقية Syncretism، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فكرة الإله الواحد، وفي معتزك هذه الأحداث ظهرت المسيحية في مصر على يد القديس مرقس، وعلى يديه أيضاً أنشئت المدرسة المسيحية اللاهوتية في الإسكندرية^(١).

وكان على المسيحية أن تقاوم في اتجاهين؛ الأول هو اضطهاد الحكام الوثنيين، والثاني هو الأديان المضادة وللسفاتها، وبذلك بدأ الصراع الفكري بين المسيحية والوثنية؛ وحتى تنتصر كل جماعة على الأخرى درس كل فريق مؤلفات الجانب الآخر، وكان واقع الحال أن الصراع بين الدين والعقل لم يسلم

(١) Attwater, Dictionary of Saints, Penguin, 1975, pp. 231 - 2 - 1.

بالمعجزات، ونتج عن ذلك الفلسفة الغنوسية Gnosticism، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonism^(١).

والغنوسية هي المعرفة، وبذلك ميز أصحاب هذه الفلسفة أنفسهم عن أصحاب الديانات، ووضعوها من قدر الدين ورفعوا من شأن المعرفة لأنهم وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين واعتقد أصحاب هذا المذهب أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، هي الروح والجسد والنفس، وتسموا الناس وفق العنصر الغالب فيهم إلى ثلاثة طبقات.

الأولى الروحانيون الذين يسيطر عليهم العنصر الإلهي ويرتفعون فوق المادة، والثانية الجسديون، وهم العامة الذين يتعاملون بالمادة، والثالثة النفسانيون، وهي طائفة متوسطة بين الروح والجسد، وقد انتشرت هذه الفلسفة في مصر ومنها إلى الأقاليم المجاورة خاصة بلاد الفرس^(٢).

أما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فقد ولدت في الإسكندرية على يد أمونيوس سقاس Ammonius Saccas، وهو سكندري لوالدين مسيحيين، وقد تولد لديه هذا المذهب الذي كان مزيجاً من فلسفات أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle، وواقع الحال أن هذه الفلسفة قد أخذت اتجاهًا مختلفًا عن الفلسفات السابقة لأنها قامت على نظم دينية، وتولى أمونيوس حوالي عام ٢٣٤م دون أن يترك كتاباً عن فلسفته، ولكن الباحثين تلقوها من تلميذه أفلوطين Plotinus، وبورفيرى Porphyry خليفته، وأروجين Origen، كما أثرت هذه الفلسفة على القديس أوغسطين St. Augustine^(٣).

تقدمت المسيحية واعترف بها الإمبراطور قسطنطين Constantine

Mullett and Scott. Byzantium and the Classical Tradition, Univ. of^(١) Birmingham, 1979, pp. 11, 15 - 6.

Hussey, J.M (ed.) Cambridge Medieval History, Cambridge, 1987, Vol. IV,^(٢) Part 11, pp. 201, 348.

Saint Augustine, Confessions, Penguin, 1961, pp. 144 ff

(٣)

(٣٠٥ - ٣٣٧) دينًا داخل الدولة بموجب مرسوم ميلان عام ٣١٣م إلا أن الوثنية ظلت محتظة بنفوذها التتالي، وأخيرًا اعترف الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) بالمسيحية دينًا رسميًا للدولة، فضعف نفوذ الفلاسفة الوثنيين وفكرهم.

وبدأت مدرسة الإسكندرية المسيحية، ووضعت أسسًا منهجية لتعليم الوثنيين وغيرهم الذين دخلوا في الديانة المسيحية، وأصبح عل المفكرين المسيحيين إعداد أجيال متفهمة للدين المسيحي، والرد على كل ما يوجه إلى المسيحية من نقد أو تحريف، والتبشير بها، وهكذا نمت مدرسة الإسكندرية حتى أطلق عليها المؤرخ الكنسي يوسابيوس "أكاديمية الإسكندرية"^(١).

ومن الذين تولوا إدارة مدرسة الإسكندرية العالم المسيحي بانتانوس Pantænus الذي وصفه المؤرخ يوسابيوس بأنه كان أعظم علماء عصره، وكانت له في نهاية القرن الثاني الميلادي سمعة كبيرة في الأرجاء كافة، وكان يدرس معه نخبة ممتازة من علماء عصره، وللعالم بانتانوس باع كبير في تهذيب اللغة القبطية، وله شروح على الإنجيل وتفسير كثيرة في اللاهوت وقد سافر إلى الهند حوالي عام ١٩٠م بناء على رغبة بعض الهنود الذين حضروا إلى الإسكندرية ليتعلموا على يديه^(٢).

وجاء بعد بانتانوس كلمنت Clement لإدارة مدرسة الإسكندرية، وهو سكندري ولد لأبوين وثنيين عام ١٦٠م ثم اعتنق المسيحية، وقد درس الفلسفة وجال في بلاد اليونان ثم جنوبي إيطاليا، ثم لبنان وفلسطين وخالط أهلها وأخيرًا جاء إلى مصر، ثم استقرت به الحال في الإسكندرية، وتعلم على يد بانتانوس وخلفه في إدارة المدرسة.

Eusebius, The History of the Church, Penguin, 1981, pp. 103, 124. (١)

Eusebius, Op. Cit., 258 - 9. (٢)

وأهم ما قدمه كلمنت أنه أدخل العلوم الفلسفية واللغات والبلاغة والشعر والمنطق والموسيقى والفلك والجغرافيا وغير ذلك فى مناهج المدرسة؛ ولعل أهم ما قدمه هو تحديد العلاقة بين الفلسفة والدين المسيحى، وعندما اشتد الاضطهاد بمدينة الإسكندرية فى عام ٢٠٢م غادر كلمنت مدينة الإسكندرية فأغلقت المدرسة مؤقتاً^(١).

وفى عام ٢٠٤م تولى أورجين إدارة المدرسة، وقد اشتهر حتى هذه المرحلة، ولم يكن تجاوز العشرين عاماً، بأنه من أنجب طلاب هذه المدرسة وأذكاهم، وأنه يتحلى بحسن السلوك ومتانة الإيمان. لقد درس كثيراً فى المدرسة المسيحية دراسة متعمقة^(٢)، ثم فى المدرسة الوثنية، حتى أصبح علامة عصره فى حقائق الديانة المسيحية، وأصبح جديراً بتولى منصب إدارة مدرسة الإسكندرية؛ ويكل ما لديه من علم بدأ فى العمل على تطوير مناهج الدراسة فى المدرسة.

يقول المؤرخ يوسابيوس: ولما رأى أورجين أن الطلبة الذين تولى أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، رأى أن استمراره فى تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتناسب مع تدريس العلوم الدينية^(٣)، ولذلك ترك أفكار المدرسة الوثنية الفلسفية واعتبرها سحابة تحجب الأنوار الساطعة التى يقدمها عالم اللاهوت^(٤).

تعلم أورجين اللغة العبرية وترجم التوراة ووضع شروحا لأسفارها وأتى الناس إليه من كل فج عميق ليتعلموا على يديه، وأرسلت الأمم فى طلبه ليرشداهم إلى طريق الخلاص، وذهب إلى بلاد العرب ودرس فى مدينة بصرى وزار روما عام ٢١٢م، ولما عاد إلى الإسكندرية نجح أعداؤه فى إثارة

Hardy, Christian Egypt., New York, 1952, p. 13.

(١)

Eusebius, Op. Cit., p. 258 - 9.

(٢)

Eusebius, Op. Cit., p. 259 - 60.

(٣)

Hardy, Op. Cit., pp. 14 - 15.

(٤)

الإمبراطورية عليه فلجأ إلى فلسطين، فاستقبله أسقفنا بيت المقدس وقيسارية بالترحاب، ومحا له بالوعظ التدريس في كنائسها بصفة استثنائية، وقد جلب ذلك المتاعب إليه، حتى إنه حُرِمَ من رحمة الكنيسة، وفي مرحلة من مراحل الاضطهاد التي سادت البلاد، وكان ذلك في أواخر حياة أورجين قبض عليه عام ٢٥٠م، وسجن وعذب، ولم يفرج عنه إلا عندما صاءت حالته الصحية، ثم مات بعد قليل في عام ٢٥٣م^(١).

ومن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مدرستها ديديموس الضرير Didymus The Blind؛ وقد ولد في الإسكندرية عام ٣١٢م وهي السنة التي توقف فيها الاضطهاد ضد المسيحية بعد صدور مرسوم ميلان؛ وقد فقد بصره وهو في حوالي الرابعة من عمره؛ فاستعان بذاكرته وحفظ كل ما كان يسمعه، وقد تمكن من إتقان كثير من العلوم، وألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والفلسفة، بالإضافة إلى العلوم اللاهوتية.

ولم يتردد البطريرك أثاناسيوس Athanasius في إسناد مسؤولية المدرسة اللاهوتية له لذكائه وقدرته على الاستيعاب، ودقة ملاحظته وعلو حجته؛ ويلاحظ أن ديديموس كان من أواخر أشهر مدرائها؛ فقد أفل نجم الإسكندرية من بعده. ومن تلاميذه القديس جيروم Jerome وريفيينوس Rifimus. وقد أكد جيروم على علو شأن ديديموس وقدرته على التعليم وأثره الكبير في علم اللاهوت في الشرق والغرب، وخلال هذه المرحلة كانت حركة الصراع بين الأثناسيوسية والأريوسية على أشدها، وكان التدريس محاطاً بالمشكلات من كل جانب خاصة بسبب تدخل الحكام المدنيين ضد الإثناسيوسية مما عرض بعضهم للنفي والاضطهاد، وقد صعد ديديموس في وجه هذه التيارات كلها، وجاهد بكل قوته ضد الأباطرة الذين ناصروا الأريوسية، كما حارب الوثنية التي بقيت متمثلة في الأكلاطونية الحديثة.

Eusebius, Op. Cit., pp. 237, 255.

(١)

وبوصف ديديموس بأنه كان مناضلاً شريفاً مهذباً ضد أعداء المسيحية، وركز جهوده في إقناعهم بقبولها.

كما اتصف بروح الاعتدال في منهجه؛ ومن أجل ذلك جاء إليه الجميع بكل طوائفهم ودياناتهم وفلسفتهم يطلبون العلم في مدرسته وعلى يديه، وذاع صيت ديديموس في الأندلس كلها، ومدحه القديس أنطونيوس والقديس جيروم واقتخر الأخير بأنه أحد تلاميذه، واتخذ من منهجه قدوة لتدريس الكتاب المقدس، كما ترجم له أحد كتبه المتعلقة بروح القدس، وفي الوقت نفسه كان ديديموس سنداً للبطريرك أنطاسيوس وحصناً قوياً للكنيسة المصرية تحطمت عليه الأريوسية بعد أن فند أخطائها جميعاً ومن مؤلفات ديديموس الكثيرة نذكر شرح أسفار إشعيا، وزكريا، وأيوب والأمثال ورسائل الجامعة كلها وله ثلاثة كتب عن الثالوث، وتعليق على مؤلفات أروجين وغير ذلك. وقد تأثر تفكيره وأسلوبه كثيراً بالقديس أنطاسيوس، والحقيقة أنه قد نجح كثيراً في أن يعيد لمدرسة الإسكندرية مجدها الذي عاشته أيام كلمنت وأروجين، وقد استمر في منصبه حتى وفاته في عام ٣٩٨م^(١).

أما عن العلاقة بين المدرستين المسيحية والوثنية، فالواقع أن المدرسة الوثنية كانت قد بلغت قممها في العلوم والفلسفة في القرون الأولى للمسيحية، ولم يكن يعادلها في القيمة العلمية أية مدرسة في العالم تقوم بتدريس العلوم الطبيعية والطب والرياضيات والفلك؛ وكانت المدرسة اليونانية المتمثلة في أثينا قد تميزت بالدراسات الفلسفية المستقلة بعضها عن بعض على العكس من مدرسة الإسكندرية الوثنية التي جمعت هذه الفلسفات كلها معاً، وتدارسها الطلاب الذين اجتمعوا في أروقتها، كما أن مدرسة الإسكندرية أنشأت الأفلاطونية الحديثة وترعرت فيها الغنوصية.

(١) متى المسكين : القديس أنطاسيوس الرسولي - وادي النطرون - ١٩٨١م، ص ١٩١.

ومن هنا كانت مدرسة الإسكندرية الوثنية منافسًا قويًا لمدرسة الإسكندرية المسيحية الناشئة^(١).

وعلى الرغم من هذا كله عاشت المدرستان الوثنية والمسيحية جنبًا إلى جنب لكل منهما طابعها العلمي، وعكستا الحالة الثقافية لمدينة الإسكندرية، وقد أثرت كل منهما بالأخرى وتأثرت، ولكن هدف التعليم كان مختلفًا تمامًا في المدرستين؛ فالتعليم في المدرسة الوثنية كان بقصد الإعداد لتولي المناصب الحكومية، بينما كان من أهداف التعليم في المدرسة المسيحية التعمق في الفكر المسيحي بصرف النظر عن الوظائف، وكانت الحياة الفاضلة من أبرز خواصها.

وهناك فارق آخر بين المدرستين هو أن طلاب المدرسة الوثنية كانوا ذكورًا فقط ومن مستوى اجتماعي رفيع، بينما كان التعليم في المدرسة المسيحية مفتوحًا للمواطنين جميعًا لا فرق بين غني وفقير أو ذكر أو أنثى بالإضافة إلى الفلاسفة الوثنيين والمهرطتين، ولذلك كانت المنافسة قوية، وأدت إلى ازدهار العلوم والفلسفة وعلوم الدين.

وكان من مزايا المدرسة المسيحية تعديل برامجها التعليمية كلما دعت الحاجة إلى مواكبة العصر، وحتى لا يشعر طلابها بأي نقص في أي نوع من أنواع العلوم أو المعارف، وطوعت العلوم الفلسفية لتكون خادمة لللاهوت، وعلى المسيحي أن يزود نفسه بأنواع المعرفة كلها، ومن هنا ارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى إن كثيرًا من الفلاسفة الوثنيين وغيرهم ومنهم بلوتارخ Plutarch كانوا من طلاب هذه المدرسة^(٢).

وإذا انتقلنا من مصر إلى الساحل السوري أو الساحل الشامي نجد عدة

^(١) أمين الخولي وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية - مكتبة مصر - (د.ت)، ج ٢،

ص ٢٤٢.

Eusebius, Op. Cit., p. 242.

^(٢)

مدن ساحلية كانت مراكز حضارية أشعت على المنطقة بأسرها، ومن هذه المدن غزة التي تقع إلى الجنوب على الساحل وأقرب المدن الشامية إلى مصر. ولعل ما ساعد على ظهور هذه المدينة على الساحة الفكرية أن مدينة بيت المقدس كانت لا تزال تعاني من التخريب الذي لحق بها عام ٧٠م^(١). ومن الذين نبغوا في المدينة المؤرخ زوسيموس Zosimus؛ وهو مؤرخ وثقى ولد في قرية بيت إيل بجوار مدينة غزة، ومن أشهر ما كتبه كتاب التاريخ الجديد Historia Nova، وقد سجل في هذا الكتاب الأحداث التي تبدأ من عصر الإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م) حتى عام ٤١٠م.

مع بعض التفاصيل عن مصر الإمبراطور دكليانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م)^(٢)، وأهدى زوسيموس هذا الكتاب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠م)؛ وقد اعتمد في كتابه على من سبقوه من المؤرخين مثل يونايبوس Eunapius والمؤرخ المصري الطيب أوليمبيودورس Olympiodorus^(٣).

وتكلم زوسيموس عن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥م) عندما وصل إلى روما، وأعلن تعيين ابنه هونوريوس Honorius إمبراطور على غرب أوربا (٣٩٥ - ٤٢٣م) ومقره مدينة روما، كما ذكر أنه عين القائد الجرمانى ستيلكو Stilicho قائدا لقوات الإمبراطورية في غرب الإمبراطورية، وأن الإمبراطور ترك ابنه تحت رعايته.

كما أن كتابات زوسيموس توضح معرفته بمدينة غزة وضواحيها، ولعل أهم ما يدونه زوسيموس حديثه عن تنظيمات الجيش البيزنطي؛ فقد ذكر أن الجيش كان يتكون من جزئين رئيسيين؛ الأول وهو العناصر المتحركة، والثاني

^(١) Josephus, The Jewish War, penguin, 1969, pp. 276 ff.

^(٢) Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956, p. 22.

^(٣) Bury, History of The Later Roman Empire, New York, 1954, p. 417.

قوات الحدود، وأضاف أن القوات البيزنطية الشرقية كانت تتكون من حوالي مائة ألف إلى مائة وخمسين ألف جندي وأشار أيضا إلى أن الإمبراطورية لم يكن لديها سياسة عسكرية ثابتة. ويلاحظ أن زوسيموس لم يتحدث عن حملات الإمبراطورية على إيطاليا التي وقعت في عامي ٢٠٤ و ٤٠٣م، وأنه انتقل من عام ٣٩٧ إلى عام ٤٠٥م^(١).

والحقيقة أن شهرة مدينة غزة في تلك المرحلة تعود بصورة رئيسة إلى مدرسة البلاغة التي ازدهرت في المدينة في القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي. وواقع الحال أن مدرسة غزة قد تأثرت كثيرا بجو مدرسة الإسكندرية العلمي، كما كانت مدرسة غزة تتبادل البعثات الطلابية مع المراكز العلمية في مصر والشام كالإسكندرية ومدينة فيسارية القرية منها.

ولم تقتصر البعثات على الطلاب فقط؛ بل شملت الأساتذة أيضا، وكان بعض الأساتذة في مدرسة غزة من الأفلاطونيين الحديثين، ولكن الأكثرية منهم دعوا أنفسهم بالسفطائيين المسيحيين، وكانت معظم مؤلفاتهم تتضمن شروحا للتوراة ورسائل ضد غير المسيحيين.

ويلاحظ أن مدينة غزة لم تشترك كثيرا في الخلاقات الكنسية التي ظهرت بسبب المذاهب الفكرية التي سادت تلك المرحلة؛ ويأتي على رأس هؤلاء العلماء بروكوبيوس الغزاوي Procopius وخوريسيوس الغزاوي Choricus^(٢). ومن الفلاسفة الوثنيين الذين اشتهروا في غزة بروفييري الغزاوي Prophyry of Gaza وقد ولد في مدينة سالونيك عام ٣٤٧م ومات حوالي عام ٤٢٠م. وعندما بلغ الخامسة والأربعين من عمره أصبح قسيسا في مدينة غزة، ثم أصبح بعد ثلاث سنوات أسقفا للمدينة وبقي لمدة خمسة وعشرين عاما في هذا المنصب، وعلى الرغم من أنه من مواليد سالونيك وكان له أخوة صغار وأنه

(١) Mango Cyril, Byzantium, 1980, p. 34, Bury, Op. Cit., p. 160 - 301.

(٢) فليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت ١٩٥٨م، ج ١، ص ٢٩٨ - ٣٩٩.

ورث من والده قدرًا كبيرًا من المال، إلا إنه غادر مسقط رأسه ونسب إلى مدينة غزة وعرف باسم يروفيروى الغزاوى.

وهو يعتبر من قادة الأفلاطونية الحديثة، وقد شن يروفيروى حملة شعواء على المسيحية كما أوضحها يوسابيوس القيسارى، كما أنه أشار إلى أوريجين وهاجمه بضرارة، وسجل أن آراءه تتعارض مع القوانين^(١).

وإذا انتقلنا من مدينة غزة إلى الشمال على الساحل الفلسطينى نجد مركزًا ثنائيًا آخر هو مدينة قيسارية، وترجع شهرة هذه المدينة فى تلك المرحلة إلى مدرستها المسيحية اللاهوتية، ومن المعروف أن أوريجين قد زار هذه المدينة وألقى فيها عددًا من الدروس والمخطات واستقبل استقبالًا حسنًا من رجال الدين فيها ورسموه كاهنًا^(٢).

ويبدو أن ما فعله أوريجين كان نواة لمدرستها اللاهوتية، ومن الذين درسوا فى هذه المدرسة جريجورى تورماتورجس Thaumaturgus الكبادوكى الأصل الذى حضر إلى بيروت ودرس فيها أولاً ثم اتجه إلى قيسارية حيث درس على يد أوريجين ثم اعتنق المسيحية بتأثير أستاذه^(٣).

ومن مشاهير هذه المدينة بامفيليوس Pamphilus؛ وهو من مواليد مدينة بيروت عام ٢٤٠م، ولد درس فى مدرسة الإسكندرية، ثم قضى بقية عمره فى مدينة قيسارية حيث عين أستاذًا للمدينة، وقد درس فى مدرسة المدينة، وجمع عددًا كبيرًا من الكتب، وكام بدراسات مهمة على الإنجيل، وقد قبض عليه وسجن؛ وخلال فترة سجنه كتب رسالة دفاع عن أوريجين وقد استشهد بامفيليوس ومجموعة من زملائه لتمسكه بالديانة المسيحية فى عام ٣٠٩م^(٤).

Mango, Cyril, Op. Cit., p. 40.

(١)

Eusebius, Op. Cit., p. 263.

(٢)

(٣) فليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٩.

Altrwater, Op. Cit., p. 263 - 4.

(٤)

ومن علماء مدينة قيسارية يوسابيوس القيساري Eusebius؛ وقد ولد في هذه المدينة حوالي عام ٢٦٠م، وكان في شبابه مريدًا وتابعًا وصديقًا جميعًا لأستاذ بامفيليوس الذي ذاع صيته في تلك المرحلة، وقد ظل يوسابيوس ملازمًا لأستاذه حتى قبض عليهما بتهمة اعتناق الديانة المسيحية والدفاع عنها وظلا في السجن معًا حتى عام ٣٠٩م حيث استشهد بامفيليوس؛ وكان لهذا الحدث أثر كبير على يوسابيوس، وعندما أطلق سراحه ذهب إلى مدينة صور وسمى نفسه يوسابيوس بن بامفيليوس تكريمًا لأستاذه، وقد كتب كتابًا خاصًا للدفاع عن أوريجين، ثم كتب كتابًا آخر عن حياة أستاذه بامفيليوس وقد فقد الكتاب الأخير^(١).

ورحل يوسابيوس من صور إلى الإسكندرية في عام ٣١١م، وقد قبض عليه مرة أخرى وأودع السجن، وعندما أخرج عنه عاد إلى فلسطين في العام التالي، ثم ما لبث أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية، وفي عام ٣١٤م أصبح أسقفًا لمدينة قيسارية، وظل في هذا المنصب حتى مات عام ٣٣٩م أو ٣٤٠م.

وأثناء إقامة يوسابيوس في قيسارية في المرحلة الأخيرة، رحل إلى بيت المقدس وأطلع على الكتب الموجودة في مكتبة المدينة التي أسسها الأسقف الإسكندر، وقد اهتم يوسابيوس بالإمبراطور قسطنطين منذ تعيينه إمبراطورًا، كما اهتم بالنزاع الديني الذي دار بين أثناسيوس وأريوس.

وفي مجمع نيقية الذي ترأسه الإمبراطور قسطنطين -الذي عقد في عام ٣٢٥م- جلس يوسابيوس إلى جانب الإمبراطور، وحاول التوفيق بين آراء أريوس وأثناسيوس، ولكنه أدان في النهاية أريوس بشدة وناصر أثناسيوس، وكان يوسابيوس مناصرًا شديدًا للإمبراطور قسطنطين، وكان الإمبراطور يعرف

Eusebius, Op. Cit, pp. 11 - 12.

(١)

ذلك تمامًا، وقد عرض عليه الإمبراطور منصب رئيس أساقفة القسطنطينية، أو منصب أسقف مدينة أنطاكية ولكن يوسابيوس اعتذر عن القبول بكل تواضع^(١).

وحقيقة الأمر أن يوسابيوس كان على معرفة بطوم زمانه؛ فدرس تاريخ الوثنية، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا، والفلسفة والفلك، وقدم شروحًا لأسفار إشعيا والمزامير، وكان فصيحًا بليغًا، وكتب يوسابيوس كثيرًا من المصنفات التي اُعترفت بها الطوائف المسيحية كلها على اختلاف مذاهبها؛ ومما كتبه مصنف عن حياة الإمبراطور قسطنطين، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت حياة قسطنطين، كما وضع كتابًا آخر يعرف باسم "الإعداد أو التحضير" ليظهر من خلاله أباطيل الوثنية، كما كتب "البرهان الإنجيلي" ليدافع به عن المسيحيين ضد مزاعم اليهود، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة من أهم الكتب التي سجلها سطرها يوسابيوس واستحق عليه أن يسمى شيخ رجال الكنيسة.

وقد سجل في هذا الكتاب جميع الأحداث التي تلت ما ورد في العهد الجديد، وفيه صور الاضطهاد الذي حل بالمسيحيين، كما سجل لنا العقاب الإلهي الذي وقع على كل من اضطهدهم بدءًا باليهود مرورًا بالأباطرة الرومان والبيزنطيين، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة هذا المصدر الرئيس لتاريخ الكنيسة منذ قيامها حتى عصر مؤلفه^(٢).

وفي مدينة قيسارية ظهر مؤرخ آخر هو بروكوبيوس Procopius الذي أרך للفترة الزمنية التي حكمها الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م)، ودون الأعمال العظيمة التي قام بها القائد البيزنطي بلزاريوس Belisarius في الشرق والغرب، وقد ولد بروكوبيوس في نهاية القرن الخامس الميلادي في مدينة قيسارية، أما تعليمه ومنى حياته الأولى فنحن لا نعرف عنها شيئًا، والمعروف أنه درس ليؤهل نفسه لوظيفة قانونية، لقد غادر مسقط رأسه وهو شاب صغير إلى مدينة القسطنطينية.

Ibid, pp. 11 - 13.

(١)

Eusebius, Op. Cit., pp. 7 - 8.

(٢)

وقد ظهر نبوغه فى فترة مبكرة من حياته، ففى عام ٥٢٧م عين مستشاراً قانونياً وسكرتيراً خاصاً للقائد البيزنطى الشهير بلزارىوس، ومع بلزارىوس أصبح بروكوبيوس قريباً من السلطة والبلاط وعرف أسرار القصر وخبايا الحكم، ومن هذا الموقع أصبح للمؤرخ بروكوبيوس رؤية مهمة لتقديم مؤلفاته التاريخية التى امتدت حتى نهاية عصر الإمبراطور جستينيان^(١).

وخلال حياة بلزارىوس وحملاته فى أفريقيا وإيطاليا والشرق كان بروكوبيوس يكاد يلزمه فى هذه الحملات كلها، وأصبح شاهد عيان على الأحداث التى دونها فى مؤلفاته؛ فقد صاحب بروكوبيوس القائد بلزارىوس فى حملته العسكرية التى دارت فى عام ٥٢٧م ضد الفرس فى أعالي العراق.

وفى عام ٥٣٣م ذهب مع القوات البيزنطية التى قادها بلزارىوس ضد الوندال فى شمال إفريقيا، ورحل معه إلى إيطاليا فى عام ٥٣٦م لمحاربة القوط الشرقيين، وبذلك أصبح بروكوبيوس أفضل من يكتب عن تاريخ هذه الفترة وأسرارها.

وإلى جانب صداقته للقائد بلزارىوس كان على إطلاع دائم وواسع بكل ما جرى داخل القصر الإمبراطورى، وقريباً من جميع القادة الذين عاصروه، سواء أكانوا بيزنطيين أم أجانب، وبكل تنظيمات الإمبراطورية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، ولعل هذا يدفعنا إلى القول بأن بروكوبيوس سوف يقدم لنا تاريخاً متكاملأ عن أحوال الإمبراطورية يمدح فيه ولى نعمته القائد بلزارىوس والإمبراطور جستينيان ولكننا نلاحظ أنه قدم لنا عكس ذلك فى بعض الأحيان.

لقد قدم لنا بروكوبيوس فى تاريخه هذا وجهات نظر ثلاث، حتى إن القارئ يجد بعض الصعوبة فى التعامل معها، إن عمله الكبير تناول تاريخ الحروب التى خاضتها الإمبراطورية فى آسيا وإفريقيا وأوروبا فى سبعة كتب، ونلاحظ أن الأحداث لم ترد فيها مرتبة زمنياً؛ فقد تداخلت الأحداث بعضها فى بعض؛ فبينما يتحدث عن حرب نجده يتكلم عن حرب ثانية وربما ثالثة.

Procopius, the Persian War, London, 1961, pp. 11.

(١)

لقد اختص الكتابين الأول والثاني بالحروب الفارسية، وتناول الثالث الحرب ضد الوندال في شمال إفريقيا، والرابع والخامس عن الحروب التي دارت ضد القوط في إيطاليا، والحقيقة المائلة أمامنا أن الإمبراطورية البيزنطية قد بذلت أقصى جهودها لاستعادة حدودها القديمة والأراضي التي استولى عليها البرابرة.

وكان الإمبراطور جستنيان تواقاً لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية باعتباره وريثاً لها، وتصبح الإمبراطورية هي أكبر القوى العالمية مرة أخرى، وقد تسبب ذلك في استهلاك موارد الدولة، ولكن عجلة التاريخ لم تعد إلى الوراء^(١).

وبلاحظ أن الأحداث التي وقعت في عصر الإمبراطور جستنيان كانت كثيرة للغاية ومعقدة بدرجة كبيرة، وأن ما سجله بروكوبيوس لا يزيد عن كونه تلخيصاً لأحداث عصره، أما عن تداخل الأحداث فإننا عندما نقرأ عن الحرب الفارسية نقرأ أيضاً داخل هذه الأحداث عن ثورة نيقا Nika التي وقعت في عام ٥٣٢م، والشىء نفسه عن الطاعون الذي أطاح بالمواطنين عام ٥٤٠م، وإن كان ذلك يعتبر عيباً من وجهة نظر المؤرخين، إلا إنه يوضح لنا حرص بروكوبيوس على تسجيل الأحداث التي وقعت في عصره^(٢).

وبعد كتب الحروب التي سجلها بروكوبيوس، يقدم لنا كتاباً عرف باسم التاريخ السرى أو النواثر Anecdota؛ وفي هذا الكتاب نجده وقد حرر نفسه من الخوف وجلس يكتب بكل حرية بعيداً عن الجمود وعن التاريخ وواقعية السياسة؛ لقد هاجم في هذا الكتاب الإمبراطور والإمبراطورة وصديقه بلزاريوس وزوجته دون رحمة، ولقد لنا صورة قائمة كانت مشرقة في كتبه الأولى.

ويرى بعض الدارسين في أيام بروكوبيوس بهذا العمل جريمة وعاراً لا

Procopius, Op. Cit., I, p. IX

(١)

Ibid, I, P. X-XI.

(٢)

مبرر له ولضحية للحياة الخاصة، ويرون أيضاً أن ما كتبه بعيداً عن الواقع ولا يمكن تصديقه؛ وقدم لنا بروكوبيوس كتاباً عن العمارة سجل فيه ما بناه الإمبراطور دون إطراء، وهو ينقسم إلى ستة أسام صغيرة قدم فيها ما شيده الإمبراطور جستنيان من المباني العامة طوال فترة حكمه في جميع نواحي الإمبراطورية، وقد تم اختيار الموضوعات بعناية كبيرة، وتقدم لنا جانباً حضارياً في غاية الأهمية^(١).

وقدم لنا بروكوبيوس هذا كله في أسلوب واضح وبسيط يوضح لنا معرفته بفنون البلاغة، لقد كان بروكوبيوس معجباً بالكتاب الكلاسيكيين؛ ومن هؤلاء هيرودوت وثوكيديدس Thucydides، واستعار بعض تعبيراتهم في كتاباته.

لقد كتب بروكوبيوس كمؤرخ مسيحي، ولكنه كان متعاطفاً مع الديانات الأخرى خاصة اليونانية القديمة؛ ومما لا شك فيه أن دراساته للكتب الكلاسيكية قد أثرت فيه كثيراً.

وتوفي بروكوبيوس بعد الإمبراطور جستنيان بقليل، ويقال إنه توفي في العام نفسه الذي توفي فيه الإمبراطور أي عام ٥٦٥م^(٢). ومن المراكز الثقافية على الساحل السوري مدينة بيروت، وكانت قد أصبحت منذ أوائل القرن الثالث الميلادي مركزاً لتعليم القوانين ونشرها، ويرجع ذلك إلى أنه كان للمدينة مكانة تجارية واسعة وحركة مالية كبيرة بحكم موقعها الجغرافي ومرافأها.

وقد ترتب على ذلك خلاقات قانونية حول هذه المسائل التجارية، وإقامة دعاوى قانونية استهوت كبار المحامين وأشهر الأساتذة الأمر الذي ترتب عليه إقامة مدرسة للحقوق، لتخريج الكوادر اللازمة لمثل هذه الأعمال.

وقد جذب ذلك الشباب الطموحين ومن تنوّل لهم علاقات اجتماعية

Procopius, Op.Cit.,I, p. XI.

(١)

Procopius, Op. Cit, I, p. XIII.

(٢)

مفيدة، فقد كان القانون أكثر المهن تبشيراً بالنجاح، وكان بإمكان المحامي الذى يعمل لحسابه الخاص أن يجمع مبالغ كبيرة من المال، وأن يصل إلى مركز اجتماعى مرموق، يضاف إلى ذلك أن دراسة القانون كانت أمراً ذا أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة، لذلك لم يُسمح بتدريسه فى المعاهد الخاصة كما كان الحال من قبل، ولم يكن يوجد فى مصر أو بلاد الشام سوى مدرسة واحدة مشهورة للحقوق هى مدرسة بيروت.

وقد بلغت مدرسة الحقوق فى بيروت قمة ازدهارها فى القرن الخامس الميلادى عندما جذبت إليها جماعة من خيرة المفكرين الشبان فى الإمبراطورية، ولم تكن مدرسة القسطنطينية التى أسست عام ٤٢٥م تعتبر منافسة لها، وقد وردت أول إشارة إلى مدرسة الحقوق فى بيروت فى خطبة جريجورى تورماتوجوس التى ألهاها حوالى ٢٤٠م.

وكان قد أتى من كبادوكيا فى آسيا الصغرى ليدرس فى بيروت أولاً، وبعدها اتجه إلى قيسارية فلسطين حيث اعتنق المسيحية على يدى معلمه أوريجين السكندري، ومن مشاهير هذه المدرسة أيضاً بامفليوس البيروتي^(١).

وإلى جانب هؤلاء يوجد جريجورى نازيانزوس Nanzanzus (٣٢٩-٣٨٩م)، الذى يعتبر من أشهر رجال الدين فى عصره، وقد نال قسطاً كبيراً من التعليم فى آسيا الصغرى ثم فى مدارس أثينا حوالى عام ٣٥٦م.

وأخيراً فضل الإقامة فى بيروت لمتابعة دراسته القانونية، وفى عام ٣٦٢م أصبح كاهناً وكان ذلك ضد رغبته، وفى عام ٣٧٢م أصبح أسقفاً، ثم تولى الأسقفية فى مدينة القسطنطينية عام ٣٨٠م، وقد انسحب من الحياة العامة وعاش بقية حياته بالقرب من مسقط رأسه فى كبادوكيا^(٢).

ومن أشهر هؤلاء شهرة سيفريوس بطريرك أنطاكية اليعقوبى (٥١٢ -

Atrwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

(١)

Ibid, pp. 160 - 1.

(٢)

٥١٨م) الذى هرب من المدينة بعدما هددته السلطات بتقطع لسانه لجراته فى الحديث، والذى وصفه بطريرك الإسكندرية ثيودوسيوس بأنه صخرة السيد المسيح، وحارس الإيمان السليم الذى لا يهتز^(١).

وكانت مدة الدراسة فى مدرسة الحقوق أربع سنوات، ثم أضاف إليها الإمبراطور جستنيان فى العام الأول لتوليه الحكم (٥٢٧م) سنة خامسة وكان الطلاب المقيدون بها يعفون من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين^(٢).

وكان الالتحاق بالمدرسة يتطلب دراسة تمهيدية فى اللغة اليونانية واللاتينية وفى الخطابة، وكان الطلاب يحصلون ذلك فى مدنهم أو فى مدرسة بيروت، وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب؛ فيقبل الطلاب بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، ويستثنى من ذلك الطلاب العرب^(٣).

وفى السنة الأولى كان الطالب يدرس مجموعات القوانين لجايوس Gaius وأولبيان Ulpian، وفى السنة الثانية يدرس قوانين أخرى لأولبيان، ثم يتنقل إلى كتابات بابنيان Papinian، ثم كتابات باولس Paulus فى السنة الرابعة، أما السنة الخامسة فكانت لدراسة الدساتير أو القرارات الإمبراطورية التى جمعت فى نهاية القرن الثالث الميلادى^(٤).

وكان بالمدرسة جمعيات اهتمت بعلوم الغيب والسحر، وجمعية أخرى مسيحية، كانت تجتمع كل مساء فى الكنيسة لدراسة المؤلفات الدينية. كما كانت

^(١) Zachariah of Mitylene, The Syriac Chronicle, tran Hamilton, London, 1899, pp. 190 - 283.

^(٢) نليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٩.

^(٣) Attwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

^(٤) دواى : لخطابية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس، بيروت ١٩٦٨م، ص ١١٠.

الدراسة تعطل بعد ظهر كل يوم سبت وطوال نهار الأحد، أما ساعات المساء فقد كانت خالية من الدروس ليتمكن الطلاب من استيعاب ما درسوه أثناء النهار^(١).

وقد لمعت في القرون المسيحية الأولى طائفة من أساتذة القانون ولستحقوا أن يطلق عليهم لقب أساتذة العالم؛ واشتهرت بيروت بفضل هؤلاء ورفعت إلى مستوى الحواضر، وسميت بأسماء كثيرة مثل أم العلوم، ومواطن العلماء، ومنبع الشرائع، وزاد من شرف الأساتذة أن أصبحوا يعينون في المدرسة بموجب مرسوم يوافق عليه مجلس شيوخ المدينة، واشترط الإمبراطور جوليان Jolian (٣٦١ - ٣٦٣م) أن يعرض عليه المرسوم قبل التنفيذ.

ومنذ عام ٤٢٥م أصبحت الدولة تتولى نفقات الأساتذة جميعاً وتوافد الطلاب على مدرسة بيروت من جهات العالم كلها مثل غزة، وعسقلان، وأنطاكية، والرها، وسيساط ومدن الشام وللسطين كلها وغير هؤلاء من مصر وأسبانيا وإيطاليا والبلقان وآسيا الصغرى^(٢).

وقد ظلت المدرسة تمارس نشاطها حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي، حين داهمت المدينة سلسلة من الهزات الأرضية في الفترة من ٥٥١ إلى ٥٥٥م كانت تقضى عليها، وهدم الزلزال التي تعرضت له مدينة بيروت عام ٥٥١م، جانباً كبيراً من مبانيها^(٣).

فانتقلت المدرسة إلى مدينة صيدا لبعض الوقت، وفي عام ٥٦٠م تم إقامة المدرسة مرة أخرى، وقبل حفل الافتتاح بقليل شبت النيران فيها وأتت عليها، ولم يعد يذكر عن المدرسة شيء بعد ذلك^(٤).

ومن ذلك يتضح أن مدينة بيروت بفضل مدرستها القانونية قد شهدت نهضة علمية كبرى أثرت قوانين الإمبراطورية البيزنطية، فقد علم في تلك

(١) ليد رستم : الروم، ج ١، ص ١٥٨.

(٢) ليد رستم : الروم، ج ١، ص ١٥٨.

(٣) Antonus Martyr, Theo Holy Places, in P.P.T.S. London, 1890, Vol. 3, p. 2.

(٤) فليب حتى : المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

المدرسة أكبر أساتذة القانون في تلك الحقبة وأشهرهم، كما تتلمذ فيها كبار رجال الفكر الذين أتوا إليها من أنحاء آسيا وأوروبا وإفريقيا كلها وكانت مركزاً حضارياً أشع على المنطقة بأسرها.

وإذا تحركنا من بيروت إلى الشمال نجد مدينة أنطاكية، وهي المركز الثقافي الأخير في هذا البحث، وسوف نتعرض لثلاث شخصيات كان لها أكبر الأثر على الفكر المعاصر في المنطقة، وربما استمر هذا الأثر حتى الآن، وأولى هذه الشخصيات المؤرخ أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus والثاني هو المفكر الوثني ليبانيوس Libanius، والثالث المفكر المسيحي يوحنا فم الذهب John Chrysostom ومعلوماتنا عن المؤرخ أميانوس مارسيلينوس (٣٣٠ - ٤١٠م) مستمدة تقريباً من كتاباته؛ فقد ولد في عام ٣٣٠م في مدينة أنطاكية لعائلة يونانية وثنية.

وتلقى تعليمه في المراحل الأولى في مدينة أنطاكية نفسها التي تعتبر من المدن الرئيسة في الإمبراطورية الرومانية، وكان أميانوس يفتخر بمدينة التي اجتمعت فيها أخلاط الناس من يونانيين ويهود وسوريين وآخرين جمعهم عز المدينة وثراؤها، وقد أطلق أميانوس على مدينته لقب تاج الشرق الجميل^(١). وقد عاصر أميانوس مجموعة من الأباطرة البيزنطيين هم قسطنطينوس Constantius (٣٣٧ - ٣٦١م) وجوليان المرتد وجوفيان Jovian (٣٦٣ - ٣٦٤م) وفالنتز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م)، وكان نجم الإمبراطورية قد أخذ في الأفول، وكانت نقطة التحول هي الكارثة التي حلت بالإمبراطورية بعد هزيمة قواتها في معركة أدرنة Adrianople عام ٣٧٨م على أيدي القوط، ولقى فيها الإمبراطور فالنتز مصرعه، وهي المرحلة التي تلت فيها كتابه المعروف باسم التواريخ The Histories.

^(١) Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum, tran, Rolff, 11, 251. Creat Britain, 1971, Vol. 11, p. 251.

لقد التحق أميانوس فى شبابه بالسلك العسكرى الإمبراطورى وأصبح أحد القادة المهمين، وقد رافق الإمبراطور جوليان فى بعض عملياته العسكرية فى الشرق والغرب، وقد مكنت هذه الانتقالات أميانوس من الاطلاع على بواطن الأمور داخل الإمبراطورية، وأسرار البلاط والدولة، وأسباب المعارك التى خاضتها الإمبراطورية فى آسيا وأوربا خاصة ضد الفرس والعناصر الجرمانية ونتائجها.

وفى عام ٣٦٣م، وبعد موت الإمبراطور جوليان عاد أمانيوس مع قواته إلى أنطاكية، وظل بها حتى معركة أدرنة (٣٧٨م)، وقد زار أمانيوس خلال هذه الفترة مدينة الإسكندرية، وبلاد اليونان وإيطاليا خاصة مدينة روما، وأثناء إقامته فى أنطاكية اطلع على كثير من الكتب التاريخية، وربما شغله منصبه فى بداية الأمر بعض الوقت عن القراءة، لكنه خصص الفترة الأخيرة من حياته للدراسة والكتابة، وممن قرأ لهم وتأثر بهم تاكيتوس Tacitus وليفى Livy، وما كتبه أمانيوس يعتبر مكملاً لكتاب تاكيتوس الذى انتهى فى عام ١٢٠م^(١).

وقد بدأ أمانيوس كتابة مؤلفاته فى مدينة روما، وعلى الرغم من أنه كان وثيقاً إلا أنه كان معتدلاً فى موقفه من المسيحية، ولم يؤثر ذلك على كتاباته ونظراته الموضوعية للأحداث، والمؤلف الذى قدمه أمانيوس يتناول الفترة من ٩٦ إلى ٣٧٨م، وهو مقسم إلى واحد وثلاثين فصلاً، وقد فقد من الكتاب جزءاً يبدأ من الفصل الأول حتى الفصل الثالث والعشرين، ولم يتبق إلا الأجزاء الأخيرة التى تشمل الفترة من ٣٥٣ إلى ٣٧٨م وقد سجل أمانيوس مؤلفه بلغة لاتينية فصيحة، ويعتبر كتابه من المصادر التاريخية المهمة للحقبة التاريخية التى سجل لها.

ومن علماء مدينة إنطاكية ليبيانيوس (٣١٤ - ٣٩٣م) الفيلسوف والبليغ

Tacitus, The Agricola and Germaniam Penguin, 1970, p. 10.

(١)

الوثني، وقد ولد في بيت وثني مشهور في المدينة ينحدر من بيت علمي تفوق أفراده لعدة أجيال سابقة في مجال العلوم والثقافة والخدمة العامة للمدينة، وقد أتم ليبيانيوس دراسته الكلاسيكية الأولى في مسقط رأسه، وعندما بلغ عامه الثاني والعشرين رحل إلى أثينا لاستكمال التحصيل العلمي، فقد كانت أثينا في تلك المرحلة من أعظم مراكز الدراسات العليا في الفلسفة والآداب في العالم.

وقد قضى ليبيانيوس أربع سنوات في أثينا (٣٣٦ - ٣٤٠م)، سافر بعدها إلى القسطنطينية، وبدأ بتعليم البلاغة، لكن المنافسة الشديدة بين الأساتذة دفعته إلى الرحيل إلى مدينة نيقية حيث درس لبعض الوقت، ثم رحل مرة أخرى في عام ٣٤٦م إلى مدينة نيقوميديا حيث قضى خمس سنوات، ثم عاد مرة أخرى إلى القسطنطينية، فعمل بها عددًا من السنين، وفي عام ٣٥٤م عاد إلى مسقط رأسه أنطاكية بعد أن أصبحت له مكانة عالية في عالم العلم، وتعرف على كثير من علماء عصره، كما حظى بشرف صداقة كبار الشخصيات في الإمبراطورية والأباطرة^(١).

وقد صدم ليبيانيوس بعد عودته إلى أنطاكية، لأن المسيحيين كانوا يرفضون إرسال أبنائهم ليتعلموا على أيدي المدرسين الوثنيين، بعد أن نعت المسيحية وساندتها الحكومة الإمبراطورية.

وقد اهتم ليبيانيوس بعد عودته إلى أنطاكية بكتابة أهم أعماله وأكثرها شهرة وهو كتاب مديح أنطاكية أو الإطاكيا Antiochikos، وقد أعد ليبيانيوس كتابه هذا لتلقى كلماته في الاحتفال بالألعاب الأولمبية عام ٣٥٦م، وهو الاحتفال الذي كان يحضره كبار الشخصيات والزوار من أنحاء العالم كافة.

وفي الحقيقة أن الأنطاكية تاريخ للمدينة ومديح لها بصفتها مدينة يونانية وثنية تواجه نمو المسيحية، وقد اعتبر ليبيانيوس أن بلاغة أنطاكية، أي بلاغة أصلها فضيلة من أهم فضائل المدينة، وكان يرى أن البلاغة عقل أي مدينة، وأن

(١) فليب حتى : المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٣.

الثقافة اليونانية تعتبر معياراً للحضارة^(١)، لذلك لم يهتم بتعليم اللاتينية، وابتعد عن المسيحية وعدوا للحضارة^(٢).

وتقدم لنا كتابات ليبانيوس، التي وصلتنا، ومعظمها من الخطب والرسائل، صورة واقعية للأزمة والأمكنة التي عاش فيها، وتقدم لنا صورة طيبة للأساليب التربوية في مدارس أنطاكية؛ فقد كانت الدراسة تستمر طوال الشتاء والربيع، أما الصيف فكان يخصص للنشاط المرتبط بالاحتفالات والأعياد، وكانت الدروس تبدأ من الصباح حتى ظهر اليوم، وكان بعض التلاميذ في السادسة عشرة وكان التعليم العالي في أيدي البلغاء، وكان هؤلاء ينتخبون كأساتذة من مجلس شيوخ المدينة.

وكان هؤلاء البلغاء يعلمون ويخطبون ليكونوا مثلاً وقدوة للطلاب، وتقاضى هؤلاء البلغاء مرتباتهم من مجلس شيوخ المدينة ومن الطلاب، وقد شكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة للمنهج الدراسي، ولم يدرس اللاتينية سوى من كان يرغب في الحصول على وظيفة حكومية^(٣).

ويظهر تعصب ليبانيوس لمدينة أنطاكية الوثنية عندما اعتبر اللغة اليونانية والثقافة اليونانية معيار الانتماء للمدينة، وقد تناسى ليبانيوس عد عناصر أخرى تتألف مع مفهوم المدينة اليونانية، كالعناصر السامية التي كانت ظاهرة في المدينة منذ نشأتها، وكانت اللغة السريانية تسمع في شوارع المدينة كلها. وكان هناك عدد كبير من الناس في المدينة وحولها لا يعرفون اللغة اليونانية، هذا بالإضافة إلى أن عصر ليبانيوس كان يمثل قمة التفاعل بين الوثنية والمسيحية، ولم يكن بوسعهم أن يتفهم العقيدة الجديدة، وأسلوب الحياة الجديد في المجتمع الأنطاكي^(٤).

^(١) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٣.

^(٢) فليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٣.

^(٣) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٣.

^(٤) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

وعلى الرغم من هذا كله فقد سعى لبيانيوس إلى القيام بدوره بطريقتين، الأولى كمعلم للتقاليد اليونانية الوثنية، والثانية كمواطن بارز ناطق باسم المجتمع الذى حافظ على فضائل المدينة بتقاليدها القديمة، واعتبر أن فضيلة المدينة وقوتها، وكذلك الفضيلة التى تسبغها المدينة على مواطنيها، متصلة بجنور من الماضى دون أن تصاب بتغيير جوهري.

وعلى الرغم من وجود الإمبراطورية البيزنطية وتقدم المسيحية الذى هدد بقاء الوثنية. كان لبيانيوس دائم اليقظة لحماية العدالة لدى المجتمع، ومن خطابه أو منشوراته تظهر إنسانيته الشديدة واهتمامه بالمحافظة على النظام، والطبقات العاملة مثل المزارعين والخبازين وصغار التجار، يضاف إلى ذلك المتهمين الذين ينتظرون المحاكمة، وأشار إلى ضرورة إقامة العدل الصحيح عند مثلهم أمام القضاء.

والحقيقة أن الإحسان حتى عصر لبيانيوس كان هو العنصر الرئيس فى نظرة المسيحية والوثنية إلى المجتمع، وكانت الحضارة اليونانية التى تعصب لها لبيانيوس هى حضارة الفرد، أما المسيحية فكانت دين تغيير حضارة الفرد، واعتقد لبيانيوس أن ما يراه هو التفرع الذى يجب أن يكتب له البقاء^(١).

وإذا كان لبيانيوس، يعتبر الممثل الأخير للثقافة الوثنية القديمة فى مدينة أنطاكية، فإن تلميذه يوحنا لم الذهب قد اكتسب شهرة كبيرة باعتباره أحد المبشرين العظام بالديانة المسيحية، وقد اكتسب لقب لم الذهب لأنه كان يملك موهبة الفصاحة الرائعة، وهى موهبة نادرة ما وجدت عند الرواعظ المسيحيين، سواء من سبقه منهم أم من أتوا بعده^(٢).

ولد يوحنا لم الذهب (٣٤٥ - ٤١٧م) فى أنطاكية من أبوين مسيحيين كانت لهما مكانة مرموقة فى المدينة، فكان والده من أصل نبيل، بدأ حياته فى

(١) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) برلى : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

الخدمة المدنية بالإمبراطورية ثم رقى بسبب كفايته، ولكنه توفي صغير السن وترك ولده الوحيد في رعاية والدته الأرملة، وما ورثته الوالدة مكنها من إرسال ابنها يوحنا إلى كبار المعلمين في أنطاكية ومن بينهم أندراجاثيوس الذي علمه الفلسفة، وليبانيوس الذي علمه البلاغة.

وكان الأخير يرى في يوحنا خير خلف له^(١)، وكان يوحنا يمتلك موهبة كبيرة في الأدب والبلاغة، وقد شعر هو بذلك، ورأى استخدام هذه المواهب في الخدمة المدنية، وقرر أن يدرس القانون، كما انضم إلى الحلقات الدراسية التي كان يعقدها أسقف المدينة، حيث كان الشبان يجتمعون في حلقات لاهوتية، وكان رجال الدين يرعون من يرجى منهم الخير لتشجيعهم على الدخول في السلك الكهنوتي.

وقد تقدم يوحنا في علومه حتى وصل إلى الحد الذي يؤهله للعماد، ووصل بعد ثلاث سنوات إلى درجة مرتل داخل الكنيسة^(٢)، وانسحب إلى كهف في الجبل المطل على المدينة لبعض الوقت للصلاة والتأمل، وعاش إلى جانب ناسك عجوز يدعى سيروس Cytus مدة أربع سنوات، تعلم منه فيها الحكمة، وترب نفسه خلال هذه الفترة على التحكم في رغباته عن طريق السيطرة على الجسد، والخلوة، وتناول قليل من الطعام، والصلاة المتواصلة.

وقد عاد يوحنا إلى أنطاكية عام ٣٨٠م، بعد أن تغير تمامًا كما كان يأمل، وشعر أنه مستعد لتكريس ذاته لخدمة المسيحية^(٣)، وفي العام التالي رسم شماساً^(٤)، وبعد خمس سنوات رفع إلى درجة الكهنوت وأصبح عضواً في هيئة الكندراتية حيث كان يقوم بالوعظ، ويشارك في الأعمال الرعوية المختلفة التي قامت حول الكنيسة الرئيسية في المدينة^(٥).

(١) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٣.

(٢) دولقي : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٣.

(٣) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٣.

(٤) دولقي : المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٨.

Attwater, Op. Cit., p. 198.

(٥)

وخلال هذه المرحلة لم تكن الوثنية قد انقرضت تمامًا، بل على العكس، أظهرت صلابة شديدة في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية في مواجهة المسيحية، وكانت مدينة أنطاكية أهم المعاقل الوثنية، على الرغم من قيام الإمبراطور بإصدار سلسلة من الأوامر تمنع إقامة العبادات الوثنية، ولكن تنفيذ هذه الأوامر كان مؤقتًا.

ثم ما لبثت أن أصبحت حبرًا على ورق، على الرغم من هذا كله فقد كان على مواطني أنطاكية وغيرهم من مسيحيين ووثنيين أن يتعايشوا في عالم واحد، والمشاركة في ثقافة مادية واحدة، وفي أعمال ومهن يومية مشتركة، يضاف إلى ذلك أن يوحنا كان قد نما وترعرع أثناء فترة الخلاف الديني بين أريوس وأثناسيوس^(١)، وهو الخلاف الذي قسم الجزء الشرقي من الإمبراطورية إلى قسمين.

وكان لذلك أثر كبير على مدينة أنطاكية، فقد كان يوحنا ومعاصروه يذكرون زمانًا كانت الأريوسية فيه الشغل الشاغل لأهل أنطاكية، لأن المدينة نفسها كانت إحدى معاقل الأريوسية^(٢).

وقد أدرك يوحنا مدى الحاجة إلى التعاليم المسيحية من الأنواع كلها وعلى المستويات كافة، ورأى أن في إلقاء العظات خير وسيلة لذلك وهي وسيلة ليست سهلة، ولكن يوحنا كان موهبًا لها، فقد ضمت جماعة المصلين في كنيسة أنطاكية مسيحيين من المستويات الثقافية كلها ابتداء من كونت الشرق إلى المزارعين والصناع والعبيد، يضاف إلى هؤلاء جماعات من الوثنيين الذين كانوا يفدون إلى الكنيسة خلسة ليعلموا شيئًا عن الديانة المسيحية.

واتصبت عظات يوحنا على التعليم الأخلاقي^(٣)، فقد كان المسيحيون يعيشون جنبًا إلى جنب مع الوثنيين، شركائهم في المواطنة، وكانوا في بعض

^(١) متى المسكين : المرجع السابق، من ٤٧٣ - ٤٧٦.

^(٢) دوالى : للمرجع السابق، من ١٨٢.

^(٣) Atwater, Op. Cit., p. 190.

الأحيان أقارب الوثنيين الذين علمتهم ثقافتهم أن غاية الإنسان على الأرض هي المتعة الجسدية، والنجاح المادى، وأن جسد الإنسان وسيلة مبهجة من وسائل المتعة.

كما أدرك يوحنا أن تعليم الأطفال وتفهيم حاجاتهم أمر بالغ الأهمية. وأدرك أن أهم مراحل تعليم الأطفال تبدأ من المنزل، وأن السنوات الأولى هي التى تشكل عقل الطفل^(١). وبالإضافة إلى الوعظ أدرك يوحنا مسئولية المشاركة الإيجابية فى عمل الإحسان الذى كانت الكنائس جميعها مراكز له فى تلك المرحلة.

على العكس من الدولة أيام الإمبراطورية الوثنية التى لم يكن لها أية مسئولية تجاه المواطنين لتخفيف آلام الفقر أو البطالة أو العناية بالمرضى، وكان على الكنائس أيضا رعاية الأرملة واليتامى والغرباء^(٢)، وفى عام ٣٨٦م رفع يوحنا إلى رتبة كاهن، وفى السنة التالية اضطرت حكومة الإمبراطورية إلى زيادة الضرائب لإعادة بناء الجيش الإمبراطورى بعد الهزيمة التى لحقت به فى معركة أدرة (٣٧٨م) على أيدي القوط.

فانفجرت ثورة أنطاكية احتجاجًا على زيادة الضرائب، واتجه الأهالى إلى حاكم المدينة ولكنه لم يستجب لطلباتهم، فاتجهوا إلى أسقف المدينة ولكنه لم يكن موجودًا، واشتعلت الثورة وتسببت فى إشعال بعض الحرائق، وانتهى الأمر مؤقتًا باعتقال المتظاهرين^(٣).

وأدرك رجال الدين فى أنطاكية وعلى رأسهم أسقف المدينة حاجة الناس إلى المواساة، وقرر الاتجاه إلى التسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور، وقبل المغادرة اختار يوحنا قم الذهب بصفته أقصح الكهنة ليلقى فى الكنيسة سلسلة من العظات حول هذه الكارثة.

^(١) دوائى : المرجع السابق، ص ١٩٠.

^(٢) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

^(٣) دوائى : المرجع السابق، ص ٢٠١.

وانتهى الأمر بصفح الإمبراطور عن المدينة وإلغاء العقوبات التي نزلت بها عليها، وعندما توفي بطريرك القسطنطينية نكتاريوس (Nawctarius ٣٨١م - ٣٩٧م) وقع الاختيار على يوحنا ليتولى منصب البطريرك (٣٩٨ - ٤٠٤م)، وعندما وصل يوحنا فم الذهب إلى العاصمة بدأ الاهتمام بشئون الفقراء والمساكين، وحث الرهبان على العمل المثمر.

وهاجم إسراف رجال البلاط وبذخهم وندد بهم، وفم تتج الإمبراطورة يودكسيا Eudoxia من ذلك، وعند هذه المرحلة اجتمع الحائدون عليه ودعوا الإمبراطور إلى عقد مجمع ديني للنظر في أمره، فعقد مجمع عرف باسم مجمع البلوطة Oak بالقرب من مدينة خلقدونية ٤٠٣م.

ورفض يوحنا المثول في هذا المجمع، فحرم من رحمة الكنيسة، وحكم عليه الإمبراطور بالنفي ورفض الشعب ذلك فتدخلت قوات الإمبراطورية وتجنبًا للصدام وافق يوحنا على الخروج متفيًا من المدينة، ولكن الإمبراطور ما لبث أن أعاده إلى منصبه، ولكنه عاد ونكل بالإمبراطورة مرة أخرى، وانتهت الأحداث بنفيه مرة أخرى في عام ٤٠٤م إلى جبال طوروس، وظل في منفاه ثلاث سنوات كتب فيها كثيرًا من المؤلفات، وقد نقل من منفاه إلى منفى آخر في إيبيريا عند البحر الأسود لرحل إليه.

وأثناء رحيله وعند وصوله إلى مدينه كوماتة توفي عام ٤٠٧م^(١)، وهناك عدد من الفلاسفة والبلغاء وأصحاب الفكر الوثني والمسيحي درسوا في هذه المراكز الثقافية في مصر والشام لا يتسع المجال في هذا البحث للحديث عنهم، وأكتفى هنا بذكر نسطوريوس Nestorius، صاحب المذهب النسطوري المسيحي الذي درس في أنطاكية، وأصبح بطريرك الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية (٤٢٨ - ٤٣١م) والذي عزل من منصبه بموجب قرارات مجمع أنفسوس (٤٣١م)، وقد نفى بعدها إلى مصر، وظل بها حتى وفاته^(٢).

(١) Attwater, Op. Cit., p. 198. انظر أيضًا: أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٥.

(٢) ينشر : تاريخ الأمة القبطية - تمريب إسكندر ثادرس، مطبعة مصر، القنالة، ١٩٠١م،

ج ٢، ص ٢٤ - ٢٥. Hussey, Op. Cit., p. 20.

مما سبق يتضح أنه كانت توجد مجموعة من المراكز الحضارية مختلفة الجوانب فى مصر والشام أثرت فى الحياة الثقافية فى القرون المسيحية الأولى، وأن العلماء الذين قامت على أكتانهم هذه المراكز كانوا من الوثنيين والمسيحيين، ولم يقتصر تحصيلهم للعلم على مركز واحد، بل إن معظمهم درس فى أكثر من مركز ثقافى سواء فى مصر أم الشام أم القسطنطينية أم أثينا.

كما أن العلماء الوثنيين الذين تمسكوا بعتيقتهم كان لهم طلاب تتلمذوا على أيديهم ثم اعتنقوا المسيحية ولعبوا دوراً كبيراً فى صياغة الفكر المسيحى فى تلك المرحلة. ومن نتائج هذا البحث أيضاً أن الوثنية اهتمت بالفرد، بينما اهتمت المسيحية بالجماعة.

وأن الإمبراطورية الوثنية تعاملت مع اليهودية كدين، بينما تعاملت مع المسيحية فى بداية أمرها كمذهب سياسى معاد للإمبراطورية، ومن النتائج أيضاً أن مصر خرجت من الصراع الدينى بوحدة دينية متماسكة، وأنه كان لعصر مدرسة كبيرة واحدة، وهى مدرسة الإسكندرية.

بينما نجد أن النظام اليونانى كان له أثره الكبير على بلاد الشام -ربما حتى يومنا هذا- بدليل أننا نجد أن كل مدينة كانت تعتبر دولة فى حضارتها وثقافتها.

ونستنتج أيضاً أن مصر لم تتأثر بأى مذهب من المذاهب المسيحية التى سادت المنطقة فى تلك المرحلة، والدليل على ذلك أن نسطوريوس الذى نفى إلى مصر لم يتمكن من نشر مذهبه داخل البلاد، بينما انتشر مذهبه إلى الشرق حتى عمق آسيا والصين.

وفى الوقت نفسه أثرت مصر كثيراً على بلاد الشام وأبعد منها، وغلم القديس أنثاسيوس الغرب الأوروبى الرهبانية، وانتشر المذهب الأريوسى بعيداً حتى وصل إلى معظم القبائل الجرمانية فى أوروبا الشرقية والغربية وظل حتى نهاية القرن الثامن الميلادى تقريباً.

١

الانجاء نمو الكلاسيكية في فنون الكتاب في حوض البحر الأبيض المتوسط

بحث في الفنون التشكيلية والتعبيرية - أحد محاور المؤتمر

بحث مقلّم من

الدكتور

بدر الدين عوض بدر عوض

الاتجاه نحو الكلاسيكية في فنون الكتاب

في حوض البحر الأبيض المتوسط

مقدمة :

إن قدرة الناس الجماعية على تشكيل المستقبل هي أكبر الآن من أي وقت مضى، وباتت الحاجة ملحة إلى ممارستها، والتحدى الرئيس الذي يجابه هذا الجيل هو حشد تلك القدرة من أجل جعل الحياة في القرن الحادي والعشرين أكثر ديمقراطية، وأكثر أمناً واستمرارية. فالعالم في حاجة إلى رؤية جديدة يمكن أن تحرك البشر في كل مكان لتحقيق مستويات أعلى من التعاون في المجالات ذات الاهتمام والمصير المشترك.

فالجوار الذي هو مدى القرب، وجغرافية المكان (ولا الروابط المجتمعية أو القيم المشتركة) هي التي تجمع بين الجيران، وقد لا يميل بعضهم إلى بعض وقد تنعدم الثقة فيما بينهم وقد تصل إلى حد الخوف أو التجاهل أو التجنب، ولكنهم لا يستطيعون الهرب من الآثار المترتبة على مشاركتهم المكان. وهذا الجوار، يصوغ روابط جديدة للصدقة والمصلحة، ولكنها تخلق توترات جديدة أيضاً، ويثبت لنا التاريخ أن المجتمعات ذات الثقافات المتعددة تواجه على الدوام مثل هذه التوترات، وأيضاً كثيراً ما فشلت الدول المتقدمة في التوفيق بين المجتمع والأرض من خلال استبدال الوطنية بمصادر الهوية المترسخة، دينية أو عرقية أو لغوية داخلها أو خارجها داخل مستعمراتها أو تلك الدول التي تسيطر عليها اقتصادياً وسياسياً أو عن طريق الجوار مع آخرين^(١)، وقد تكون مثل هذه الأحداث مجتمعة سبباً لظهور أنواع من الأنشطة الإنسانية التي تفيد البشر.

^(١) جبران في عالم واحد Our Global Neighbourhood - نص تقرير لجنة "إدارة شؤون المجتمع العالمي" - ترجمة مجموعة من الباحثين، مراجعة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٠١، صادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع الآخر ١٤١٦هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٩٥م، ص ٢١، ٦٤.

ولأن العمل الفني ما هو إلا صورة للتجربة الفنية التي لا تتبع فقط من مجرد تفكير أو تأمل ذاتي وإنما أيضاً من خلال مجموعة ضرورات تفرض نفسها على الإنسان الفنان كما يجيء موضوعه الفني منطقياً على أثر ساكن لمسار حقيقته نشاط بشري من خلال حركة إنتاجية، فالفن لا يوجد إلا حينما تكون (اليدي) قد تحركت سواء أكان ذلك لكي تخط كلمات أم لكي تحدث إيقاعات ... إلخ، ولأن الفن "عمل اجتماعي" Travail Social لذا نظر إليه على الدوام نظرة جدية وليس مجرد استجابة لتلك الحاجة البشرية إلى بذل نشاط حر دون استهداف أى غرض وإنما ينطوى على كثير من التفكير والتنظيم والجهد والتصميم الذى يصوغ طابعاً إنسانياً استيطيقياً^(١) ليأتى بأشياء محببة إلى النفس^(٢).

حيوية الفن لدى قاطنى حوض البحر الأبيض المتوسط:

لأهمية هذه المنطقة واعتدال مناخها وموقعها الجغرافى المتميز كان طبعياً أن يسكنها أفراد منشئين حضارات تطورت مع مرور الزمن وصارت ذات تأثير مباشر وممتد الأثر على امتداد ساحل جنوبى أوروبا وغربى آسيا وشمالى أفريقيا وأن تنتقل حضاراتها شمالاً وشرقاً وجنوباً لتمتلك السيادة على المنطقة وما حولها فكادت تغير وجه العالم أجمع^(٣).

^(١) "الموضوع الاستيطيقي" نسبة إلى الاستطيقية L'Esthetique - هو الموضوع الحسى الذى يستأثر بانتباهنا، دون أن يحيلنا إلى شيء آخر يخرج عنه لأنه "غاية فى ذاته" من جهة، ولأنه لا ينطوى على أى فاصل بين المادة والصورة من جهة أخرى. فالموضوع الاستيطيقي بهذا المعنى إنما هو ذلك الموضوع المحسوس الذى لا تبقى مادته إلا إذا ظل محتفظاً بصورته.

^(٢) ذكرى إبراهيم، مشكلة الفن، الجزء الثالث من مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ص ٥، ٢٧، ٢٨، ١٠٦، ١٠٧.

^(٣) فى جنوب شرقى آسيا على سبيل المثال انفردت حضاراتها ذات التاريخ العريق بتأثير مباشر على المنطقة المحيطة بها لفترة زمنية طويلة كما حددتها عقائد وفلسفات خاصة.

وبنظرة شمولية وإذا ما نحينا اختلاف الثقافات وتنوعها بين شعوب منطقة ما تطل على البحار أو حول الأنهار نلاحظ (على حد قول هربرت ريد Herbert Read ١٨٩٣ - ١٩٦٨م) اتفاقاً حددته أساساً البيئة المحيطة بهم^(١)، فأنج فنانونها (وكذلك ما قدمه الإنسان الأول فيها منذ القدم) فناً حيويًا تعاطف مع الطبيعة^(٢)، وتبنى كثير منهم الانحناءات العضوية (أو ما نسميه الطريقة العضوية في التعبير الفني)^(٣)، وأضافوا إلى حيويتها. فهذا كان على الدوام فن الشواطئ معتدلة المناخ والأراضي المثمرة منذ سكنها أفراد الشعوب اللاكثائية^(٤)، وبدأوا في تقديم فن تميز بالابتهاج بالحياة، والثقة في العالم، فالنباتات والحيوانات والناس يرسمون بعناية مصوغة بالحب، ويقدروا ما بعد فنهم عن التقليد الدقيق، فإنه يمضي في اتجاه تعميق الدافع الحيوي، وكان طبعياً أن

^(١) وبالتبعية انتقال التأثير بشكل مباشر أو غير مباشر من منطقة إلى أخرى تبعاً للتطور الحضاري وازدياد الكثافة السكانية ونمو العلاقات المتبادلة.

^(٢) هذا على الرغم من خشية لقوتها ولجونه إلى محاولات لأجل السيطرة عليها والتحكم فيها بشئى الوسائل الممكنة لديه وتبعاً لتطوره حضارياً.

^(٣) الشكل العضوي ينتمي لكل ما له علاقة بالكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات وهي تلك الموجودات التي تمتلك القدرة على التماسك والتنفس ويدخل في ذلك النطاق أى خط منحنى وكذلك الدائرة لأنها تتبنى الانحناء المميزة للشكل العضوي.

^(٤) اللاكثائية "Non Literate" يعود هذا المصطلح إلى عام ١٩٤٨م وقدمه الأنثروبولوجي م.ج. هرشكوفيتز M.J. Herskovits الأمريكي وعضده كثيرون وتم تعميمه حيث يخطئون وصف البدائيين ويفضلون وصفهم بأنهم (بدون كتابة) واختلفت الآراء في قبول أو عدم قبول هذه التسمية، ولكننا نميل إلى وصفهم بكونهم شعوباً لا كتابية - أشلي مولتاغيو - البدائية، ترجمة محمد عصفور، عدد ٥٣، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رجب ١٤٢٠هـ / مايو ١٩٨٢م، ص ٥٥، ٥٦، والتر ج. أونج، للشغافية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، مراجعة محمد عصفور، عدد ١٨٢، من السلسلة نفسها، شعبان ١٤١٤هـ / فبراير ١٩٩٤م، ص ٦٢، ٣١٢، ٣١٣.

يحدث بشكل منظم ومحدد الهدف (لأجل خدمة أغراض بعينها) اندماج بين الطريقة العضوية والطريقة الهندسية في التعبير الفني لديهم مع مرور الزمن مواكبًا مراحل تطور وتقدم شهادتها شعوب البحر الأبيض المتوسط وإن غلب عليهم دومًا تأثير الطريقة العضوية^(١).

ما قبل الكلاسيكية في فنون الكتاب في المنطقة :

يذكر المؤرخون أن على مر تاريخ تطور الكتابة حدث تحول من الرسوم الرمزية إلى أشكال حروف قياسية ثم حدث ذات مرة أن ثبتت أسس لكتابة الرسائل الشفوية واحتوت على تنوع في الأشكال المسجلة، بل ومن مكان إلى آخر وصارت خاضعة لأساسيات ومروط مختلفة^(٢). ومن هنا تكمن حقيقة حول الأبجدية في أنها اخترعت مرة واحدة فقط، وهناك إجماع أنها تمت تدريجيًا على يد الساميين في المنطقة الجغرافية نفسها (التي سكنوها) حيث حدث أن توصلوا إلى اختراع عدد من الحروف يتراوح بين ٢٢ و ٢٨ حرفًا أو علامة يشير كل منها إلى مقطع صوتي وتصادف هذا الابتكار في أوجاريت رأس شم^(٣)، وهي كتابة مسمارية أبجدية تعبر عن لغة سامية كنعانية نشأت خلال القرن ١٤ ق.م. كذلك تصادف هذا الابتكار في مناطق استخدمت كتابات تم اشتقاقها مباشرة من الهيروغليفية والهيرواطيقية المصرية وذلك في جبيل فيلوس

^(١) هربرت ريد، معنى الفن، ترجمة : سامي خشبة، مراجعة مصطفى حبيب، الكتاب الرابع من سلسلة كتابات تقنية، ١٥ نوفمبر ١٩٩٠، الهيئة العامة لتصور الثقافة، ص ٤٥، ٤٦، ولقد أخذت عنه معظم المعلومات المعطولة بحيرة الفن لدى فاطمي حوض البحر الأبيض المتوسط.

^(٢) Judy Martin - The complete guide to colligraphy, Techn, Jques and Materials, Phoinan, Oxford, Great Bridion, 1984, Scound, Editions, 1988, p. 74.

^(٣) كانت تقع في الجزء الشمالي من شرق البحر المتوسط، وكما اشتقت هذه الكتابة من الكتابة المسمارية اشتقت كتابة أخرى وهي الفارسية القديمة وبالطبع السومرية والبابلية والآشورية أيضًا.

القديمة^(١) وكذلك في سيناء وفي اليمن^(٢). أما الكتابات الأخرى التي اشتقت من الهيروغليفية واستخدمت في جزيرة كريت وأخرى في قبرص وأيضاً الكتابة المرونية فلقد تقلص التعامل بها^(٣).

وقد مرت الكتابتان سواء المسمارية أم الهيروغليفية بعدة مراحل في اتجاه الشكل النهائي الذي ظهرت عليه كما يتأكد لنا أن خطوط الكتابة (بشكل عام) ذات سوابق معقدة^(٤)، أما أهم مراحل تطور أحرف الكتابة فيرصد المؤرخون اشتقاق كتابات المسند^(٥) وأخرى حدثت على أيدي الفينيقيين

^(١) وهي إحدى مدن الكنعانيين في شرق البحر الأبيض المتوسط، وحروف الهجاء الجبيلية تعود إلى ٢٠٠٠ : ١٨٠٠ عام ق.م.

^(٢) أخذت الكتابة السينائية حروفها من نسق الهيراطيقية التي انبثقت رأساً من الهيروغليفية والهيراطيقية رموزاً صوتية متحولة إلى حروف هجاء مبسطة وتوصل إليها المصريون حين لاحظوا تزايدتقل النقوش الهيروغليفية (ذات الشكل الفني بالإضافة إلى مقاصد معلومات مبلغة) في الاستعمالات اليومية، فبدلاً من التخلي عن النظام الصالح لحروف الهجاء الحقيقية اتجهوا إلى هذا التطوير المطلوب وعرف باسم الهيراطيقية رغبة في تبسيط النصوص المكتوبة، شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء، دراسات في الكتب والمعلومات، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ص ٧.

Joyce Milton, "Sunrise of Power", Ancient Egypt, Alexander and the world of Hellenism - cassell, London, printed in Italy, 1980, p. 20.

^(٣) شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء، ص ٧٨، مرجع سابق.

^(٤) ولمزيد من التفاصيل والتعرف على مراحل التحول يرجى العودة إلى إميل يعقوب، الخط العربي، نشأته - تطوره - مشكلاته - دعوات إصلاحه، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ١٣ : ١٩.

^(٥) عرف الخط المسند (الحميري) في جنوبي الجزيرة العربية (في اليمن وماحولها في الوقت نفسه تقريباً) الذي عرف فيه الخط الفيلقي وهو حوالى القرن ١٣ أو ١٢ ق م) ويعيدها المؤرخون إلى الكتابة السينائية، ويطلق عليها "الكتابات العربية الجنوبية، وأنتج الخط المسند خطوطاً مشتقة منها الصولية (نسبة إلى منطقة الصفاة في حوران)، والشمودية (نسبة إلى قبيلة شؤد البائدة وشملت مناطق في نجد والحجاز وسيلاء وحوران والصفاة، إلى الشرق من دمشق)، والحيالية (في منطقة العلا وما حولها في شمالي الحجاز) - =

Phoenician من الكتابة السينائية. والفينيقيون سكنوا الشريط الساحلي لسوريا ولبنان منذ الألف الثالثة ق.م. ومارسوا التجارة منذ وقت مبكر مما يسر لهم إقامة علاقات مع الجوار، ووضعوا نمطاً جديداً في نهاية الألف الثانية ق.م. - من الحروف أظهرت اندماجاً بين أحرف الكتابة السينائية والأوْجارتية فنشأت أبجدية ذات أحرف رمزية شديدة التجريد للتعبير الصوتي وقرينة الشبه بعناصر من مكونات الطيور وحركات طيراتها، وحيث عاشت الثقافة الفينيقية فترة تحت الحكم الآشوري الذي غزا بلادها ما بين عامي ٨٥٠ : ٧٢٢ ق.م^(١) كانت

والحميرية التي اشتق منها الخط الآثوبي (الحبشي) وهذا الأخير يرجع إلى القرن ٢م، كما لم تنتج أية اشتقاقات أخرى من المسند.

- شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية، في رحلة النشوء والارتقاء، ص ١٥٩، ٦٠، مرجع سابق.

^(١) ظلت المملكة المصرية أمم مملكة في العالم لحقب طويلة من الزمن ولم تنافسها في الوجود مملكة أخرى حتى عام ٢٣٠٠ ق.م وهو الوقت الذي قام فيه سرجون الأكبر بتوحيد ميزوبوتاميا Mesopotamia (بلاد ما بين النهرين - العراق حالياً). وبعد نحو ألف عام أخرى، لم يكن في العالم سوى ثلاث دول كبرى هي :

١- الإمبراطورية المصرية (التي ضمت المناطق الفلسطينية) وبالتالي انكسرت طرق الكتابة الهيروغليفية والهيروغليفية إلى هذه المناطق القريبة من الفينيقين مما سهل عملية النقل عنها.

٢- للدولة الآشورية (١٧٠٠ - ٦١٢ ق.م).

٣- إمبراطورية الحيثيين (التي تركزت في النصف الشرقي من تركيا وواكبت فترة حكم الدولة الحديثة المصرية بعد عام ١٥٠٠ ق.م، ومع بدء الألف الأولى قبل الميلاد شملت إمبراطوريتهم مناطق سوريا ولبنان (حيث سكن الفينيقيون) وبلاد الأناضول، ولقد انتهت كتابة الحيثيين من الهيروغليفية والهيروغليفية المصرية (وكذلك نقلوا عنهم رموزاً لألها ووضعوا لها مسميات خاصة) (شكل ١)، هذا إلى جانب تأثرهم بفنون بلاد النهرين والحظ حدوث ذلك في فترة حكم الهكسوس (ملوك الرعاة) للجزء الشمالي من مصر لمدة قرن ونصف (منذ حوالي عام ١٧٠٠ ق.م) حيث شغل الهكسوس قبائل شير متحضرة نزحت من إقليم "ميتاني Mitoni شمال سوريا - بعد أن انضم إليهم بعض قبائل من الحوريين والكنعانيين وهو الصحراء، وكان الحوريون يقطنون شمال سوريا ونقلوا - كثيرًا من فنون بلاد النهرين ومصر إلى بلادهم، وكانت هناك مظاهر مشتركة كثيرة

حروف الهجاء الفينيقية (شكل ٢) قد اثبتت وتأسست، ويعيد الباحثون لهم الفضل في نقل حروفهم الهجائية إلى مناطق عدة في العالم لتشتق أبجديات عدة منها^(١).
الطريق نحو اثبات الأبجديات من محصلة الفينيقيين :

على الرغم من أن الثقافة الفينيقية عاشت فترة تحت الحكم الآشوري وسيطرة هذا الحكم على معظم دول الشرق الأدنى، نجد أن مدينة "صور" الفينيقية ذات الموقع الحصين^(٢)، امتلكت أقوى أسطول في منطقة البحر

في فنون الحيشين والحريين لدرجة أنه يصعب فصل أحد التين عن الآخر، لاسيما عندما يكون الأسلوب غير معتمد على فنون بلاد النهرين وأواسط سوريا وجنوبها.
^(١) تم اشتقاق الكتابات : الموابية (لغة كنعانية عملت في منطقة المواب في شرق الأردن)، والبولقية، والأرامية (نسبة لشعب سامي ظهر تاريخيًا بعد الفينيقيين واستقروا في مناطق واسعة في سوريا وبلاد الرافدين وكان لهم احتكاك مباشر بالفينيقيين)، والعبرية القديمة (وهي مطابقة للكتابة الفينيقية واستمر العمل بها حتى القرن الخامس بعد الميلاد أي بعد السبي" حين أحلوا محلها الخط العبري المربع الذي أخذوه في عهد عزرا من الأرامية)، والخرسانية (تم اشتقاقها منذ القرن الخامس قبل الميلاد وعملت في الهند واخترت الآن)، والبراهماتية (اشتقت أيضًا منذ القرن الخامس قبل الميلاد واسمها يعود إلى مشتقها براهما وهذه ما تزال موجودة إلى الآن)، والبولية (وصلت في شمال أفريقيا منذ القرن ٨ ق-م وتطورت بعد ذلك من بعد عام ١٤٦ ق-م ليعمل بهذا التطور حتى القرن ٦م)، وأخيرًا البالية ومن هذه جميعًا بدأ انتشار الأبجديات في العالم كله.

- كولين ماكغيلد، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص ٤٣، ٤٥، لغت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، الطبعة الثالثة المعدلة، ١٩٧٩، دار المعارف صفحات ١٥، ١٨، ١٨٧، ١٩٧ : ٢٠٩، ٢٦١. ولترج -لونج- الشفاهية والكتابية، ص ١٧٣، مرجع سابق، الكسندر سبتشيفتش، تاريخ الكتاب، الجزء الأول، ترجمة محمد م. الأرنؤوط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٦٩، يناير ١٩٩٣، ص ٣١، شعبان عيد العزيز خليفة، الكتابة العربية في رحلة للنشوء والارتقاء، ص ٧، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ٧٨، مرجع سابق.

Judy Martin, the complete guide to calligraphy, p. 17.

^(٢) كانت صور جزيرة صغيرة قرب الشاطئ اللبناني شرق البحر الأبيض المتوسط.

المتوسط، أما قوة اقتصادهم (الفينيقيون بوجه عام و"صور" بشكل خاص) فترجع إلى اكتشافهم أسرار مناجم الفضة في أسبانيا (على الرغم من بعد المسافة بين المنطقتين) وقيامهم أيضًا بتأمين وحماية الطريق البحري الذي يربط بين مدينتهم والسواحل الأسبانية، فأنشأوا مجموعة من التحصينات في شكل مستعمرات في منطقة البحر المتوسط المتحصر بين سواحل تونس وسواحل جزيرة صقلية^(١)، وبالتالي صارت بعض المستعمرات (في ساحل تونس مدناً قوية وغنية بل وناست في قوتها وغناها مدينة صور نفسها، حيث تظهر أهمية مدينتي قرطاج، وأوتيكا^(٢)) في أنهما أدخلتا الحضارة إلى مناطق شمال أفريقيا الغربية وعن طريقهما عرفت تلك المناطق حرف الزراعة والتعدين وفنون الكتاب^(٣).

العصر اليوناني الروماني :

على الرغم من سيادة الفرس^(٤) (الذين اشتقوا كتاباتهم القديمة من الكتابة المسمارية مباشرة^(٥)) على جزء كبير من شمال أفريقيا مع نهاية القرن ٦ ق.م،

^(١) وذلك لضمان الدفاع عن هذا الطريق البحري ضد أية دولة تفكر في المنافسة أو في استخدام هذا الطريق.

^(٢) من أقوى المستعمرات الفينيقية في ذلك الوقت على سواحل تونس.

^(٣) استطاع القرطاجيون أخيراً الاستقلال عن صور وأنشأوا لأنفسهم إمبراطورية مستقلة في شمال أفريقيا.

^(٤) مع نهاية القرن ٦ ق.م، وبداية الخامس ق.م، زالت إمبراطورية الآشوريين وحلت مكانها الإمبراطورية الفارسية التي ضمت مناطق الشرق الأدنى جميعاً وامتد نطاقها من حدود أوروبا حتى الهند وجزءاً كبيراً من شمال أفريقيا حيث احتل لميز مصر عام ٥٢٥ ق.م وأيضاً برقة (سبرتيكا Cyrenaica) التي ينسب اسمها إلى سيرين أو كورنيه، وهي مدينة إفريقية أنشأها الإغريق حوالي عام ٦٢٥ ق.م -كولين ماكيفيدى- أطلس التاريخ الإفريقي، ص ٤٥، ٤٦، ٤٩، مرجع سابق.

^(٥) عثر هنري رولمن أحد موظفي السلك الدبلوماسي البريطاني في إيران عام ١٨٣٥م على حجر في مكان يعلو سطح الأرض بلحو ٣٠٠ قدم في جبال ميديا يحوى أمراً من دارة الأول للحفارين بأن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والآشورية والبابلية حيث أدت الأولى إلى فك رموز الثانية والثالثة لتقاربها في الاشتقاق-

إلا أن هذا لم يمنع الإغريق^(١) من إنشاء مزيد من المدن فى تلك المناطق لتحرير وجودهم فى الجزء الجنوبى الأوسط من أوروبا حتى وصل عدد المدن الإغريقية فى القرن ٨ ق.م فى تلك المنطقة إلى خمس مدن^(٢). وعلى الرغم من قوة المستعمرين إلا أنهم لم يستطيعوا التوغل داخل القارة الأفريقية أو إقامة علاقات مع المجتمعات الإنسانية اللاكتائية التى تقوم بالداخل. ومع ضياع أثر الكريتيين^(٣) والمسينيين^(٤) (الذين مهدا لقيام الحضارة الإغريقية) بعد اجتياح

= بعد ١٢ عامًا. شعبان عهد العزيز خليفة، الكتابة العربية فى رحلة النشوء والارتقاء، ص ١٤، ١٥، مرجع سابق.

^(١) كونتها شعوب نزحت من آسيا الصغرى إلى السواحل الأرخيلية وجرر بحر إيجه وتدخل الآثار لتقى عشر عليها على أنه كانت لديهم حضارات متقدمة ومركزها جزيرة كريت لتقى اشتقت أحرف كتابتها من الهيروغليفية المصرية، واستقر الإغريق فى شبه جزيرة اليونان التى كانت تمكنها عدة قبائل بدائية هاجرت إليها، وكانت أول هجرة فى طريق تحقيق الحضارة الكريتية التى مهدت لحضارة الإغريق فى أوائل العصر البرونزى وقامت بها جماعات نزحت من جنوب غرب آسيا، ثم هجرات متعددة منذ أولسب العصر البرونزى أى بعد عام ٢٠٠٠ ق.م لذلك نجد أن الشعب الإغريقى الذى سكن بلاد اليونان كان يتألف من مجموعة من القبائل تميز منها لريقان (الدوريون الذين تركزوا فى بلاد اليونان والأبوليون الذين استقروا فى بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الشرقى) هذا بالإضافة إلى انتشار لريق من الإغريق بعد ذلك فى الجهة الغربية وأسسوا ولايات مستقلة ولكل منها عاصمة وحكومة وجيش مثل أثينا وكورنثوس وإسبارطة وعلى الرغم من بعض العلاقات إلا أنهم أطلقوا على أنفسهم جميعاً اسم الهيلينيين.

^(٢) كان هذا السبب فى إطلاق الاسم الكلاسيكى على تلك المنطقة وهى "إبنتابوليس" (المدن اللبية الخمسة Libyon pentapolis).

^(٣) سبقت حضارات بحر إيجه جميعاً وتعد أساس الحضارة الإغريقية، وكانت مواكبة لعصر الدولة الوسطى فى مصر وواصلت ازدهارها فى أواخر العصر البرونزى الذى عاصر أوائل الدولة الحديثة فى مصر، ونمر الدوريون حضارة كريت عام ١٤٠٠ ق.م. تماماً.

^(٤) على الرغم من أن مسينيا تقع فى بلاد اليونان، ويرجع أصل شعبها إلى السلالة الإغريقية إلا أن حضارتهم وفنولهم كانت متأثرة أكثر بحضارة كريت وفنونها، وكانت حضارة مسينيا معاصرة للدولة الحديثة فى مصر ونشرت من قبل الدوريين عام ١١٠٠ ق.م

تبادل الدوريين لهم من الشمال، حدث تأثر (هذه القبائل) بالحضارات السابقة وامتصتها، وأخرجوا من هذه الفنون المجتمعة فناً جديداً خاصاً بهم تميز بطابع نردى لم يعرف من قبل لدى شعوب العالم القديم، وما يعيننا هنا هو أن حضارة كريت أبدت تأثراً واضحاً بالحضارة المصرية الموائمة لها واستعاروا بمهندسين معماريين من مصر (وأيضاً مع حضارة ميسينا) وكذلك الحال في الرسوم الجدارية وفنون الكتاب بل ونسق الإخراج الفني وأسلوب الرسم (مع إضافة إحساس بالعمق)^(١) ... وغيرها.

ويرد المؤرخون سبب هذا التأثير لكون مصر في عصر الدولة الحديثة قد باتت قوية يتقرب الملوك إليها بإرسال الهدايا الثمينة وأيضاً كانت للعلاقات التجارية المتبادلة تأثيرها على فنون كريت وبالقالي ميسينا ويظهر ذلك واضحاً في موضوعات الرسوم الجدارية^(٢).

وعندما اجتاحت الدوريون جزيرة كريت وميسينا (وهو ما يمكن أن نطلق عليه امتصاص لحضارتها) واستتباب الأمور، أتت فترة تشكيل الحضارة الإغريقية في المدة من ١١٠٠ إلى ٧٠٠ ق.م^(٣) ولتبدأ الفترة البدائية للفنون الإغريقية التي انحصرت بين عامي (٦٦٠ و ٤٨٠ ق.م) ويلاحظ فيها تأثر النحات المباشر بالنماذج المصرية وذلك لتنفيذ تماثيل الآلهة الخاصة بهم، ويتضح من الأمثلة العديدة المأخوذة من هذا الوقت عدم التوصل إلى التعبير عن

^(١) ولمزيد من التفاصيل والتعرف على مثل هذه الأمثلة يرجع إلى نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، صفحات ٢٦٦، ٢٦٧ : ٢٧٢، مرجع سابق.

^(٢) هذا إلى جانب وجود تشابه كبير بين عمارة المقابر عند المصريين الموجودة في طيبة وميسينا التي استعانت بمهندسين مصريين من طيبة وبلغت عمارة المقابر الملكية شأناً عظيماً عندهم منذ عام ١٣٠٠ ق.م وكذلك طرق تكفين الجثث وتغطية وجوههم بأثمنة من الذهب مشابهة لتلك المستعملة في الدولة الحديثة بمصر كذلك وجد تأثر برموز من الديانة المصرية وبفكرتها العامة.

^(٣) وكان أول تاريخ ثابت لظهورهم عام ٧٧٦ ق.م الذي أكلوا فيه الألعاب الأولمبية.



(٤) (أ) تنال سائق العمرة ، موزع ٤٧٥ - ٤٢٠ ق م ، مللي .

(ب) تنال رأس القرص ، من صنع الفخار " حرون " ، ٤١٠ - ٤٥٠ ق م ، نسخة رونالديس -

محفف قرص ، ريبا .

(٥) تنال من العصر الآشوري الجديد لكاتب ، ريبا ، ملك الآله ليلبر ، ٦٠٠ ق م - نظام محفف .

السروريلجان - سوروك .

جمال الجسم البشرى^(١)، ومن بعد بدأ التحول شيئاً فشيئاً نحو فهم وإدراك تكوين الجسم البشرى وطرق التعبير عن الحركة والإحساس أو نى التعبير عن ثانياً النفس أو فى التكوين لتبدأ الفترة الكلاسيكية بين عامى (٤٨٠ - ٤٥٠ ق.م) (شكل ٤، أ، ب)، مصاحبة لبدا الزعامة الإغريقية وظهورها كقوة سياسية وعسكرية فى الغرب^(٢) ووصولهم بدياناتهم وفنونهم إلى مرحلة متقدمة أزهلت العالم واشتهر من بينهم الفلاسفة بركليس وسقراط وأفلاطون وأرسطو الذين تبنت الفنون آرائهم^(٣) منذ القرن ٥ ق.م فبدأ اهتمام الفنان بالفرد العادى وتحضره من قيود التقاليد الدينية^(٤)، وهذه الظاهرة الجديدة لم تعرف عند شعوب الشرق الأوسط القديم التى كانت تمحو الفردية وتسعى إلى تقديس الآلهة وإرضائها^(٥). واستمرت هذه الحال حتى وفاة الإسكندر الأكبر (ملك مقدونيا)^(٦) عام ٣٢٣ ق.م حيث تحول الفن الإغريقى وحتى عام ١١٠ ق.م نحو طابع جديد

^(١) ومن الأمثلة التى توضح ذلك كما توضح القائر بنسق النماذج المصرية تمثال الإله "أبولو" إله الشمس الذى يرجع إلى عام ٥٢٠ ق.م (شكل ٣).
^(٢) تنازع الإغريق السلطة مع ملوك الفرس (كورش ودارا) وانتهى الصراع بين الشرق والغرب بانتصار الإسكندر المقدونى على آخر حكام الفرس بعد لتصاره على شبه جزيرة اليونان وحكمها.

^(٣) التى كانت تبحث فى ماهية الفن وأهدله من الناحية الفلسفية.
^(٤) قدس الإغريق قوى الطبيعة واعتقدوا أن لكل منها إله يسيطر عليها وربما كان لمصر بعض التأثير عليهم فى ذلك، وهذه الآلهة إما ذكور أو إناث وترتبط بيلهم صلات لربى وكبيرهم زيوس ويقبمون فوق قمة جبل الأولمب.

^(٥) مع الحفاظ على اتباع الطريقة نفسها التى أدم عليها المصريون، حيث جاءت الآلهة على صورة تماثيل ورسوم جدارية، وصور الإغريق ألهمت ذكوراً وإناثاً فى شكل تماثيل حجرية كبيرة وشيدوا لها المعابد الضخمة لوضعها فيها.

^(٦) فيما بين عامى ٣٣٤، و ٣٢٥ ق.م استولى الإسكندر المقدونى على إمبراطورية الفرس واستسلمت للحامية الفارسية التى كانت تحتل مصر لجيشه بدون مقاومة، وتم اختيار الإسكندر لتكون عاصمة جديدة وأيضاً توجه الإسكندر غرباً نحو الصحراء الليبية، وبعد وفاته تم تقسيم الإمبراطورية بين كبار قادة جيوشه، وصارت مصر من نصيب-

تركز في فترة الفن الهليني وظهر في المعالِك المختلفة التي كانت تحت سيطرة الإسكندر وخلفائه خارج بلاد الإغريق، فكان المثالون في هذه البلاد أكثر الفنانين إنتاجًا وتميز أسلوبهم بالواقعية التي تصور الحقيقة مع تصوير الأجسام في حركات عنيفة مختلفة وأظهروا الشعور بالألم أو الحزن أو الخوف وتصوير الأفراد في جميع مراحل العمر المختلفة (شكل ٥).

أما بالنسبة لأحرف الهجاء فقد تبني اليونانيون أحرف الهجاء الفينيقية قبل عام ٨٥٠ ق.م وأدخلوا عليها تعديلات مع إضافة بعض الرموز لتؤدي دور الأحرف المتحركة بدلاً من استخدامها ساكنة، كما أبقوا على أسماء الأحرف كما أطلقها الفينيقيون مع شيء من التعديل وخلال عام ٤٠٠ ق.م انتهوا من تكوين حروفهم وسميت بالخط الأيوني ^(١) Ionie (شكل ٦).

= "بطليموس Ptolemy" (الذي أسس المملكة البطلمية فيها)، أما معظم أراضي الإمبراطورية الأخرى فصارت من نصيب قائد آخر هو "سلوكس Seleucus" الذي أسس مملكة للسلوقيين، ودارت بينهما صراعات مريرة في شرقي البحر الأبيض المتوسط (وإن كانت غير حاسمة) من أجل أن تسيطر إحداهما على فلسطين.

^(٢) ممثلة للهجة الأيونية التي كانت إحدى لهجات اللغة اليونانية القديمة وتطور ليحل جميع الاختلافات المحلية في أشكال حروف الهجاء الفينيقية كما يبدو من التسمية لأن هذا التطوير حدث على أيدي الأيونيين الذين استقروا في بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الشرقي حيث كانوا أقرب القبائل اليونانية سكاناً لمناطق تحكم الفينيقيين وللمزيد من المعلومات يرجع إلى :

Judy Martin, the complete guide to colligraphy, p. 41 : 45.

مرجع سابق

وعلى رغم وجود عصر البطالمة في مصر من بعد وفاة الإسكندر إلا أن اللغة اليونانية لم تحل محل الهيروغليفية الديموطيقية المصرية، فحتى عام ١٩٦ ق.م (وبعد ذلك) كانت الكتابات الثلاث تستعمل في مصر كل في موضعها، ولم يكن (الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه كذلك) اليونانيون القاطنون في البلاد ذوي إصرار على التخلص من اللغات الوطنية ذات الصلة العميقة بالشعب ودياناته، ويؤكد ذلك حجر رشيد الذي نفذ في العام نفسه ويعود إليه فضل الكشف عن أسرار الحضارة المصرية على يدى "جين فرانسواز شامبليون Jeon - F. Champollion" (١٧٩٠ - ١٨٣٧م) الذي فك الرموز عام ١٨٢٢م. نصت إسماعيل عليم، فنون الشرق الأوسط في العالم القديم، ص ٢٦٣ : ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٦، مرجع سابق، كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ص ٤٩، ٥١، مرجع سابق.



(أ)



(ب)

- (شكل ٥) (أ) تمثال مدينة ترمز إلى مدينة أنطاكية ، من صق النقال ابوتشيدي ، ٢٠٠ ق م - سخته رومانية ، متحف الفانتيكان ، روما .
 (ب) تمثال لهروديت جلوس ، ٢٠٠ ق م - متحف اللوفر ، باريس .



- (شكل ٦) قطعة من الرخام الأبيض سفذ عليها بالآزمل أحرف ثلاثة لحروف الهجاء الانغريقية التي تنسجرت من الكتابه الفيبقيه .

وخلال القرن السابع ق.م استخدمها الأتروسكيون Etruscon^(١) إلا أنهم تخلوا عن هذه الأحرف وامتلكوا أحرفاً هجائية خاصة بهم انبثقت أيضاً من الأحرف اليونانية (شكل ٧) وبعد خوض حروب بينهم وبين أهل مدينة روما^(٢)

^(١) هاجروا من ليديا موطنهم الأصلي بآسيا الصغرى واستقروا في الجزء الشمالي من إيطاليا وفي المنطقة المعروفة باسم توسكانيا (الآن). ومع إنشائهم لواحدة من أهم الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط في الجزء الغربي من إيطاليا واستعمارهم الجبهة الرومانية طوال العدة بين القرنين ٨ و ٣ ق.م حيث عاصر بزوغ حضارتهم للعصر البدائي في بلاد الإغريق، وحدث في أوائل القرن ٥ ق.م. أن قاتلوا بقون آسيا الصغرى وبلاد الشرق الأوسط القديم وانتشرت أساليب معمارية وفنية لم يكن يعرفها الإغريق مثل فن تشييد القباب والقنود التي برع فيها أهل بابل وآشور ومصر وكذلك الحال في أعمال الرسوم والتماثيل والتصوير الجداري.

^(٢) انتصر الرومان في نهاية الأمر ودامت لهم السيطرة على إيطاليا ثم اكتملت لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط بعد انتصارهم على قرطاج واستيلائها على ممتلكات الإغريق في شبه الجزيرة اليونانية قرب عام ١١٠ ق.م وفي الممالك التي كانت تتبعها في الخارج وأسست الإمبراطورية في عهد أغسطس واتخذ الرومان من أenea الإغريق آلهة لهم وأطلقوا عليها أسماء رومانية وأقاموا لها المعابد.

أما القرطاجيون الذين سبق وانفصلوا عن القنيتيين مستقلين عنهم وبطل الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا محتفظاً بسيطرتهم (أجزاء كبيرة من سواحل تونس والمستوطنات القنيتية السابقة على الساحل الليبي وتلك الأخيرة التي أطلق عليها القنيتيون فيما سبق اسم تريبوليتانيا Tripolitania أي المستوطنات الثلاث (طرابلس)). فلقد نشب بينهم وبين الرومان في غرب البحر المتوسط نزاع من أجل محاولة السيطرة والهيمنة على العالم الكلاسيكي القديم حيث حسم ذلك الرومان في مولعة Zama سنة ٢٠٢ ق.م بتونس وبمصادرة إقليم في شمال غرب أفريقيا مكان الجزائر تقريباً (وهو إقليم نومديا - واستقل عام ٢٠١ ق.م إلا أنه ناصر القائد الروماني بومبي ضد ليصر عام ٤٧ / ٤٦ ق.م. ومع انتصار الأخير تحولت إلى ولاية رومانية، ثم غزاها الفاندال في القرن ٥ م ثم العرب في القرن ٨م).

لعل البرغم من هزيمة القرطاجيون ولقد تم (هاتينال) في مولعة زاما لم يقم الرومان بضم قرطاج وإنما بتوسيع راحة مملكة البربر الجديدة في نومديا على حساب القرطاجيون.

واستعادة الرومان لأراضيهم منهم خلال القرن ٣ ق.م حدث تقدم سريع للمتحررين ووضعوا تصوراً لحروفهم (خلال العصر الجمهوري - القرن ٣ ق.م : ١١٠ ق.م) (شكل ٨) مبقين على بعض الأحرف الهجائية الخاصة باليونانيين وأضافوا أخرى لتتاسب اللغة الرومانية وهى الأحرف المستخدمة اليوم فى اللغة الإنجليزية^(١).

وعلى الرغم من أن الرومان قد اتخذوا من آلهة الإغريق آلهة لهم مع إطلاق أسماء رومانية عليها وأقاموا لها المعابد إلا أن الشعب الروماني لم يكن دقيقاً فى المرتبة الأولى لذلك لم يكثروا من بناء المعابد، بل كانت العمارات المدنية هى اتجاههم الأول المسيطر على اهتماماتهم وبالطبع ساروا على النهج الكلاسيكى نفسه وما بعده فى أعمال النحت والرسم والتصوير الجدارى، كما اعتمدوا على الفنانين الإغريق فى تنفيذ تلك الأعمال واستجلبوهم من المستعمرات.

وعلى الرغم من التأكيد على وجود رسوم متميزة مصاحبة لكتيب العصر اليوناني والروماني الكلاسيكية وتحمل الصفات المميزة لهذه الفترة وما بعدها، لم يبق لنا من آثارها شيئاً، أما ما تبقى فقد خلا من الرسوم المصاحبة المذكورة عاليه ولكن قليلاً منها يحتوى على رسوم خطية وكروكيات مبسطة

= وبين عامي ١٤٩، ١٤٦ ق.م نشبت حرب أخيرة بين روما وقزطاج لصالح الرومان وصارت ولاية رومانية وعلى مدى قرنين من الزمن كانت جميع مناطق حوض البحر المتوسط ولاية رومانية (وذلك مع السنة الأولى الميلادية) عدا مملكة موريثانيا التى كان يقع مركزها فى مملكة المغرب حالياً.

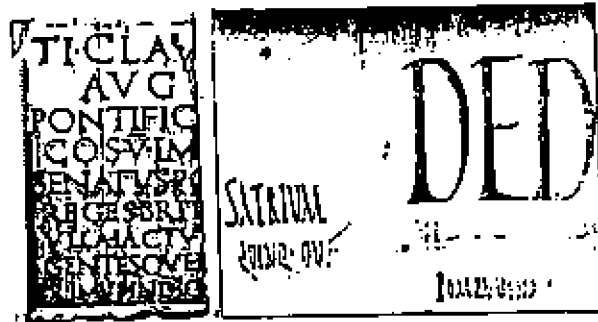
Judy Martin, The complete guide to colligraphy, p. 41, 45.

(١)

مرجع سابق، نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ص ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٠، مرجع سابق، ألكسندر ستيفنشتش، تاريخ الكتاب، الجزء الأول، ص ٧٠ : ٧٢، مرجع سابق، كولن ماكيفيدى، أطلس التاريخ الأفرقي، صفحات ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٥، مرجع سابق.

ΦΒΜΥΧΖΘ

(شكل ٧) نماذج من الأحرف المجاذبة التي كانت نخب الإغريق



(شكل ٨) نماذج من أشكال الكتابة الفنية الرومانية

منفصلة عن متن الكتابة وهى حالات فريدة، هذا ويؤكد الباحثون أن هناك كتباً فقدت وكانت متأثرة بنسق رسوم البرديات المصرية وطرق إخراجها التى انتقلت تأثيراتها عن طريق مدينة الإسكندرية، أما أقدم ما وصل إلينا ويحوى رسوماً مصاحبة متميزة فكان فى عهد متأخر يصل إلى القرن ٤م^(١).

ونخلص إلى القول بأن ما حدث وقت وجود الإغريق من عدم التعدى على لغة شعوب المستعمرات وديانها حدث عكسه عند الرومان ومستعمراتهم تجاه الديانات ولغاتها (وخاصة المسيحية)^(٢). فحين تكونت إمبراطورية ضخمة ومع تآكل الحدود المادية والحدود الأخرى التى تفصل بين المجتمعات والثقافات والدول، بفعل موجات التغير الفكرى والتقى، تتعرض الأفكار المرعوية المتعلقة بالمواطنة، والسيادة، وتقرير المصير، للتحدى. فتغيرات بمثل هذا الحجم تخلق توترات داخل المجتمع، بعض هذه التوترات ينشأ نتيجة لأن الناس يجدون أنفسهم فى مواجهة مستقبل معتد وغير محدد، وينشأ بعضها الآخر نتيجة للصدام بين المألوف والمغاير، ويجد الناس أنفسهم مضطرين إلى التوافق مع الظروف الجديدة، بينما يتصرف كثيرون منهم بشكل مختلف فى الأماكن العامة وفى مكان العمل وفى البيت^(٣).

(١) لعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط والعالم للقديم، صفحات ٣٠٠ : ٣٠٥، مرجع

سابق

David Bland, A History of book Illustration, the Illuminated Manuscript and the printed book, Feber and Faber Limited, London, 1958, p. 25.

(٢) قبل أن تصبح المسيحية الديانة المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية عام ٣١٣م، لاقى المسيحيون وأكباط مصر اضطهاداً مريراً وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى كل بقية أخرى موجودة بالمستعمرات واستمر الاضطهاد لأكباط مصر حتى وقت دخول العرب مصر.

(٣) جبران فى عالم واحد، نص تقرير لجنة (إدارة شئون المجتمع العالمى)، ص ١٦٥، مرجع

سابق.

الأدوات المستخدمة فى أعمال فنون الكتاب حتى السنة الأولى الميلادية فى
حوض البحر الأبيض المتوسط :

- الأحجار : وكان يتم الحفر عليها بواسطة الأزاميل.
- عظام الحيوانات : كان يتم الحفر عليها بواسطة العظم أو المعدن.
- المسطحات الطينية : التى رسم عليها بواسطة البوص قبل أن تجف.
- أوراق البردى : وكانت تحفظ على هيئة لفافات (وهى التى كونت معظم كتب مصر واليونان وروما).

- جلود الحيوانات : رسم عليها بقلم مصنوع من ريش الطيور، ووجد أقدم نص مكتوب بهذه الطريقة على الجلد منذ ١٥ قرن قبل الميلاد، وآخر من بلاد النهرين منذ القرن ٩ ق.م ومنهما وصل إلى بلاد الفينيقيين واليهود والشعوب الأخرى التى كانت تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط.

- الرق : تبع استعمال جلود الحيوانات خلال العصر الهلينستى وأطلق عليه باللاتينية "البرشمان Pergeman" نسبة إلى مدينة برغام الهلينية وطورت فى عهد الملك "أومنس الثانى" فى القرن الثانى ق.م وأتبع قلم ريشة الطائر بأقلام ريشة معدنية Metal pens.

- كتب مخطوطات : 'Codex Books' ذات صفحات مصنوعة من الرق التى تم ثبيتها وربطها بعضها مع بعض فكانت مناسبة فى الحجم والطول وذات قابلية للرسم والكتابة من الجهتين وعرفت منذ عهد الرومان.

- لحاء الأشجار : "Liber" استخدمه اليونانيون والرومان.

- ألواح الشمع : 'Tabellae Ceratae' استخدمه اليونانيون على هيئة ملزمة تحوى صفحات ومنها الحجم الصغير Codecille أو Pugillares .

- الأوانى الفخارية المحطمة : أو 'أوستراكون Ostrakon' مادة الفقراء كما أسماها اليونانيون واستخدمت فى مصر فى شتى العصور عند الرومان وصارت شائعة فى القرن ٣ ق.م واستعملها ألباط مصر حتى قدوم العرب.

وكذلك استخدمت بعض أنواع الأوراق (وبخاصة أوراق النخيل) والعاج والزجاج والطين المحروق والنسيج (البز - لدى الأتروسكينيين والرومان) وجلد الثعبان الذى كتب عليه بماء الذهب، والكتابة على شرائح الذهب والفضة والبرونز والرصاص (والتي استخدمت عند اليونان والرومان فى العصر القديم)^(١).

(١) ألكسندر ستينشليتز، تاريخ الكتاب، الجزء الأول، ص ٧٧ : ٨٣، ٨٥، ٨٦، ١٦٠،

مرجع سابق.

Judy Martin, the complete guide to calligraphy, p. 46, 57, 71.

مرجع سابق.

مراجع البحث باللغة العربية :

- ١- أشلى مونتاغيو، البدائية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٥٣، يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رجب/شعبان ١٤٠٢هـ - مايو ١٩٨٢م.
- ٢- ألكسندر ستيتشفسن، تاريخ الكتاب، الجزء الأول، ترجمة "محمد م. الأرنؤوط"، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٦٩، يناير ١٩٩٣م.
- ٣- المعجم العلمى المصور، الطبعة العربية، إصدار قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بالاتفاق مع دائرة المعارف البريطانية، دار المعارف بالقاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٨م.
- ٤- إميل يعقوب، الخط العربى، نشأته - تطوره - مشكلاته - دعوات إصلاحه - جروس برس، طرابلس - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
- ٥- جبران فى عالم واحد، نص تقرير لجنة 'إدارة شؤون المجتمع العالمى'، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٠١، صادر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع الآخر ١٤١٦هـ - سبتمبر ١٩٩٥م.
- ٦- زكريا إبراهيم، مشكلة الفن، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ١٩٧٩م.
- ٧- شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية فى رحلة النشوء والارتقاء، دراسات فى الكتب والمعلومات، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.
- ٨- كولين ماكيفيدى، أطلس التاريخ الأفرىقى، ترجمة مختار السوفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
- ٩- نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، الطبعة الثالثة المعدلة ١٩٧٩م، دار المعارف.

- ١٠- هـربرت ريد، معنى الفن، ترجمة سامى خشبة، مراجعة مصطفى حبيب، سلسلة كتابات نقدية، الكتاب الرابع ١٥ نوفمبر ١٩٩٠م.
- ١١- والتر ج. أونيغ، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٨٢، شعبان ١٤١٤هـ / فبراير ١٩٩٤م.
- مراجع البحث باللغة الإنجليزية :

- 12- David Blond, History of book Illustration, the Illuminated manuscript and the printed book, Faber and Faber Limited, London, 1958,
- 13- Joyce Milton, Sunrise of power, Ancient Egypt Alexander and the word of Hellenism, Cassell, London, printed in Italy, 1980.
- 14- Judy Martin, the complete guide to calligraphy Techniques and materials, phaimon, Oxford, Great, Brition, 1984, Scound Edition, 1988, Hong Kong.
- 15- Robert Anderson and Ibrahim Fawzy, Egypt Revealed, Scences from Napoleon's Description de L'Egypte, First published in 1987, by the American University in Cairo press, Egypt.

١

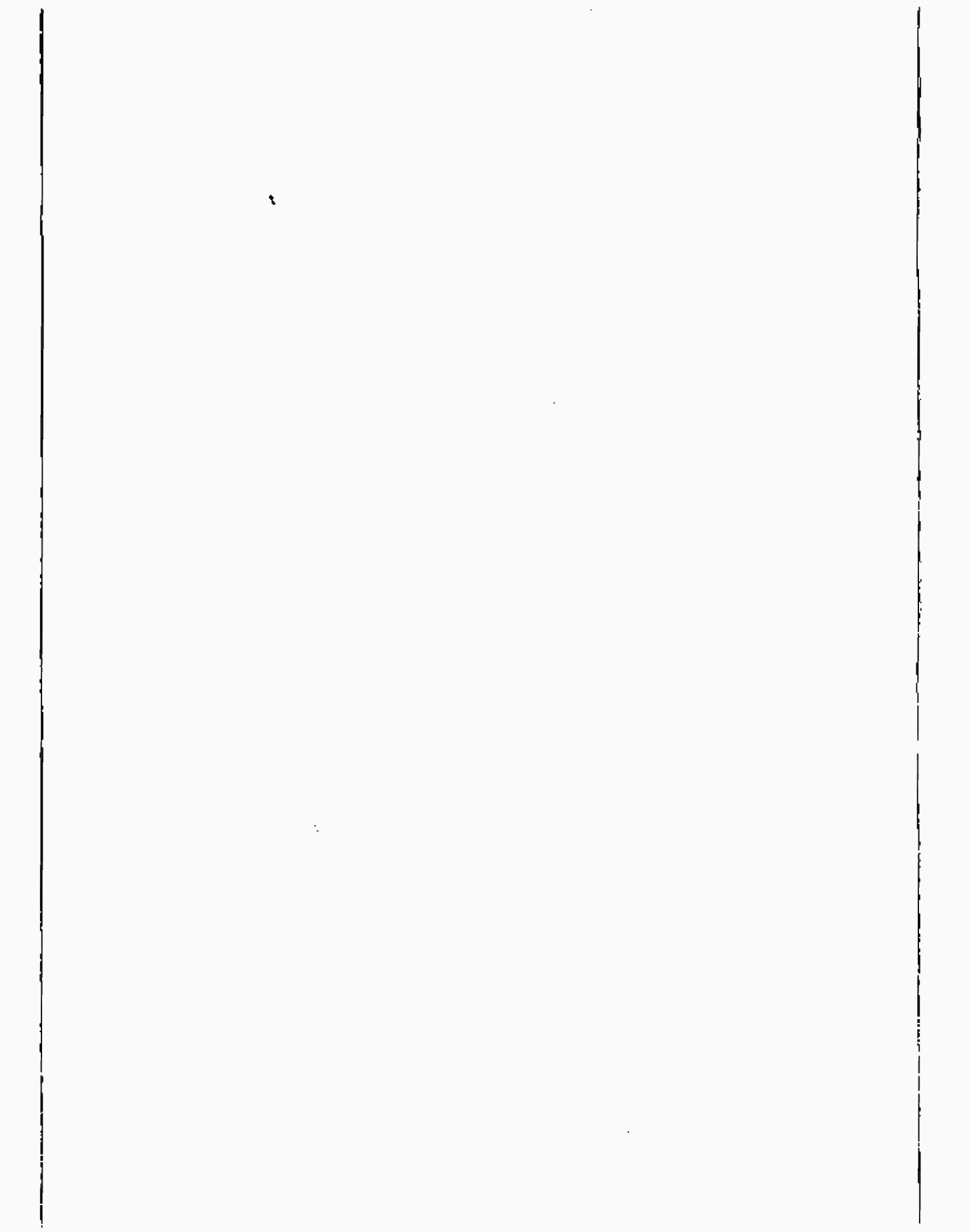
التواصل الحضاري في فن النحت المائنتي

بين شعوب البحر المتوسط القديمة

ضمن محور الفنون التشكيلية والتعبيرية.

بحث مقدم من
الدكتور

د صلاح الدين قمرى عبد الكريم



التواصل الحضاري في فن النحت الهلنستي بين شعوب البحر المتوسط القديمة ضمن محور الفنون التشكيلية والتعبيرية

١

اختلفت العصور وتزامنت، وتدرجت الحضارات القديمة ومضت، لكن هناك حضارات خالدة بفنونها على مر العصور، لا تُنسى أبد الدهر، وفي كل أثر باقٍ منها قيمة تؤكد التواصل الحضاري بين الشعوب، حيث يرتبط وجود الحضارات الإنسانية ارتباطاً وثيقاً بالفن، ولصّة تاريخ الفن هي لصّة تاريخ الحضارة الإنسانية، والخصائص الثقافية لا تنعكس بوضوح، مثلما تنعكس في الفن؛ فالفنون التشكيلية أداة مهمة في استمرار الحضارة، وعامل أساسي في نشاطها وإبداعها وتطورها عبر العصور.

والأثر الفني إلى جانب ذلك يتفاعل مع احتياجات المجتمع وقيمه، بلغة وجدانية وبشكل معين، وبنية ثقافية أساسية وملتزمة للفترة الزمنية نفسها، حيث تتولد لديهم الاهتمامات نفسها، وقد يتواصل مع بعض اتجاهات لمجتمعات المختلفة الأخرى في عصور تالية. على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، وتنوع الثقافات والمعتقدات، والقيم التشكيلية عبر العصور التاريخية.

لقد كان طبعياً أن يبدأ تاريخ الحضارة بين شعوب البحر المتوسط متأثراً بالشرق الذي تزعم الحضارات في عصور سابقة لظهورها في الغرب، وكان يقيم في هذا الجزء مجموعة من الشعوب، كانت تشعر بهذه المؤثرات الشرقية، وذلك لوجود العوامل والأسباب التي كانت تؤدي إلى تتأثر هذه الشعوب المقيمة في العالم الغربي بتلك التي تسكن الشرق.

ويكاد يستحيل على أية حضارة أن تظل على حالتها، بل يجب أن تواكب التقدم، لأنها ستنبئ حتماً خصائص ومميزات ثقافية، وعناصر وأشكال فنية توائمها من الحضارات الأخرى المعاصرة لها والتي تفوقها، ولدينا أمثلة كثيرة على هذا في التاريخ البشري؛ فقد اقتبس اليونانيون القدماء أشياء كثيرة من

الحضارات الشرقية القديمة، وخاصة من الفرعونية، واقتبس اليونانيون - في بادئ الأمر - من الحضارة الرومانية أشياء كثيرة أيضًا، ثم اقتبست الحضارة الرومانية الحضارة اليونانية كلها على علاتها تقريبًا، ويمكن القول بأن الحضارة التي يتمتع بها أي قطر هي حصيلة الحضارات السابقة جزءًا أو كلاً.

وعند دراسة ما حدث خلال العصر الهنستي - أي في القرون الثلاثة التالية للإسكندر الأكبر (٣٥٥-٣٢٣ ق. م). الذي كان تلميذاً للفيلسوف أرسطو Aristo، كما كان واسع الاطلاع قوى الطموح، شديد الاهتمام بأمور الثقافة والفن والحرب، حيث خرج في سن العشرين غازيًا ليحقق مبدأ «العالم وطن واحد» مما أدى إلى انتقال واضح لمركز النقل الحضاري في التطور الفني من اليونان إلى الشرق، ومع ذلك فقد كان للمؤثرات المتبادلة دورها طوال الوقت، بحيث إننا نجد أنفسنا -لأول مرة في تاريخ البشرية- إزاء حضارة كانت خليطاً مهجناً بحق.

فالفن الهنستي -ونعني به الفن الذي صبغ في كثير أو قليل بالروح الهلينية* اليونانية"- والذي ظهر أولاً في أواخر العصر الألفي الثاني قبل الميلاد، وكان أول ظهور له على جانبي البحر الإيجي، وانتشر حول شواطئ البحر الأسود والبحر المتوسط، حيث بلغ الإسكندر المقدوني مبلغاً عظيماً في فتوحاته واتسعت إمبراطوريته، وتوغلت برا صوب الشرق إلى آسيا الوسطى حتى حدود بلاد الهند، وامتدت غرباً إلى شواطئ شمال أفريقيا، وأوروبا المظلة على البحر المتوسط بموانئ صالحة ومزارع هادئة ويزخر بالسفن التي تحول بين القارات الثلاثة في رحلات ملاحية منتظمة، وما كان ذلك كله إلا وليد الحضارة الهيلينية.

ثم لما تقسّمت إمبراطورية الإسكندر بعد وفاته، أسس الورثة عواصم ملكية ومدن جديدة سواء المصرية أم الميزوبوتامية أم السورية، على أنهار النيل والفرات والعاصي، ثم استقر الوضع باستقلال "بطلميوس بن لاجوس" في مصر

وفينقية، و"سيلوقوس أتيكور" في آسيا الصغرى ومسورية الشمالية، و"أنتيجون جوناتاس" في مقدونيا، كما استقل الأتاليون في برجامون.

وهنا تطورت الحضارة والفن، الذى عرف فيما بعد بالهلنستي، من خلال هذا التواصل والمزج، حيث انمحت الحدود الفعلية، وذابت الفوارق في العالم القديم، وعن طريق صهر الروح الهلينية والروح الشرقية في بوتقة واحدة في النظام الجديد كلها، كانت اليونان ما تزال الوطن الأم، إلا إنها للمرة الثانية خضعت -من جديد- للمؤثرات الفرعونية والآسيوية ومؤثرات بلاد البحر المتوسط؛ وعليه فإن الإدراك للهلنستية قد عم أرجاء العالم القديم كله، كما كان نابعا في الوقت نفسه من المؤثرات اليونانية، ولم يعد باستطاعتنا أن نتكلم عن فن يوناني خالص وإنما عن فن هلنستي.

ومن هذه النقطة يجب النظر إلى الحضارة الهلنستية كحلقة من حلقات الثقافة والفنون التي تصل جذورها إلى أيام سومر في العراق، وطيبة في مصر الفرعونية، وأثينا في بلاد الإغريق.

وهذا الاندماج ومحو الفوارق بين الثقافات القومية لشعوب البحر المتوسط القديمة، هو الذي يضيف على الفن الهلنستي طابعه الحديث " المتأغرق"، وليس الأمر مقتصرًا على إلغاء الفوارق بين الأجناس والطبقات، أو القضاء على التقاليد الغابرة التي قد تعوق المنافسة الحرة، بل في تنظيم الإنتاج العلمي والفني أيضًا على نحو يعلو على القوميات كأول وحدة حقيقية لشعوب البحر المتوسط في تبادل الآداب والفنون، على نحو من شأنه أن يجمع -لأول مرة في التاريخ- بين أدباء العالم المتمدين كله وعلمائه وفنانيه في إنتاج تعاوني على نطاق ثقافي - وحضاري- واسع.

وقد أمكن هذا أيضا عن طريق معاهد البحوث المركزية والمتاحف والمكتبات العامة، وكما كانت الدولة الهلنستية تنقل موظفيها من مكان إلى آخر بغض النظر عن أصولهم وتقاليدهم؛ فكذلك لم تعد للفنانين والباحثين جذور

يرتبطون بها، بعدما استقلوا بأنفسهم عن المدينة التي ولدوا فيها، ونشأوا وعاشوا حياة الترحال، واندمجوا سوية في مراكز ثقافية دولية كبرى. فقد حل محل الولاء القديم لدولة المدينة، شعور جديد بالتضامن مع العالم المتقف بأهله، وأدى ذلك إلى تعاون بين الفنانين التشكيليين على نطاق لم يعرف نظير له من قبل.

إن صيغ الحياة بالصيغة العادية، والذي نظنه صفة مميزة لعصرنا التكنولوجي، كان بالفعل صفة مميزة لذلك العصر، وكان من المعتم أن يؤدي هذا التخصص في البحث، ونزع الطابع الشخصي عنه إلى ميل إلى استعراض القدرة على التحصيل العلمي البحث، وإغراء الباحثين على يابّاع طريقة الجمع والتحصيل أو ما يسمى بالطريقة التلقيحية Eclecticism ، وكان هذان الاتجاهان واضحين كل الوضوح في العصر الهلنستي ، وذلك -على ما يبدو- لأول مرة في تاريخ الحضارة العالمية.

ومن الجائز أن هاتين السمتين هما اللتان يتشابه فيهما ذلك العصر مع عصرنا الحديث إلى أبعد حد، حيث كانت هاتان السمتان أيضا الصفة المميزة للإنتاج الهلنستي في الفن كما في العلم، ذلك لأن الذوق الهلنستي الذي تكون خلال النظرة التاريخية إلى الفن، والذي كان يغلب عليه الاهتمام بالأعمال القديمة والفهم العميق لأشدّ الاتجاهات الفنية الماضية تباينا، أدى إلى قبول جميع المؤثرات الفنية دون تمييز بينها، وكان من العوامل التي شجعت على الدوام على دعم هذا الاتجاه، ازدياد الميل إلى جمع الأعمال التشكيلية وتكرين مجموعات منها، وكذلك إنشاء المتاحف.

وفي الحالات التي كنت تفقد فيها أعمال تشكيلية مهمة، كانت تصنع نسخ طبق الأصل للمجسمات لمك النقص، لأن الفن الكلاسيكي اليوناني، كان ينطلق من مكانته العالمية العامة، حيث وضحت منها التعابير الفردية. فإن الأشكال الفنية لم تترك، بل إنها كانت ما تزال تحتفظ بقيمتها، وكان ينظر إليها على أنها نماذج مثالية.

وقد كانت مجموعات العصر الهلنستي هذه، من حيث تخطيطها العلمي، صورة ميكرة لمتاحفنا ومعارضنا الفنية الحالية.

وكان النحاتون في كل مكان من الأماكن التي دارت في الفلك الهلنستي أكثر الفنانين إنتاجاً، حيث كان النحاتون حيث يكلفون بالانتقال من بلد إلى آخر، وهذا الوضع الذي أشار إليه تدامي الكتاب والمؤرخين، فضلاً عن العبارات المنقوشة على الآثار توضح تشابه الأساليب الفنية في الأعمال النحتية التي عثر عليها في أنحاء مختلفة من العالم المتأغرق، دليل واضح على أنه لم تكن هناك - في بعض الأحيان - مدارس معينة تنشأ في مناطق بذاتها، بل كان هناك اتجاهات مختلفة تميز فن الطابع الهلنستي بوجه عام.

ولقد حقق فن النحت قيمة جديدة من خلال تناوله لتمثيل المعاني المجردة والمواضيع الرمزية والواقعية والأسطورية على حد سواء.

ويجب أن نذكر هنا أنه إن كانت فلسفة أفلاطون المثالية رمزاً للفكر الهليني الكلاسيكي، فإن فلسفة أرسطو كانت تعبيراً رمزياً للفكر الهلنستي. حيث قال جملته المعروفة "اعرف نفسك بنفسك" ليوجه المجتمع اليوناني إلى الواقع العيني الملموس، واقع الحياة حتى لا يعيش الإنسان كلياً مع عالم الآلهة في الخيال المثالي.

وقد اتجه فن النحت إلى تحقيق مزيد من الواقعية في التصميم والحركة، والتعبير، وحصيلة الموضوعات التي عالجها النحاتون، ويرتكز طموحهم في تجسيد مستويات متعددة لجسم الإنسان، والتعبير بطلاقة عن هذا الجسم وكذلك الإفراط في إظهار نسيج الثياب وطياتها، فضلاً عن التماثيل الشخصية وتجسيم شخصية الإنسان وانفعالاته، وتسجيل ذلك كله بأسلوب طبيعي وواقعي.

ومن خلال ما ساهم به النحاتون العظماء، وعلى رأسهم براكستيلس Praxitels وكان من مدينة أثينا، ثم اسكوباس Scopas من جزيرة باروس Paros إحدى جزر وسط بحر إيجه، وكذلك ليسيبوس Lisipaus من مدينة

سيكيون Sikuon في شمال شبه جزيرة البيلوبونيز Peloponnese. وإلى جانبهم كثيرون.

إلا إن هؤلاء الثلاثة لا يفتقون روادا فن النحت الهلنستي وحسب، بل لليوناني كذلك، إن أعمالهم عظيمة لدرجة أن معاصريهم كانوا يختلفون في تميزها، وفي أعمال هؤلاء يلحظ المرء ميلا تدريجيا تجاه الإحساس والشعور به، وفي ترتيبهم للأشخاص المجسمة تزداد الفردية والواقعية، كما ازداد الاهتمام في تحسين التعبير، وفي نعومة الجلد ومقارنة ذلك بخشونة الشعر، وكذلك في التشكيل والطول الفنية بالنسبة للعضلات والتجاعيد، ويعتبر براكستيلس من أعظم من اتصفوا بهذه الصفات فلم يكن داعيا لما يعرف وحسب، وإنما نجح كذلك في تشكيل الصفات المادية وفي إدماج وتوحيد العناصر التشكيلية للتكوين ككل.

هذا وعلى الرغم من أن الهلنستية امتدت حتى نهر الكنج في الهند؛ فإن البحث سيقصر هنا على منطقة الشرق الأوسط وشعوب البحر المتوسط القديمة بصفة خاصة، ذلك أن هجرة الآلاف من اليونانيين إلى آسيا ومصر قد فتحت للثقافة اليونانية آفاقا جديدة.

وكانت الإسكندرية أوسعها على الإطلاق - بمثابة * أثينا جديدة * - وقد سماها الأتمنون * مدينة النور * - * عروس الشرق * - * مدينة المدن * - احتلت في عصر البطالمة مكان الصدارة في نشر أنواع الثقافات بين عواصم العالم المتأغرق وشعوبه المختلفة، وفي مجالات العلوم والفلسفة والفنون. وامتازت وحدها دون مدارس العصر الهلنستي الفنية بامتزاج الطرازين اليوناني والفرعوني.

والواقع أن الفن كان قد حقق بالإسكندرية قيمة مهمة، ظهرت في مجالات كثيرة كالنحت والتصوير والعمارة، وبمكنتنا أن نتتبع الأثر القوي لأسلوب الفن الفرعوني في تطور الفن اليوناني وخصوصا في فن النحت، بما فيه من قوة التكوينات المتنوعة في تجسيد الأشخاص والحيوانات، ونجاحه في تمثيل الحركة وتجسيمها.

ومما هو جدير بالذكر أن جميع التقاليد الإغريقية في الفن، اضمحلت تماماً أمام رسوخ التقاليد الفنية الفرعونية، على أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى وجود بعض الآثار التي حافظت على أصولها الإغريقية، ومثال ذلك " تمثال النيل " (شكل ١) المحفوظ بمتحف الفاتيكان بارتفاع ٥٠ سم وبطول أفتي ١٦٥ سم وقد بدا إله النيل " هابي " في هيئة شيخ وقور، قوي، هرقلي الشكل -ركائه إله يوناني- مضطجع على وسادة، ويده اليمنى سنابل القمح وحوله ستة عشر طفلاً رمزياً في أحجام صغيرة منحوتة في مستويات مختلفة يمثلون ارتفاع النهر العظيم وقت الفيضان والذي بلغ متوسط ارتفاعه " ١٦ كيراطا "، وجانب للسادة يمكن أبو الهول في شموخ رمزا لعظمة مصر الفرعونية، ومن فوقه " قرن الخير " وبه ثمار الفاكهة التي تنبت في وادي النيل كالبلح وسنابل القمح وغيرها، للرمز إلى الثراء الكبير، وبالقرب من قدمه نحت تمساح، وهو الحيوان الصائد في هذا النهر، كما نقش على سطح القاعدة بالنحت البارز صور الأسماك المختلفة بين حركة الماء رمزا للخير الوفير.

وقد ظهرت لنا مثل هذه الأعمال كدراسات تشكيلية، لعب فيها الخيال والرمز والقيم الحضارية والذوق والثقافة والدين دورا كبيرا؛ فكانت تعبيراً صادقاً عن موضوع الحياة في وادي النيل، ولم تكن مجرد تصور لشخصية بعينها، ومن هذا كله نلمس مدى التقدم الفني الذي أحرزته مدرسة الإسكندرية في عصر البطالمة والرومان، ومدى تأثيرها على رسالة الفن في العصر الهلنستي.

صحيح أن النحت الهلنستي كان أكثر واقعية من النحت الإغريقي، لكن ما قدمه الشرق من أسرار النفس في تعبيرات الوجوه كان يرفع هذه الواقعية إلى المستويات الروحية التي تهز المشاعر وتثير العواطف الزاكية، وهكذا عمد النحات الهلنستي إلى تناول موضوعات جديدة بتكوينات متنوعة لم تكن مألوفة في السابق؛ فاهتم بتمثيل الأطفال، ومثلها بالآلهة، كما عنى بتمثيل الشيوخ وإظهار تعبيرات الزمن على وجوههم وأجسامهم، كما نحت تماثيل الحيوانات التي أقيمت في الحدائق والقصور، وكان ذلك كله ممزوجاً بمفهوم جديد للحياة.

هذا وقد ازدهرت مدرسة فنية أخرى جديدة في آسيا الصغرى، التي كانت تعرف من قبل ببلاد أيونيا، وقد عرفت تلك المدرسة باسم مدرسة برجامون Pergamon وهي تعتبر من أهم مراكز النحت الهلنستي؛ فقد أنام ملوكها أول متحف للنحت في العالم وجمعوا فيه كثيرا من الآثار الفنية القديمة والحديثة، حيثذاك، مما مكن هذه المدينة أن تكون مدرسة فنية خالصة لها في فن النحت، ويبدو ذلك في التماثيل التي عثر عليها، والتي تمثل " الغالين " سكان فرنسا، الذين هاجموا آسيا الصغرى في بداية القرن الثالث ق. م. وانتهت هجومهم بالهزيمة المنكرة بفضل قيادة ملك برجاما أتالوس الثاني (٢٤١ - ١٩٧) ق. م. ومن أهم الأعمال في هذا الصدد تمثال " الغالي المحتضر " (شكل ٢) جلدياتور The Dying Goul بارتفاع ٩٣ سم، وهو من أشهر التماثيل وفيه بلغ الفنان النحات ذروة التعبير النفسي والإتقان التشريحي والحركي وتكون الكتل؛ فهو انعكاس صادق لتمكن الفنان أبيجونوس Ebygones من تصوير الواقعية التي يشوبها الناحية العاطفية للموتف، إثر انتصار جنود أتالوس. وقد غلبه الضعف وعيناه مصوبتان نحو الأرض رمزا للانكسار والهزيمة، على الرغم من أنه يتحامل على إحدى نراعيه.

وقد نجح الفنان في تصوير الألم الممزوج بالذل على وجهه وحقق القواعد التشكيلية للعمل الفني في تسجيل شخصية الغال وحالته النفسية في هذا التكوين الدرامي المسرحي، بتلك الملامح العنيدة لجنود الغال التي عرلوا بها والشعر الأمست، وشواربهم وما يرتدونه حول أعناقهم، ويوجد تمثال آخر للنحات نفسه الذي لقب باسم "قيديات برجامون" وقد أصبحت مجموعته النحتية التي تمثل انتصار "أتاليوس" أهم أعمال هذه المدرسة، وهو تمثال " الغالي المقبل على الانتحار" بعد أن قتل زوجته (شكل ٣) The Goul and His Wife بارتفاع ٢.٣١ متر، وفي هذا التمثال يمثل مدى حب الغالي لزوجته، مما دفعه إلى نكلها خوفا عليها من ذل الأسر وعذابه، وفي هذا التكوين يمثل الغالي وهو

يلتفت في إيماءة برأسه حين يقترب عنده، وهو يقوم بإغماد سيفه في أسفل عنقه نحو قلبه ويشرع في قتل نفسه، وهذا التمثال يعكس عادة الغالي، وهي أن يصحبوا معهم نساءهم وأطفالهم بالإضافة إلى أنه معروف عنهم أنهم عندما يشعرون أنهم مقتولون لا محالة أو سيقعون في الأسر، يسارعون بقتل نساءهم حتى لا يذقن ذل الأسر وعذابه.

وكذلك من الأعمال الميمة تمثال تايخ Tyche (شكل ٤) الذي يمثل مدينة إنطاكية في سوريا -التي كانت عاصمة للفن- وهو يتسم بحرية الأداء وبساطة التشكيل، والبعد عن التركيبات المعقدة، وقد برع النحات الرومسي أوزيسخيليدس - Enthychides تلميذ لبسيوس - في تمثيل شخصية المدينة، على هيئة سيدة وقور جالسة وفي إحدى يديها غصن زيتون، وعلى رأسها تاج كقاج يشبه السفينة، وقد نحت عند قدميها تمثال لصبي صغير يرمز إلى نهر العاصي.

وقد قام إلى جانب هاتين المدرستين المتنافستين، منافس ثالث في ميدان النحت الهلنستي، وهو مدرسة رودس Rhodos التي كانت تتميز بمنحوتاتها ولعل أهم ما قدمته هذه الجزيرة في هذا المضممار من الفن الراجع لهذه الفترة تمثال إله الشمس هليوس "المفقود" الذي أقيم عام ٢٤٨ ق.م. وهذا التمثال مصنوع من البرونز بارتفاع ١٠٤ قدم، وعلى ذلك فإنه كان أكبر التماثيل في العالم القديم، أما الفنان الذي نحته، فهو من ليندوس Lindus واسمه كنارس Canares، وكان تلميذا للمثال لبسيوس، وقد عد هذا التمثال من عجائب الدنيا السبع.

هذا وقد ازدهر فن النحت في جزيرة رودس، وقد تميز أسلوب تلك المدرسة بتكوينات معقدة، ومن أهم التماثيل التي توضح ذلك الاتجاه مجموعة تمثال " الكاهن اللاكون" (شكل ٥) بارتفاع ٢,٤٠ متر بمتحف الفاتيكان، ويرجع هذا العمل إلى الفترة من (١٦٠ إلى ١٣٠) ق.م.

ولا شك في البناء الشكلي لهذا التمثال يرمز إلى معنى أسطوري عبر عنه أسلوب "سوفوكليس" Sophokles في بعض أشعاره (التي تبين كيف تناول هذا الكاهن على الآلهة بالسب، ونصح مواطنيه "أهل طرواده" أن يرفضوا الحصان الخشبي هدية اليونان، وبينما هو في طريقة إلى مذبح الإله بوزيدون، مع ابنه الشابين، كان جزاؤه أن أرسلت الربة أثينا إليه بحيتين هائلتين خرجتا من البحر لمعاقبته، والتقتا حول جسده وجسد اثنين من أبنائه في عنف وقوة، ويحاول الكاهن إزاحة الحيتين في يأس وألم دون جدوى فقد فتكت الحيتان بهم وقتلوا جميعاً). وقد قام بنحته ثلاثة من أبرز فناني مدرسة رودس وهم النحات أجسندر Ageesander وولديه بوليدوروس Polydorus وأثيلودوروس Athelodorus، وتميز هذا التمثال بالحركة العنيفة وبالديناميكية الدرامية، وبالتكوين الفني الفريد الذي بلغ حد الإعجاز التشكيلي.

ومن أمثلة النحت الجيد في ذلك العصر، وأنجز في القرن الثالث ق. م. لمعبد كابير، تمثال "ساموتراس" Samothrace (شكل ٦) بارتفاع ٢,٧٥ متر ويزين الآن متحف اللوفر ويعتبر شعاراً له. والذي أصبح النحات فيه أكثر إحساساً بالزمن والمسافة، لقربه من الواقع، ويتضح هذا من خلال تسجيل الفنان لعنصر الحركة وهو يصور ربه النصر نايكي Niky سيدة مجنحة في لحظة هبوطها على مقدمة سفينة حربية أحرزت نصراً بحرياً، وقد عبثت الريح بثياب الربة فشدتها إلى الوراء تجسيدا لفكرة النصر والتقدم، أما الحزام المربوط تحت الصدر فيوضح الحركة الرائعة البادية في دوران الجسم، ونلاحظ الاهتمام البالغ بدراسة ريش الأجنحة ونحته وتأثيرات اندفاع الريح بتأثير حركة الأجنحة في ثوب ربه النصر الملتصق بجسدها الأثوي الجميل، وفيه يشعر المشاهد بالهواء يدفع ثوبها على جسدها فيلتصق به عند بعض الأجزاء في شفافية على البطن وحول الصدر، ويعتمد عنه في حركة ديناميكية عند بعض الأجزاء الأخرى، وبالتأكيد كانت فرحة النصر مجسدة في تعبيرات الوجه في رأسها المفقود؛ ولم يهتد المؤرخون بعد إلى اسم صانعه.

ومن التماثيل المحفوظة في عدة نسخ بمتحف الفاتيكان عن الأصل البرونزي تمثال "أبوللو بلفيدير" (شكل ٧) Apollo of Belvedere بارتفاع ٢,٢٣ متر وهو من أروع التماثيل التي تمثل الرجال، وقد صنعه لوخاريس Leochares (٣٣٠ - ٣٢٠ ق. م). ليوضع في السوق أمام معبد أبوللو، ولذلك صورته بواقعية متناهية حيث يتقدم إلى الأمام، وتحمل القدم اليمنى ثقل الجسم واليسرى منفذة بصورة هادئة في الخلف وتحمل بعض الثقل، وتتقدم اليد اليسرى إلى الأمام مختركة حاجز المكان حيث تلف حولها العباءة، وكان يمسك بتوس في يده اليسرى حيث تنظر عيونه إلى الهدف المنشود، والشعر يطير في الاتجاه نفسه، وتشكيل الجسم يتميز بالمثالية والكمال والجمال.

ومن أشهر أعمال فناني أواخر العصر الهلنستي تمثال أفروديت من ميلوس الروديسية (شكل ٨) الذي وجد في جزيرة ميلوس مكسور الزراعين Aphrodite of Melos بارتفاع ٢,٠٤ متر، فإن الهلينية عندما ربطت بين جمال الشكل والحياة الروحية الحقيقية، قد بلغت عمقا من الإدراك يدلنا على ما بلغتته القوة الفنية العصر الهلنستي المتأخر، ويرجع نحت التمثال إلى حوالي عام (٢٠٠ ق. م.) وهو بمتحف اللوفر - وتوجد منه نسخة طبق الأصل في حديقة أنطونيادس بالإسكندرية، ونلاحظ في هذا التمثال أن أفروديت تتقدم لتخلع رداها وتنزل الماء للتطهر، ويميز البناء الشكلي لهذا التمثال، الوقفة المعقدة عن طريق تراجع الساق اليمنى إلى الخلف، وبرزوز الساق اليسرى إلى الأمام، وكذلك الحركة المضطربة لطيات الرداء التي تأخذ من ذلك التفاتاً رقيقاً حول الجسم أما الرأس فتأخذ انطباعاً هادئاً بتشكيل الشعر المنسق، ويحاول النحات أن يعيد تأثير أسلوب فنون القرن الخامس ق. م. في نحت هذا التمثال، ويتضح هذا الاتجاه في البساطة والقوة والهدوء.

والتمثال أيضاً يوحى بالحركة خلال الاتجاهات المختلفة لزوايا الرؤية الناجحة للجسم والأطراف وثايا ثوبها غير المنتظم، وفيه أصبح النحات أكثر

إحصاساً بمادة الجسم الإنساني الأثري المثالي الجميل؛ حيث استطاع أن يجعل الرخام يشبه اللحم الدافئ، وبراعة الفنان تظهر في تصوير الجزء العلوي من الجسم بكل تفاصيله ونعومته بواقعية شديدة بلغت ذروتها في تشكيل أجزاء البطن والسر والصدر، ولا يعرف للأسف اسم النحات الذي قام بعمل هذه التحفة الجميلة الخالدة.

وإذا ما ألقينا نظرة عامة على فن النحت لهذه الحقبة الهلنستية بين شعوب البحر المتوسط، فإننا نستطيع القول بأن المدارس الفنية للإسكندرية وبرجامون وروندس وأتطاكية وتراليس، تقوم جذورها الأصلية في بلاد المشرق، التي تتميز بالتأمل ووضوح الرؤية بواقعية التشكيل وإعادة التفصيلات، وتجسيم الطبيعة تجسيمياً دقيقاً، مع الاهتمام بنحت الأشخاص، ذات المواضيع المستحبة، إلى التطور النهائي والتواصل الحضاري للروح اليونانية القديمة في فن النحت.

تلك الروح التي حرص الإسكندر الأكبر على أن ينشرها عبر بلاد المشرق، ولقد بقيت هذه الروح حية بين عدد كبير من المدارس المحلية التي كانت تتطبع بطابع الشعوب الذين كانت تنشأ بينها، على أن هذا لا يخفف من الحقيقة التي تجعل الفن الهلنستي خاتمة شريفة للفن اليوناني، كما لا ينفي الشخصية المحصلة التي أدركها الفن الهلنستي والروح والأسلوب والطابع في كل بقعة من بقاع العالم المتأغرق.

لقد تأثرت شعوب البحر المتوسط القديمة وبخاصة في الإسكندرية بقدر أكبر من الفن اليوناني في هذه الحقبة، ومن هنا فإن حرارة بلاد الشرق قد أدخلت الدفء على رخام بانثليك البارد Pentelicus، فتحوّلت هذه المحتويات الرخامية إلى تحف مليئة بالحياة، فكانت من مظاهر الرومانسية الحاملة التي اصطبغ بها الشرق في جميع العصور.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- ١- أرنولد هاورز - الفن والمجتمع عبر التاريخ - الجزء الأول - ترجمة - د. فواد زكريا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٨١.
- ٢- رالف لنتون - شجرة الحضارة - الجزء الثاني - ترجمة د. أحمد فخري - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٥.
- ٣- عائدة سليمان عارف - مدارس الفن القديم - دار صادر - بيروت - ١٩٧٢.
- ٤- عفيفي البهنسي - موسوعة تاريخ الفن والعمارة - دار الرائد اللبناني - ١٩٩٣.
- ٥- هنري رياض - محيط الفنون - (١) الفنون التشكيلية - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 6- Cina Piscbel- A World History of Art- New Sweek Book -New York- 1978.
- 7- Frederick Hartt- Art A History of Painting Sculpture Architecture- ABRAMS- New York- 1986.
- 8- Geraald F. Brommer- Discovering Art History- Davis- 1981.
- 9- Hugh Honour & John Fleming - A World History of Art- Fourth Edition- Laurence King- 1995.
- 10- H. W. Janson- History of Art Harry N. Adrams, Inc., New York. 1974.
- 11- Jean Chardonneax & Roland Martin - Grece Hellenistique Editions Gallimand- 1986.

رسوم الكتاب الأندلسية ومدى تأثيرها بانتقال الحضارة العربية الإسلامية

بحث مقدم من

الدكتور

أحمد رجب منصور صقر

وسوم الكتاب الأندلسية ومدى تأثيرها بانتقال

الحضارة العربية الإسلامية

مقدمة:

١

تعد الحضارة الإسلامية واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم بسبب الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية، ففي بوتقة هذه الحضارة التقت حضارات عدة متياعدة نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها، ثم مزجت بينها، وأكملت نواحي النقص فيها فصارت لها في النهاية نكهة خاصة وشخصية مميزة استمرت على مدى لرون طويلة، بل مازالت آثارها تعيش حتى الآن ولا عجب في هذا لأن طبيعة التطور الحضاري للجنس البشري تتطلب عادة استفادة الخلف من جهود السلف، كما أنه من المعروف أن الحضارة التي استقلت بمقوماتها استقلالاً تاماً، ولم تعتمد على غيرها أو تتفاعل مع الحضارة السابقة والمعاصرة، هذه الحضارة بكل تأكيد لم تولد بعد إذ من الثابت علمياً أن الحضارات جميعاً التي عرفها الإنسان منذ أن وجد على الأرض قد أفادت واستفادت من الحضارات الأخرى، وإن اختلفت درجة هذا التفاعل الحضاري والثقافي باختلاف الحالات والظروف، مجمل القول أنه بدخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية (انظر شكل ١)، بدأت تظهر حضارة وثقافة جديدة ارتبطت بالحضارة العربية في نشأتها ونموها وتطورها وسميت في قمة ازدهارها بالأندلسية، والتي تعتبر من مدرسة متميزة كأحد المدارس العربية للفنون، والتي امتدت من العراق شرقاً إلى الأندلس غرباً مروراً ببلاد الشام ومصر والمغرب، أي أنها تقع كلها في حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي جعل تلك المراكز الحضارية عبارة عن حلقات متصلة لبناء حضارة هي خلاصة لقاء الحضارات الأخرى؛ بالإضافة إلى عملية الصهر والامتزاج التي تؤدي إلى ظهور أسلوب وطرز جديد.

مشكلة البحث:

انتشرت الحضارة العربية كما جاء في المقدمة في مساحة فسيحة من عالمنا، والمشكلة تنحصر في كيفية انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وكيف أثرت وتأثرت، وكيفية امتزاج الثقافات المختلفة في نواحي كثيرة من أدب وشعر وموسيقى وعمارة، وما يلحق بها من فنون ولا شك في أن الكتاب كان وسيلة التسجيل ووسيلة الاتصال، وبالتالي فإن هناك أساليب وطرز مصاحبة لرسم تلك الكتب التي تناولت المجالات السابقة، هذه الأساليب والطرز انعكست أيضًا على التذهيب والتجليد والخطوط المستخدمة في الكتابة.

ومن هنا تعتبر عملية البحث والحديث عن تلك التطورات بمثابة الحديث عن لون خاص معين من ألوان الفنون العربية، ومن الطبيعي أن ترتبط فنون الكتاب الأندلسية بالمرسة الأم «المدرسة العربية» وأن تكون لها بالتأكيد أيضًا خصائص ومميزات تفرقت بها.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى توضيح أثر انتقال الحضارة العربية الإسلامية على رسوم الكتاب الأندلسية وفنونها، وكيف كانت جسرًا أو رابطة بين الثقافة العربية والأوربية، وكانت سببًا في إيجاد واقع ثقافي متوهج ومركز للإشعاع بعد ذلك.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في إلقاء الضوء على فترة مهمة من تاريخ فنون الكتاب في تاريخ الإنسانية، ليس ذلك فقط بل تأكيد قيمة التأثير في إيجاد الفنون ولزدهارها وخاصة فنون الكتاب.

فروض البحث:

- ١- يفترض البحث أن هناك مظاهر للتأثير الثقافي من خلال فنون الكتاب.
- ٢- وأن هناك دورًا لفنون الكتاب الأندلسي في ثقافة المجتمع في تلك الفترة وأنها ساعدت أيضًا في سهولة نقل المحتوى الثقافي بين المراكز الثقافية في تلك المرحلة.

منهج البحث:

يتبع الباحث المنهج الوصفي التاريخي والتحليلي.

مادة البحث:

لقد كان سكان الأندلس عند دخول المسلمين إليها مكونين من عناصر مختلفة ليس من اليمير إدماجها في وحدة شاملة وإخضاعها لنظام عادات وتقاليده متفئة الأهداف، ولذلك كانت تستلزم على الدوام وجود حكومة مركزية قوية تستطيع كبح جماح الأحزاب المتنافرة والعصبيات المتنافسة، والحد من الأهواء الخطرة والنزوات العارضة، وبخاصة من ناحية القبائل العربية المختلفة التي كان بعضها ينتسب إلى القبائل القحطانية، وكذلك من ناحية قبائل البربر التي كانت تنتسب إلى قبائل قادمة من المغرب الأقصى.

وكان الفضل في ذلك «للأمير عبد الرحمن» الملقب به «صقر قرش»، فقد حافظ سيمد جهاد وحركة دائمة- على كيان الدولة وأبقى على تماسكها ووحدتها، وهذا دور مكمل للدور الذي قام به كل من «طارق بن زياد» و«موسى بن نصير» و «عبد العزيز موسى بن نصير». (انظر شكل ٢)

أثر الكتاب في نقل الحضارة العربية إلى الأندلس ومنها إلى أوروبا:

كان من الطبيعي أن تتكرر الإشارات في البحوث إلى معابر الحضارة العربية إلى أوروبا، وإن كان كل باحث قد نظر إليها من زاوية موضوعية مختلفة، وعند دراسة الدراسات التي قام بها المستشرقون أو الباحثون للعرب، وما نشر في هذا الموضوع في السنوات الأخيرة من نصوص الكتاب ورسومها على أيدي الباحثين المختصين من شرقيين ومشرقيين، نجد أن أهم معابر الثقافة للحضارة العربية إلى أوروبا هي الأندلس وذلك في ميادين عدة تلتقي الحضارتين، تتمثل في الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية والطب والجغرافيا والمعارف الملاحية والتاريخ وفنون العمارة والتحف الفنية والموسيقى ... ولا شك في أن تلك المجالات كان للكتاب وقنونه دور في انتقال تلك المجالات

وتأثيرها، وتأثرها أيضًا بالبلاد التي انتقلت إليها، والذي ازدهر بدوره في نروعه سواء في الكتابة أم التجليد والرسوم التوضيحية والتذهيب.. وما إلى ذلك، كان للكتاب أيضًا الأثر الأكبر في انصهار ثقافة المسلمين والمسيحيين خاصة في الأندلس، فقد ترجمت مئات من الكتب العربية في مختلف ميادين العلم والأدب والفلسفة إلى اللغة اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الأخرى والاعتماد على بعض تلك الكتب في الدراسات الجامعية إلى مرحلة متأخرة.

أهم الكتب التي وصلت إلى الأندلس:

لقد كان للازدهار السريع للثقافة العربية في أسبانيا تحت الحكم الإسلامي -وما حدث من عملية امتزاج اجتماعي وثقافي واسع النطاق- الأثر الكبير في المجتمع الأندلسي، وكذلك في انتشار اللغة العربية كلغة ثقافة وأدب في ذلك المجتمع.

وشيوخ اللغة اللاتينية الدارجة إلى جانبها بين المسلمين والمسيحيين الأندلسيين، وقد أدى هذا كله إلى ظهور فنون الأدب، وكذلك ظهور نوع جديد من الشعر الأندلسي في أواخر القرن الثالث هجري التاسع الميلادي إلى جانب القصيدة العربية التقليدية، وعرف بالموشحة وعنه تفرع لون آخر أكثر إمعانًا في الشعبية هو الزجل، هذا أدى كله إلى ازدهار الكتابة والكتب، وإلى جانب ذلك وصلت مجموعات من القصص العربية وترجمت إلى اللاتينية مثل: «كليلا ودمنة» وقصة «السندباد»، كما أن هناك ترجمة «ألف ليلة وليلة»، وتوالت الترجمات بعد ذلك في العصور التالية في مجالات الفلسفة الإسلامية مثل كتب كبار فلاسفة الإسلام مثل «الكندي» و«الفارابي» و«ابن سينا» و«الفرازي».

كما ظهرت في الأندلس حركة ترجمة قوية من العربية إلى اللاتينية تناولت كتب رجال العصر الذهبي في الطب العربي «كالرازي» والمشتغلين بالعقاقير الطبية «كابن البيطار» و«داود الأنطاكي»، وقد بلغت هذه المرحلة ذروتها في طليطلة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي؛ كما ظلت بعض

الكتب «كالحاوي» و «القانون» و «كامل الصناعة» تدرس في جامعات أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر.

وكما عرف الباحث من قبل مجالات الكتاب تنوعت (انظر شكل ٣)، وهي نسخة من خريطة «للاصطخرى» تمثل شبه جزيرة ايبيريا وشمال أفريقيا في القرن الرابع عشر الميلادي، (انظر شكل ٤) خريطة رسمها عام ١١٥٤ العالم الجغرافي الأندلسي «أبو عبد الله الإدريسي» يمكن أن نرى إلى اليمين البحر المتوسط كما تصوره الجغرافيون في ذلك العصر ووفقاً لقواعد رسم الخرائط التي كان يطبقها علماء الإسلام آنذاك يلاحظ أن الجنوب يقع في قمة الخريطة.

وفي مجال العقاقير الطبية نرى في (شكل ٥، ٦) رسم توضيحي لأحد النباتات المستخدمة في العلاج بالأعشاب، وهي نسخة من كتاب «ديوسقوريدس» في مادة الطب (القرن ١٢، ١٣) Dioscorides materia medica، وقد احتوى هذا المخطوط على عدد كبير من الرسوم التوضيحية أكثرها موجود حالياً بالمتاحف الأوربية والأمريكية، أما النسخة الأصلية فهي موجودة بالمكتبة الأهلية بباريس.

وشكل (٧) وهو إحدى الصور المصاحبة لكتاب «الكواكب الثابتة» للصوفي الرائق «هرقل» سنة ١٢٢٤م / ٦٢٢هـ، موجود حالياً بالمكتبة الإنجيلية بالفاتيكان، وقد أنجز هذا الكتاب برسومه في مدينة «سبتة» بمراكش سنة ١٢٢٤م وهو الكتاب الوحيد في تلك المرحلة الذي يضم معلومات عن محل نسخة محل تاريخه، ورسوم هذا الكتاب التوضيحية مستندة إلى الصيغة التصويرية التقليدية كنصوص هذا الكتاب الشهير ولكن مع بعض التغيرات الأكيدة فنرى مثلاً صورة برج «هرقل» ما زالت تبرزه في شكل «راقص» لكنه فقد السيف الأحذب الذي يشبه المنجل الذي كان يحمله في النسخة المورخة بسنة ١٠٠٩م والمحفظة بمكتبة «بودليان» والطريقة التخطيطية التقليدية في

مخطوطات «الصوفي» الشرقية مازالت واضحة على الأقل في الوجه الذي رسم بدقة كما نلاحظ أن هناك تحويرًا أصاب طيات الملابس، وبالتالي فإن هناك اختلاف في بعض رسوم الكتب الأتلسية الأسبانية عنها في الكتب الأتلسية المغربية، وسوف يتضح هذا أكثر في رسوم كتاب «بياض ورياض».

كتاب «بياض ورياض» :

تقع أحداث قصة «رياض وبياض» في منطقة شمال دجلة والفرات وتبدأ يوم انتقل بطل القصة «بياض» التاجر الدمشقي الذي يهوى الشعر - مصاحبًا والده في أسفاره- إلى خارج وطنه ولمح فتاة تعمل وصيفة عند سيدة من الأشراف هي ابنة أحد أمناء البلاط وما كاد يراها حتى وقع في غرامها، ثم ما لبث العاشقان «بياض» و «رياض» أن تعرضا لمختلف المحن وتستمر الأحداث أحدها تلو الآخر وليس المجال مناسبًا لعرضها، والمقصود من هذا التقديم أنه على الرغم من أن القصة وقعت في شرق البحر المتوسط، وفي منطقة أكثر منهما بعدًا تجاه الشرق، إلا أن نسخ هذا الكتاب كان في إحدى بلاد المغرب الإسلامية، أي في منطقة شمال أفريقيا أو الأتلس وهو ما يؤكد نوع الخط الذي كتب به، وبعض التفاصيل المعمارية للصور كالنوافذ المزودة «انظر شكل ٨» ، ونرى فيه «شمول» زميلة «رياض» وصديقتها تحمل رسالة إلى «بياض» المعذب الفكر، وقد التقت به على شاطئ النهر خارج المدينة على مقربة من قصر ذي حديقة مسورة.

وفي شكل (٩) من الكتاب نفسه وإلى جانب القصر ذي الحديقة المسورة ظهرت ساقية كبيرة من النوع الذي كان شائعًا في العراق وسوريا، والذي ما زال باقيًا حتى اليوم على شطآن كثير من الأنهار، وتعرف باسم الناعورة، ونجد في تلك الرسوم المصاحبة للنص أن الفنان قد اهتم اهتمامًا بالغًا بخلفيات المشاهد التي تشبه في بعض ملامحها وجوانبها- مشاهد مقامات الحريري ورسومها وذلك بدايات المدرسة العربية وإن جعل العناصر المعمارية على جانبي اللوحة

بدلاً من خلفيتها على تقيض العادة المتبعة في فن التصوير بالمشرق على أن الفارق الجوهرى هو شيوع جو أكثر أبهة ورقة من لوحات المقامات. كذلك نلاحظ عند مقارنة الأشجار (انظر شكل ١٠) أن هناك علاقة بين رسوم الكتاب في منطقة شرقي البحر المتوسط تجعلنا نأخذ في الاعتبار هذه السمات التي تميز رسوم الكتاب بصورة عامة تشترك فيها مراكز المدرسة العربية كلها بدءاً من بغداد مروراً بسوريا ومصر حتى الأندلس، وهى تلخص فيما يلى:

١- البعد عن التمثيل الواقعي وتنضح في عدم التعبير عن العمق وعدم التكتل كسمات رسم الأشجار صورة محورة وكذلك الأعمىين تصويراً اصطلاحياً محوراً.

٢- تميل المدرسة العربية نحو الزخرفة ذلك أنه يغلب في صورها، استخدام الألوان الباردة الزاهية وتكسية العناصر برسوم نباتية وهندسية كذلك رسم طيات الثياب بأسلوب زخرفي وقد عرفت المدرسة العربية ثلاث طرق لزخرفة الثياب أو لرسم طياتها، تتمثل الطريقة الأولى في زخرفة الثياب بخطوط أو برسوم هندسية أو بصور حيوان أو أزهار أو برسوم البروج والأهلة أو بالزخارف العربية المورقة، والطريقة الثانية تتمثل في رسم طيات الثوب بأسلوب قريب من الواقع، وذلك بأن ترسم على هيئة خطوط مناسبة تشع من مركز واحد، وأخيراً تتعقد الطيات فتصبح على شكل أمواج منكسرة.

٣- لم يعتنِ الفنان برسم الجسم الإنساني رسماً دقيقاً، ومن الملاحظ أن الأشخاص يرتدون ثياباً فضفاضة لا تصف أجزاء الجسم ويظهر ذلك جلياً في المدرسة الأندلسية (انظر أشكال ٨، ٩، ١٠).

مدى تأثير فنون الكتاب الأوربية بالحضارة العربية الإسلامية:

لقد كان للموضوعات الزخرفية العربية تأثيرات عميقة في الفنون

الأوربية التي اقتبست القياسات واسعة المجال من الأساليب العربية في التوريق، وهى الزخرفة النباتية وفي الأشكال الهندسية وفي التوشيح العربي المعروف أوربياً بفن «الأرابيسك» Arabesque كما أن الخط الكوفي احتل كمثال مكانة ممتازة بين الموضوعات الزخرفية العربية، وقد بهر مظهره البديع وجماله الفني أنظار العرب والمسلمين وشاركهم الأوربيون في ذلك مشاركة لا تقتصر على إمتاع النظر، بل في متابعة تطوره واقتباس ما يوحى به هذا التطور من روح فنية ترتكز على التناسق في التكرار والاتزان في التماثل.

وكد كانت الفكرة الزخرفية هى وحدها التى أوحى إلى الفنان الأوربي منذ القرن العاشر الميلادي فكرة الاقتباس من الحروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة في الكنائس ، وعلى عقود بواباتها أو بالتصوير على صفحات الإيجل ولوحات القديسين.

ولقد كان للإسلام دور في إنشاء مجتمع، شبه جزيرة أيبيريا الذى يحتوي على مسيحيين ومجوس، ويعيش معهم أقليات من اليهود والبوذيين، وكل من معهم كتاب منزل بعيداً عن توقيع اليهود وقوانين التعايش المسلمي بينهم، إلا أن هناك على الجانب الآخر تعايش من نوع آخر بين الفنون ، فنجد في شكلي (١١)، صورة في «شرح لسفر الرؤيا» للراهب الأسباني «بياتوس دي لبيان» مخطوط في دير سان- سيف «جنوب غربي فرنسا»، والمنظر مقتبس من جزء من كتاب خاص بنسب «يسوع المسيح» ويتجلى بوضوح مدى تأثير الفن العربي، وذلك من حيث بناء العمل وتوزيع العناصر ومعالجة الحيوانات والشخوص بخطوط سهلة وبسيطة، وكذلك البعد عن التجسيم، نلاحظ أيضاً معالجة الملابس بزخارف متنوعة ... وهكذا قال «فيشتي بلاكوا إيبانيز» «لم يأت البعث إلى أسبانيا من الشمال» ، مع القبائل الهمجية، ولكنه أتى من الجنوب مع الغزاة العرب، وكان هذا الغزو حملة حضارية أكثر منه غزواً..أنت معه تلك الثقافة الفنية القوية النشيطة التي تقدمت بسرعة مذهلة».

وفي شكل (١٣) صورة من كتاب مقدس مستعرب في القرن العاشر
محفوظ في ليون (أسبانيا) توضح طريقة الرسم الذي يشبه في أسلوب رسمه
كثيراً من رسومات كتاب «مقامات الحريري» من حيث توزيع الأشخاص، وإن
كان أقل في الخطوط المحددة للشخص، كما نرى ملامح الشخصيات بعين
شاخصة ومشابهة، وقد يكون لاختيار الموضوع -وهو موضوع ديني- علاقة
بأسلوب التعبير المستخدم وهكذا كان التعريب في البوثة العربية الأندلسية عاملاً
من عوامل التكامل، فقد كان كثير من المستعربين ملهمين بثلاث لغات، وبالتالي
كانوا مؤهلين لممارسة الترجمة، وبذلك أقاموا صلة بين ثقافة غربية أوروبية
وثقافة شرقية، ونجد من الهدايا الفاخرة التي منحها السلطان البيزنطي للخليفة
«عبد الرحمن الثالث» كتاب «تاريخ ضد الوثنيين» Historia umadyersus
payanoslibri vii وهو من تأليف الكاتب المسيحي «أوروسوس» Orosius
وهذا الكتاب ترجمه أحد المستعربين إلى اللغة العربية فحظي برواج كبير وأتاح
للغرب أن يعرفوا الماضي اليوناني وألهم بعضهم أن يروا في تاريخ الأندلس
العربية امتداداً طبعياً للتاريخ الأسباني المسيحي والقوطي العربي.

وفي شكل (١٤) نجد رسم كتاب من مجموعة من التراتيل الدينية توقيراً
للغناء «كانتيجا سانت ماريا» Cantigas De Santa Mavia ، وهي من عمل
«ألفونس العاشر الحكيم» (١٢٢١-١٢٨٤) يتضح في هذا الرسم أو هذه
الصورة هذا المزيج من الفن العربي والقوطي والأندلسي سواء في بناء العمل أم
المفردات الزخرفية المسيحية المستخدمة وكذلك الخلفيات المعمارية المستوحاة
من العمارة الأندلسية والقوطية شيئاً ما والأشخاص الذين تنوعت ملابسهم بين
الملابس العربية والأوروبية في ذلك الوقت.

وبخلاصة القول أنه فيما وراء كل حركات الجذب والرفض التي اتسم
بها التعايش بين المجتمعين في القرن العاشر انتحل عرب الأندلس الهوية
الأسبانية، وانتحل المستعربون الهوية العربية، مع احتفاظ كل مجتمع بديانته، ولم

يكن هذا إنجازاً هزلاً في العالم في عصر كانت فيه الأعراق والعقائد يجهل بعضها بعضاً أو تتأخر ويهلك بعضها بعضاً.

واستخدمت الحضارات الثلاث الإسلامية والمسيحية والبيزنطية -والتي ولدت في حوض البحر الأبيض المتوسط- تمارس نفوذها وتبلغ رسالاتها خارج حدودها، وكان لهذا البحر رحالته ومستكشفوه الذين يذكر منهم «سترابون» و «ابن بطوطة» و «البكري» ، وظهر في المنطقة نفسها أيضاً اثنان ممن أدت اكتشافاتهم إلى توسيع نطاق العالم المعروف آنذاك هما «ماركو بولو» البندقي الذي نجح في القرن الثالث عشر في فتح طرق آسيا الوسطى والصين أمام الغرب، وفي شكل (١٥) صورة لمنمنمة يرجع تاريخها إلى القرن ١٥ من كتاب عجائب الدنيا لماركوبولو، ونشاهد اتجاه أسلوبها إلى التصوير مهما إلى الرسم، وهناك أيضاً محاولة للتجسيم والتكثيل، وهذا تطور طبيعي لما جاء به العرب إلى الاندلس كما نشاهد تطوراً في التشكيل والتلوين والبناء في شكل (١٦)، وهي صورة وجدت في قشالة في قبر «سانشوسايس دي كارلو» أواخر القرن الثالث عشر، ومحفوطة الآن في المتحف القطالوني في برشلونه، وهي تصور مشهد نواح على ميت، أي أحد المشاهد الاجتماعية وطقوسها وشعائرها في هذه الفترة من الحضارة المتوسطية.

اقتراحات للتعاون الثقافي في مجال الكتاب:

إن الكتاب الذي يطبع في بلاد المشرق العربي لا يصل إلا في القليل النادر منه إلى بلاد المغرب العربي، والعكس أكثر صحة؛ فالبلاد العربية المشرقية لا تكاد تعرف ما يطبع من كتب في بلاد المغرب العربي، فهي تكاد تجهل الموضوعات الثقافية التي تثار هناك، وهكذا يبقى المثقفون العرب في مغربهم ومشرقهم بعيدين -إن لم نقل منعزلين بعضهم عن بعض- لا يلتقون ولا يتبادلون الأفكار والموضوعات إلا في مناسبات قليلة من اللقاءات والندوات والمؤتمرات التي تعقد بن حين وآخر في هذا القطر أو ذاك.

ومن الواجب أن تعمل الدول العربية بكل الوسائل الممكنة -وهي كثيرة- على تيسير تداول الكتاب العربي بتوزيع طبعاته «طبعة أنيقة شعبية وطبعة رخيصة الثمن» ، وتيسير انتقاله من قطر إلى قطر، وإتاحة طبعه في قطر غير القطر الذي يطبع فيه أول مرة بموجب ترخيص أصولي احتراماً لحقوق التأليف والنشر، والأمر حالياً على النقيض فنجد معظم الدول العربية تقيم العقوبات في وجه انتقال الكتاب وفي طليعة هذه العقوبات فرض الرقابة على مضمون الكتاب فإن كان ما فيه مما تعتقد الدولة أنه لا ينسجم مع ما تريده ، أو كانت فيه آراء وأفكار تتعارض وسياستها منعت دخوله إلى البلد وربما صادرت نسخه دون أن تعيدها إلى الناشر.

هذا ... وقد سبق أن أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اتفاقيتين مهمتين في هذا المجال: الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف والاتفاقية العربية لتيسير تداول الإنتاج الثقافي العربي ، وقعت الدول العربية كلها على هاتين الاتفاقيتين اللتين تهدفان إلى تسهيل طبع الكتاب العربي أولاً وحماية حقوق مؤلفه ثانياً، وإلى اتخاذ تسهيلات خاصة لانتقاله بين الأقطار العربية ثالثاً ، وذلك بخفض أجور النقل إلى أدنى حد ممكن، وعدم فرض رسوم أو ضرائب على دخوله البلد، واتخذت بعض الدول العربية إجراءات إيجابية في هذه السبيل لكن المشكلة في معظمها ما زالت قائمة.

نتائج البحث:

١. أن فنون الكتاب أثرت في الثقافة العربية وجعلت منها ثقافة إنسانية تستند إلى أصول عربية إسلامية مستوعبة في ألوانها وتيارات العصور السابقة والحالية.

٢. أن انتقال الحضارة العربية إلى الأندلس كانت سبباً في ازدهار الفنون وتنوعها بصورة عامة وفنون الكتاب بصورة خاصة وذلك في مجالات الرسم والتلوين والتذهيب والتجليد.

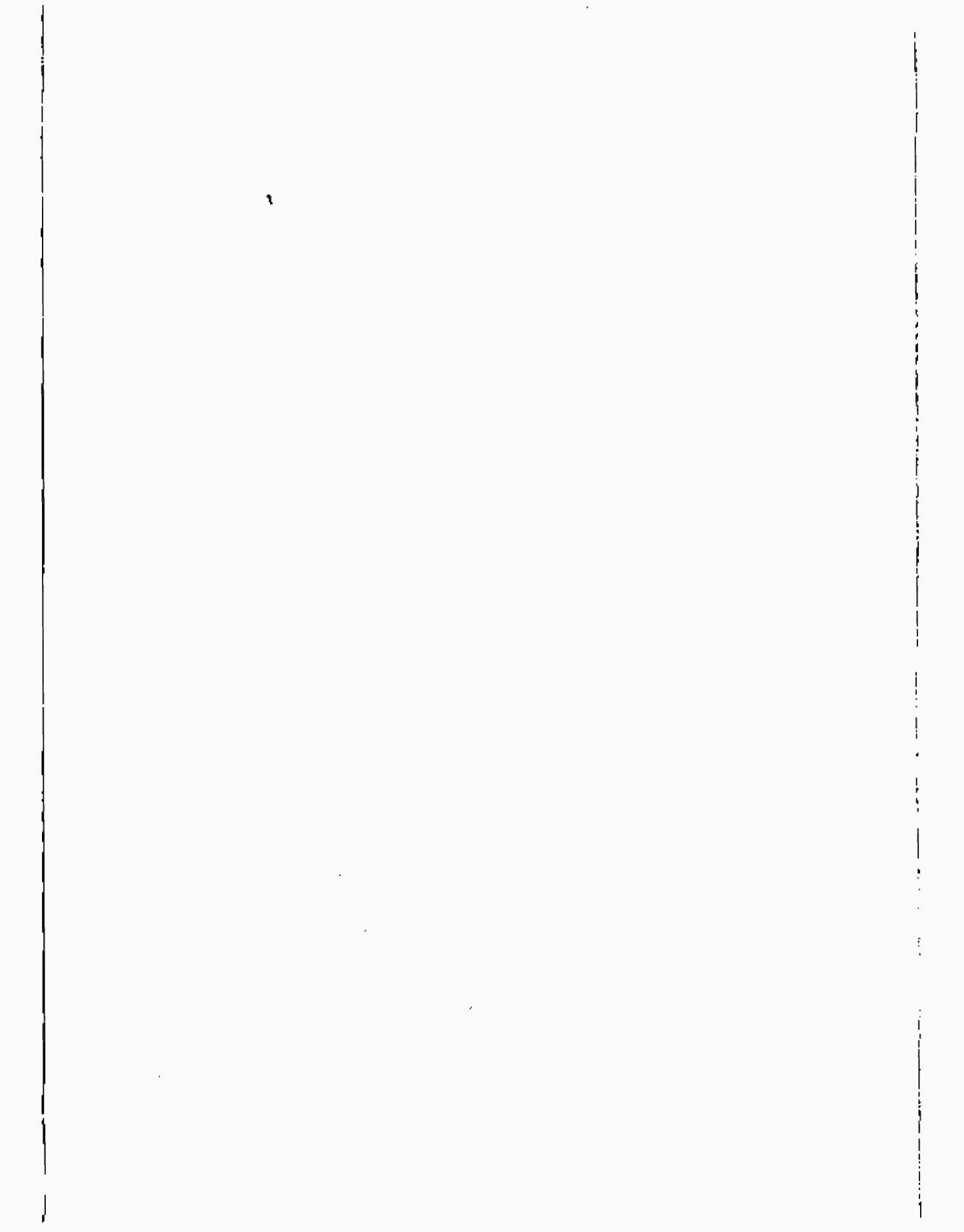
٣. أن المواقف الإدارية والقيود الإدارية تعوق التعاون والتبادل الثقافي بين بلدان العالم العربي وبالتالي تحول دون نمو المؤسسات والمراكز الثقافية.
٤. على الرغم من التباعد الجغرافي بين حدود الدول العربية إلا أن هناك وحدة في الفنون وامتزاج جاء نتيجة انتقال الكتب بين أجزائه.

توصيات البحث:

١. العناية بالتراث العربي المهدد بالزوال والسلب والنهب.
٢. إزالة العوائق والعراقيل التي تحول دون تداول الكتاب العربي وتطوره وانتشاره.
٣. توسيع نطاق معارض الكتب المصرية، والإكثار منها، وفتح المجال أيضاً للكتب الأجنبية ومعارضها.
٤. إنشاء مسابقات لتصميم الكتب وإخراجها على مستوى عالٍ عالمي يتيح الاحتكاك بالخبرات الأجنبية والعربية.
٥. إنشاء «ورش» لتصميم الكتاب وفنونه بحيث تجمع من لديهم الخبرة والدفع بالشباب فيها لحمل تلك الخبرات وتطويرها إلى الأفضل.
٦. نشر الوعي الثقافي والتعريف بالحضارة العربية الإسلامية وكيف أثرت في ثقافات العالم عن طريق البث الإعلامي. (التلفزيوني والقرص الصناعي والإنترنت.... الخ)

قائمة المراجع

- ١- توماس مونرو: التطور في الفنون ، ترجمة : مجموعة من المؤلفين، ج ٣ ،
(الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢).
- ٢- ثروت عكاشة: التصوير الديني والعربي، (المؤسسة العربية للنشر،
بيروت).
- ٣- حسن الياشا: التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، (دار النهضة
العربية، القاهرة).
- ٤- ريتشارد آينلجهاوزن: التصوير عند العرب، مجموعة من المترجمين،
(وزارة الإعلام العراقي، بغداد، ١٩٧٤).
- ٥- يوسف عيد: الفنون الأندلسية وأثرها في أوروبا ، (دار الفكر اللبناني ، ط ١ ،
بيروت لبنان، ١٩٩٣).
- ٦- مجموعة من المؤلفين: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، (الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨).
- ٧- مجلة رسالة اليونيسكو: الأعداد رقم ٢٧١-١٢ / ١٩٨٣ ، ٣٣٠-١١
/ ١٩٨٨- ٣٣٦- ٢ / ١٩٨٩، عدد مزدوج - ٨ ، ٩ / ١٩٩١ . ٧ - ١٩٨٧.
- ٨- مجلة الفكر العربي: العدد ٦٧ ، ١ / ١٩٩٢، (معهد الإثراء العربي، لبنان،
بيروت)
- 9- Al -Andalus: The Art of Islamic Spain, Edited By Jerrilynn, D.
Dodds, New York, 1992.



١

لعب الأطفال كوسيلة من وسائل تثقيف الطفل في حضارات شعوب البحر المتوسط القديمة

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

عزت زكي حامد قادوس

لعب الأطفال كوسيلة من وسائل تثقيف الطفل في حضارات شعوب البحر المتوسط القديمة

١

يُقاس تقدم الأمم وازدهارها ومستواها الحضاري بمدى اهتمامها
بالأطفال، وتثقيفهم وتربيتهم، فهم عدة المستقبل ورجاله، ورصيده الثمين.

ولله در الشاعر العربي الذي يقول:

وإِنَّمَا أَطْفَالُنَا بَيْنُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعْتَ عَيْنِي عَنِ الْغَمَضِ

وينتقل الطفل في مدارج الطفولة، يرتع، ويلعب؛ فتتمو مواهبه، وتتفجر
طاقاته، نتطمئن قلوبنا، ونقر أعيننا بالأمل في مستقبل مفروش بالزهور؛ فالأطفال
هم آمال المستقبل، وبهجة الحاضر، وتثقيف الطفل هدف نبيل من أعظم أهداف
الأمة لأن هذا التثقيف باختصار - هو تهيئة الطفل لحمل مشعل الحضارة
والتقدم.

وإذا كانت وسائل التأثير في الطفل منذ نعومة أظفاره تتعدد وتتنوع، فإن
لعب الأطفال تعد أبرز الوسائل وأعمقها تأثيراً، بل وأنجحها في توسيع مداركه،
وتشكيل وجدانه، وتحديد اتجاهاته الفكرية.

فإن الطفل -في العادة- يتعلق بلعبته، يحبها، ويتأملها، ويلهو بها، وقد لا
تفارقة طوال يومه، بل إنه في أكثر الأحيان يحرص على أن تكون لعبته بجواره
إلى أن يغلبه النعاس^(١) وإذا استيقظ من نومه، ولم يجدها، يصرخ ويبكي، ولا
يهدأ له بال حتى يجدها بين يديه مرة أخرى.

وسوف أتكلم هنا عن الدور الذي اضطلع به لنانو البحر المتوسط -في
العصرين اليوناني والروماني- في الإسهام في تثقيف الطفل وصياغة وجدانه
ووعيه من خلال حرص هؤلاء الفنانين على تشكيل لعب الأطفال بصور تتوافق

^(١) H. Rühfel, Das Kind in der griechischen Kunst, Mainz (1984), p. 191.

مع الواقع، وبأسلوب يعمق ثقافة الطفل ويطورها عبر سني عمره المختلفة. كما حرص هؤلاء على مراعاة أن تكون اللعب مرتبطة ببيئة الطفل التي ينشأ ويتربّع بين أعضائها وأن تكون منبثقة من المعتقدات الدينية السائدة في المجتمع، ومعبّرة عنها ببلغ تعبير.

ولم يكن الهدف الأساسي للفنان من ذلك هو الكسب والربح، بل كان الهدف الأساس هو تثقيف الطفل تربوياً وربط الطفل بمعتقدات مجتمعه، الذي ينتمي إليه، وترسيخ الحس والالتزام الديني عنده، فبنشأ فرداً سوياً مستقيماً السلوك نافعاً لمجتمعه.

هذا الهدف هو ما نطلق عليه التثقيف التربوي والتثقيف الديني، الذي يكون هدفه انسجام الفرد مع عناصر مجتمعه، وتحقيق السلام النفسي الذي يقى الفرد الانحراف وسوء السلوك.

وسوف أحاول في هذا البحث العوجز أن أوضح هذه المنظومة المتكاملة من خلال استعراض بعض النماذج -على سبيل المثال لا الحصر- من بين المجموعة النادرة من لعب الأطفال الموجودة في المتحف اليوناني الروماني والتي تضم ٥٥ قطعة مصنوعة من الفخار المحروق (التراكوتا)، ومن الخشب، فهي تمثل نموذجاً حياً لما ساد في هذا المجال في كل من الحضارتين اليونانية والرومانية في حوض البحر المتوسط.

ولبل أن نستعرض هذه النماذج لود الإشارة إلى بعض الملاحظات:

أولاً: إن نسبة القطع الفخارية تزيد كثيراً عن القطع الخشبية (١٣: ١) ولذلك سببان:

١- ندرة وجود الأخشاب في مصر بصفة عامة، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن لعب الأطفال التي تصنع من الخشب تحتاج إلى نوعية جيدة للغاية حتى لا تجرح الأطفال الذين يلعبون بها.

٢- عدم مقاومة الأخشاب لعوامل الطبيعة والزمن خاصة في الأماكن الرطبة مثل الإسكندرية، لذلك نجد أن القطع الخشبية قد جاءت من القيوم ذات الجو الجاف.

ولعل الأسباب واضحة في التفوق العددي لمادة التراكوتا، في هذه اللعب لأن مادة التراكوتا على الرغم من أنها سهلة الكسر بالنسبة للأطفال إلا أنها رخيصة الثمن ويمكن تعويضها إذا ما فقد الطفل لعبته بسبب الكسر أو الضياع، وكذلك تتيح مادة التراكوتا تشكيل هذه اللعب بطريقة انسيابية وجوانب مستديرة لا تجرح الأطفال أثناء اللعب لأنها سهلة التشكيل عند صنعها ويمكن صقلها بسهولة. ثانياً: أن الفنان عندما قام بتشكيل هذه اللعب من التراكوتا عن طريق القوالب^(١) التي تتيح صنع هذه اللعب بكميات كبيرة زودها بتجاويف داخلية حتى تكون خفيفة الوزن يستطيع الطفل حملها والتقل بها أثناء اللعب، أما الألعاب الخشبية فكانت مصممة ولكنها خفيفة الوزن بطبيعة الحال نظراً لصغر حجمها. ثالثاً: لجأ الفنان في كثير من الأحيان إلى وضع قاعدة أسفل أرجل الحيوانات حتى يسهل وقوف هذه اللعب على الأرض أمام الأطفال، يجعل هذه القاعدة جزءاً لا يتجزأ من التكوين العام لهذه اللعب، وقد انتشرت هذه اللعب في أرجاء المجتمع ككل، وهذا يفسر عثورنا على هذه اللعب في كثير من المنازل والمقابر، وقد كان الأطفال يجرون لعبهم فوق عربات صغيرة تجرها خيول صغيرة^(٢) كما كانوا يحملون الطيور الصغيرة في أيديهم ويلقون بها في الشوارع لكي تنتزه^(٣).

ونظراً لولع الأطفال بالحيوانات والطيور كانت تصنع لهم لعب على هيئة الحيوانات أو الطيور فنجد شخائيل مصنوعة من التراكوتا ولها يد يمسك بها الطفل^(٤) وكذلك نجد عدد من التماثيل التي يحمل فيها الأطفال طيوراً ينظرون

(١) R. A. Higgins, Catalogue of Terracotta in the Department of Greek and Roman Antiquities in British Museum, London (1969), pp. 3-7.

(٢) C. Watzinger, Griechische Vasen in Tübingen (1924), p 50 E 129, pl. 33.

(٣) Rühfel, Op. Cit., p. 167.

(٤) منى حجاج، تصوير الأطفال في الفن اليوناني القديم، (رسالة دكتوراه غير منشورة)،

الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٥٠ صورة ٩١.

إليها في شغف وولع^(١)، وهناك كثير من المناظر في الفن اليوناني تعكس مدى الألفة الواضحة بين الأطفال والطيور أو الحيوانات وهي تترك دلالة واضحة على وجود لغة وتعبيرات خاصة بين هذه الطيور^(٢) أو الحيوانات^(٣) من ناحية والأطفال الذين يداعبونها من ناحية أخرى.

وكانت لعب الأطفال من الحيوانات والطيور تصاحب الأطفال حتى على شواهد القبور الخاصة بهم، وهناك كذلك كثير من شواهد القبور^(٤) التي تظهر الأطفال مع حيوانات أو طيور مما يدل على حب وهؤلاء الأطفال وتعلقهم بحيواناتهم أو طيورهم المفضلة^(٥) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن بعض رسوم الفخار تصور الأم وهي تعطي طفلها صندوق اللعب الخاص به وهي تؤدعه قبل أن يحمله خارون إلى العالم السفلي، وبالطبع كانت الأم هنا تريد أن يجد الطفل تسلية له في عالمه الآخر مع ألعابه المفضلة^(٦) وفي كثير من الأحيان كان الطائر المحبب للطفل يدفن معه حتى يقوم بتسليته في العالم السفلي^(٧).

^(١) Rühfel, Op. Cit., pp.235 ff, Fig. 100 a. b.

^(٢) G. Van Hoon, cheos and Anthesteria (1951) Nr. 631, Fig. 96, L. Deubner, Attische feste (1959), Pl 31, h, F. Beck, Album of Greck education (1975), P. 49, Fig. 300.

^(٣) R- Lullies, Eine Sammlung griechischer Kleinkunst (1955), P.32 Nr. 69, Baeck, Op. Cit., p. 49, Figs. 301- 305.

^(٤) Rühfel, Op. Cit., PP. 133 f, Fig. 54; PP.181 f, Fig 75.

^(٥) D. C. Kurtz, Athenian white Lekythoi patterns and Painters (1975). P. 56; K. Frus Johansen, The attic grave- Reliefs of the classical period (1957), PP. 26 f, Fig. 12; Karusu, Archeologisches National museum "Antike Skulpturen" (1969), P. 51; D. Ohly, Glyptothek Führer (1972), Nr. 30.32., H. Hiller. Ionische Grabreliefs der ersten Hälfte des 5. Jhs. V.chr. 12. Beiheft Istanbul Mitteilung (1975), PP.172 ff. K6, pl. 16, 1-2.

^(٦) A. Fairbanks, Athenian white Lekythoi II, (1972 2), P. 85 Nr.8.

^(٧) اكتشف في إحدى مقابر كيرامايكوس بأثينا هيكل عظمي لطفل وبجواره عظام طائر

صغير، انظر:

K. kübler, Keramaikos VII I, (1976) P. 29 Nr.39.

وفيما يلي نستعرض بعض الأمثلة من لعب الأطفال:

أولاً: الحيوانات

١- لعب على شكل الكلاب:

تعتبر الكلاب^(١) من أكثر الحيوانات ظهوراً في لعب الأطفال وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن الكلب من الحيوانات الأليفة التي تسكن البيوت مع البشر وتشتهر بوفائها المعروف لأصحابها فضلاً عن أمانتها، ومن أهم الصفات التي نجدها عند الكلاب^(٢) سرعة الفهم وقوة ذاكرتها وكذلك قدرة الكلب على التعرف على صاحبه بعد عدة سنوات^(٣)، وحبه الشديد لصاحبه هذا فضلاً عما تقوم به الكلاب من أغراض الحراسة والصيد، لذلك كان من الطبيعي إيراد تلك المعاني التربوية للأطفال من خلال لعبهم بهذه الحيوانات حتى تكون وسيلة للتصليح ووسيلة للتفكير في هذه الأمور كلها. وقد كان لارتباط الكلب بالإله أبولو (حامي الكلاب)^(٤) أثره في ظهور الكلاب كلعب للأطفال، فيحدثنا ليونيداس^(٥) أن البنين كانوا يقومون بإهداء لعبهم إلى الإله أبولو وذلك عند بلوغهم سن الشباب؛ ونلاحظ من المناظر التي صورت الكلاب مع الأطفال أن الأطفال لم يكونوا يخشون الكلاب وإنما نشأت ألفة كبيرة بينهم. واقترن ظهور الكلاب بكثير من صور للأطفال ولدينا عدد من المناظر التي توضح ذلك.^(٦)

^(١) Aristoteles, *Histoia Animalium* VII I 167; Plinius, *Historia Naturalis* VIII, 148.

^(٢) O. Keller., *Die antike Tierwelt* I Leipzig (1909), PP. 91- 151.

^(٣) تعرف الكلب على أوديسيوس بعد عودته إلى منزله بعد حوالي ٢٠ عاماً:

Homeros, *Odyssey* X 216 ff.

^(٤) Aelianus, *De Natura Animalium* XII 34.

^(٥) Leonidas, *Anthologia Palaeonia* VI 309.

^(٦) من أفضل الأمثلة المحفوظة لدينا تمثال من المرمر يرجع إلى القرن الثالث ق. م. حيث يمسك طفل بكلب بين ذراعيه ويحتضنه في لهفة: Ruhfel, *op. Cit.*, P. 258, Fig 109. وهناك مثال آخر لطفل جالس على صخرة يقوم الكلب بمداعبته بأن يقفز عليه ويحاول أن يقبله في وجهه:

A. Klein, *Child life in greek Art*, New York (1932) P. 12, Pl. XII C. =

ولم يقتصِر تصوير الفنان للعب الأطفال في شكل الكلاب على مجرد تصوير كلاب من فصيلة واحدة ولكنه صور كثيراً من الفصائل حتى ينمي مدارك الطفل في استيعابه لعدد كبير من أنواع هذه الكلاب وقضايلها، مما يسهم في ثقافة هذا الطفل وسعة أفقه من الناحية التربوية هذا فضلاً عن الهدف الثقافي الديني من خلال ارتباط هذه الكلاب بالآله أبوللو.

٢- لعب على أشكال الخيول:

كانت الخيول^(١) من اللعب المفضلة عند الأطفال^(٢) والسبب في ذلك أن الحصان كان ولا زال صديقاً مخلعاً للإنسان؛ حيث يشاركه أقرابه وأحزانه حيث إن الحصان بطبيعته حساس للغاية^(٣)، وكذلك قدرة الحصان الهائلة على التعلم وتكاثره الخارق، وكانت الخيول من الحيوانات شديدة التعلق والارتباط بصاحبها ويقسم فارو^(٤) الخيول إلى أربعة أنواع:

١- خيول للفروسية ٢- خيول لجر العربات

٣- خيول للتربية ٤- خيول للسباق

وقد كانت غاية الشعوب القديمة بتربية الخيول على درجة عالية من الكفاءة سواء من حيث الصحة^(٥) أم العناية بتعليمها؛ ففي بلاد اليونان كانت

= وكذلك نجد طفلاً يداعب كلبة مسلحاً في يده لكي يقتز عليها الكلب:

Klein, Op. Cit, P. 13, Pl XVC

^(١) Keller, Op. Cit., PP. 218- 259.

^(٢) Horace, Satires II 3, 248.

^(٣) Isidoros Stathmoi Parthikoi XII, I, 44; Herodotos, Historia III84 ff.

^(٤) Varro, Rerum rusticarum II, 7, 5.

تارن ذلك أيضاً بما ورد عند بلينيوس الذي يعدد الأغراض التي تستخدم فيها الخيول:

Plinius, Historia Naturalis VIII 163.

^(٥) يذكر إيزودوروس صفات الحصان الجيد ذي الصحة الجيدة:

Isidoros, Op. Cit, XII, 1, 45

وكذلك يذكر ألوان الخيول:

Isidoros, Op. cit., XII, 1, 48 ff.

أفضل الخيول من منطقة تساليا^(١) حيث موطن الحصان الخاص بالإسكندر الأكبر والذي أطلق عليه اسم Bukephalos^(٢). أما أفضل خيول السباق فكان مصدرها جزيرة صقلية^(٣)، أما أحسن خيول العربات فقد اشتهرت قورينه^(٤) بتربيتها وكانت الخيول الليبية معروفة بسرعتها الفائقة وقوامها الرشيق.

أما في مصر فقد ظهر الحصان لأول مرة في عصر الدولة الحديثة^(٥) إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة من حوالي ١٥٨٠ ق. م وجاءت الخيول عن طريق الجنس الأري المسمى Churri ولم تكن الخيول المصرية تمثل سلالة قائمة بذاتها حيث ظهر عدد من مناظر الخيول في عصر الدولة الحديثة وكلها توضح نوعاً واحداً من الخيول ذات الرقبة المقوسة بشدة، والحصان -كما أسلفنا من قبل- كان من أفضل اللعب عند الأطفال، وكان الحصان من اللعب القليلة التي تحتوي على عجالات لكي يجرها الأطفال عن طريق خيط يربط في ثقب في أنف الحصان أو رقبتة، وقد عثر على كثير من هذه اللعب في مقابر الأطفال^(٦) وهي عبارة عن حصان يقف على أربع عجالات.

وهناك استخدامات أخرى كثيرة للخيول فمنها استخدامها في نقل الحاجيات من مكان لآخر^(٧)، وكانت تستخدم في جر آلات طحن الحبوب في الشرق، ومن شعرها كانت تصنع المصالي والأكواس وترخرف الخوذات الحربية.

ومما سبق يتضح أن الفنان قد استغل هذه المميزات الموجودة في الخيول

^(١) Keller, Op. cit., PP. 227 f

^(٢) Arrianus, Anabasis V 19, 5; Strabo, Geographica XV, 698 C.

^(٣) Horace, Carmina II 16, 34 f

^(٤) Aelianus, De Natura Animalium III 2.

^(٥) C. Vanderaleyn, Das antike Agypten (Berlin 1985), P. 324 f, Pls. 309- 311.

^(٦) منى حجاج المرجع السابق، ص ص ١٥١ - ١٥٢.

^(٧) Klein, Op. cit, P. 9, PL 8 D.

كلها وصورها في أشكال مختلفة للأطفال على هيئة لعب لكي يخرس فيهم حب الخيول لما تقدمه من خدمات في نواح كثيرة من الحياة، تلك كانت الأهداف التربوية التي تسهم في تكوين شخصية الأطفال وصقل مواهبهم.

٣- لعب على شكل الحمار:

كان الحمار من الحيوانات الأكثر استخدامًا وشيوعًا في بلدان حوض البحر المتوسط ومازال هذا الحيوان يستخدم في الأغراض نفسها التي استخدمت فيها القدماء حيث كان وسيلة للانتقال وجر العربات^(١) ويرجع ذلك إلى قوة تحمل هذا الحيوان وقلة تكاليفه سواء من حيث ثمن شرائه أم تكلفة معيشته.^(٢)

ويوجد خمسة أنواع من الحمير^(٣) كان أكثرها انتشارا الحمار الأهلي الوديع الذي أطلق عليه اليونانيون *Ovos* والرومان *asinus*^(٤) ومن أهم الصفات التي تميز الحمار عن غيره من الحيوانات تحمله مشاق العمل وحمل الأثقال وصبره وعدم كثره من العمل.^(٥)

وقد ظهر الحمار في مصر في حضارة نقادة قبل الألف الرابع ق. م في أيديوس^(٦)، وكان يستخدم في درس الحبوب والركوب وحمل الأثقال، واستخدمه رمسيس الثالث في نقل البضائع عبر الصحراء بدلاً من الجمل، لكنه فقد أهميته بعد دخول الحصان إلى مصر في عهد الدولة الحديثة.^(٧) وكان الحمار مرتبطاً بعالم الإله ديونيسوس وكان يظهر دائماً في أعياد الإله في بلاد اليونان،^(٨) وكذلك ظهرت الحمير في المواكب الديونيسية الكبيرة في عهد بطليموس الثاني في

^(١) Cicero, De Natura Deorum II 59.

^(٢) Plinius, Historia Naturalis XVIII 44.

^(٣) f. Olck, s.v. Esel, in: RE 6, 1909, PP. 628-666.

^(٤) Ibid., PP. 623- 655.

^(٥) Xenophon, Anabasis V 8, 3; Plinius, Historia Naturalis VIII 171.

^(٦) Keller, Op. cit. P. 268, Fig. 83, 106.

^(٧) Ibid., P. 268.

^(٨) Plinius, Historia Naturalis XXIV 2.

الإسكندرية.^(١) وظهرت مزينة بالأكاليل في أعياد الإلهة الرومانية نستا Vesta راعية العائلات -التي تقام في التاسع من شهر يونيو من كل عام^(٢)، وفي العصر الإمبراطوري كانت الحمير مرتبطة بالإلهة إيزيس^(٣)، هذا علاوة على تقديم بعض رؤوس الحمير قرباناً للإله أبولو في دلفي^(٤)، فليس غريباً لذلك أن تصور الحمير كحيوانات تخدم أغراضاً كثيرة من نواحي الحياة المختلفة، وتقدم لعباً للأطفال لتعكس أهمية هذا الحيوان في الحياة العامة نظراً لما يتمتع به من صفات طيبة. كان ذلك هو الهدف التربوي في تنقيف الطفل هذا بالإضافة إلى ارتباط الحمار بكثير من الآلهة سالفة الذكر مما يهدف إلى التنقيف الديني للطفل.

٤- لعب على شكل الخنازير:

تعتبر الخنازير^(٥) من أقدم الحيوانات المنزلية وأهمها وكان الأطفال يعملون إليها؛ لما تتمتع به من هدوء في حركتها وجسم سمين لين ومن أهم أنواع الخنازير الخنزير البري^(٦) الذي يوجد في وسط أوربا وجنوبها وشمالى أفريقيا - من الجزائر حتى مصر- وكذلك غرب آسيا، وقد عرف الخنزير منذ عصر ما قبل التاريخ على أنه حيوان منزلي مستأنس، ويظهر الخنزير في مصر منذ عصر الدولة القديمة الفرعونية، ويتميز الخنزير المصري بأذنه القصيرة المنتصبة^(٧)، وقد حاز الخنزير قبولاً من المصريين خلال العصر الفرعوني، ولكن اختلفت الحال في المصريين اليوناني والروماني حيث كان ينظر للخنزير في مصر وموريا على أنه حيوان غير مرغوب فيه لقذارته^(٨)؛ وهذا يفسر قلة

^(١) Olck, Op. cit., PP. 625 f

^(٢) Ovidius, Fasti VI 311 f. 347-469.

^(٣) Apuleius, Metamorphoses XI 5.

^(٤) Aelianus, De Natura animalium X 40.

^(٥) Keller, Op. cit., PP. 388- 405.

^(٦) Ibid., P. 389

^(٧) Ibid., P. 388- 389

^(٨) F. Orth, s.v. Schwein, in: RE 1921, P. 803.

المناظر التي تصور الخنازير في المنطقتين وكان مربو الخنازير من الفئات المحترمة في مصر ولم يكن يسمح لهم بدخول المعابد، وكان المصريون ينظرون إلى الخنازير كرمز للإله الشرير ست^(١).

أما عند اليونان والرومان^(٢) فكانت الحال مختلفة تمامًا حيث كانت تربية الخنازير منتشرة في أنحاء واسعة من بلادهم^(٣)، وكان يمثل جزءًا كبيرًا من دخلهم القومي وكان الخنزير ذا أرجل قصيرة وجسم متضخم كبير ورقبة قوية ورأس صغير، وكان يعتقد أن الخنزير من الحيوانات التي تجلب الحظ والرزق الوفير^(٤) نظرًا لكثرة إجاب الخنازير حيث يستطيع الخنزير الإنجاب مرتين في العام في كل مرة حوالي ٢٠ مولودًا وكانت الخنازير من أهم القرابين التي تقدم إلى الإله أبوللو والإلهة أفروديت^(٥)، وقد ظهر الخنزير كثيرًا في الفن اليوناني مصاحبًا للأطفال حيث يجلس الأطفال فوقه في هدوء وسكينة ولا يخشونه^(٦) أو كانت الخنازير تقف بمفردها كلعبة للأطفال^(٧). ومن خلال ذلك ركز الفنان على الهدفين التربوي والديني.

وفي مجموعة الإسكندرية نجد ثمانى قطع تمثل الخنزير وهو يقف على قاعدة حتى يكون ثابتًا أمام الأطفال ونلاحظ أن هذه القطع جميعًا تأتي من مدن عاش فيها العنصر الأجنبي مثل الإسكندرية ونقراطيس والفيوم.

^(١) Herodotos, Historia II 14.

^(٢) Keller, Op. cit., PP. 395- 401..

^(٣) Homer, Odyssay VI 103 f; Xenophon, Anabasis V 3, 10; Pausanias, Periegeis Tys Hellados I 27, 9; Varro. Rerum Rusticarum I 22.

^(٤) Plinius, Historia Naturalis VIII 205.

^(٥) Keller, Op. cit., P 401..

^(٦) Klein Op. cit., P. 12 Pl. XII D;

هناك أيضًا ارتباط وثيق بين الخنزير والإله ليروس قارن

A. Hermay, LIMC III (1986), P. 875, PL. 624 (279).

^(٧) Klein, Op. cit., P. 10, PL. IX A.

٥ - لعب على شكل إبل:

تعتبر الإبل من الحيوانات القديمة التي عرفها الإنسان منذ أمد بعيد؛ وهي عادة ذات لون أسود، ولها إما سنام أو عدة أسنة فوق ظهرها وهذا ما يجعل الإبل مثار تعجب الكتاب جميعاً^(١) والفنانين القدامى، ويتحمل الجمل العطش لمدة أربعة أيام متواصلة لأنه يختزن المياه في جسمه، وكان معروفاً عند المصريين منذ الألف الرابعة ق. م^(٢) والجمل في حمل المتاع والتجارة^(٣) وهو وسيلة جيدة للانتقال في الصحراء نظراً لقوة احتماله للعطش كما كان الجمل يستخدم في أغراض القتال أوقات الحرب^(٤)، كذلك كان للجمل كثير من الاستخدامات في الحياة اليومية؛ مثل صنع الأكواس من جلد الجمل والملابس من وبره الذي يغطي جسمه بكثافة، وكان للجمل وظائف مهمة في علاج الأمراض^(٥) ولم يعرف الفن المصري الجمل إلا في أحوال نادرة للغاية، وقد صورته اليونانيون بطريقة مبالغ فيها في فنونهم^(٦)، وقد ظهر الجمل على عدد من العملات الرومانية^(٧)، وعلى الفصوص ولدينا في مجموعة الإسكندرية من لعب الأطفال كثير من القطع التي تصور الجمل بمفرده أو محملاً بالبضائع والمتاع، وكان الهدف من صناعة هذه القطع إبراز دور الجمل في حياة الإنسان واستخداماته كي توضح هذه الأغراض للأطفال، وتظل أمام أعينهم للتفكير والتمعن فيها.

^(١) Aristoteles, *Historia Animalium* II I, p. 499 a II ff.

^(٢) Keller, Op. cit., p. 275.

^(٣) Strabo, *Geographika* XVII 815.

^(٤) Plinius, *Historia Naturalis* X 125; Tacitus, *Annales* XV 12; Herodotos, *Historia* VII 87.

^(٥) Plinius, *Historia Naturalis* XXXVII, 91.

^(٦) O. Keller, *Tiere des Klassischen Altertum*, pp. 34f.

^(٧) J. P. C. Kent, a. O., *Die romische Munze* (München: Hirmer Verlag, 1973), P. 86, Pl. 16 (63); P. 87, Pl. 16 (70).

٦- لعب على شكل الخراف:

تمثل الخراف في العصور القديمة ثروة اقتصادية هائلة لبعض الشعوب نظراً لما تنتجه من صوف يستخدم في نسج الملابس فضلاً عن الأهمية الغذائية للحم هذه الخراف، لاسيما تربية الخراف أمر يسير لا يحتاج إلى أكثر من مكان متسع يصلح للرعي وتثبت به أعشاب المرعى، ويوجد خمسة أنواع مختلفة من الخراف^(١)؛ انتشر النوع الأول منها في مصر وشمالى إفريقيا؛ وهى خراف ذات كرون صغيرة نسبياً وصوف كثيف ومؤخرة دهنية عريضة، وقد وجد هذا النوع في مصر منذ الألف السادس ق. م وذلك في حضارة نقادة،^(٢) ويخبرنا ديودور الصقلي^(٣) أن الخراف المصرية كانت أكبر من الخراف اليونانية حيث ارتبطت بالإلهة إروديت باعتبارها تعبر عن الخصوبة وكذلك بالإلهة أرتميس باعتبارها إلهة الصيد والمراعى،^(٤) أما الإله أبو اللو فقد كان إلها للرعاة وبالتالي ارتبطت الخراف بهذا الإله^(٥). ونظراً لأن الخراف من الحيوانات الأليفة التى تربي في المنازل -لما تشتهر به من وداعة وهدوء- فقد انتشرت تربيتها الخاصة في بيوت الفلاحين مما جعلها مادة خصبة يستغلها الفنانون فى صنع لعب صغيرة من التراكوتا تساهم في تسلية الأطفال حيث يعجبون بوداعتها وهدونها وصونها لكثيف الناعم اللعس، هذا فضلاً عن ارتباطها بالآلهة سائفة الذكر.

٧- لعب على شكل ضفادع:

لفتت الضفادع^(٦) نظر الأطفال خاصة عند تئزها ، ونجد أن الأطفال لا يخشون هذه الضفادع بل يسارعون إلى اللحاق بها وإمساكها؛ وهناك عدة أنواع من الضفادع؛ منها الضفدع الخضراء وهى ما نطلق عليها ضفدع الماء،

^(١) F. Orth, s. v. Schaf, in: RE II 3, 1921, PP. 373- 375.

^(٢) Keller, Die antike tierwelt I, P. 310, Fig. 106.

^(٣) Diodoros, Bibliothke I 36.

^(٤) Orth, Op. cit., PP. 392 f.

^(٥) Pindaros, Pythian Odes IX 64.

^(٦) O. Keller, Die antike Tierwelt II (1913), PP. 311- 318.

والضفدع ذات اللون البني التي تعيش على الأرض داخل العشب، وضفدع الأشجار، وجميع أنواع الضفادع تعيش في المستنقعات وتضع البيض،^(١) وتصدر الضفادع صوتا مميزا عن طريق لسانها المثبت من الأمام والمحرك من الخلف؛ وبسبب ما قيل عن قدرة الضفادع على التكهن بسقوط الأمطار نجد أنها ارتبطت بالإله أبوللو^(٢)، واعتقد القدماء أن الضفادع تمنع الحسد، ولها قدرة على شفاء المرضى.^(٣) وقد استخدم الفنان الضفادع في اللعب التي تصدر صوتا مثل الشخايل مستغلا في ذلك الصوت الذي تصدره الضفادع، وهنا أوضح الفنان الأهداف التربوية والدينية التي تسهم في تثقيف الطفل من خلال تشكيله لهذه اللعب.

٨- لعب على شكل الفئران:

كانت الفئران من الحيوانات التي ربما تخيف الأطفال ظاهرياً، ولكنها من الحيوانات التي يعجب بها الأطفال ويتخذون من أشكالها لعباً لهم، وقد كان هناك كثير من أنواع الفئران؛ فمنها فئران الحقول، وفئران المنازل^(٤)، وفئران الغابة^(٥)، وكذلك الفئران البيضاء^(٦) التي كانت تعني الشيء الجميل أو المعنى الحسن عند القدماء^(٧)، ولم تكن الفئران من الحيوانات المقدسة في مصر القديمة وكانت تعيش في الصحراء، وفي السهول الجافة، وعلى ضفاف النيل^(٨)، أما في بلاد اليونان، فقد ارتبطت الفئران بالإله أبوللو الذي كان يسمى

^(١) Aristoteles, *Historia animalium* 1 1, 6; IX 189; Plinius, *Historia Naturalis* XXX 11, 48.

^(٢) Aristophanes, *Frogs* 231.

^(٣) Plinius, *Historia Naturalis* XXX 11 49.

^(٤) I *bid.*, VIII 221.

^(٥) I *bid.*, XXII 91.

^(٦) I *bid.*, XVIII 160.

^(٧) Keller, *Die antike Tierwelt* I, P. 203

^(٨) Herodotos, *Historia* IV 192; Aelianus, *De Natura animalium* XV 26.

Apollo Smintheos^(١) وكانت الفئران تمرح في حقول العنب وتتغذى كثيرا عليه.^(٢) وقد كان تصوير الفئران قليلا مقارنة بغيره من الحيوانات،^(٣) ولم يكن الأطفال يخشون الفئران وإنما تعايشوا معها دون خوف؛ كما يظهر على أحد الأواني الفخارية^(٤).

٩- لعب على شكل الدرفيل:

كانت الدرافيل^(٥) وما زالت تستحوذ على اهتمام الكبار والصغار على السواء؛ عند رؤيتها وهي تقفز خارج الماء في حركات جميلة، وتعيش الدرافيل عند مصبات الأنهار خاصة في العياة الجارية.^(٦) ويحدثنا استرابون^(٧) أن الدرافيل كانت تعيش في النيل؛ ويتحدث عن صراعها مع التماسيح. وعلى الرغم من أن الدرافيل تعيش في الماء إلا إنها ليست أسماكاً^(٨)، ويعتبر الدرفيل ملك كائنات البحر وقد صوره الشعراء كثيرا في أشعارهم وتحدثوا عن حيويته الزائدة وألغابه المسلية، وحبه للموسيقى، وصداقته الحميمية للإنسان^(٩) وإيقاظه للأطفال في البحر، وارتبط الدرفيل بعدد من الآلهة؛ مثل أبولو^(١٠)، وبوسيدون^(١١)، وديونيسوس^(١٢)، وأثروديت^(١٣)، والإله الطفل أيرومس^(١٤)، الذي صور كثيرا من الفن في العصرين

^(١) Strabo, Geographika XIII 604.

^(٢) Plinius, Historia Naturalis XIII 604.

^(٣) Keller, Op. cit., P. 202.

^(٤) G. Van Hoorn, Cheos and Anthesteria (Leiden 1951), Cat. Nr. 841, Fig. 339.

^(٥) Keller, Op. cit., PP. 408 f

^(٦) Plinius, Historia Naturalis VIII 91.

^(٧) Strabo, Geographika XV 719.

^(٨) Aristoteles, Historia animalium I 5, 489 b2.

^(٩) Homeros, Odyssey XII 96; Plutarchos, De sollertia animalium c 36, 984 c.

^(١٠) Tacitus, Historia IV 83 f.

^(١١) Paus anias, Op. cit., III 25, 7.

^(١٢) Ovidius, Metamorphoses III 532.

^(١٣) I bid., V 331.

^(١٤) E. Brodner, Wohnen in der Antike, Darmstadt, (1989), P. 80, Fig. 27.

الهليستى والرومانى^(١) مرتبطا بالدرفيل لذلك ارتبطت صور الدرفيل أيضا بالأطفال عادة، وقد كان الدرفيل معروفا كرمز للحب^(٢) وانتشر حب الدرفيل في الإسكندرية منذ عصر بطليموس الثانى^(٣) ولقى الدرفيل قبولا كبيرا في عصر أوغسطس نتيجة انتشار حب الدرفيل بين الأطفال^(٤)؛ هذه الأسباب كلها جعلت الدرفيل مفضلا عند الأطفال يصور لهم في شكل لعب يلعبون بها ويتفكرون فيها؛ وذلك لتنمية الهدف التربوي والديني من خلالها.

١٠- لعب على شكل القطط:

يرجح أن أصل القط كان في أفريقيا^(٥) وبدأ ظهور القط كحيوان منزلي ألِف في حوالي ٢١٠٠ ق. م في مصر، وانتشرت بصفة عامة في عصر الدولة الوسطى حين عُدت في صورة الإله باستت^(٦) - وبنى لها معبد كبير في مدينة تل بسطا Bubastis شرق الدقا^(٧)، وكذلك كانت القطط من الحيوانات المقدسة في مدينة هليوبوليس^(٨)، وكانت الإلهة باستت إلهة القمر، والإلهة المشرفة على الولادة وتربية الأطفال، وقد اقترنت عند اليونانيين بالإلهة Eileithya وأرتميس^(٩)؛ ولذلك ارتبطت القطط بالأطفال عن طريق تربيتها في المنازل، ووداعتها، وحبا لأصحابها مما جعل الفنان يختارها كمادة خصبة تصلح للصنع في شكل لعب الأطفال.

(١) A. Hermay, LIMC III (1986), PP. 867-870, Pl. 617-619 Nrs. 159-192.

(٢) Plinius, Historia Naturalis IX 28.

(٣) Aelianus, De Natura animalium VI 15.

(٤) Plinius, Historia Naturalis IX 25.

(٥) Keller, Op. cit., I, P. 74.

(٦) Herodotos, Historia II 60.

(٧) J. Lindsay, Leisure and Pleasure in Roman Egypt (London 1965), P. 229f.

(٨) Keller, Op. cit. I, PP. 69-70.

(٩) Herodotos, Historia I 59, 83, 137, 155; Ovidius, Metamorphoses V 333.

ثانياً الطيور:

تمثل الطيور نسبة ضئيلة من لعب الأطفال ومنها:

١- لعب على شكل الديك:

ترجع أصول الديك إلى جنوب وشرق آسيا^(١)، وقد انتقل إلى الشرق عن طريق بلاد فارس ثم إلى أوروبا.

وأهم ما يميز الديك الاستيقاظ مبكراً لكي يطرد بصياحه أشباح الظلام^(٢)، وقد عرفت الديوك منذ عصر الفراعنة^(٣)، ويتميز الديك بالجرأة والخيلاء والفخر والنظافة؛ ولذلك كان من الطيور المفضلة لإهدائها إلى الأطفال لكي يلعبوا بها، هذا بالإضافة إلى أن ارتباط الطفل بالديك كان وثيقاً حيث يظهر في كثير من المناظر في الفن اليوناني وهو يلهو مع الديكة^(٤)، وكذلك نجد ظهور الأطفال مع الديكة في الحياة اليومية حيث يلعبون معها^(٥) أو يجرون وراءها^(٦)، أو يجرون الديك على عربة^(٧)، ولم يقتصر ظهور الأطفال مع الديكة في الحياة اليومية فقط؛ وإنما على شواهد القبور أيضاً^(٨)، وكذلك كان الديك من وسائل الإغراء المهمة عند الأطفال في الأساطير اليونانية والتي تعكس الفن اليوناني^(٩)؛

^(١) Keller, Op. cit. II, P. 131.

^(٢) I bid., P. 131.

^(٣) Aristoteles, Historia animalium VI 2, 6; Plinius, Historia Naturalis X 153.

^(٤) Klein, Op. cit., P. 12, Pl. 11 F; P. 23 Pl. 23 C.

^(٥) L. Deubner, Attische Feste (1959), Pl. 30.3.

^(٦) Klein, Op. cit., P. 11, Pl. XC.

^(٧) I bid., Pl. XIE.

^(٨) E. Pfuhl- Mobius, Die Ostgriechen Grabreliefs I (1977), P. 22 Nr. 45, Pl. 11.

^(٩) من أهم المناظر التي تصور ذلك إهداء الإله زئوس هيكلاً إلى ابن ملك طروادة جاني ميدس ليشغله به حتى يستطيع إحتطائه، قارن:

W. Fuchs, Die Skulpturen der Griechen München (1979), P. 341, Fig. 376.

حيث اقترن الديك بكبير الآلهة زيوس، وعلى ذلك جمع الفنان في تصويره للديكة بين الهدف التربوي والهدف الديني الذي يسهم في ثقافة الطفل وتوسيع مداركه.

٢- لعب على شكل الحمام:

توجد ستة أنواع من الحمام^(١) أهمها الحمام المنزلي، وقد كان الحمام محط أنظار الشعراء اليونانيين والرومان وكانت الحمامة رمزاً للنحومة والرفقة والخجل وكذلك كان رمزاً للنظافة والحب والوفاء^(٢)، كما كانت الحمامة رمزاً للفخر والزهو^(٣) وقد كانت رمزاً للإلهة عشتار عند الآشوريين ورمزاً للإلهة أفروديت وأيروس عند اليونانيين^(٤)، وفي مصر كان الحمام من الأشياء اللازمة للبيت المصري خاصة في الريف حيث أبراج الحمام كثيرة العدد وهناك كثير من المناظر -التي تصور البيئة والطبيعة- تصور هذا الحمام^(٥)، وكانت تربية الحمام من الهوايات التي تستهوي عدداً كبيراً من سكان مصر للدرجة أن عدد الحمام المنزلي في مصر في العصر الروماني كان يفوق مرات عديدة عدد السكان^(٦). وقد كان الحمام من الطيور التي غالباً ما تظهر مع الأطفال؛ حيث يقومون بمداعبة هذا الحمام^(٧)؛ وإحاطته برعايتهم^(٨)، والحفاظ عليه، وإبعاده عن أي خطر^(٩)، ولم يكن الحمام من الطيور المفضلة للأطفال في حياتهم فقط بل كانوا يصورون مع هذا الحمام على شواهد القبور أيضاً^(١٠).

(١) Keller, Op. cit II, PP. 122- 131.

(٢) Aristoteles, Historia animalium IX, 7P. 612 b 33 ff, Aelianus, De Natura animalium III 5; X 33; Plinius, Historia Naturalis X 104.

(٣) Vergilius, Aenias V 213, 516; Martial, Spectacula III 58, 18.

(٤) Vergilius, Aenias VI 193; Ovidius, Metamorphoses XIV 597 f; Plutarchos, De Iside et Osiride 71.

(٥) Lindsay, Op. cit., P. 231 f.

(٦) I bid., P. 234.

(٧) Ruhfel, Op. cit., PP 230 f., Figs, 96- 97.

(٨) Ibid., P. 218, 222, 225 Pl. 92 a-b; P. 225, Fig. 94.

(٩) M. Bieber, The Sculpture of the Hellenistic age (1961), P. 137, Fig. 541; E. Kunzl, Frühellenistische Gruppen (1968), PP. 106 f., 134, 136 f; P. Zanker, Klassizistische statuen (1974), P. 73.

(١٠) E. Rohde, Griechische und römische Kunst in den staetichen=

ومن خلال ما تقدم نجد أن لعب الأطفال إنما ساهمت مساهمة قوية في تشكيل وجدان الأطفال، ورفع مستواهم الفكري والثقافي لما تقدمه لهم من أفكار وإرشادات للمعاني الجميلة في الحياة هذا فضلاً عن إثرائها لفكرهم الديني من خلال ارتباط الحيوانات والطيور -التي شكلت على هيئة لعب الأطفال- بالهبة ومعبودات كانت تسيطر على الحياة الدينية لاني مصر البطلمية والرومانية وحسب بل في العالم القديم الذي شمل حوض البحر المتوسط بأسره مما أنتج عنه تفاعلاً حضارياً واضحاً وملموماً بين شعوب هذا البحر موطن الحضارات القديمة.

=Museen zu Berlin (1968), P. 150;Fuchs, Op. cit., PP. 484 f. Fig. 568; R. Tolle- Kastenbeim, Fuhklassische Peplosfiguren (1980), PP. 89 f.

or architectural element . The obelisk, embedded with the triumphal spirit of the Catholic Church, is erected for all to see .

In conclusion, Obelisks became objects of interest and were used in architects' compositions, as early as the sixteenth century. Architects like Sangallo and Vignola used obelisks for their formal and decorative elements.

Sixtus's V plan of the reorganization of Rome based on a network of long avenues, used strategically placed obelisks to connect the main shrines of the city. The plan was a manifestation of the accomplished restoration of the Catholic Church, and to express the role of Rome as the dominant focus of the Catholic World. Obelisks in Sixtus's V plan used as nodes or vertical axis to terminate the horizontal extensions of the city. However, the Roman Church gave particular importance to the visual images as means of persuasion, and to make the glory of the Church visible, obelisks used as symbols to proclaim the victory of Christianity over Paganism. For instance, the four obelisks Sixtus re-erected were crowned with the heraldic motif of monticuli over which the symbol of the cross is superimposed.

In the fountain of the Four Rivers, Bernini placed the obelisk over a grotto. The dominance of the obelisk, the design of the grotto and the arrangement of the figures enhanced the plastic quality as well as the emotional impact of the composition, which departed it from traditional, static composition of fountains. In this fountain the obelisk has become a Baroque element and like other Baroque works it "concentrates on vivid images of situation, real and surreal, rather than on 'history' and 'absolute form' or as Decartes says 'The charm of fables awakens the mind' (Schulz, 1986, 10)". The obelisk, at this time has become a Christian symbol, having transformed from its original Egyptian roots. It is no longer just a decorative

parallel with four coats of arms facing outwards above the rocky corners of the mound (Fig. 20). The diagonal alignment of the obelisk was a bold Baroque solution, however, it was abandoned in favor of a more classical solution. The second design of Bernini shows the river-gods emerging from their grottoes in full length. They are set on top of the rocky mound, looking inward and upward, holding the papal coat of arms. Below water gushes into curving shells from which dolphins emerge. Most daring is the large opening below the obelisk (Fig. 21), and most likely the same design to be repeated on the other side as well (Avery, 1997, 194-7).

In rapid sketches Bernini shows the development of the central opening in the composition. At first it looks like a diagram in which the blocks of travertine marble would be laid horizontally in two piles, with one bridging the gap between them. A variety of sitting or reclining poses for the river-gods is also included (Fig. 22). In other sketches, the marble has diagonal slants which give it a more natural appearance and better sense of unity than the previous design and differentiates it from the rocky base of the obelisk above. Moreover, the arrangement and the gestures of river-gods created a complex of spatial relationship, which is a typical of Bernini's sculpture. He tended to avoid the static conception of sculpture that was dictated by the block of form. He used Mannerism tradition of using several blocks of stone in the same work to avoid the limitation imposed by a block of stone. Such manner allowed Bernini to wed his work with the surrounding space, to express energy and sense of ecstasy which distinguish Baroque sculpture from earlier periods.

about eighty palmi in height. It is crowned with a beautiful metal finial about ten palmi high upon which a gilded cross shines. Above rests a dove with an olive branch in its beak, the emblem of the Pamphili family. One marvels not a little to see the immense mass of the obelisk erected on a rock so hollowed out and divided and observe how-speaking in artistic terms-it seems to stand upon a void. The water falls in abundance; the sweet murmuring sounds and plenitude make it a thing of utility and delight to the commune (Enggass, 1970, 113-4).

The design of the fountain of the Four Rivers went through several stages. The first designs, as have been mentioned, was submitted by Algardi who represented the fountain with an allegorical figure of the River Tiber (Fig. 17). Boromini submitted his design which included the obelisk with the four rivers of the world (Fig. 18). Probably, Bernini got the idea of the four rivers from Boromini's design. However, other sources could be considered as well. For instance, the fountain of the Rock at the Villa de'Este in Tivoli (Fig. 19), where two artificial hillocks rest on four rocky piers and water oozes into a cavern cruciform in shape. The gush of water creates a vertical ascent equivalent to the shape of an obelisk. A second influence was the Villa Iante, Bagnaia where its fountain has four rivers-gods each with one hand raised to hold the Chigi coat of arms. The recumbent allegorical figures of river-gods could possibly be derived from the recumbent figures in the fountain of the Belvedere of the Vatican.

Bernini's design itself went through several stages as shown in different drawings. The earliest drawing show a half-length river-god emerging from a grotto in a rocky mound, with both arms raised to support the curling cartouches of coat of arms. The obelisk rests diagonally, it faces

Rome. In the very center, then, of the length and breadth of the great Piazza Navona is situated at ground level a step or bank, so to speak, which forms a great circle about 106 Roman palmi in diameter. About 10 palmi from the two extremities lies a great basin symbolizing, I believe, the sea, in the midst of which there rises up to a height of about 30 palmi a mass or, let us say, a grotto made of travertine. This mass is tunneled through so that from all four sides one can see through the other side of the piazza. By means of these openings the rock is divided into four parts, which are joined and united at the top. These four parts represent the four continents of the world. The sections, by broadening and jutting out in various craggy masses, provide places for four very imposing giant figures of white marble representing the four rivers. The Nile symbolizing Africa is the figure covering the upper part of his head with a cloth as an indication of the obscurity that long prevailed regarding the exact point from which it springs from the earth. Beside it is a very beautiful palm tree. The Danube, which represents Europe, is admiring the marvelous obelisk and has a lion nearby. The Ganges, which stands for Asia, holds a large oar indicating the great extent of its waters. A little below it is a horse. Finally, comes the Rio de la Plata for America. It is represented by a Moor, and next to it are some coins to show the wealth of minerals abounding in that country. Beneath the figure is a terrible monster commonly known as the Tatu of the Indies. Around all these river allegories water brought there from the Trevi Fountain gushes in great quantities. In the basin at the water line appear some large fish in the act of darting into the sea, all of them most beautiful. One fish on the side toward Piazza Orsini is seen swallowing the water that sustains its life, and having taken in too great a quantity, it blows out the excess—a truly brilliant concept.... The pedestal stands splendidly at the exact center of the rock's summit, about twenty-three palmi high. Upon it rests the great obelisk

his connection with previous Pope Urban XIII. However, Prince Nicolo Ludovici convinced the Pope to see Bernini's model of the fountain. When the Pope saw it, he immediately liked the work and ordered Bernini responsible for the fountain. Baldinucci in his *Vita del cavalier lorenzo Bernino* described this event by saying:

Upon seeing such a noble creation and a design for such a vast monument he was nearly ecstatic. Since he was a prince of the clearest intelligence and the loftiest thoughts, after spending half an hour or more around the model, continuously admiring and praising it, he burst out with the presence of the whole secret council with the following words: It will be necessary to make use of Bernini despite those who do not want his works, must not look at them (Enggass, 1970, 112).

Bernini in his model represented the four principal rivers of the world: The Nile for Africa, the Danube for Europe, the Gauges for Asia, and the Rio de la Plata for America. He arranged the four rivers in the accordance with the four sides of the fountain. Then he placed the obelisk over a grotto made of travertine from which water gush to give the illusion that the granite obelisk rested on air (Fig. 15 & 16).

Baldinnuchi described the fountain in his biography, but most importantly, he grasped Bernini's intention to dramatise the impact of the obelisk by creating an illusion that made it look as if it was resting on air while including the gushing of the water as part of the design.

But I do not want to pass too rapidly to other matters without first saying something about the fountain, which is counted among Bernini's most marvelous creations and which proved to be one of the most beautiful ornaments of the city of

Catholics, so as to confirm them in their faith, heretics, to reunite them to the Church and infidels, to enlighten them in the true faith (Schulz, 1986, 27-30).

Piazza Navona dates back to 86 A.D. It was a place that followed the outline of Emperor Domitian Stadium. In the Middle Ages, houses were built on Roman ruins but the shape of the square was kept, and used for popular games. Sixtus IV (1471-84) made the square a market place. Pope Innocent X decided to glorify his family, the Panphili, by reconstructing a new residential palace on the western side of the square, rebuilding the adjacent Church of St. Agnese as a family chapel, and enhancing the water supply. The space in Piazza Navona is narrow and long. Buildings around the square shared a general scale and colors and classical elements which created a sense of continuity. St. Agnese church has more complicated classical elements which created a hierarchical structure which dominated the others. Its facade is concave which creates a Baroque sense of space in the piazza, rather than having abstract geometrical quality as in Renaissance space (Fig. 14). The square was planned to have three fountains, one at each side and the fountain of the Four Rivers in the centre. The three fountains divided the space into four varied zones with human dimensions.

When Pope Innocent X decided to have a fountain in Piazza Navona, Alessandro Algardi submitted a design of the fountain with an allegorical figure of the River Tiber. However, when Innocent decided to incorporate the Egyptian obelisk brought to Rome by the Emperor Antonius Caracalla and had been long buried in Capo di Bove, Francesco Borromini submitted a design of the fountain including the obelisk with four river-gods. At that time Gian Lorenzo Bernini was disfavored by Pope X Innocent because of

Rome and set it up as a trophy of his victory over Cleopatra. Inscriptions added by Sixtus to proclaim that the triumph of Augustus and the pagan Empire had been surpassed and superseded by that of Christ, whose birth in the time of Augustus was commemorated by the great relic of Sta. Maria Maggiore

The very manger in which the Christ child had supposedly been laid, now centerpiece of Sixtus grand chapel. The iconography of the chapel's rich marble encrusted decoration is an elaborated agglomeration of narrative and emblematic elements. Its message is inscribed in a more condensed and emphatic version on the nearby obelisk or rather is imagined as proclaimed by the obelisk, speaking in the first person to the piazza, the radiating streets, and the city (Burroughs, 1994, 197).

Obelisks induced the development of the Roman squares. For instance, Piazza del Popolo, the main entry to the city, until the time of Sixtus V was simply a starting point of triple-streets but with the obelisk re-erected in 1589 it became a true urban center, and about the middle of the seventeenth century it was transformed into a Baroque Piazza (Fig. 12). In St. Peter's square, Fontana erected the Egyptian obelisk in 1586. The obelisk functioned as a node or a center in which all directions are unified by a longitudinal axis which leads to the church (Fig. 13). In 1667 Gian Lorenzo Bernini (1598-1680) managed to find a genuine solution to solve architecturally the relationship between the square and the cathedral by the colonnade. The colonnade, like the obelisk, had a symbolic basis as Bernini said in his own terms:

For since the church of St. Peter's is the mother of nearly all the others, it had to have colonnades which would show it as if stretching out its arm maternally to receive

activities. The two columns of Trajan and Marcus Arilius in Bordini's map were rededicated by Sixtus V. to St. Peter and St. Paul. These two columns had been long associated, especially, in Hapsburg emblems, with the pillars of Hercules that marked the opening of the Atlantic world. In the new lands, Europeans devised various ways to inscribe and legitimize their presence along the African coast. For instance, the Portuguese erected four-sided stone pillars *Padroes* marked with heraldic crests and religious symbols and carrying the symbol of the cross. The *Padroes* have navigational and symbolic significance reinforced with symbols abstracted from indigenous cultural landscape in the colonies associated with the saintly cults and providential ideology of Christianity.

Thus if Rome functioned as a microcosmic model for the wider world of Christianity, Sixtus's V obelisks perhaps echo the *Padroes* and with other markers erected by European voyagers and conquistadors on distant seas. In the same context, symbolically Madonna travelled with the voyagers, for instance, the first ship that reached America was Columbus's Sta. Maria and the first gold brought from the new world was put in the ceiling of Sta. Maria Maggiore. Furthermore, the Merian cult soon established overseas as part of world wide network of observances centered at the Madonna's great shrine in Rome. The obelisk in the rear of Sta. Maria Maggiore in Piazza Esquilina has a particular importance concerning the city-wide array of emblems. The obelisk closed the vista down the Strada Felice, the major street in Sixtus's V plan, and was aligned with other streets, notably via Panisperna, approaching from the heart of the city, and with the portal of the villa Montalto on Piazza Esquilina. The ancient inscriptions on its base referred to the Emperor Augustus, who had originally brought the obelisk to

reverence of Sixtus V. Before his pontification in 1585, he built his residence "Villa Montalto" in a thinly populated area adjacent to the Church of Sta. Maria Maggiore. The choice of the location of the Villa Montalto in relation to Sta. Maria Maggiore is related to the veneration of sacred mountains in the Franciscan order to which Sixtus V belonged. Villa Montalto, therefore, also became included in the heraldic motif of Sixtus V in which a group of three stylized hills *Monticuli* are surmounted by a star. The *Monticuli* device is surmounted by the four obelisk Sixtus V erected in Rome (Fig. 11).

In Bordini's map the *Monticuli* motif marks the element *monti* (mountain) in the names of the churches of St. Trinita dei Monti, and the Madona dei Monti. Thus, the *Monticuli* device affirms the association of Sixtus with the district containing both the Villa Montalto plus the Magnificent funerary chapel with the prominent dome that he constructed adjacent to the church of St. Maria Maggiore (Burroughs, 1994, 193).

Therefore, the *monticuli* in Bordini's map is considered to be the core of the reformed symbolic topography of the entire city. Moreover, the star in Bordini's map is not a real representation of the straight roads of the city, but is a symbolic representation of Sta. Maria:

The star in Bordini's is a symbolic figuration saturating the lofty terrain of Monti with the presence of the Virgin in her familiar manifestation as Stella Maris and Stella Mututina (Burroughs, 1994, 193).

As in ancient Rome, expansion of the imperial boundaries was celebrated by an expansion of the city, so Sixtus's V conception of a new, greater Rome was implemented by vastly expanding the realm of church

straight streets in many places. Thus one can by foot, by horse, or in a carriage, starting from whatever place in Rome one may wish, and continue virtually in a straight line the most famous devotions....Now at a truly incredible cost, and in conformity with the spirit of so great a prince (Sixtus), has extended these streets from one end of the city to the other, without concern for either the hills or the valleys which they crossed: but, causing the former to be leveled and the latter filled, has reduced them to most gentle plains, and charming sites, revealing in several places which they pass, the lowest portions of the city with various and diverse perspectives; so that, aside from the devotions, they also nourish with their charm the senses of the body (Giedion, 1982, 93)

Fontana shows that the plan served as means of persuasion, to manifest the religious experience as much as possible, by making a systematic visit to the holy places by the faithful easy and possible. The whole city was imbued with religious values which made it a real "Città Santa" or a "single holy shrine" (Schulz, 1986, 11).

Two visual documents represent Sixtus's V plan of Rome. The first is a schematic map by Gian Francesco Bordini, published in a short encomiastic book in 1588 (Fig. 9). The second is a frescoed panorama of the city, elaborating the wall of the new Vatican library (Fig. 10). While Bordini's is conceptual, the Vatican panorama is an aerial perspective of the city. However, both indicate the coherence and the scale of the new plan and both "are, indeed, icons of reformed totality" (Burroughs, 1994, 190).

Bordini's map has a special emblematic significance. The major shrines have been indicated by symbols, while secular monuments are represented iconographically in a star-like shape centered by Sta. Maria Maggiore Church. Sta. Maria Maggiore was an early object of the

Amun in the Karnak to Alexandria by Constantine the Great. After his death, it was transported to Rome by his son Constintus in 357. Fontana was called upon again and it was successfully erected before S. Giovanni in Laterano in 1588. The obelisk in Piazza del Popolo was the last one Fontana re-erected in 1589. It was the first obelisk brought from Egypt to Rome, and its fragments were found in Circus Maximus (Clayton, 1986,11).

In general, the new plan gave a coherence to the city and a different conception of space which rather fitted the Baroque conception of the city which was based on expansion of space beyond the traditional borders of the city. It differed from the Renaissance city with its static nature and its enclosed space. The plan of Sixtus V (Fig. 8) was a plan of spaces rather than a distribution of buildings, configured on horizontal expansion marked with a vertical axis. Schulz explained this conception by saying:

The ... plan organizes extensions in relation to foci, among which one is usually dominant. All these foci represent a termination to the horizontal movement, they should be defined by means of a vertical axis. Sixtus V and Domenico Fontana were conscious of this basic spatial problem, and used Egyptian obelisks found among the Roman ruins to mark the nodes of their system (Schulz, 1986, 12).

There is an ecclesiastical impulse for Sixtus's V plan. The connection of roads with the shrines of the city, reflect the implementation of counter Reformation ideas and the newly awakened vitality of the church. Fontana expressed the real intention of the plan he carried out by saying:

Our lord, now wishing to ease the way for those who, prompted by devotion or by vows, are accustomed to visit frequently the most holy places of the city of Rome, and in particular the seven churches so celebrated for their great indulgences and relics: opened many most commodious and

The influence of Vignola is seen in the church of S. Maria degli Angeli in Milan by Antonio Barca ca. (1600), in which two obelisks are erected on each side of the upper storey of the facade (Fig. 7).

The Egyptian obelisk acquired a new symbolic meaning in a proposed plan of Pope Sixtus V (1585 – 1590) to replan Rome. The Pope decided to connect the holy shrines by means of wide straight roads and the re-erection of four obelisks in front of the major shrines to terminate long urban vistas so as to give visual prominence to sacred places, and to elaborate the triumph of the Roman church. The plan also included, new fountains to supply the new areas with water. However, the idea of re-erecting the Egyptian obelisks in Roman piazzas was not the original idea of Sixtus V. The issue was first addressed by Pope Nicholas V (1447-55) who asked Alberti the Vatican obelisk. Alberti suggested the obelisk be moved from the side of the old basilica of St Peter to the front of the new one. But the operation faced a complexity of problems: first, finding the technology which would have to be used to move the obelisk, and second, determining the precise axis of the unfinished new church of St. Peter. Therefore, the project was never executed. But with the tremendous technical skill of Domenico Fontana, Pope Sixtus V managed to re-erect the Vatican obelisk, in its present location in St. Peter's square.

After Fontana succeeded in re-erecting the obelisk of St. Peter, Sixtus V obsessed with the re-erection of the Esquiline obelisk, one of a pair of obelisks standing before the mausoleum of Augustus, which Fontana managed to raise in 1587. Sixtus V next turned to the obelisk which used to be in Circus Maximus. This obelisk had been brought from the temple of

vertical line of the design since there is no crucial need for such a motif in the main design of the church (Fig. 2).

The Obelisk motif was moved from Rome to Venice by Jacopo Sansovino who was among the architects in the Bramanté circle. After the sack of Rome, in 1527 he left to Venice seeking work opportunity. In the 1530's he became the most famous architect of the city. In his design of St. Mark library (1536-66) Sansovino used obelisks in the corners of the upper storey of the library in order to emphasize the vertical line of the design and to strengthen the corners (Fig. 3).

Sebastian Serlio in his treatise *L'Architecture or the Five Books of Architecture*, found in book V, the design of a central plan church in which a large obelisk is set in each corner and takes the same height of the pediment (Fig. 4). In the text he referred to the obelisk as an excellent ornament (Wittkower, 1989, 65). Also in book III there is a drawing of four obelisks which could be identified as the obelisks which stand in the Piazzas; del Popolo, St. Peter, St. Maria Maggiore, and Navona (Fig. 5).

Late in of the sixteenth century the obelisk became a more important element in architectural design. In comparison with earlier examples of Sangallo and the later sixteenth century example of the church of St. Maria dell'Orto, Rome, (1566-7) by Giacomo de Vignola, the obelisk in St. Maria dell'Orto facade had become a very important feature and made a considerable impact on the character of the design. The use of the obelisk make the facade a unique example among the Roman churches (Fig 6).

was shipped by Emperor Constantius in 357, which can still be seen in the Piazza of St. Giovanni in Laterano.

When the first obelisk reached Rome, the cult of Isis and Serapis already had a long and firm establishment in Italy. As Rome fell into decay so did the obelisks, and most of the obelisks shared the fate of Rome, therefore, many obelisks were broken or toppled and buried in the ruins of the city. However, in the sixteenth century the interest in Egyptian obelisks was revived. At that time in Rome the Vatican obelisk was the only one which had escaped being toppled as a pagan symbol because of its Christian association. In fact, it was considered to be a witness of St. Peter's and other Christians martyrdom in the Vatican square. Originally, Augustus had placed this obelisk in the forum of Julia in Alexandria, but Caligula had the forum demolished, and ordered the Egyptian obelisk to be brought to Rome where it was reerected in 37 A.D. (Clayton, 1982, 11).

Obelisks in general attracted European artists for its striking vertical shape and enigmatic hieroglyphic symbols. An early examples of using obelisks in architecture appeared in the design of St. Maria di Loreto (1520-5) in Rome by Antonio da Sangallo (the elder). In its design Sangallo used the hybrid obelisk-pyramid as a decorative device which appears in the corner over the cornice (Fig. 1). Another example of Sangallo's use of the obelisk is in the church of the Madonna de Biago (1518-1545). The church has a central plan design, with the obelisk motif superimposed over the corners of the third tier of the tower. Most likely it was used to emphasize the

THE ROLE OF THE EGYPTIAN OBELISK IN RENAISSANCE AND BAROQUE ROME

Dr. Abdel-Mohsen Mito¹

This paper is concerned with studying the role that the Egyptian obelisk had in architectural decoration and in urban organization in Rome during the sixteenth and the seventeenth century. This period represents an era of interest in Egyptian items that began with the Greeks and continues until the present times. However, this study does not inventory all the examples of obelisk. Instead, it deals with some examples to prove that the development occurred in the implementation of the obelisk motif, especially, in the seventeenth century Rome, where the obelisk became part of the symbolic array of the city of Rome, rather than just a decorative architectural motif.

Roman interest in Egyptian items dates back to the late first century B.C. after the battle of Actium in 31 B.C. when Egypt became a part of the Roman Empire. Items such as sphinxes, obelisks, and pyramids became the focus of immediate interest and admiration. Original sphinxes and obelisks were shipped to Rome as trophies of victory. Augustus brought back to Rome at least six obelisks as trophies of his victory. Eventually, Rome had more than forty two obelisks, twelve of which still survive. The last obelisk

¹ Dr. Abdel Mohsen Mito. Assistant Professor of Art History. Faculty of Fine Arts. Alexandria University.